



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



ارسلنا
عليكم يا صابغ
الرماد

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

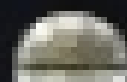
ذُرِّيَّةُ تَارِيخِنَا
مِن
الْمَقَرِّ وَالْمَكْرَمِ

(٢)

فِي مَصْرٍ

رَكْتَوْر
بِسْتَنْبُولِ عُرْنِ

دارالبيروت العلمية
بيروت - لبنان
الطبعة الأولى: ١٩٨٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دراسات تاريخية من القرآن الكريم

كاتب:

محمد بيومي مهران

نشرت في الطباعة:

دار النهضة العربية

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
9	دراسات تاريخية من القرآن الكريم- المجلد 2
9	هوية الكتاب
9	اشارة
13	[الجزء الثاني]
13	تقديم
15	الكتاب الأول دراسات تمهيدية
15	اشارة
17	الفصل الأول النبوة والأنبياء
17	1- النبي و النبوة:
21	2- الفرق بين النبي و الرسول:
26	3- نبوة المرأة:
29	4- وظائف الرسل:
34	[5] وحدة الهدف في دعوات الرسل:
45	الكتاب الثاني سيرة يوسف عليه السلام
45	اشارة
47	الفصل الأول يوسف فيما قبل الوزارة
47	[1] يوسف و أخوته في كنعان:
56	[2] يوسف و امرأة العزيز:-
64	[3] يوسف في السجن:-
73	الفصل الثاني يوسف عزيز مصر
73	[1] يوسف العزيز:-
82	[2] يوسف و إخوته في مصر:-

91	[3] استقرار بني إسرائيل في أرض جوشن:-
107	[4] عصر يوسف عليه السلام:-
107	اشارة
108	[1] الرأي الأول:
114	(ب) الرأي الثاني:
117	الفصل الثالث قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة
117	1- تمهيد:-
120	[2] قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة:-
141	الكتاب الثالث سيرة موسى عليه السلام
141	اشارة
143	الباب الأول موسى من المولد إلى المبعث
143	اشارة
145	الفصل الأول بنو إسرائيل في مصر
145	(أ) فيما قبل الاضطهاد:-
148	(ب) الاضطهاد- أسبابه و نتائجه:
171	الفصل الثاني موسى من المولد إلى المبعث
171	[1] موسى في قصر فرعون:
182	[2] موسى في مدين:-
189	الفصل الثالث موسى الرسول النبي
189	[1] المبعث:-
194	[2] بني موسى و فرعون:-
222	[3] ألوهية الفرعون المزعومة:-
222	اشارة
223	فما قصة ألوهية فرعون هذه:
232	الباب الثاني خروج بني إسرائيل من مصر

232 اشارة
234 الفصل الأول الخروج - أسبابه و تاريخه و مكانه
234 [1] أسباب الخروج:
240 [2] تاريخ الخروج:-
246 [3] مكان الخروج و بدايته:
250 الفصل الثاني معجزة انغلاق البحر
250 اشارة
254 [1] مكان انغلاق البحر:-
259 [2] تاريخ انغلاق البحر:-
261 [3] معجزة انغلاق البحر:-
268 [4] إيمان فرعون عند الغرق:-
272 الفصل الثالث فرعون موسى
272 اشارة
273 [1] الرأي الأول: فرعون موسى هو أحمس الأول:-
284 [2] الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى:-
295 [3] توت عنخ آمون: هو فرعون موسى:-
311 [4] رعمسيس الثاني: هو فرعون موسى:-
317 [5] مرنبتاح: هو فرعون موسى:-
338 [6] آراء أخرى:-
339 [7] صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل:-
342 الباب الثالث موسى و بني إسرائيل منذ انغلاق البحر و حتى موت موسى عليه السلام
342 اشارة
344 الفصل الأول بنو إسرائيل في سيناء
344 [1] محاولة الردة الأولى و عبادة الأصنام:-
352 [2] التمرد الإسرائيلي بسبب الماء و الطعام:-

356	[3] بنو إسرائيل و العماليق:-
357	[4] الردة و عبادة العجل في سيناء:-
371	[5] طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة:
376	الفصل الثاني بنو إسرائيل في التيه
376	[1] ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل:-
378	[2] الخوف من دخول كنعان:-
383	[3] التيه:-
387	[4] عودة التمرد ضد موسى:-
389	[5] بنو إسرائيل على تخوم كنعان:-
396	الباب الرابع قضايا من سيرة موسى عليه السلام
396	اشارة
398	الفصل الأول موسى بين الأصل الإسرائيلي و المصري
416	الفصل الثاني الوجود التاريخي لموسى عليه السلام
424	الفصل الثالث موت موسى عليه السلام
434	الفصل الرابع مكانة موسى في التاريخ اليهودي
434	[1] مكانة موسى عند المسلمين:-
437	[2] مكانة موسى في التاريخ اليهودي:-
440	الباب الخامس قصة موسى بين آيات القرآن و روايات التوراة
458	فهرس
464	تعريف مركز

دراسات تاريخية من القرآن الكريم - المجلد 2

هوية الكتاب

بطاقة تعريف: مهراڻ محمدبيومي

عنوان واسم المؤلف: دراساٲ تاريخية من القرآن الكريم محمدبيومي مهراڻ

تفاصيل المنشور: بيروت : دارالنهضة العربية ، ق 1408 = م. 1988 = 1367.

خصائص المظهر: ج 4

حالة الاستماع: القائمة السابقة

ملحوظة : كتابناه مندرجات : ج 1. بلاد العرب -- ج 2. مصر -- ج 3. في بلاد الشام -- ج 4. في العراق

موضوع : قرآن -- قصه ها

ترتيب الكونجرس: 1367 4د86/BP88

رقم الببليوغرافيا الوطنية: م 81-8979

ص: 1

اشارة

حقوق الطبع محفوظة الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بروت - ص.ب. ١١٠٧٤٩

الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا بناية

كريدية، تلفون: 303816

309830/ 312213

برقياً: دانهضة، ص.ب. ٧٤٩-١١

تلکس: NAHDA 40290 LE

LE 29354

المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣ غربي الجامعة العربية،

تلفون: ٣١٦٢٠٢

المستودع: بشر حسن، تلفون: 833180

ص: 2

بسم الله الرحمن الرحيم و الصّلاة و السّلام عليه المبعوث رحمه للعالمين سيّدنا محمّد وآله تحدّثنا في الجزء الأول من هذه الدراسة عن النبوات في بلاد العرب، و من ثم فقد قدمنا دراسة تاريخية عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصّلاة و السّلام و كذا عن هود و صالح و شعيب عليهم السّلام، هذا إلى جانب دراسة أحداث تاريخية جاء ذكرها في القرآن الكريم، كقصة سيل العرم و أصحاب الأخدود و أصحاب الفيل.

و قد خصصنا هذا الجزء الثاني من هذه السلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» لدراسة تاريخ النبوات في أرض الكنانة.

و قد قدمنا له بدراسة عن النبوة و الأنبياء، ثم قدمنا بعد ذلك دراسة مفصلة عن تاريخ النبيين الكريمين يوسف و موسى عليهما السّلام، فضلا عن تاريخ بني إسرائيل في مصر.

و أملي في الله تعالى كبير أن يكون فيها بعض النفع، و الله من وراء

القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

«و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

دكتور محمد بيومي مهران استاذ تاريخ مصر و الشرق القديم و رئيس قسم التاريخ و الآثار المصريّة و الاسلاميّة كآية الآداب. جامعة الإسكندرية الإسكندرية في 12 ربيع الأول عام 1408 هـ 4 نوفمبر عام 1987 م

ص: 6

1- النبي و النبوة:

النبيّ: لغة قيل المنبأ المأخوذ من النبأ، أي الخبر المفيد لماله شأن، و يصح فيه معنى الفاعل و المفعول، لأنه منبئ عن الله و منبأ عنه، و إن كان الإمام ابن تيمية يفضل أن يكون بمعنى مفعول، فإنه إذا أنبأ الله، فهو نبي الله (1)، و النبي بالتشديد أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة فيه ياء، لأنه من أنبأ عن الله فهو ينبي عنه، و الاسم منه منبئ، أو هو من النبوة، و هي الرفعة و الشرف (2).

و تجمع كلمة «نبي» على «نبيين و أنبياء» (3)، و قد حكى سماعاً عن العرب في جمع النبي «النبأ»، و ذلك من لغة الذين يهمزون «النبي ء»، ثم يجمعونه على «النبأ»، و من ذلك قول عباس بن مرداس في مدح النبي (صلى الله عليه و سلم).

ص: 9

1- ابن تيمية: النبوات- القاهرة 1346 هـ ص 166، و انظر: ابن حزم: الفصل في الملل و الأهواء و النحل- الجزء الخامس، القاهرة 1964 ص 87.

2- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي- القاهرة 1955 ص 37، تفسير الطبري 2/140-141، محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة 1970 ص 9، معجم ياقوت الحموي 5/259-360 (بيروت 1957).

3- انظر: سورة البقرة: آية 61، آل عمران: آية 112، تفسير الطبري 2/139-141، 7/116-118 (دار المعارف).

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالخير كل هدى السبيل هداكا (1)

و النبوة فضل يسبغه الله على من يشاء من عباده، وهبة ربانية يمنحها الله لمن يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد والتعب، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، فالله تعالى، يختص برحمته من يشاء، وهي تأتي إلى النبي من تلقاء نفسها، و على غير توقع منه، فهي إذن اصطفاء واختيار من الله سبحانه وتعالى للمصطفين الأخيار من عباده (2)، و «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (3)، و من ثم فإن الله تعالى إنما يختص بهذه الرحمة العظيمة، و المنقبة الكريمة، من كان أهلاً لها، بما أهله هو، جل شأنه، من سلامة الفطرة، و علو الهمة، و زكاة النفس و طهارة القلب، و حب الخير و الحق.

هذا، و ليس صحيحاً ما ذهب إليه «سيجال» من أن كلمة «نبي» عبرية الأصل، و أن لفظ «النبي» (4) إنما كان خاصاً ببني إسرائيل، ذلك لأنه، فيما يرى سيجال هذا، ليست هناك نقوش تثبت وجوده في اللغة الكنعانية و الفينيقية، ثم إن الفعل «نبأ» الذي اشتق منه الاسم «نبي» لا يوجد في عبرية العهد القديم في صورته الأساسية، أي في الثلاثي المجرد، و أن الفعل الذي جاء للدلالة على عمل النبي في العهد القديم (التوراة) إنما جاء في الصيغ المزيده على زنة «فعل» و «تفعل»، و هي في الحقيقة صيغ مشتقة من الاسم

ص: 10

1- انظر: تفسير الطبري 2/ 141، سيرة ابن هشام 4/ 103، ثم قارن: تفسير البحر المحيط 1/ 220، ياقوت 5/ 259-260.

2- تفسير المنار 8/ 33-34، محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء، بيروت 1980 ص 9-10.

3- سورة الأنعام: آية 124.

4- انظر تعريفات مختلفة للفظ النبي عند بني إسرائيل و عند علماء اللاهوت الأوربيين (محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل - الإسكندرية 1978 ص 25-30).

«نبي» نفسه، وهذه الحقيقة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الاسم «نبي» قديم جدا في العبرية الإسرائيلية، وأنه يصعد إلى ما قبل التاريخ من حياة بني إسرائيل، ولما كان هذا الاسم يميز عمادا حيا وفعالاً لا في حياة الأمة، فإنه حفظ منذ تلك الحقب السحيقة، بعد أن نسي الفعل المجرد «نبا» الذي اشتق منه، مع توالي العصور، وانتهى أمره واختفى من اللغة (1).

وفي الواقع، فإن كلمة «نبي» ليست عبرية الأصل، كما يقول أدولف لودز (2)، ومن ثم فإن علماء اللاهوت الأوروبيين وغيرهم، من أمثال جوستاف هولشر (3)، وشميدت، و لودز (4)، و كلود سوربري (5)، إنما يتفقون على أن كلمة «نبي»، عربية، وليست عبرية، في شكلها ومعناها، وأن أصل الكلمة سامي قديم موجود في الأكديّة بمعنى «يدعو» (6) (ulaN).

غير أن الأمر، كما يقول الأستاذ العقاد (7)، طيب الله ثراه، غني عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين، من يفقه منهم اللغة العربية، ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات، فإن وفرة الكلمات التي لا تلتبس بمعنى «النبوة» في اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائي والنبوي، و تاريخ النبوات العربية التي وردت

ص: 11

-
- 1- م. ص. سيجال: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل - ترجمة الدكتور حسن ظاظا- بيروت 1967 ص 17- 18.
 - 2- .yrtneC thgiE eht fo elddim eht ot sgninnigeB eht morF,learsI ,sdoL .A 445. p, 1962,.
 - 3- .gizpieL ,laersI ethcihseG noigileR nuZ gnuhcusretnU ,netforP eiD ,rehcsloH .G 46- 145. p, 1914,.
 - 4- .nodnoL, msiaduJ fo esiR eht dna stehporP ehT, sdoL. A 1937 ,
 - 5- .SENJ ni ,ycehporP fo tnempoleveD eht ni ydutsA ,learsI ni nam yloH ehT ,ierluaS .C 216. p, 1947, 6.
 - 6- .notecnrP, yrotsiH eht ni tsaE raen ehT, ittiH. K. P 107. p, 1961 ,.
 - 7- عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام و أباطيل خصومه- بيروت 1966 ص 91- 92.

في التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبي بدلا كلمة الرائي و الناظر، و تلمذة موسى لنبي شعيب مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات الإسرائيلية، و موسى الكليم، و لا ريب، رائد النبوة الكبرى بين بني إسرائيل.

ثم إن كلمة «النبي» عربية لفظا و معنى، عربية لفظا، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعها كلمة واحدة في اللغات الأخرى، فهي تجمع معاني الكشف و الوحي و الإنباء بالغيب و الإنذار و التبشير، و هي معاني متفرقة تؤديها في اللغات الحديثة بكلمات متعددة، فالكشف مثلا تؤديه في اللغة الإنجليزية كلمة (noitaleveR)، و الوحي تؤديه كلمة (noitaripsnI) و استطلاع الغيب تؤديه كلمة (noitaniviD) أو (clcarO) و لا تجتمع كلها في معنى «النبوة» كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية.

وقد وجدت كلمة «النبوة» في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر، لأن اللغة العربية غنية بكلمات العرافة و العيافة و الكهانة و ما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة، كما تلتبس في الألسنة الأخرى عن أصل التسمية و اشتقاق المعاني الجديدة عن الألفاظ القديمة، فكلمة «النبي» تدل على معنى واحد لا تدل على غيره، خلافا لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات.

وقد استعار العبريون كلمة «النبي» من العرب في شمال شبه الجزيرة العربية بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء، و كانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي أو الناظر، و لم يفهموا من كلمة «النبوة» في مبدأ الأمر، إلا معنى الإنذار (1) و أما كلمة (tehpORP) الإنجليزية و كلمة (etehporP) الفرنسية، و كلمة (neteforP) الألمانية و غيرها، فإنها منقولة عن اليونانية القديمة، ذلك أن

ص: 12

1- عباس العقاد: إبراهيم أو الأنبياء ص 159.

الأمم التي كانت تشيع فيها نبوة الجذب، يكثر أن يكون مع المجذوب، مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه و لحن رموزه وإشارات، وقد كانوا من اليونان يسمون المجذوب «ماتي» (itnam) و يسمون المفسر (بروفيت tēporP) أي المتكلم عن غيره، و من هذه الكلمة نقل الأرويون كلمة «النبوة» بجميع معانيها (1).

2- الفرق بين النبي و الرسول:

هذا ويفرق العلماء بين النبي و الرسول، اعتمادا على عدة أمور، منها ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول في قوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (2)، و منها وصف الله بعض رسله بالنبوة و الرسالة، مما يدل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة، كقوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (3)، و كقوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (4)، و منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن النبي (ص) أن عدة الأنبياء مائة و أربعة و عشرون ألف نبي، و عدة الرسل ثلاثمائة و بضعة عشر رسولا.

و من هنا ذهب فريق من العلماء إلى أن النبي هو من أوحى إليه بشرع، سواء أمر بتبليغه أو لم يؤمر، و الرسول هو من أوحى إليه بشرع و أمر بتبليغه (5)، قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا آيَةً،

ص: 13

1- عباس العقاد، حقائق الإسلام و أباطيل خصومه ص 90.

2- سورة الحج: آية 52.

3- سورة مريم: آية 51.

4- سورة مريم: آية 54.

5- تفسير القرطبي ص 4472، الإمام الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت 1971 ص 167، الديار بكري: تاريخ الخميس ص 7، محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 9.

و يرى الإمام ابن تيمية أن الله في قوله: مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ قد ذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمر بتبليغ رسالته إلى من خالف الله، كنوح عليه السلام، والذي ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس، وقبلهما آدم كان نبيا مكلما (1).

على أن العقل، فيما يرى الشرقاوي، لا يستسيغ أن يوحي الله العلي القدير إلى نبي بشرع ثم لا يأمره بتبليغه، لأن الشرع أمانة وعلم وأداء واجب، و كتمان العلم نقص و رذيله (2)، ثم إن الله لا ينزل وحيه ليكتفم و يدفن في صدر واحد من الناس، ثم يموت هذا العلم بموته، هذا فضلا عن الحديث الشريف الذي رواه البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي، و الذي يقول فيه (ص) «عرضت على الأمم فرأيت النبي و معه الرهط، و النبي و معه الرجل و الرجلان و النبي و ليس معه أحد»، فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ، و أنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم (3).

على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن الرسول من أوحى إليه بشرع، و أنزل عليه كتاب، كإبراهيم و موسى. و داود و عيسى و محمد، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، و النبي الذي ليس برسول هو من أوحى إليه بشرع، و لم ينزل عليه كتاب، كإسماعيل و شعيب و يونس و لوط و زكريا و غيرهم من الأنبياء، و هذا التعريف لا يستقيم أيضا لأن الله سبحانه و تعالى قد وصف بعض الأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب بالرسالة (4)، فقال عن إسماعيل عليه السلام. «و اذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد

ص: 14

1- ابن تيمية: كتاب النبوات ص 173.

2- محمود الشرقاوي: المرجع السابق 9-10.

3- عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص 14-15.

4- محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 10.

و كان رسولا نبيا» (1)، وقال تعالى عن لوط عليه السلام: وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (2)، وقال تعالى عن يونس: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3).

و هناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أن الرسول من الأنبياء إنما هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه، أما النبي الذي ليس برسول، فهو من بعث لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، و من ثم فقد قيل إن كل رسول نبي، و ليس كل نبي رسولا (4).

غير أن الإمام ابن تيمية إنما يرى أنه ليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولا، و كان على ملة إبراهيم، و داود و سليمان كانا رسولين، و كانا على شريعة التوراة (5)، قال تعالى، عن مؤمن آل فرعون: وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلُوبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا (6).

هذا و يذهب فريق رابع من العلماء إلى أن الرسول إنها يختلف عن النبي، لأن اختلاف الأسماء إنما يدل على اختلاف المسميات، و الرسول أعلى منزلة من النبي، و لذلك سميت الملائكة رسلا، و لم يسموا أنبياء، هذا و قد اختلف من قال بهذا في الفرق بينهما على ثلاثة أقاويل، أحدهما: أن الرسول هو الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، و النبي هو الذي يوحى إليه في

ص: 15

-
- 1- سورة مريم: آية 54.
 - 2- سورة الصافات: آية 133.
 - 3- سورة الصافات: آية 139.
 - 4- تفسير البيضاوي 2/ 95-96، تفسير القرطبي ص 4472، الإمام الطحاوي: المرجع السابق ص 167، عبد الحلیم محمود: في رحاب الأنبياء و الرسل - القاهرة 1977 ص 42، تفسير المنار 9/ 194-195.
 - 5- ابن تيمية: المرجع السابق ص 173.
 - 6- سورة غافر: آية 34.

نومه، والثاني أن الرسول هو المبعوث إلى أمة، والنبى هو المحدث الذي لا يبعث إلى أمة، والثالث أن الرسول المبتدئ بوضع الشرائع و الأحكام، والنبى هو الذي يحفظ شريعة غيره (1).

و من هنا يذهب الإمام الطحاوي في العقيدة (ص 167) إلى أن الرسول أخص من النبى، وأن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

و أما عدد الأنبياء و الرسل، فعلم ذلك عند ربي جل جلاله، و لكننا نعرف من القرآن الكريم أسماء خمسة و عشرين من هؤلاء المصطفين الأختيار (2)، و نعلم كذلك أنه ما من أمة إلا و جاءها رسول من عند الله العلي القدير، فلقد اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم، قبل هذه الأمة، أن يرسل في كل منها نذيرا، و لم يرسل رسولا للبشرية كلها، إلا سيدنا محمد (ص)، و اقتضى عدله ألا يعذب أحدا من الخلق، إلا بعد أن تقوم عليه الحجة (3)، قال تعالى: **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (4)**، و من هنا كثر الأنبياء و الرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة، قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا**

ص: 16

1- أبو الحسن الماوردي: المرجع السابق ص 38.

2- هم آدم و إدريس و نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و يوسف و أيوب و شعيب و موسى و هارون و يونس و داود و سليمان و إلياس و السبع و زكريا و يحيى و عيسى، و كذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، و سيدهم محمد (ص)، و في حديث أبي ذر، منهم أربعة من العرب: هود و صالح و شعيب و محمد (ص) (انظر تفسير ابن كثير 422/2، تفسير البيضاوي 312/2).

3- عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص 17.

4- سورة الإسراء: آية 15.

فيها نذير (1)، وقال تعالى: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (2)، وقال تعالى: مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (3)، وقال تعالى: رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (4).

و من هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء، عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، و من قائل إنهم ثمانية آلاف، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس، و من قائل إنهم أربعة آلاف، و من قائل إنهم، ثلاثة آلاف، و أن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم وآخرهم محمد (ص) (5).

و على أية حال، فليس من المستحب، فيما أظن، و ليس كل الظن إنما، الخوض في إحصاء الرسل و الأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحى من الله تعالى، و لم يبين الله ذلك في كتابه (6)، غير أن هناك حديث أبي ذر المشهور، و الذي جاء فيه أنه دخل المسجد النبوي الشريف، فإذا رسول الله (ص) جالس وحده، فسأله عن أشياء كثيرة، منها الصلاة و الهجرة و الصيام و الصدقة، ثم سأله: كم الأنبياء؟ فقال: مائة ألف و أربعة وعشرون، قال:

قلت يا رسول الله كم الرسل عن ذلك؟ قال: ثلاثمائة و ثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب، قال قلت: فمن كان أولهم، قال آدم، قلت: أنبي مرسل؟ قال

ص: 17

1- سورة فاطر: آية 24.

2- سورة الزخرف: آية 6.

3- سورة غافر: آية 78.

4- سورة النساء: آية 164.

5- تفسير ابن كثير 2/ 422-428 (القاهرة 1971)، تفسير القرطبي ص 2014-2015 (دار الشعب- القاهرة 1970) تفسير المنار 7/ 500-507، تفسير روح المعاني 24/ 88-89، مجمع الزوائد 8/ 210، ابن قتيبة: المعارف، القاهرة 1934 ص 26، أبو الحسن الماوردي: المرجع السابق ص 52.

6- محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص 24.

نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسواه قبيلًا» (1).

3- نبوة المرأة:

من المعروف أن النبوة في الإسلام إنما هي مقصورة على الرجال دون النساء، لقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» (2)، وهكذا استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، وأما النساء فليس فيهن نبية أبداً (3)، والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء، أن النبوة عبء ثقيل، وتكليف شاق لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة و مصابرة، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم، وابتلوا ابتلاء شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله تعالى (4)، يقول الله تعالى لنبية الكريمة: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ» (5).

غير أن الإمام ابن حزم إنما يتجه إلى أن آية النحل «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا»، إنما تعني الرسل دون الأنبياء، ومن ثم فلم يدع أحد أن الله تعالى قد أرسل امرأة، وأما النبوة، وهي لفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله، عز وجل، بما يكون قبل أن يكون، أو أوحى إليه

ص: 18

-
- 1- تفسير ابن كثير 2/ 422-426، وانظر: مسند الإمام أحمد 5/ 265-266، تفسير روح المعاني 24/ 88. مجمع الزوائد 8/ 210، مشكاة المصابيح 3/ 122، تفسير النسفي 1/ 263-264.
 - 2- سورة النحل: آية 43، يوسف: آية 109 وانظر: تفسير الطبري 14/ 108-109، تفسير روح المعاني 14/ 147-148، تفسير الطبرسي 14/ 75-78.
 - 3- لم تكن النبوة الإسرائيلية مقصورة على الرجال دون النساء، فلقد تنبأت المرأة، كما تنبأ الرجال، ومن ذلك: مريم، أخت هارون و موسى (خروج 15/ 20) ودبورة (قضاة 4/ 4) وحنة أم صموئيل النبي (صموئيل أول 1/ 2) وخلدة امرأة شلوم بن تقوة (ملوك ثان 22/ 14) وحنة بنت فتونيل (لوقا 2/ 26) وبنات فيلبس العذارى الأربع (أعمال الرسل 9/ 21)، كما كانت زوجات الأنبياء يدعون أحياناً نبيات (إشعيا 3/ 8).
 - 4- محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء ص 10، صفوة التفاسير 2/ 129.
 - 5- سورة الأحقاف: آية 35.

منبأ بأمر ما، فهو نبي بلا شك، فأمرها مختلف، وقد جاء في القرآن الكريم بأن الله قد أرسل ملائكة إلى نساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، كما حدث مع أم إسحاق و أم موسى و أم المسيح، عليهم السلام (1).

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة، يقول تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ، وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَسَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (2)**، فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحاق، ثم يعقوب، ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي (3).

هذا فضلا عن أن الله تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم المسيح، عليهم السلام، يقول لها: «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا» (4)، فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وليس قوله عز وجل: **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (5)**. يمانع أن تكون نبيه، فقد قال الله تعالى:

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ (6).

وهو مع ذلك رسول نبي (7)، وجاء في تفسير روح المعاني (154/3)

ص: 19

1- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل 87/5.

2- سورة هود: آية 69-73، وانظر: تفسير ابن كثير 4/264-266، تفسير الطبري 15/381-400، تفسير القرطبي ص 3290-3299، تفسير المنار 12/105-108.

3- ابن حزم: المرجع السابق ص 87.

4- سورة مريم: آية 19، وانظر تفسير القرطبي ص 4128-4130.

5- سورة المائدة: آية 75.

6- سورة يوسف: آية 46.

7- ابن حزم: المرجع السابق ص 87-88.

أن القول بنبوّة مريم شهير، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات، وابن السيد، إلى ترجيحه، وذكر أن ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قوية لذلك، و أما الاستدلال بآية وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا، لا يصح، لأن المذكور فيها الإرسال و هو أخص من الاستنباء على الصحيح المشهور، و لا يلزم من نفي الأخص، نفي الأعم. و الأمر كذلك بالنسبة إلى أم موسى، إذ أوحى الله تعالى إليها بإلقاء ولدها في اليم، و أنه سوف يرده إليها و يجعله نبيا مرسلا (1)، يقول تعالى:

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (2)، غير أن هناك من يرى أن ذلك استدلالا خاطئا، لأن الوحي ليس بإنزال ملك، وإنما هو بطريق الإلهام، فقد أخبر الله تعالى بأنه أوحى إلى النحل، فقال تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (3)، فهل يصح أن نقول أن النحل قد نبأه الله تعالى (4).

و يذهب الفخر الرازي في التفسير الكبير إلى أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء، لقوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ»، و إذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها، إما أن يكون كرامة لها، و هو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرھاصا لعيسى عليه السلام، و ذلك جائز عندنا، و عند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لذكريا عليه السلام، و من الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروح و الإلهام و الإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (5).

ص: 20

1- نفس المرجع السابق ص 88.

2- سورة القصص: آية 7.

3- سورة النحل: آية 68.

4- محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 10.

5- تفسير الفخر الرازي 54/3.

هذا وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أن مريم ليست بنبية، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبية، ونسبه في «شرح المذهب» لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبية، ولا في الجن (1).

4- وظائف الرسل:

بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بوضوح وجلاء وظائف الرسل، عليهم السلام، ومهماتهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل إلى الأنبياء أهم الواجبات، وأقدس المهمات، وأشرف الغايات، والتي من أهمها (أولاً) أنهم الدعاة البررة إلى عبادة الله الواحد القهار، وهذه في الحقيقة هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق، جل وعلاه وتخصيص العبادة له دون سواه (2)، كما قال جل ثناؤه: وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اِعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (3)، وقال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (4)، وقال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

ص: 21

1- فتح الباري 6/ 471، 473، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، الكويت 1985 ص 86-89.

2- انظر: محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل - الإسكندرية 1978 ص 77-81، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، بيروت 1980 ص 23-25، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات - الكويت 1985 ص 43-54.

3- سورة النحل، آية 36، وانظر: تفسير الطبري 14/ 103، تفسير الفخر الرازي 20/ 26-27، تفسير أبي السعود 3/ 360-361.

4- سورة الأنبياء: آية 25، وانظر كذلك من سورة هود: الآيات 25، 50، 61، 84، تفسير الطبري 15/ 293-294، تفسير روح المعاني 12/ 35-37، 77-80، 88، 114-115، 17/ 31-32.

عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (1)، وقال تعالى: وَإِلَىٰ آخَاهُم هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (2)، وقال تعالى:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (3)، وقال تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ، ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4).

ومنها (ثانيا) إنارة الطريق أمام الناس، وهدايتهم إلى سواء السبيل، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (5)، وهكذا كان كل رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم، وبيئته و يهديهم إليه، فضلا عن مقاومة الانحراف الحادث في عهده و مصره، وهكذا أنكر هود على قومه الاستعلاء في الأرض و التجبر فيها، وأنكر صالح على قومه الإفساد في الأرض و إتباع المفسدين، و حارب لوط جريمة اللواط التي استشرت في قومه، و قاوم شعيب في قومه جريمة التطفيف في المكيال و الميزان (6).

ومنها (ثالثا) أن من رحمة الله على عباده أن يرسل إليهم الرسل قبل أن يقع عليهم عقابه، و من ثم لا تكون للعاصين منهم حجة على الله بعد الرسل، قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (7)، وقال تعالى:

ص: 22

-
- 1- سورة الأعراف: آية 59، وانظر تفسير ابن كثير 3/ 427-428، تفسير القرطبي ص 2668-2670 (ط الشعيب).
 - 2- سورة هود: آية 50.
 - 3- سورة الأعراف: آية 73.
 - 4- سورة العنكبوت: آية 16.
 - 5- سورة الأحزاب: آية 45-46.
 - 6- عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق ص 51.
 - 7- سورة الإسراء: آية 15.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (1)، وقال تعالى: وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَحْزَى (2)، و من ثم ففي يوم القيامة عند ما يجمع الله الأولين و الآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربه، و أقام عليها الحجة، قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَّهِيدٍ، وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ، وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (3).

و منها (رابعاً) أن الرسل سفراء الله إلى عباده و حملة وحيه، فهم الذين يقومون بتبليغ أوامر الله تعالى و نواهيه إلى عبادة قال تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ (4)، و قال تعالى:

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (5)، و منها (خامساً) تذكير الناس، كل الناس، بيوم الدين يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (6)، ذلك أن من مهمة الأنبياء التبشير و الإنذار، قال تعالى: وَ مَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا لِمُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ (7)، مبشرين المؤمنين بالحياة الطيبة، و منذرين العصاة بعذاب الله في الآخرة (8).

ص: 23

1- سورة النساء: آية 165.

2- سورة طه: آية 134.

3- سورة النساء: آية 41-42.

4- سورة المائدة: آية 67.

5- سورة الأحزاب: آية 39.

6- سورة الشعراء: آية 88-89.

7- سورة الكهف: آية 56.

8- انظر: سورة النحل: آية 97، طه: آية 123، النور: آية 55، النساء: آية 13-14، الواقعة: آية 215-38، 41-51-56.

ومنها (سادسا) أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، هم الأسوة الحسنة للناس جميعا، قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (1)، وقال تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ (2)، وقال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (3)، وقال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَى (4)، وقال تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (5)، وذلك لأن الرسل صفوة من خليفته، وخيرته من عبادة (6)، طهرهم، وعلمهم ما شاء أن يعلمهم، ثم أرسلهم إلى الناس ليأخذوهم بأسباب الهداية، وينأوا بهم عن معاهد الضلالة، ولذلك كان من كليات أصول المسلمين، أن شرع من قبلنا شرع لنا، إلا إذا ورد من رسول الله (ص) ما ينسخه (7).

ص: 24

1- سورة الأحزاب: آية 21.

2- سورة الممتحنة: آية 4.

3- سورة الممتحنة: آية 6.

4- سورة الأنعام: آية 90.

5- سورة الأنبياء: آية 73.

6- وتصديقا لهذا فلقد جاء في الحديث الشريف، الذي رواه مسلم والترمذي، أنه (ص) قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، و اصطفى قريشا من كنانة، و اصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار»، و من مسند الإمام أحمد و سنن الترمذي عن النبي (ص) أنه قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا، و خيركم نفسا» (انظر: صحيح مسلم المواهب للقسطلاني 1 / 13، ابن كثير: السيرة النبوية 1 / 191، عبد الحليم محمود: دلائل النبوة و معجزات الرسول، القاهرة 1973 ص 68، أحمد حسن الباقوري: مع القرآن، القاهرة 1970 ص 21).

7- محمود أبو رية: دين الله واحد على السنة جميع الرسل - القاهرة 1970 ص 58.

و من هنا فقد أوجب الله للرسول العصمة الكاملة، لتصح بهم القدوة، و تقوم بهم الحجة، فلا يكون من أحدهم عمل ينال من كرامته أو يقدح في عدالته أو يحط من منزلته العلية بين ذوي المروءات و العقول الرجحة (1)، ذلك أمر ضروري، إذ لو لم يكن ذلك كذلك، و لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص، اختصاصهم بوحية، و الكشف لهم عن أسرار حلمه، و لو لم تسلم أبدانهم من المنفريات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في إنكار دعواهم، و لو كذبوا أو خافوا أو قبحت سيرتهم، لضعفت الثقة فيهم، و لكانوا مضلين لا مرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، و الأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم بتبليغه من القصائد و الأحكام (2).

و منها سابعاً: سياسة الأمة المسلمة، ذلك أن الذين يستجيبون للرسول يكونون جماعة و أمة، و بالتالي يحتاجون إلى من يسوسهم و يقودهم و يدبر أمورهم، و الرسول يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله قال تعالى: فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (3)، و قال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (4) و في الحديث، الذي رواه البخاري و مسلم و أحمد و ابن ماجه، عن النبي (ص) «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي قام نبي»، و من ثم فقد أوجب الله طاعتهم، قال تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (5).

ص: 25

1- كمال أحمد عون: اليهود من كتبهم المقدسة- القاهرة 1970 ص 106.

2- محمد عبث: رسالة التوحيد- القاهرة 1969 ص 77.

3- سورة المائدة: آية 48.

4- سورة (ص): آية 26.

5- سورة النساء: آية 8.

لا- ريب في أن دين الله واحد في الأولين والآخرين، لا يختلف إلا في صورة و مظهره، و أما روحه و حقيقته، و هو ما طوّل به العالمون أجمعون على ألسنة جميع الأنبياء و المرسلين، فلا يتغير، و هو إيمان بالله الواحد الأحد، و إخلاص له في العبادة، و أن يتعاون الناس على البر و التقوى، و ألا يتعاونوا على الإثم و العدوان، هذا هو دين الله الذي أرسل في كل أمة، و لكل قوم على مدى الدهور و الأزمان (1)، و لا ريب كذلك في أن هذا الدين هو الإسلام (2)، و صدق ربنا جل و علا حيث يقول: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (3) و يقول: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (4)، و الإسلام، في لغة القرآن، ليس اسماً لدين خاص، و إنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، و انتسب إليه كل أتباع الأنبياء (5)، و من ثم فإن الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء و أتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر البعثة المحمدية (6).

ص: 26

- 1- محمود أبو رية: المرجع السابق ص 35.
- 2- الإسلام: هو دين الله في الأولين و الآخرين، و هو الطاعة و الامتثال (تفسير الطبري 510/2-511) و يقول الإمام ابن تيمية: الإسلام هو أن يستسلم الإنسان لله، لا لغيره، فيعبد الله و لا يشرك به شيئاً، و يتوكل على الله وحده، و يرجوه و يخافه وحده، و يحب الله المحبة التامة، لا يحب مخلوقاً كحبه لله، بل يحب لله و يبغض لله، و يوالي لله و يعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، و من يعبد مع الله غيره لم يكن مسلماً (ابن تيمية: كتاب النبوات- القاهرة 1346 هـ ص 87-88).
- 3- سورة آل عمران: آية 19.
- 4- سورة آل عمران: آية 85.
- 5- محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص 51.
- 6- محمود الشقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص 75-76.

وهكذا أخبر القرآن في غير موضع أن الأنبياء جميعاً إنما كان دينهم الإسلام، كما في سورة البقرة وآل عمران والمائدة والأعراف ويونس ويوسف والأنبياء والحج والنمل والقصص والشورى وغيرها (1)، وهكذا يبدو واضحاً أن دين الله واحد منذ الأزل إلى مبعث محمد (ص) إلى يوم الدين «إن الدين عند الله الإسلام»، فالدين منذ القدم هو دين الإسلام «هو حاكم المسلمين من قبل»، من قبل مبعث محمد، ومن قبل مبعث إبراهيم، وقد سمي الله منذ الأزل «مسلماً» كل من اعتنق أسس هذه الدين، دين الله، وسار على مضامينه من: إسلام الوجه لله، وانقياد له، وتوكل عليه، وتسليم الأمر لمدير الأمر وصرف الكون، ومن هذا يتضح أن وصف الإسلام ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد (ص) في عهد محمد أو من بعده فحسب، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل على كل من آمن برسوله الذي بعث في زمنه، وبكل من وَّحد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين، والمسلم في عرف القرآن هو كل من آمن برسوله وكل من وَّحد الله من الأزل حتى اليوم، ومن هذا يتضح أن محمد (ص). لم يأت بدين جديد مستقل، وإنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة، وليهدي الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذي أرسل الله به سائر الرسل، والذي كمله محمد (ص) وأتمه الله على يد محمد (ص) بما جعله

ص: 27

1- انظر: سورة البقرة: آية 128، 132، 136، آل عمران: آية 51-53، 64-67، 83-85، المائدة: آية 3، 44، 11، الأعراف: آية 126، يونس: آية 72، 84، 90، يوسف: آية 101، الأنبياء: آية 108، الحج: آية 78، النمل: آية 31، 38، 42، القصص: آية 52، الزمر: آية 12، فصلت: آية 33، الشورى: آية 13، وانظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 134-135، محمد عبد الله دراز: الدين: بحوث ممهدة لدراسة الأديان- القاهرة 1969 ص 183، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 60-67، مناع القطان: الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشر كافة- الرياض 1974 ص 11-40، تفسير المنار 67/1، 477.

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله (ص)، فيما أخرجه الإمام أحمد و البخاري و مسلم عن أبي هريرة، «مثلي في النبيين كمثل رجل بني دارا فأحسنها و أكملها و أجملها و ترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان و يعجبون منه و يقولون لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» (2)، و في رواية للبخاري. «مثلي و مثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بيتا فحسنته و جملة إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به، و يعجبون و يقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، و أنا خاتم النبيين» (3).

و من هنا فإن نبوة القرآن الكريم إنما تؤمن بكل ما سبقها من نبوات، لأن الهدف واحد، و العقيدة واحدة، فالأنبياء، صلوات الله و سلامه عليهم، دينهم واحد، و إن تنوعت شرائعهم (4)، و قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» (5)، قال تعالى: (5)

ص: 28

1- محمود بن الشريف: الأديان في القرآن- جدة 1979 ص 30-33.

2- الحديث: أخرجه أيضا الإمام أحمد و البخاري و مسلم و الترمذي عن جابر بن عبد الله، و أخرجه الإمام أحمد و مسلم عن أبي سعيد الخدري.

3- صحيح البخاري- كتاب المناقب- باب خاتم النبيين- دار الشعب- القاهرة 1378 هـ 226/4.

4- مجموعة فتاوي ابن تيمية- الرياض 1381 هـ 357/1.

5- روي الحديث الشريف بعدة روايات، فرواية في البخاري و مسلم و أحمد، أنه (ص) قال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا و الآخرة، و الأنبياء أخوة من علات، أمهاتهم شتى، و دينهم واحد، و في رواية أخرى للبخاري «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، و الأنبياء أولاد علات ليس بيني و بينه نبي»، و في رواية ثالثة «نحن معشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد»، يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله و ضمه كل كتاب أنزله، و أبناء العلات أبناء الضرائر، يكون أبوهم رجلا واحدا، و أمهاتهم متعددات و كذلك الرسل ربهم الذي أرسلهم إله واحد، و رسالاتهم متعددة بتعدد بلادهم، أي إن الدين واحد، و هو عبادة الله و حدد لا شريك له، و إن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، و المقصود، كما يقول ابن كثير، أن الشرائع و إن تنوعت في أوقاتها إلا- أن الجميع أمرة بعبادة الله و حده لا شريك له، و هو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء، و هو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة، كما قال تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، و يقول الإمام محمد عبده: أن القرآن قد صرح بما لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان و على ألسن جميع الأنبياء، واحد، و يقول الأستاذ الشاذلي و أما الشرائع فمختلفة في الأوامر و النواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الأخرى و بالعكس، و خفيفا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، لماله تعالى من الحججة الدافعة و الحكمة البالغة، قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: «لكل جعلنا منكم شرعة و منها جما»، يقول: سبيلا و سنة، و السنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، و في الإنجيل شريعة و في الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء و يحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، و الدين الذي لا يقبل الله غيره هو التوحيد و الإخلاص لله تعالى الذي جاءت به جميع الرسل (انظر: محمد عبده: المرجع السابق ص 163، عبد الله شحاتة: تفسير سورة الإسراء، القاهرة 1975 ص 10، الباقوري: المرجع السابق ص 139، عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام و حقيقة الإيمان- جامعة أم القرى- مكة المكرمة ص 100، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 5-6، مختصر تفسير ابن كثير 459/1، البداية و النهاية 153/1-154، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 35-45)

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (1) وقال تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (2).

و من هنا كان طلب القرآن الكريم الإيمان بكل الرسل، كما طلب كذلك الإيمان بما أنزل عليهم، و كان الإيمان بالبعض دون البعض الآخر خروجاً عن دين الله و هديه (3)، يقول سبحانه و تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ -

ص: 29

1- سورة المؤمنون: آية 52، وانظر تفسير القرطبي ص 4520-4521 (دار الشعب).

2- سورة الشورى: آية 13.

3- محمد أبو زهرة: العقيدة الإسلامية لما جاء بها القرآن الكريم- القاهرة 1969 ص 85-86، تفسير المنار 10/ 182-183 خالد محمد خالد: كما تحدث القرآن- القاهرة 1970 ص 99-122.

وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلَيْكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (1)، ويقول تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ، مِنْ رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (2)، و قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رُسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (3)، و قال تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (4).

وانطلاقاً من كل هذا، فإن القرآن الكريم إنما يعلمنا أن كل رسول يرسل، و كل كتاب ينزل إنما قد جاء مصدقاً و مؤكداً لما قبله، فالإنجيل مصدق و مؤكداً للتوراة (5)، و القرآن مصدق و مؤكداً للتوراة و الإنجيل، و لكل ما بين يديه من الكتب (6) يقول سبحانه و تعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ، وَ لِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزِلَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ،

ص: 30

1- سورة النساء: آية 15.

2- سورة البقرة: آية 285.

3- سورة النساء: آية 136.

4- سورة البقرة: آية 136.

5- من البدهي أننا نعني هنا التوراة و الإنجيل اللذين أنزلهما الله على رسوليهِ موسى و عيسى، عليهما السلام، و ليس توراة اليهود و أناجيل النصرى المتداولة اليوم (انظر عن التوراة الحالية: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الكتاب الثالث - الإسكندرية 1979 ص 1-379).

6- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 185، محمد أبو زهرة: المرجع السابق ص 85-86.

وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَ لَكِنْ لِنَبِّئُكُمُ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَخِرُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (1).

و يقول المسيح، عليه السلام، كما جاء في العهد الجديد «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس و الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء و الأرض و لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (2).

و لا ريب في أن هذا التصديق لا يعني أن الكتب المتأخرة، إنما هي تجديد للمتقدمة و تذكير بها، فلا نبدل فيها معنى و لا نغير حكما، و إنما الواقع غير ذلك، فقد جاء الإنجيل بتبديل بعض أحكام التوراة، كما جاء القرآن بتبديل بعض أحكام الإنجيل، و لكن يجب أن يفهم أن هذا و ذلك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم، و لا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها، و إنما كان وقفا عند وقتها المناسب و أجلها المقدر (3)، و من هنا كان قوله (ص) في الحديث الشريف: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، و في رواية الإمام مالك في الموطأ «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق». و هكذا فإن الله تعالى، بمقتضى حكمته في رسالاته، إنما كان يجعل كل نبي يبشر بمن يجيء بعده، فالتوراة بشرت بالمسيح و بمحمد، عليهما الصلاة و أتم التسليم، و المسيح بشر بمحمد (ص)، يقول تعالى: وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

ص: 31

1- سورة المائدة: آية 46-48.

2- إنجيل متى 17/5-18.

3- انظر: سورة آل عمران: آية 50، الأعراف: آية 157، محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 185-186.

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (1).

و من المعروف أن أحمدًا من أسماء رسول الله (ص). و من ثم فقد جاء في الحديث الشريف، قوله (ص): «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار» (2)، و في بعض الأحاديث «لو كان موسى و عيسى حين لما وسعهما إلا أتباعي» (3)، و أن النبي (ص) وقف على «مدراس» اليهود في المدينة المنورة فقال: يا معشر يهود أسلموا، فو الذي لا إله إلا هو لتعلمون أني رسول الله إليكم، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، قال: ذلك أريد» (4)، و من ثم فالذي يقطع به في كتاب الله و سنّة رسوله، و من حيث المعنى، أن رسول الله (ص) قد بشرت به الأنبياء قبله، و أتباع الأنبياء يعلمون ذلك، و لكن أكثرهم يكتُمونه و يخفونه (5).

هذا و قد أخذ الله الميثاق على كل نبي، إذا جاءه رسول و صدق لما معه أن يؤمن به و ينصره (6)، يقول تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا

ص: 32

- 1- سورة الصف: آية 6، و عن بشارات التوراة بسيدنا رسول الله (ص) (انظر: سفر التثنية 15/18، 18، 23/3، أشعياء 1/60-7، 42/10-12، حبقوق 3/3-4) و عن بشارة الإنجيل (انظر: متى 7/21-23، 15/8-9، 23/42-43) ثم انظر: إبراهيم خليل أحمد: محمد في التوراة و الإنجيل و القرآن- الطبقة الخامسة- القاهرة 1983 ص 33-95، بشرى زخاري ميخائيل: محمد رسول الله- هكذا بشرت به الأناجيل- القاهرة 1972، ابن كثير: السيرة النبوية 1/286-340 (القاهرة 1964).
- 2- صحيح مسلم 1/367 (دار الشعب- القاهرة 1971).
- 3- مختصر تفسير ابن كثير 1/296.
- 4- ابن كثير: شمائل الرسول و دلائل نبوته و فضله و خصائصه- القاهرة 1967 ص 339، ثم قارن: ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى- الجزء الأول- القاهرة 1966 ص 36-37، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة- بيروت 1974 ص 319-322.
- 5- ابن كثير: المرجع السابق ص 339، ابن الجوزي: المرجع السابق ص 37.
- 6- محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص 185.

آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (1). قال الإمام علي و ابن عباس، رضي الله عنهما، ما بعث الله نبيا من الأنبياء، إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمدا: وهو حي، ليؤمنن به و لينصرنه، و قال الحسن البصري و قتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، و هذا لإيضاح ما قاله علي و ابن عباس و لا ينفيه بل يستلزمه و يقتضيه (2).

و صدق سيدنا رسول الله (ص) حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير في قوله (ص): «مثلي و مثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه و جمّله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له و يقولون هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة و أنا خاتم النبيين» (3).

و قريب من هذا ما يراه بعض الباحثين من أن صلاة المصطفى (ص) بالأنبياء، ليلة أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إنما تشير إلى وحدة الرسالات و النبوات، و أنها جميعا من عند الله، و أن الأنبياء و المرسلين إنما أرسلوا من أجل هداية الناس، و دعوتهم إلى التوحيد (4).

و بدهي أن ذلك كذلك، لأن دين جميع الأنبياء واحد في التوحيد و روح العبادة، و تزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات و تهذب

ص: 33

-
- 1- سورة آل عمران: آية 81، و انظر: تفسير المنار 3/ 287-290، تفسير ابن كثير 2/ 55-57، تفسير الطبري 6/ 550-561.
 - 2- مختصر تفسير ابن كثير 1/ 296.
 - 3- صحيح البخاري 4/ 226 (دار الشعب- القاهرة 1378 هـ).
 - 4- عبد الله شحاتة: المرجع السابق ص 8، و انظر: عماد الدين خليل: المرجع السابق ص 115-116.

الأخلاق، وهكذا فالأنبياء في الأساس دعاء إلى توحيد الله وهداة إلى الفضائل. و مكارم الأخلاق، و من ثم فإن الديانات إنما تلتقي على فكرة التوحيد و حسن السلوك، و إن اختلفت الوسيلة لتهذيب هذا السلوك من نبي لآخر، و هكذا رأينا من الأنبياء من حارب رذائل معينة انتشرت بين قومه، كتطيف الكيل الذي حاربه شعيب، و كالانحراف الجنسي الذي وقف أمامه لوط بكل إصرار و حزم (1).

و هنا علينا أن نلاحظ أن هناك فرقا بين الدين في ثباته و عدم تبدله بتبدل الأنبياء، و بين تبدل الشرائع و تغييرها بتبدل الأنبياء و تغييرهم، بل ينبغي أن يكون هذا الفرق واضحا في الذهن، سائقا في الفهم، و هو كذلك فيما يقرر القرآن الكريم، فأما من ناحية العقل و الفكر، فإن الدين، أي دين، إنما هو قائم على أصول ثلاثة: أولها: الإيمان بأن لهذا الكون إلها خالقا مدبرا، و محيط العلم، بالغ القدرة، لا يغرب عن علمه شيء، و لا يعترض قدرته شيء، و ثاني الأصول الدعوة إلى العمل الصالح الذي يشيع على الإنسانية الأمن و السلام، و ثالث الأصول أن الله لم يخلق الناس عبثا، و لن يتركهم سدى، و أنهم لا بد راجعون إليه، و محاسبون بين يديه، و مجازون على ما عملوا إن خيرا فخييرا، و إن شرا فشرا.

هذا ما يتصل بالدين في عدم قبوله التغيير و التبديل، و أما ما يتصل بالشرائع حيث هي مجموعة قوانين تنظم السلوك في المجتمع، فإنها قابلة للتغيير و التبديل، بمقتضى تعبير البيئات و اختلاف المصالح، و قد أشار إلى ذلك القرآن الكريم و الحديث الشريف (2).

ص: 34

-
- 1- أبو الحسن الماوردي: أعلام النبوة- القاهرة 1971 ص 22، محمود أبو رية: المرجع السابق ص 119، عبد الله شحاتة، المرجع السابق 8-9.
 - 2- مجموعة فتاوي ابن تيمية 357/1، و انظر: الباقوري: المرجع السابق ص 137-139، خالد محمد خالد: المرجع السابق، ص 115، عبد الله شحاتة: المرجع السابق ص 10.

بقيت الإشارة هنا إلى أن النبوة فضل يسبغه الله على من يشاء من عباده، وهبة ربانية يمنحها الله لمن يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد و التعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، فالله يختص برحمته من يشاء، وهي تأتي إلى النبي من تلقاء نفسها، وعلى غير توقع منه، فهي إذن اصطفاء واختيار من الله سبحانه وتعالى للمصطفين الأختيار من عباده (1)، وصدق الله العظيم حيث يقول: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (2).

و من ثم فإن الله سبحانه وتعالى إنما يختص بهذه الرحمة العظيمة، والمنقبة الكريمة، من كان أهلاً لها، بما أهله، جل شأنه، من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاة النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق، وكان أذكياً العرب في الجاهلية، على شركهم بالله تعالى، يعلمون أن الصادقين محبي الحق، وفاعلي الخير من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى وعنايته، كما يؤخذ من استنباط أم المؤمنين خديجة في حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهما، في بدء الوحي، فإنه (ص) لما قال لخديجة: «لقد خشيت على نفسي»، قالت له: «كلا فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» (3).

ص: 35

-
- 1- تفسير المنار 8/ 33-34، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء- بيروت 1980 ص 8.
 - 2- سورة الأنعام: آية 124، وانظر: تفسير روح المعاني 8/ 21-23، تفسير المنار 8/ 32-35، تفسير ابن كثير 3/ 323-326.
 - 3- صحيح مسلم 1/ 379-380، وانظر: ابن كثير: السيرة النبوية 1/ 394-395، تفسير المنار 8/ 34، عبد الحلیم محمود: المرجع السابق ص 354.

[1] يوسف وأخوته في كنعان:

يوسف الصديق عليه السلام هو: يوسف النبي بن يعقوب النبي بن إسحاق النبي بن إبراهيم النبي، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، و قد أثنى عليه ربنا جل جلاله في القرآن الكريم بقوله تعالى: كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ كما أثنى عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، حيث وصفه بقوله الشريف «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» وقد جاءت قصته في سورة كاملة من القرآن الكريم هي سورة يوسف (1).

ص: 39

1- انظر عن قصة يوسف كاملة من وجهة النظر الإسلامية: سورة يوسف آية 1-102، تفسير الطبري 15/547-586، 16/1-315 (دار المعارف) تفسير الفخر الرازي 17/83-229، تفسير الطبري 13/5-134، تفسير النسفي 2/352-397، تفسير أبي السعود 3/77-143، في ظلال القرآن 4/1949-2037 (بيروت 1982) تفسير المنثور للسيوطي 4/2-42، تفسير ابن كثير 4/294-349، تفسير القرطبي ص 3347-3506، تفسير المنار 12/213-268، محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف (القاهرة 1936)، صفوة التفاسير 2/39-71، تفسير الجلالين ص 302-320، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 4/3-41، تفسير الخازن 3/262-293، تفسير البغوي (على هامش الخازن)، ابن كثير: البداية والنهاية 1/197-220، تاريخ الطبري 1/330-364، تاريخ ابن خلدون 2/44-47، تاريخ ابن الأثير 1/78-88، تفسير ابن عباس 2/497-502، حسن محمد باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، جدة- 1983 م.

هذا وتشير التوراة إلى أن يوسف الصديق قد ولد لأبيه من زوجته الثانية «راحيل»، ابنة خال أبيه لابان في «حاران» (وتقع على نهر بلخ على مبعدة 60 ميلا من اتصاله بالفرات، و إلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة 280 ميلا إلى الشمال الشرقي من دمشق)، و كان يعقوب عليه السلام قد تزوج من أختها الكبرى «ليئة»، ثم تزوج من راحيل، ثم من جاريتها بلهة، ثم من زلفة جارية ليئة (1)، وهكذا جمع يعقوب تحته الشقيقتين، فضلا عن جاريتيهما، و كان ذلك، فيما يرى ابن كثير، سائغا في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، و هذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم (2)، بل إن الطبري (3) يرى في ذلك قوله تعالى: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، و إن كان المفسرون يجمعون أو يكادون، على أن المراد بقوله تعالى: إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ أي في الجاهلية قبل الإسلام، و ليس قبل نزول التوراة، كما ذهب ابن كثير، أي أن النسخ كان بالقرآن، و ليس بالتوراة، على أية حال، فلقد ماتت راحيل أم يوسف، و هي تضع ابنها الثاني «بنيامين» و دفنت في بيت لحم (على مبعدة خمسة أميال جنوبي القدس) حيث ولد داود و المسيح عيسى بن مريم، عليهما السلام. (4)

هذا و قد زود يعقوب عن زوجاته الأربع باثني عشر ولدا، فضلا عن (8)

ص: 40

-
- 1- تكوين 23/29، 28، 30/5، 79.
 - 2- تاريخ ابن كثير 1/195.
 - 3- تاريخ الطبري 1/320.
 - 4- تكوين 19/35-20، تاريخ ابن كثير 1/197، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/646 (الاسكندرية 1978)، و انظر عن قصة يوسف من الناحية التاريخية و دخول بني إسرائيل مصر (محمد بيومي مهران- إسرائيل 1/212-260- الاسكندرية 1978)

ابنته دينة التي ولدتها ليثة، وهكذا «كان بنو يعقوب اثني عشر، بنو ليثة راؤبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهودا ويساكر وزبولوث، و أبناء راحيل يوسف وبنيامين، و أبناء بلهة جارية راحيل، دان و نفتالى، و أبناء زلفة جارية ليثة، جاد و أشير، هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فدان آرام (1)»، ثم هاجر يعقوب ببنيه و زوجته إلى كنعان (فلسطين) حيث عاشوا في «حبرون» (و تقع على مبعده 19 ميلا جنوب غرب القدس، و هي مدينة الخليل الحالية، و فيها قبر إبراهيم و سارة و إسحاق و يعقوب، حيث يقوم اليوم مسجد كبير هو الحرم الإبراهيمي) و ظلوا هناك في أرض كنعان حتى هاجروا إلى مصر بدعوة من الصديق عليه السلام.

و هكذا عاش الصديق مع أبيه و إخوته حينما من الدهر في كنعان، كان الصديق فيها أحب الأخوة إلى أبيه يعقوب النبي عليه السلام، لأنه كان، فيما تقول توراة اليهود، «يأتي بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم»، و لأنه «ابن شيخوخته» و لأنه صنع له من دونهم قميصا ملونا، و لأنه رأى حلمين فسرها إخوته على أنه سيكون سيديا عليهم، أما أولهما: « «فها نحن حازمون حزما في الحقل، و إذا حزمتن قامت و انتصبت فاحتاطت حزمكم و سجدت لحزمتي»، و أما الثاني فقد رأى فيه «و إذا الشمس و القمر و أحد عشر كوكبا ساجدة لي، و قصه على أبيه و على إخوته، فانتهره أبوه، و قال له ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا و أمك و إخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده إخوته، و أما أبوه فحفظ الأمر (2)»، و لم يشر القرآن الكريم إلا- إلى الرؤيا الأخيرة، و أن أباه أمره أن يكتب رؤياه عن إخوته، يقول تعالى إذ قال يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

ص: 41

1- تكوين 22/35-26.

2- تكوين 37/1-11.

ساجدين، قال يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (1).

وهكذا عرف يعقوب، كما جاء في تفسير أبي السعود (252/4)، من رؤيا يوسف أن الله تعالى سيبلغه مبلغا جليلا من الحكمة، و يصطفيه للنبوة، و ينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسد الأخوة، و نصحه بأن لا يقص رؤياه عليهم فيكيّدوا له، مع أن يعقوب كان يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا عليه، و قد جاء في الأثر «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

هكذا بدأ إخوة يوسف يضمرون له الشر، لأنه أحب إلى أبيهم منهم «قالوا ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا و نحن عصابة، إن أبانا لفي ضلال مبين»، و الآية الكريمة تشير إلى إثارة يعقوب ليوسف و أخيه عليهم، و هم عصابة (و العصابة و العصابة: العشرة من الرجال فصاعدا سماوا بذلك لأن الأمور تعصب بهم) و يقول الشيخ الشعراوي في الفتاوى: إن إثارة فرد بالحب عن الآخرين ينشئ في نفس الآخرين عقدة النقص التي تؤدي إلى أن يكون السلوك غير منطقي على المبدأ الخلقى، و لذلك حين أحس إخوة يوسف بأن يوسف و أخاه أحب إلى أبيهم منهم، فكروا في أن يزيحوا ذلك الحب من طريقهم و قالوا: نحن عصابة، و لو أنهم فهموا بعض الفهم لعرفوا أنهم جاءوا بحيشية امتاز ذلك الصغير بالحب، لأنهم عصابة و لأنهم أشداء، و هو صغير يعطف عليه، فلا يقيسوا العطف و الحب هنا على العطف و الحب عليهم، لأنهم اجتازوا مرحلة العطف و الحب، فالإنسان منا يحب صغيره لأنه يعتقد أن هذا الصغير بالنسبة لأخوته هو أقصرهم عمرا معه،

ص: 42

1- سورة يوسف آية 4-5، 554-559، تفسير المنار 11/290-299، تفسير ابن كثير 4/297-299، تفسير الخازن 3/261-263.

وأنه في حاجة مع العجز إلى شيء كثير من الحب، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما جعلوها عيباً في الأب (1).

وعلى أية حال، فالآية، كما في ظلال القرآن (2)، لا تشير إلى علمهم برؤياه، ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاؤا ذكرها على ألسنتهم (3)، وكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقده عليه، فما خافه يعقوب على يوسف لوقص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له، ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة، والتي تمهد لها ظروف حياته وواقع أسرته، ومجيئه لأبيه على كبره، وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر، كما كان الحال مع يوسف وأخيه، وإخوته من أمهات، وهكذا بدأ الحقد يغلي في نفوس إخوة يوسف، ويدخل الشيطان بينهم، فيختل تقديرهم للواقع، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام، تهون الفعلة الشفعاء المتمثلة في إزهاق روح غلام برىء لا يملك دفعا عن نفسه، وهو أخ لهم، وهم أبناء نبي، وإن لم يكونوا هم أنبياء، يهون هذا، وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب، حتى توازي القتل، أكبر جرائم الأرض قاطبة، بعد الشرك بالله، وهكذا دبروا له مكيدة، كي يخلو لهم وجه أبيهم، وأنجزوا خطتهم للتخلص منه، بأن اقتلوا يوسف.

ص: 43

1- محمد متولي الشعراوي: الفتاوى 10/ 71-74 (بيروت 1982).

2- في ظلال القرآن 4/ 1973 (بيروت 1982).

3- جاء في تاريخ ابن الأثير: أن امرأة يعقوب سمعت ما قال يوسف لأبيه، فقال لها يعقوب: اكنمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادك، قالت نعم، فلما أقبل أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا، فزادوا حسدا وكرهة له وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبنينا ولا بالقمر غيرك ولا بالكواكب غيرنا، إن ابن راحيل يريد أن يمتلك علينا ويقول: أنا سيدكم. (الكامل 1/ 78-79).

أَوْ اطَّرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُّ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (1).

وفي الواقع، فإن قصة الصديق، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، إنما تشير بوضوح إلى أن إخوته إنما ظلوا ردحا من الزمن ضحايا الكبت الذي عانوه، كي يخفوا رغبتهم في التخلص من يوسف رغبة في أن يخلوا لهم حب أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها و كبتها، بل كثيرا ما كانت تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل أباهم يعقوب يشك في حسن نواياهم، عند ما دعوا يوسف ليلعب معهم (2)، فقال لهم وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (3)، و هو في الواقع إنما كان يتخوف عليه من عدوانهم أكثر مما يتخوف عليه عدوان الذئب، ولكنه أراد أن يصرفهم عنه بتلك الفعلة، ولكن إخوة يوسف كانوا بارعين في الدهاء، فقالوا لأبيهم لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (4).

وهكذا كان من نتيجة الكبت الذي عانوه أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف و أبيه فاتفقوا على قتله، و تلطبخ قميصه بالدم، و ادعاء أن الذئب أكله، لما ذهبوا يتسابقون و تركوه عند متاعهم، غير أن التلفيق كان واضحا، أو كان ساذجا، لأن القميص لم يكن ممزقا بآثار أسنان الذئب، أو كما قال يعقوب، في رواية السدي، إن كان هذا الذئب لرحيما، كيف أكل لحمه و لم يخرق قميصه (5)، و هكذا ألهاهم).

ص: 44

1- سورة يوسف: آية 9.

2- التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن- تونس 1974 ص 156 (رسالة دكتوراه).

3- سورة يوسف آية 13.

4- سورة يوسف: آية 14.

5- جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس أنه قال: ذبحوا شاة و لطنخوا بدمها القميص، فلما جاءوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لمزق قميصه، و في رواية أخرى، كما في تفسير النسفي و أبي السعود و الخازن، نهم ذبحوا سخلة و لطنخوا القميص بدمها، و زل عنهم أن يمزقوا القميص، فلما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، و قال: أين القميص و أخذوه و ألقاه على وجهه و بكى حتى خضب وجهه بدم القميص و قال: تالله ما رأيت كالיום ذنبا أحلم من هذا، أكله و لم يمزق عليه قميصه، و في رواية ثالثة في تفسير الخازن أنهم أتوا بذئب و قالوا ليعقوب: هذا أكل ابنك، فقال الذئب حين سأله، و قد أنطقه الله، و الله ما أكلت و ما رأيت ولدك قط، و لا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال يعقوب كيف وقعت في أرض كنعان، قال: أتيت لصلة الرحم فأخذوني و أتوا بي إليك فأطلقه يعقوب (انظر: تفسير الطبري 164/12، تفسير أبي السعود 260/4، تفسير الخازن 269/3، تفسير النسفي 214/2-215، صفوة التفاسير 44/2).

الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم، و لكنهم كانوا معجلين لا- يصبرون، يخشون أن لا تواتيهم الفرصة مرة أخرى، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذنب المكشوفة دليلا على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم فيها أمس و هم ينفونها، و يكادون يتهكمون بها، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذنب الذي حذرهم منه أبوهم أمس، و يمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطحوه في غير إتيان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب (1)، الأمر الذي جعل يعقوب لا يصدقهم، و لهذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصوا آثار أخيهم، و قد وقعوا في حالة «التبرير»، كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه لبيّن نفسه و للناس أن لسلوكه هذا أسبابا معقولة (2)، فهم يقولون يا أبانا إننا ذهَبنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا، فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (3).

و على أية حال، فلقد كان أخوة يوسف قد أجمعوا أمرهم على أن

ص: 45

1- في ظلال القرآن 4/ 1975-1976.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 516-517.

3- سورة يوسف: آية 17.

يجعلوه في غيابت الجب (1)، ولكنهم سرعان ما غيروا رأيهم حيث أشار يهوذا على أن يبيعه للإسماعيليين، ولكن الأمور لم تسر كما يرغبون، وكما تقول التوراة «جاء رجال مديانين تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة، فأتوا بيوسف إلى مصر (2)»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (3).

وهكذا هبط الصديق مصر، كرفيق اشتراه رئيس الشرطة المصري بثمان بخس دراهم معدودة، رأى بعض المفسرين أنها دون الأربعين، على أساس أنها معدودة لا موزونة، وإنما يعدّ القليل، ويوزن الكثير، وكانت العرب تزن ما بلغ الأوقية، وهي أربعون درهما مما فوقها، وتعدّ ما دونها، ولهذا يعبرون عن القليلة بالمعدودة، وذهب ابن عباس وابن مسعود وغيرهما إلى أنهم باعوه بعشرين درهما، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنهم باعوه بأربعين درهما (4)، وأيا ما كان الأمر، فقد كانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم.

ص: 46

1- ذهب بعض المفسرين إلى أنها بئر بأرض الأردن أو هي بين مصر و مدين أو هي على مبعدة ثلاثة فراسخ من منازل يعقوب في كنعان، و هو الأرجح، أو هي بئر المقدس، غير أن التقاط السيارة له و مجيئهم أباهم عشاء يبكون ذلك اليوم، يضعف هذا الإتجاه (تفسير أبي السعود 258/4، تفسير النسف 214/2).

2- تكوين 18/37-28.

3- سورة يوسف: آية 19-20.

4- تفسير الطبري 16/13-16، تفسير القرطبي 9/155-157، تفسير المنار 2/281، تفسير ابن كثير 4/305، تفسير روح المعاني 12/204-205، تفسير أبي السعود 4/261، تفسير الخازن 3/271، تفسير النسفي 2/215، مؤتمر تفسير سورة يوسف 1/421-427، المقدسي: البدء والتاريخ 3/68.

بقيت الإشارة إلى أن هناك فريقاً من المفسرين ذهب إلى أن أخوة يوسف كانوا أنبياء، واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في آية آل عمران (84) قُلْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ، وَ الصَّحِيحُ أَنَّ الْأَسْبَاطَ لَيْسُوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب، كما نبه عليه المحققون (1)، هذا وقد جاء في المصباح المنير: السبط ولد الولد، و الجمع أسباط، مثل حمل و أحمال، و السبط: الفريق من اليهود، يقال للعرب قبائل، و لليهود أسباط، و من هنا ذهب المفسرون المسلمون إلى أن الأسباط هم بنو يعقوب، كانوا اثني عشر رجلاً، كل واحد منهم ولد سبطاً، أمة من الناس، فسموا أسباطاً، هذا وقد بعث الله منهم عدة رسل، غير أنه لم يصح أن أخوة يوسف بالذات كانوا أنبياء، إذ لو كانوا كذلك لما أقدموا عليه من الأفعال الشنيعة، فالحسد و السعي بالفساد، و الإقدام على القتل، و الكذب، و إلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تتنافى في عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء، مع هذه الجرائم، لا يقبله عقل حصيف (2)، و يقول ابن كثير: و ظاهر ما ذكرنا من فعالهم و مقالهم في هذه القصة يدل على أنهم غير أنبياء، و من استدل بنبوتهم بآية آل عمران (84) و زعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلال بقوى، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل و ما كان يوجد فيهم من الأنبياء ينزل عليهم الوحي من السماء، و مما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من

ص: 47

-
- 1- يذهب البعض إلى أن الأسباط كانوا من بني إسماعيل الذين أرسل الله إليهم رسلاً، لم يذكروا أسماءهم و لا أممهم، و بخاصة من بني قحطان، كقوم تبع و أصحاب الرس و سبأ (انظر صابر طيحة: بنو إسرائيل في ميزان القرآن- بيروت 1975 ص 181-196).
 - 2- محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير 2/ 45-46 (بيروت 1981)، تفسير الطبري 2/ 121، 3/ 111، 113، 6/ 569، تفسير الكشاف 1/ 195، تفسير روح المعاني 6/ 16، في ظلال القرآن 4/ 1973، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 150.

بين إخوته بالرسالة و النبوة أنه لم ينص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه (1).

[2] يوسف و امرأة العزيز:-

اشترى عزيز مصر يوسف من تجار الرقيق، ثم ذهب به إلى بيته وقال لامرأته «أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا (2)»، ذلك لأن الرجل إنما توسم في الصديق خيرا، والخير يتوسم في الوجوه الصباح، وخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح، فإذا هو يوصي به امرأته خيرا، وهكذا بدأ الصديق مرحلة جديدة في حياته في قصر عزيز مصر الذي اشتراه، وهو طبقا للرواية العربية، الوزير بمصر، و كان اسمه، فيما يروى عن ابن عباس، «قطفير» و كان على خزائن مصر، و كان الملك يومئذ «الريان بن الوليد» رجل من العماليق، و اسم امرأته راعيل أو زليخا (3).

على أن العجيب من الأمر أن تصف التوراة عزيز مصر بأنه «خصى فرعون رئيس الشرطة» (4)، و لست أدري كيف دار في خلد كاتب نص التوراة هذا، بأن رئيس الشرطة المصري كان خصيا، و من عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير، و إن رفضتها جمهرة المفسرين (5)، و كان

ص: 48

1- ابن كثير: البداية و النهاية 1/198-199.

2- سورة يوسف: آية 21: و روى ابن كثير في تفسيره عن عبد الله بن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، حين قال لامرأته «أكرمي مثواه» و المرأة التي قالت لأبيها عن موسى «يا أبت استأجره»، و أبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (مختصر تفسير ابن كثير 2/245).

3- مختصر تفسير ابن كثير 2/244.

4- تكوين 1/29.

5- تفسير الطبري 16/19، تفسير القرطبي ص 3389، تفسير أبي السعود 4/286، تفسير الخازن 3/293، و انظر: تفسير البيضاوي 1/491، تفسير المنار 12/272، تفسير روح المعاني 12/207، مؤتمر تفسير سورة يوسف 1/434، 503-504، 1/525-526.

الرجل لم يكن شافعا له، في نظر كتبة التوراة و من لفّ لفّهم، في دحض هذه الغيرة، أنه كان زوج أجمل سيدة في مجتمع الهكسوس، و لكن ما الحيلة و صاحب سفر التكوين من التوراة إنما يرى أن حاشية القصر كانت كلها من الخصيان، حتى لنجده كذلك يصف رئيس سقاة الملك و رئيس خبازية بأنهما من الخصيان (1).

غير أن الصديق، عليه السلام، إنما تعرض في أخريات أيامه في قصر العزيز إلى امتحان رهيب، بدأت به المحنة الثانية في حياته، و هي أشد من المحنة الأولى، تجيئه و قد أوتي صحة الحكم، و أوتي العلم، ليواجهها و ينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله تعالى في قرآنه، و ذلك حين راودته امرأة العزيز عن نفسه، لأنها افتتنت بحسنه فأحبته، و ليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانتها، لأنها تملك قيادة كما يشاء هواها، شأن ربات القصور المترفات اللائي أفسدت طباعهن الحرية و الفراغ، و كادت له لما رفض أن يستجيب، لأن لها من نفاذ الكلمة و من السلطان على زوجها ما مكنها من الانتقام، رغم ما عرف زوجها من آيات صدقه (2). و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا، لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ الشُّرَاءُ وَ الْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (3)، و يقول الأستاذ سيد قطب (4)، طيب الله ثراه، إن هذه الدعوة السافرة الجاهرة من امرأة العزيز، لا تكون).

ص: 49

1- تكوين 2/40.

2- التهامي نفرة: المرجع السابق ص 512.

3- سورة يوسف: آية 23-24، و انظر: تفسير الطبري 16/24-50، تفسير ابن كثير 4/306-309، تفسير المنار 12/227-235،

تفسير القرطبي ص 3391-3399.

4- في ظلال القرآن 4/1980-1981 (بيروت 1982).

أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبداً، إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً، و الفتى يعيش معها وقوته وفتوته متكامل، و أنوثتها هي تكمل و تنضج، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة العنيفة الغليظة، «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا- يفلح الظالمون»، و النص هنا صريح و قاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي، المصحوب بتذكير نعمة الله عليه، و تذكر حدوده و جزاء من يتجاوز هذه الحدود، فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعت إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، و بعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته و روايته و قالت: هيت لك.

هذا و قد حصر المفسرون القدامى منهم و المحدثون نظرهم في الواقعة الأخيرة «و لقد همّت به و همّ بها لو لا أن رأى برهان ربه»، فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة و مندفعاً شبقاً، و الله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع، صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بغمه، و صورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن (نعم القرآن) تنهى عن مثل هذا المنكر، و هو لا يروعى، حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدى، فجاء فضربه على صدره، إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة، و هي واضحة التلفيق و الاختراع (1).

على أن جمهور المفسرين إنما ساروا على أنها همّت به همّ الفعل، و همّ بها همّ النفس، ثم تجلّى له برهان ربه فتركه، و أنكر صاحب تفسير

ص: 50

1- في ظلال القرآن 1981/4 ثم انظر: تفسير النسفى 217/2، تفسير الطبري 33/16-48 تفسير ابن كثير 308/4-309 تفسير القرطبي ص 3391-3398، تاريخ الطبري 337/1-338، الكامل لابن الأثير 80/1-81، و من عجب أن التوراة لم تذكر شيئاً مما ذكره المفسرون من هذه الروايات، كما جاءت قصة المراودة في سفر التكوين 7/39-20.

المنار على الجمهور هذا الرأي، ويقول الإمام الفخر الرازي: الهم خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم يرى في الصيف الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه و طلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه، وقال أبو حيان في البحر: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبه لآحاد الفساق و الذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، وقال أبو السعود: إن همّ إليها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلا جليا، لأنه قصدها قصدا اختياريا، الا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له و نفرتة منه، و حكمه بعدم إفلاح الظالمين، و هل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلا محكما، و ما قيل: إنه حلّ الهميان، و جلس مجلس الختان، فإنما هي خرافات و أباطيل تمجّها الأذان، و تردّها العقول و الأذهان (1).

هذا و قد ذهب صاحب تفسير المنار (2) إلى أنها همت بضربه نتيجة إباطه و إهانتة لها، و هي السيدة الآمرة، و همّ هو برد الاعتداء، و لكنه أثر الهرب فلحقت به و قدت قميصه من دبر، على أن تفسير الهمّ، فيما يرى صاحب الظلال (3)، بأنه همّ الضرب و رد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهم مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن همّ الفعل أو همّ الميل إليه في تلك الواقعة، و فيه تكلف و إبعاد عن مدلول النص، ثم يرى في قوله تعالى وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ نَهَاة موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبى يوسف في أول الأمر و استعصم، و هو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة و الضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية).

ص: 51

1- تفسير الفخر الرازي 18/119، تفسير البحر المحيط 5/295، تفسير أبي السعود 2/63، تفسير المنار 12/231-136.

2- تفسير المنار 12/229-231.

3- في ظلال القرآن 4/1981-1982 (بيروت 1982).

و النجاة، و لكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من تلك اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، و في محيط الحياة البشرية الكاملة كذلك، فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله و الاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق و الواقعية و الجو النظيف جميعاً، ثم يرى صاحب الظلال بعد ذلك أن ذلك أقرب إلى الطبيعة البشرية و إلى العصمة النبوية، و ما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر ممتاز، و من ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره و قلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة عاد إلى الاعتصام و التأبي.

و لعل هذا قريباً مما ذهب إليه الزمخشري في الكشف حيث يقول:

فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية و قصد إليها، قلت (أي الزمخشري) المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة، و نازعت إليها عن شهوة الشباب و قرمه ميلاً يشبه الهمّ به و القصد إليه، و كما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول و العزائم، و هو يسر ما به و يرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، و لو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته، لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظيم الابتلاء و شدته.

و أياً ما كان الأمر، فلقد أثر الصديق التخلص بعد أن استفاق، و هي عدت خلفه لتمسك به، و هي ما تزال في هياجها الحيواني و استتبعاً الباب و قدت قميصه من دبرٍ و ألفياً سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، قال هي راودتني عن نفسي و شهد شاهد من أهلها، إن كان قميصه قد من قبل فصدق و هو من الكاذبين، وإن كان

فَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَدَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى فَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ، قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا، وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ (1).

هذا وقد اختلف المفسرون في هذا الشاهد، قيل هو ابن عم امرأة العزيز، و كان جالسا مع زوجها لدى الباب، و قيل كان حكيما يرجع إليه الملك و يستشيره، و ربما كان بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى لنبيه بالشهادة له و القيام بالحق، و إنما ألقى الله الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته و أنفى للتهمة (2)، قال أبو حيان في البحر: و كونه من أهلها أوجب للحجة عليها، و أوثق لبراءة يوسف، و أنفى للتهمة (3)، و ذهب جماعة من علماء السلف، على رأسهم ابن عباس و الحسن البصري و سعيد بن جبير و الضحاك، أنه كان صبيا في الدار، و اختاره ابن جرير، و فيه حديث مرفوع رواه ابن جرير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «تكلم أربعة و هم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف، و رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة و هم صغار، ابن ماشطة بنت فرعون، و شاهد يوسف، و صاحب جريح، و عيسى بن مريم»، و رواه الحاكم عن أبي هريرة (4)، و هكذا ظهرت براءة يوسف عليه السلام للعزيز، فقال له «يوسف أعرض عن هذا» أي لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور، كما يقول ابن كثير، هو الأليق و الأحسن، و أمرها هي بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، و التوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب

ص: 53

1- سورة يوسف: آية 25-29.

2- تفسير أبي السعود 4/268.

3- تفسير البحر المحيط 5/297.

4- مختصر تفسير ابن كثير 2/247، و انظر: تفسير الطبري 12/193، تفسير النسفي 2/218، تفسير أبي السعود 4/268.

اللّه عليه، وأهل مصر، وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها، هو اللّه وحده لا شريك له في ذلك (1).

غير أن أبناء الفضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز، ويتناقلنها بينهن، وأنها شغفت حبا بفتاها وخدامها، وكيف خرجت على طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها (2)، وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (3)، وفي ذلك إشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، أو لها زوج دنيء، قد تعذر في مراودة الأخدان، لا سيما إذا كان فيهم علو الجانب، وأما التي لها زوج، وأي زوج، إنه عزيز مصر، فمراودتها لغيره، لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلا، وتماديا في ذلك، إنما هو غاية الغي ونهاية الضلال (4)، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (5).

هذا وتشير الآية الكريمة إلى أن امرأة العزيز إنما أرادت أن ترد على النساء اللواتي أطلقن ألسنتهن فيها بمكر يوقعهن فيما وقعت فيه من طريق ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها، ومن ثم فقد أقامت لهن مأدبة في قصرها، وبدهي أنهن كن من نساء الطبقة الراقية اللواتي يهملها أمرهن، وهن اللواتي يدعين إلى الموائد في القصور، ويؤخذ

ص: 54

1- ابن كثير: البداية والنهاية 204/1.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 512.

3- سورة يوسف: آية 30.

4- تفسير أبي السعود 270/4.

5- سورة يوسف: آية 31.

بهذه الوسائل الناعمة المظهر، وأنهن كن يأكلن و هن متكئات على الوسائد والحشايا، فأعدت لهن هذا المتكأ، و آتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام، و يؤخذ من هذا أن الحضارة في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، و أن الترف في القصور كان عظيماً، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلف من السنين له قيمة في تصوير الترف و الحضارة المصرية بين حكام مصر من الهكسوس، و هم خليط من شعوب شتى، فما بالك بالمصريين أنفسهم، و هم أرفع شأنًا، و أكثر تمدناً، و أرقى حضارة من كل شعوب الشرق القديم، و على أية حال، فبينما النساء منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجأتهن بيوسف، فلما رأيته أكبرنه و جرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة، «و قلن حاشا لله، ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم»، و هذه التعبيرات، فيما يرى صاحب الظلال (1)، دليل على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان، و هنا أدركت امرأة العزيز أن هؤلاء النسوة يقفن معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأثني متجردة من كل تجمل المرأة و حيائها، فإذا بها تقول قول المرأة المنتصرة، و التي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، و إن كان قد استعصى قياده مرة، فهي تملك هذه القيادة مرة أخرى قالتُ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ، وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسَّ جَنَنٌ وَ لَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ، قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَ إِلَّا تَصْرَفْنِي عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (2).

و هكذا تحولت الأمور إلى صراع بين المرأة و الفتى، و دخلت كما يقال في دور من العناد و المفاعلة غريب، هي بتهالكها الذي انكشف عن تحجج

ص: 55

1- في ظلال القرآن 4/ 1953، 1984-1985.

2- سورة يوسف: آية 32-34.

سافر، و كبر خائر، و هو بإصراره الذي لا سبيل له إلا إلى المضي فيما بدا و أعلن للناس، و لكنه مع ذلك لم ينج منهم و من كيد نسايتهم، و تحالفت عليه قوى البغي، فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج، و أساء إلى الخلق المتين (1)، ثمَّ بدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوْا الآياتِ لَيْسُجُنَّةً حَتَّى حِينَ (2).

و ليس هناك من سبيل إلى شك في أن هذه إنما تقدم لنا صورة لمجتمع فاسد آثم، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس المغتصبين في مصر من فساد و انحلال، و لو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة، لاتخذناها وحدها دليلاً على مجتمع يسوده الأجانب و الغرباء، و لنفيها عن المصريين و نسبناها إلى المجتمع الأجنبي مطمئنين، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر، و تخرج عن سليقة المصري بما ركب فيه من الأنفة و الحمية و الكرامة و الكبرياء، و لو نظرنا إلى بعض قصص التوراة، لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصص التوراة و أدنى إلى مجتمعها (3)، على حين تنبوع عن مجتمع المصريين الأصلي، و تخالف تقاليدهم و أذواقهم، خلافاً يفوق كل خلاف (4).

[3] يوسف في السجن :-

تمثل هذه الفترة في حياة الصديق المحنة الثالثة و الأخيرة، فكل ما بعدها رخاء، و ابتلاء لصبره على الرخاء، بعد ابتلاء صبره على الشدة، و المحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة، و السجن للبريء المظلوم أفسى، و إن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية

ص: 56

- 1- أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن و السنة- القاهرة 1973 ص 45.
- 2- سورة يوسف: آية 35.
- 3- انظر عن مجتمع قصص التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 162-218).
- 4- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 45-46.

وسلوى (1)، ذلك أن القوم من الهكسوس سرعان ما قذفوا بالصدى إلى السجن، رغم ما رأوا من آيات براءته، كقد القميص وقطع الأيدي و شهادة الصبي وغير ذلك، مدة لم يحددوا زمنها، لأن الهدف من ذلك إنما كان أن ينسى الناس قصته مع امرأة العزيز، هذه القصة التي لاكتها الألسن بين أوساط الناس.

و مع ذلك، فإن الصديق عليه السلام، إنما يتقبل السجن صابرا محتسبا، ورغم أنه كان في سجنه غريبا وحيدا بيد أنه كان دائما يسبح لمن أحيا الفؤاد بنوره، فإذا به يستشعر رحابة في وجدانه وسعت الكون كله، و سمت روحه لتتصل بروح الوجود، و إذا به يأنس بربه، و يحس تعاطفا مع كل من حوله و ما حوله، و إذا بقلبه يفتح للبشرية جمعا، حتى الذين ظلموه لم يحقد عليهم، كانت إرادته أن يتقي الله حق تقاته، و نيته أن يخلص لله، و عزمه أن يصل حبله بحبل الله، و قصده أن يهب نفسه لله، و أن يسير في سبيل الله فجراه الله الجزاء الأوفى، فعلمه من علمه، و الله بكل شيء عليم (2).

و كان ملك مصر من الهكسوس الغزاة قد أدخل معه صاحب طعامه و صاحب شرابه بعد أن اتهمهما بأنهما تأمرا عليه و دسا له السم في الطعام، فراح الصديق يدعوهما إلى الله و يذهب عنهما حزنها، و يبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما، و يرى السجناء في مسلكه الطاهر ما يجذبهم إليه، فيطلبون إليه تفسير الرؤيا و تأويل الأحلام (3)، و يكاد القرآن الكريم و العهد

ص: 57

1- في ظلال القرآن 1987/4.

2- عبد الحميد جودة السحار: بنو إسماعيل - القاهرة 1966 ص 56-58.

3- هناك بحوث كثيرة لعلماء النفس في الأحلام، فمن قائل إنها صورة من اللاشعور النهائي، أو هي صورة من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي، و من قائل إنها تعويضية، و من قائل إنها تقوم بوظيفة لإعداد الحياة، إذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون، لأنهم يلتمسون في الحلم حلولا - لا - يسيرون عليها في نشاطهم المقبل (إسحاق رمزي: علم النفس الفردي - القاهرة 1919 ص 132-134، التهامي نقرة: المرجع السابق ص 518، في ظلال القرآن 1972/4)، و يذهب ابن خلدون في المقدمة (ص 180) أن النفس إذا خفت عنها شواغل الحس و موانعه بالنوم، تتعرض إلى معرفة ما تشوق إليه في عالم الحق، فقدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب، و لذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات. و روى عن أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قيل و ما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة» (صحيح البخاري 40/9 - القاهرة 1378) و في تفسير النسفي 169/2 روى عنه صلى الله عليه و سلم) عن البشرى «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»، و عنه صلى الله عليه و سلم «ذهبت النبوة و بقيت المبشرات، و الرؤيا الصالحة جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة» (تفسير النسفي 169/2)، و يرى الإمام الغزالي أن أدلة العقل وحدها لا تكفي لنبوة نبي، و يقول: إنما نعرف النبي أو العارف الذي يتلقى علمه من الله بأمر آخر، فإن الله أعطانا نموذجا من خصائص النبوة نشاهده في نفوسنا، و يعني بذلك ما يراه النائم من أسرار الغيب (الغزالي: المنقذ من الضلال - القاهرة 1308 ه ص 24-26)، و يذهب صاحب الظلال (1972/4) إلى أننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد، ملزمون بهذا أولا من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، و رؤيا صاحبه في السجن و رؤيا ملك مصر، و ثانيا ما نراه في حياتنا من تحقيق رؤيا تنبئية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده لأنه موجود بالفعل.

القديم يتشابهون في عرضهما للأمر، وإن استغرقت التوراة كثيرا في رؤيا السجينين (1).

على أن القرآن الكريم إنما ينفرد وحده بذكر دعوة يوسف عليه السلام، وهو في السجن، إلى توحيد الله، وبتث العقيدة الصحيحة، ويظهر جليا في هذه الدعوة لطف مدخله إلى النفوس، وسيره خطوة خطوة في رفق وتوده (2)، لا- يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي (3)، وكأنه أراد إخبارهما بمعجزاته توطئه لدعائهما إلى الإيمان، قال

ص: 58

1- سورة يوسف: آية 36-37-41، تكوين 1/40-22.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 535.

3- سورة يوسف: آية 37.

الإمام البيضاوي: أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهم إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الأخبار بالغيب لدهما على صدقه في الدعوة والتعبير (1).

ثم يتوغل في قلوبهما أكثر، ويفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد اعتقادهما، واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد الطويل (2)، إني تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَأَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (3)، وهي صورة للإسلام واضحة كاملة دقيقة شاملة، كما جاء بها رسل الله جميعا، من ناحية أصول العقيدة تحتوي، الإيمان بالله وبالآخرة، وتوحيد الله وعدم الإشراف به أصلا، ومعرفة الله تعالى بصفاته الواحد القهار، والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا، ومن ثم نفي الأرقاب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده، ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده، وحديد معنى «العبادة» بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، أي إفراده بالحكم، فهما مترادفان أو متلازمان «إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا

ص: 59

1- تفسير البيضاوي 2/ 264.

2- محمد رجب البيومي: البيان القرآني - القاهرة 1971 ص 225.

3- سورة يوسف: آية 37-40.

إلا إياه ذلك الدين القيم»، وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها (1).

وهكذا يبلغ الصديق عليه السلام، أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه، مرتبطاً في مطلعته بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن، ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به يا صاحبي السجنِ أمّا أحدكما فيسدّ قمي ربّه حمراً، وأمّا الآخر فيصَلب فتأكل الطير من رأسه فضي الأمر الذي فيه تستفتيان (2).

والصديق، مع هذا كله، بشر، فيه ضعف البشر، فهو يتطلب الخلاص من سجنه، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن، وإن كان الله تعالى شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده، وقال للذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلَبثَ في السجنِ بضْعَ سِنِينَ (3)، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع، وفي الحديث «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل أذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعا» (4)، والاستعانة بالعباد، وإن كانت مرخصة، لكن اللائق بالأنبياء الأخذ بالعزائم (5)، وجاء في تفسير القرطبي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوانك، قال الله تعالى، قال فمن أخرجك من الجب، قال الله تعالى، قال فمن عصمك من الفاحشة، قال الله تعالى، قال فمن صرف عنك كيد النساء، قال الله تعالى، قال: فكيف تركت ربك فلم تسأله

ص: 60

1- في ظلال القرآن 4/ 1960.

2- سورة يوسف: آية 41.

3- سورة يوسف: آية 42.

4- تفسير النسفي 2/ 223.

5- تفسير أبي السعود 4/ 280، تفسير الخازن 3/ 285-286.

و وثقت بمخلوق، قال يا رب كلمة زلت مني، أسألك يا إله إبراهيم وإله الشيخ يعقوب عليهم السلام: أن ترحمني، قال جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين (1).

وجاءت ساعة الذكرى عند ما رأى الملك حلما غريبا لا يقدر تفسيره أحد، فتذكر السجن السالف براعة يوسف، ويشير به، ثم ينهض إلى استفتائه فينطوي بالتأويل الصريح (2)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ، وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ (3)، قال الإمام الزمخشري: تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضرة بسنين مخصيب، والعجاف اليابسات بسنين مجدية، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي (4)، لأن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف، فبشر به الساقى ليبشر به الملك والناس بالخلاص من الجذب والجوع بعام رخي رغيد.

ص: 61

1- تفسير القرطبي 196/9.

2- محمد رجب البيومي: المرجع السابق ص 225.

3- سورة يوسف: آية 43-49.

4- تفسير الكشاف 477/2.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه قد مرت بنا رؤى ثلاث، رؤيا يوسف، ورؤيا صاحب السجن، ورؤيا الملك، وطلب تأويلها في كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وفي خارج مصر، وأن الهبة التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف عليه السلام (1)؟ ربما كان الأمر كذلك.

وعلى أي حال، فلقد طلب الملك أن يأتوا بيوسف من السجن، غير أن الصديق إنما يرفض أن يغادر سجنه حتى تظهر براءته للناس جميعا، مما ألصق به من تهمة هو منها براء، قال السدي، قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة يقول:

هذا الذي راود امرأتي، فلما رجع الرسول إلى الملك من عند يوسف جمع الملك أولئك النسوة (2) فقال لهن: ما خَطْبُكُنَّ إذ راوَدْتُنَّ يُوْسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ، وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (3).

وهكذا تثبت الأحداث السابقة جميعا عصمة النبي الكريم سيدنا يوسف عليه السلام وبراءته من تلك التهمة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ولا صفات الأنبياء الكرام البررة، فضلا عن أن يوسف نبي وجد أبيه نبي، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، هذا وقد قدم لنا الأستاذ الصابوني وجوها عشرة على عصمة يوسف وبراءته،

ص: 62

1- في ظلال القرآن 4/ 1993-1994.

2- تاريخ الطبري 1/ 346.

3- سورة يوسف: آية 51-53.

منها (أولاً) امتناعه عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون»
و منها (ثانياً) فراره من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقته عليه الخناق وأرادته على نفسها بالغضب والإكراه، ولو كان يوسف قد همّ
بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد ذلك يقدم ولا يفر «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر» الآية، و منها (ثالثاً) شهادة بعض أقرباء
المرأة ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه فإن كان طالبا وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام، وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع
فإن ثوبه سيشق من خلف، وهذا ما ثبت (الآيات 26-29)، و منها (رابعاً) تفضيله السجن على عمل الفاحشة (آية 33) وهذا من أعظم
البراهين على براءته، ذلك لأنه لو طأوعها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة الظالمة، و منها (خامساً) ثناء الله تعالى عليه
في مواطن عديدة من السورة، كما في الآيات (21، 22، 24) فلقد أخبر الله تعالى أنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، ولن يكون
ثناء الله تعالى إلا على من صفت نفسه، و ظهرت سيرته من كل نية سوء، و كل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين، كما أثنى عليه سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: إن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

و منها (سادساً) اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته و عفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما في الآيات (31-32) و منها (سابعاً) ظهور
أمارات براءة يوسف بكل الأدلة، كقد القميص و قطع النسوة أيديهن و شهادة الصبي، و مع ذلك فقد أقدم العزيز على سجنه إيها ما للناس، و
سترا على زوجته (الآية 35)، و منها (ثامناً) استجابة الله تعالى لدعوة يوسف بأن يصرف عنه كيدهن، و لو كان راغباً في مطاوعة امرأة
العزيز، لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن (الآية 34)، و منها (تاسعاً) عدم قبول يوسف الخروج من السجن

حتى تظهر براءته أمام الناس جميعاً، (الآية 50) و منها (عاشراً) الاعتراف الواضح من النسوة و من امرأة العزيز ببراءة يوسف و عفته (الآيات 51-53) (1).

ص: 64

1- محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 74-78، صفوة التفاسير 2/ 53-54، تفسير النسفي 2/ 221

ظهرت براءة يوسف عليه السلام، كما رأينا، في الفصل السابق، و من ثم فقد خرج من السجن، و لقي الملك و تحدث إليه، فرأى فيه مخايل الأمانة، و حكمة التصرف و عزة النفس، و أمارات السيادة فقربه إليه، و رفع منزلته لديه، و هكذا تشاء إرادة الله أن يصبح الصديق على خزائن الأرض أميناً، بعد أن كان في زوايا الأرض سجيناً، إذ ينال الحظوة عند ملك مصر من الهكسوس بعد أن قام بتفسير رؤياه تفسيراً يتفق و مقام النبوة، و يتنزه عن تفسيرات رجال البلاط و حكمائه من سدنة و كهان، فضلاً عن براءته مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، و من ثم فقد قلده الملك ما يشبه وزارة التموين في عصرنا الحاضر (1)، و إن كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء (2)، و هكذا قدّر للصديق عليه السلام أن يرتفع من رقب العبودية إلى كرسي الوزارة (3)، و أن يتزوج، فيما تروي التوراة، من سيدة مصرية هي «أسنات

ص: 65

1- انظر: سورة يوسف: آية 54-56، تكوين 41 / 1-44.

2- تكوين 41 / 40-44.

3- ربما كان الصديق، حدسا عن غير يقين، يشرف على ما كان يسمى في مصر القديمة، مصلحة الحقول و الخزانة، فأما مصلحة الحقول: فكان يتبعها الأراضي الزراعية على ضفاف النيل، فضلاً عن تلك التي تقع على حافة الصحراء و المحيطة بالمقابر و الأهرامات الملكية، و أما مصلحة الخزانة، و كانت تسمى بيت المال الأبيض (برجج) و يتولى إدارتها، تحت إشراف الوزير، مدير البيت الأبيض المزدوج، و لها فروع من الأقاليم، كما كانت تنقسم إلى قسمين: بيت الذهب و بيت الشونة (أنظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 129)، غير أن المؤكد أن يوسف كان يشغل منصب العزيز، كما وصف في القرآن (سورة يوسف: آية 78).

بنت فوطي فارع» كاهن أون (عين شمس)، و منها أنجب ولديه منسي وأفرايم (1)، وإن زوّجته المصادر العربية من امرأة العزيز التي راودته عن نفسه من قبل، وقد أسموها راعيل أو زليخا، بعد أن شغل منصب زوجها كذلك بسبب موته أو إعفائه من منصبه (2).

ولعل سائلا- يتساءل: أليس في قول يوسف عليه السلام «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» أمران محظوران في الإسلام، أولهما:

طلب التولية وهو محظور بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سألته أو حرص عليه» (متفق عليه)، وأنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها»، و ثانيهما: تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالى: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ (3).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن يوسف إنما طلب الولاية رغبة في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس، وإنما هو للإشعار بحنكته و درايته لاستلام وزارة المالية (4)، و ذهب أبو السعود

ص: 66

1- تكوين 45/41، 50-52.

2- تفسير أبي السعود 286/4، تفسير النسفي 228/2، تفسير الخازن 293/3، تاريخ الطبري 347/1، تاريخ ابن خلدون 45/2، الكامل في التاريخ لابن الأثير 83/1، البداية والنهاية لابن كثير 210/1.

3- في ظلال القرآن 2006/4، تفسير الخازن 292/3.

4- صفوة التفاسير 57/2.

في تفسيره (1) إلى أنه قال «اجعلني على خزائن الأرض» أي أرض مصر (2) ولني أمرها من الإيراد و الصرف، إني حفيظ لهما ممن لا يستحقهما، عليم بوجود التصرف فيهما، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وقيل إن الملك أسلم، وقال الخازن في تفسيره: يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها، فإذا تعيّن وجب عليه ولا كراهية عليه، وأما يوسف فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى، والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره، وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها، وهنا في طلب الإمارة، بسبب ما سيحدث من قحط، إيصال الخير للمستحقين، فيجب طلبها (3).

و ذهب الإمام النسفي في تفسيره إلى أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في قوله «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليهم»، بالأمانة والكفاية وهما طلببة الملوك ممن يولونهم، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلبه ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدين، وفي الحديث «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة»، قالوا وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان حمالة من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة، وإذا علم النبي أو الظالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم، إلا بتمكين الملك الكافر أو

ص: 67

1- تفسير أبي السعود 286/4.

2- قال الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: قال: اجعلني على خزائن الأرض. «قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض» أما سمعت قوله «اجعلني على خزائن الأرض» أي على حفظها (تفسير القرطبي ص 3442).

3- تفسير الخازن 292/3.

الفاسق فله أن يستظهر به (1)، وأما ابن كثير فيذهب إلى أنه يجوز للرجل أن يمدح نفسه، إذا جهل أمره، للحاجة، ولهذا قال يوسف إنه حفيظ، أي خازن أمين، وعليم، أي ذو علم و بصيرة بما يتولاه، و من ثم فقد طلب يوسف من الملك أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء، لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سنن الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم و الرفق بهم، وأخبر الملك إنه حفيظ أي قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، عليم بضبط الأشياء و مصالح الأهراء، و في هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة و الكفاية (2).

هذا و يتجه صاحب الظلال إلى أننا لا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد (عدم طلب التولية و عدم تزكية النفس) إنما تقررت في النظام الإسلامي على عهد سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام، و المسائل التنظيمية في هذا الدين (الإسلام) ليست موحدة كأصول العقيدة الثابتة في كل رسالة و على كل رسول، لا نريد أن نجيب بذلك، و إن كان له وجه، لأن الأمر يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بدّ من إدراكها، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول و النصوص، و ذلك لأن يوسف عليه السلام لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس، و عدم طلب الإمارة، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا، لا خادما في وضع جاهلي، و كان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه و نشره في مصر في أيام حكمه، و قد توارى العزيز، و توارى الملك تماما (3).

ص: 68

1- تفسير النسفي 2/ 227.

2- تفسير ابن كثير 2/ 254 (المختصر)، البداية و النهاية 1/ 210، و انظر تاريخ الطبري 1/ 347.

3- في ظلال القرآن 4/ 2006، 2013.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك من يزعم أن يوسف عليه السلام، قد استقل بملك مصر، اعتماداً على قول يوسف في دعائه «رب قد آتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث»، ولا دليل لهم في ذلك، فيما يرى ابن خلدون، لأن كل من ملك شيئاً، ولو في خاصة نفسه، فاستيلاؤه يسمى ملكاً، حتى البيت و الفرس و الخادم، فكيف من ملك التصرف، و لو كان من شعب واحد منها، فهو ملك، و قد كان العرب يسمون أهل القرى و المدائن ملوكاً (1)، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد، و في تلك الدولة، و أما الذين يستدلون بقوله تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ لَيْسَ بِدِيلٍ أَيْضًا، لأن التمكين يكون بغير الملك، و نص القرآن إنما هو بولاية على أمور الزرع في جمعه و تفريقه، كما قال تعالى:

اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، و مساق القصة كلها أنه مرءوس في تلك الدولة بقرائن الحال كلها، لا يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن إلى هذا المتوهم الضعيف، و أيضاً فالقصة في التوراة (2) قد وقعت صريحة في أنه لم يكن ملكاً و لا صار إليه ملك، و أيضاً فالأمر الطبيعي من الشوكة و القطامة له يدفع أن يكون حصل له ملك، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أن يأتي إليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه، و لا يتأتى الملك في هذا الحال (3)، هذا فضلاً عن

ص: 69

1- تشير نصوص فرعون مصر تحوتمس الثالث (1490-1436 ق، م) على أنه حارب في موقعه مجد و حوالي عام 1468 ق، م، أعداءه من ملوك سورية بزعامة أمير قادش، و عددهم 330 ملكاً و أميراً، مع كل منهم جيشه الخاص، و قد انتصر عليهم، كما تشير نصوص شلمنصر الثالث الأشوري أنه حارب في موقعه قرقر عام 853 ق، م حلفاً من الأمراء السوريين يضم اثني عشر ملكاً على رأسهم بنحدد ملك دمشق، كما اعتاد العرب تسمية حكام القرى و المدائن ملوكاً مثل هجر و معان و دومة الجندل، و كان ولاية الأطراف و عمالها في الخلافة العباسية يسمون ملوكاً.

2- تكوين 33/41-57.

3- تاريخ ابن خلدون 2/47.

أن جمهرة المؤرخين و المفسرين إنما تذهب إلى أنه كان أشبه بوزير التموين أو المالية أو ما يشبه ذلك، مما يفهم منه أنه كان المسئول عن جمع الغلال و حفظها في الأهراء في سنوات الرخاء، و حسن استخدامها في أعوام المجاعة (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التاريخ المصري إنما يصدق الأحداث التي أتت بيوسف عليه السلام إلى هذا المنصب ذلك أن مصر إنما كانت عرضة للمجاعات، و فترات من تدهور الإنتاج الزراعي و الحيواني على مرّ العصور، و لقد كان ذلك في أغلب الأحيان من آثار اضطراب النيل و امتناع فيضه، و إخلاله بالوفاء، كما تعود و تعود منه الناس كل عام، فإذا تدهور و أقام على نقائصه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التي تتحرق شوقاً إليه، و تنتظر العام كله، أو جلّه، للقاءه، فعندئذ فلا ريّ و لا استنبات، ثم لا زرع و لا ضرع، فتكون الكارثة التي تنزل بالبلاد و العباد (2).

و التاريخ يحدثنا أن الله تعالى ما جعل بلدا في العالم، تتوقف حياته و وجوده، مصيره و مستقبله، في السلم أو في الحرب، أو يرتبط سكانه و تاريخه بنهر، مثلما تفعل مصر و النيل، و من ثم فإذا بالغ النيل في فيضه أحيانا، فتعظم أمواجه و تضري أمواجه، فإذا هو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مغرقا كل شيء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقف انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سيئ المسغبة، و إن لم يبلغ

ص: 70

1- أنظر: تاريخ الطبري 1/ 347-348، الكل لابن الأثير 1/ 83-88، ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 210، صفوة التفاسير 2/ 57، تفسير أبي السعود 4/ 286، تفسير الخازن 3/ 292.

2- انظر: تفسير ابن كثير 4/ 321، تفسير القرطبي ص 3446-3447، تفسير الطبري 16/ 148-152، تفسير النسفي 2/ 228، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 55، تفسير الجلالين ص 311-312، صفوة التفاسير 2/ 57.

ذلك من سوئه مبلغ نقص الماء، ذلك أن النهر إن هبط عن معدله الطبيعي، فهي «الشدة» التي قد تصل إلى «المجاعة»، وإذا كان الفيض المغرق يعني الطاعون، فإن المجاعة كانت تعني «الموتان» الذي يصل إلى حد نشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة (1).

على أن إنحباس النيل ونضوب موارد الدولة، إنما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسي، وتحلل السلطة المركزية، و تدهور الأمن واضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع، شرا مستطيرا، و شقاء متصلا، يحل بالناس فيترك في نفوسهم وعقولهم أثرا لا يمحي أو لا يكاد يمحي (2). و يقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة لانخفاض النيل في مصر قبل وبعد عصر يوسف الصديق عليه السلام، و ما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية، و من أشهر الأمثلة ما حدث على أيام الثورة الاجتماعية الأولى (الأسرات 7-10) يقول «نفتي»: لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، و سوف يبحث الناس عن الماء لتجري عليه السفن فيجدوا أن الطريق قد صار شاطنا، و أن الشاطئ قد صار ماء (3)، و من ثم فقد رأينا من نفس الفترة شريفا من الصعيد هو «عنخ تقي» حاكم «نخن» (البصيلية- مركز أدفو بمحافظة أسوان) يتحدث عن سني المجاعة فيقول إنه أمد خلالها مدنا أخرى، إلى جانب مدينته، بالهبات و القمح، و قد امتدت دائرة نشاطه حتى دندرة، في مقابل قنا عبر النهر، و بدأ أنقذ الصعيد الجنوبي الذي كاد يموت جوعا، و كاد كل رجل فيه أن يغتال أطفاله (4).

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة و حسن التدبير،

ص: 71

1- جمال حمدان: شخصية مصر - القاهرة 1970 ص 241-245.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 56.

3- EAL, namrE. A 113. p, 1927.

4- shoarahP eht fo tpygE, renidraG. A 111. p, 1961.

إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الري لأيام الجفاف، و من يسرهم لعسرهم، و من رخائهم لشدتهم، و كانت حكمة الملوك و الأمراء و حكام الأقاليم و حسن تدبيرهم خليقا أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون (1)، و من ثم فقد رأينا «خيتي» أمير أسيوط على أيام الإهناسيين يتحدث عن جهوده في القضاء على الأزمة الاقتصادية، بأن يقدم هدية لمدينته بأن حفر ترعة ليروي الفلاحون منها أرضهم و يسقوا زرعهم، ثم يقول: إنني غني بقمح الشمال حيث كانت الأرض في جفاف، و عند ما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب و الخبز، و سمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه و نصيب زوجته، و قد أعطيت الأرملة و ولدها، و تجاوزت عن الضرائب التي فرضها أبي، و ملأت المراعي بالمواشي (2)، و في مدينة الكاب، مقابل البصيلية عبر النهر، نرى أميرها «ببي» من الأسرة الثالثة عشرة، التي سبقت قليلا جدا عصر الصديق، و ربما عاصرت أوائله من أيام الهكسوس، يقول: «لقد كنت أكس القمح الجيد المطلوب، و كنت يقظا في فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتي القمح في كل مجاعة (3)».

على أن العلماء على كثرة ما قرءوا من أخبار المجاعات في مصر القديمة (4)، إنما يقفون خاصة موقف الفاحص من مجاعة نقشت أخبارها

ص: 72

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 57-58.

2- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى - الإسكندرية 1966 ص 128-129. و كذا F, eriac eL, enneicnA etpygE'l

.I, ERA, detsaerB. H. J 181. p, 1906 و كذا, snad enimaF aL, reidnaV. J 101. p, 1936

P, tic, po reidnaV. T 114-3

4- تعرضت مصر لكثير من المجاعات في العصور الوسطى بسبب انخفاض النيل، كالتي حدثت على أيام الأمويين في عام 87 م، و على أيام الإخشيديين في أعوام 329 م، 338 م، 341 م، 343 م، 351 م، و لعل أشهر و أشع المجاعات ما سجله البغدادي أثناء الشدة المستنصرية التي بدأت عام 457 م، و استمرت سبع سنين متصلة في أخريات أيام الفاطميين، و بلغ من قسوته أن أكل الناس القطط و الكلاب، ثم الجيف، ثم أكلوا بعضهم بعضا، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان، لا يملك قارئ البغدادي إلا أن يتصوره فناء كاملا أو شبه كامل (أنظر: جمال حمدان: المرجع السابق ص 244-245، محمد حمدي المناوي: مصر في ظل الإسلام 171/1-175، الكندي: كتاب الولاية و كتاب القضاة ص 59 (بيروت 1908)، السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة 154/2).

على الصخر من جزيرة سهيل جنوبي أسوان، ولئن كان الخبر منسوباً إلى أيام الملك «زوسر» من الأسرة الثالثة فالذي لا شك فيه إنما نقش بعده بعشرين قرناً من الزمان، نقشه كهان «خنوم» على عهد البطالة، ربما عام 187 ق. م.

على أيام بطليموس الخامس، وربما بطليموس العاشر في أكبر الظن، أي في الفترة (107-88 ق. م.)، وغير بعيد أن يكون النص صوتاً من واقع بعيد، يرجع إلى أيام الصديق، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد بطليموس الخامس أو العاشر، إنما كانوا تحت تأثير ما كان يومئذ من أصداء الماضي السحيق، وبما ورد في التوراة من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر يومئذ من يهود، بخاصة وأن الترجمة السبعينية (1) للتوراة كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (284-246 ق. م.)، وأن هناك جالية من يهود إنما كانت تقيم في اليفانتين (جزيرة أسوان) (2) وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل حيث نقش نص المجاعة (3).

وعلى أية حال وأياً ما كانت ظروف هذه المجاعات التي كانت بسبب عدم فيضان النيل، فإن المجاعة التي كانت ستحدث على أيام الصديق في عهد

ص: 73

1- انظر: عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 107/3 - 112).

2- أنظر: عن الجالية اليهودية في أسوان (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1076/2 - 1102).

3- أنظر: عن نقش المجاعة على جزيرة سهيل: محمد بيومي مهران: مصر 366/1 - 366، إسرائيل 1/227 - 229، و كذا، oriaC, P, tic- po, و كذا، lehaS a enimaF aL ed eletS aL, teugraB. P 1953 و كذا، 1966، W. A. J 32- 31. p، TENA, nosli و كذا، reidnaV. J. 139- 132

الهكسوس، إنما كانت حقيقة لا ريب فيها، لو لا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة يوسف عليه السلام، و من ثم فقد كانت أيام الصديق في مصر خيرا كلها، دينا و دنيا، بل إن وجود يوسف في مصر حين من الدهر، شرف ما بعده شرف، و أن دعوته كانت رحمة و هداية للمصريين، ما في ذلك من ريب، و أن الصديق عليه السلام قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة، كادت تهلك الحرث و النسل، و أنه قد نشر في مصر دعوة التوحيد و بث العقيدة الصحيحة، ما في ذلك شبهة من شك، و هكذا حمل الصديق عليه السلام إلى مصر نور الإيمان و هداية التوحيد، و عدالة الله، و كل ما هو خير و طيب من نعم الله التي يجريها، سبحانه و تعالى، على أيدي المصطفين الأخيار من أنبيائه الكرام البررة.

[2] يوسف و إخوته في مصر :-

ما أن تمضي سنون الرخاء السبع، و تبدأ سنون الجفاف في مصر، حتى يجتاح أرض كنعان (فلسطين) جدد، فتفقر الأرض و تعم المجاعة، و تتجه كنعان صوب أرض الكنانة، الطيبة و الكريمة كذلك، لعلها تجد عندها المأوى، كالعهد بها دائما و أبدا، و ينطلق أبناء يعقوب إلى مصر مع المنطلقين، فقد أصابهم من الجوع ما أصاب غيرهم، و يتعرف الصديق على إخوته و هم له منكرون، و هذا من بديهيات الأمور، فإن يوسف قد عرفهم لقوة فهمه، و عدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم و هم رجال، و تشابه هياتهم و زيّهم في الحالين، و لكن همته معقودة بهم و بمعرفة أحوالهم، لا سيما زمن القحط، و أما هم فلم يعرفوه لأن خيالهم لا يتصور قط أن هذا الوزير الخطير، هو ذلك الغلام العبراني الذي ألقوه في الجب منذ عشرين عاما أو تزيد، فقد كبر بعد صغر، و اغتنى بعد فقر، و عاش بعد أن دفعوه إلى الموت، و عزّ بعد أن حقّروه و أهانوه، و ورّر بعد أن كان من رعاة

الأغنام، فكيف يعرفون وجودا من عدم، و من أجل هذا عرفهم، و هم له منكرون، و لم يخطر على بالهم أنه نجا من الجب الذي ألقوه فيه، و أنه عاش و كبر، و نزع من كنعان إلى مصر ليصير وزيرا خطيرا (1).

و من عجب أن التوراة، و من نحا نحوها من المفسرين، إنما تفاجئنا بصورة غريبة عن محاورة دارت بين يوسف و إخوته، تذهب فيها إلى أن الصديق إنما عرف إخوته منذ اللحظة الأولى للقائه بهم، و أنه قد اتهمهم بالتجسس ثم حبسهم أياما ثلاثة، ثم أطلق سبيلهم، و إن استبق أخاهم «شمعون» حيث قيده على مرأى منهم، حتى يعودوا إليه بأخيهم «بنيامين» (2)، و هذا التهديد، إن حملناه محمل الجد، فلا بد من القول إنه إنما يدل على أن يوسف إنما كان يحمل حقدا دفيناً على إخوته، و هو أمر لا نشك في براءة الصديق منه البراءة، كل البراءة، هذا و قد ذهبت جمهرة من المفسرين و المؤرخين المسلمين إلى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه عرفهم و قال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال لعلكم عيون (جواسيس) علينا، قالوا: معاذ الله، قال فمن أين أنتم، قالوا من بلاد كنعان، و أبونا يعقوب نبي الله، قال: و له أولاد غيركم، قالوا نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا و هلك في البرية، و كان أحبنا إليه، و بقي شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه، و جئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم و إكرامهم (3).

و أما القرآن الكريم فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم، ورد إليهم ما

ص: 75

1- تفسير أبي السعود 288/4، محمود زهران: قصص من القرآن ص 87.

2- تكوين 7/42-24.

3- أنظر: تفسير النسفي 288/2، تفسير الجلالين 249/2، مختصر تفسير ابن كثير 255/2، صفوة التفاسير 58/2، تاريخ الطبري 1/348، الكامل لابن الأثير 84/1، البداية و النهاية لابن كثير 1/211.

دفعوه من ثمن دون أن يشعروهم (1)، وجاء أن يغريهم ذلك بإحضار شقيقه بنيامين، وهددهم بلطف إن لم يأتوا به فلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ، ولم يرد في الذكر الحكيم مما ورد في التوراة من إساءته لإخوته، إذ أن ذلك لا يتفق و الصورة التي رسمها القرآن الكريم وأبرز معالمها لشخصية يوسف، و ما اتسمت به من حلم وإخلاص وبر، وهو الذي علمه ربه وأحسن هدايته، و طهر قلبه من الحسد، قال تعالى منها بشأته: كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (2).

و دارت مفاوضات بين يعقوب عليه السلام وأبنائه انتهت بقبوله إرسال بنيامين معهم، على أن يؤتره موثقا من الله أن يردوه عليه، إلا أن يحاط بهم (3)، فلما أتوه موثقهم جعل النبي الكريم يوصيهم بما خطر له، وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (4).

و تضرب الروايات و التفاسير في هذا و تبدي و تعيد بلا ضرورة، و لو كان السياق القرآني يحب أن يكشف عن السبب لقال، و لكنه قال فقط «إلا حاجة في نفس يعقوب قضاهها، فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق احتفاظا بالجو الذي أراده، و الجو يوحى بأنه كان يخشى شيئا عليهم، و يرى

ص: 76

- 1- جاء في تفسير الظلال (4/2016) أن يوسف لم يعطهم قمحا، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم، فلما عادوا قالوا: يا أبانا منع منا الكيل، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم، و كان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، و كان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه.
- 2- أنظر: سورة يوسف: آية 58-63.
- 3- سورة يوسف: آية 63-66.
- 4- سورة يوسف: آية 67-68.

في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء، مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله شيء، فالحكم كله إليه، والاعتماد كله عليه، إنما هو خاطر شعر به، و حاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة، فقد علمه الله هذا فتعلم بنور النبوة أنه لا ينفع حذر من قدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن العين حق، وقال صلى الله عليه وسلم العين حق تدخل الرجل القبر، والجمل القدر، وكان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة»، وفي رواية «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: كان أبوكما (يعني إبراهيم) يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق» (رواه البخاري)، أو كان يعقوب يخشى على أولاده غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم أو هو تتبع قطاع الطرق لهم، أو كائنا ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع (1).

و على أية حال، فما أن دخلوا على يوسف ورأى أخاه، حتى سجد شكراً لله على أن ساق إليه أخاه و وجده على قيد الحياة، في يد أعداءه، وهم الذين من قبل طاردوا أخاه، و ثارت شجون يوسف لما رآه، و تحركت نفسه لسابق ما عاناه، فمال على أخيه بنيامين وقال: إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون، و سادبر أمرا وهم لا يشعرون، و ستبقى وهم راحلون، فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، ثُمَّ أَذِنَ مَوْذَنٌ: أَيَّتْهَا الْعَبِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ، قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ، قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي

ص: 77

1- في ظلال القرآن 2018/4، صفوة التفاسير 59/2، تفسير النسفي 230/2، تفسير أبي السعود 292/4، مختصر تفسير ابن كثير 2/256.

الآ زُضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (1)، قال البيضاوي استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم، و ككم أفواه الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد (2)، و هنا سألوهم: فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ، قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (3).

و هنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف، و طبقا الرواية ابن كثير، فقد كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، أو كما يقول صاحب الظلال: فقد كان المتبع في دين يعقوب أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا في مقابل ما يسرق، و تقول التوراة: الذي يوجد معه من عبيدك يموت، و نحن أيضا نكون عبيدا لسيدي، فقال نعم الآن بحسب كلامكم هذا يكون الذي يوجد معه يكون لي عبدا، و أما أنتم فتكونون أبرياء»، و لما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف و أخيه، ذلك لأنه لو حكم فيهم بشريعة ملك مصر ما تمكن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارق على سرقة، دون أن يستولي على أخيه، كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم، و هذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه، و هو كيد الله له، و الكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء و إن كان الشر قد غلب عليه (4).

و بدأ التفتيش، و أرشدت الصديق حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل

ص: 78

1- سورة يوسف: آية 70-73.

2- تفسير البيضاوي 2/267.

3- سورة يوسف: آية 74-75.

4- تفسير الظلال 4/2019-2020، مختصر تفسير ابن كثير 2/257، تفسير النسفي 2/232 تكوين 9/44-10.

رحل أخيه، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا و لا ينظر وعاء إلا أستغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه، وهو أصغرهم، فقال: ما أظن هذا أخذ شيئا، فقالوا والله لا نترك حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه، فلما أخرجها منه نكس الأخوة رؤوسهم من الحياء وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل. وفي رواية لابن الأثير قالوا: يا بني راحيل لا يزال لنا منكم بلاء، فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما يزال لهم منكم بلاء، وزاد الطبري: ذهبت بأخي فأهلكتموه في البرية، وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكر الدراهم فتؤخذ بها. ثم صاح الأخوة، وقد حرك الحرج الذي يلاقونه الآن كوامن حقدهم على بنيامين، وعلى يوسف قبله، فإذا هم ينتصلون من نقيصة السرقة، و ينفونها عنهم و يلقونها على أبناء هذا الفرع من أبناء يعقوب (أبناء راحيل) قالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»، و تنطلق الروايات و التفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعالنية و حكايات و أساطير، فمن قائل إنه كان سرق صنما لجده أبي أمه فكسره فعيره بذلك، و من قائل كان بنو يعقوب على طعام، إذ نظر يوسف إلى عرق (و هو العظم أكل لحمه) فخبأه فعيره بذلك، إلى غير ذلك من روايات لا سند لها، و كأن أخوة يوسف لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف، و كأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التي تخرجهم، و تبرءوا من يوسف و أخيه السارق، و إرواء لحقدهم القديم على يوسف و أخيه، و على أية حال، فلقد أسرها يوسف في نفسه و لم يبدها لهم (1).

ص: 79

1- تفسير النسفي 2/232، تفسير الظلال 4/2022، صفوة التفاسير 2/62، تاريخ الطبري 1/354-355، الكامل لابن الأثير 1/85، مختصر تفسير ابن كثير 2/258، البداية و النهاية 1/213.

ثم سرعان ما عاد أخوة يوسف إلى الموقف الحرج الذي وقعوا فيه، و إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم، فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، و يعرضون أن يأخذ بدله واحدا منهم، إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه، و يستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه و صلاحه و بره لعله يلين «قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدا منا مكانه إنا نراك من المحسنين»، و لكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا، و كان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم و لأبيه ليكون وقعها أعمق و أشد أثرا في النفوس «قال معاذ الله أن نأخذ إلا- من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون»، و لم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئا بجريرة سارق، لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبر أدق تعبير يحيكه السياق هنا باللغة العربية بدقة، قال صاحب تفسير روح المعاني: و التعبير بقوله «من وجدنا متاعنا عنده» بدل «من سرق» لتحقيق الحق و الاحتراز عن الكذب (1).

و هكذا وقع القوم في ضيق، و انحدروا في مأزق، و ابتعدوا عن الناس، و تناجوا في أمرهم، «قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله و من قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي و هو خير الحاكمين، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق و ما شهدنا إلا ما علمنا و ما كنا للغيب حافظين»، و إن كان في شك من أمرهم فليسأل القرية (2) التي كنا فيها، أو ليسأل القافلة التي كنا فيها فهم

ص: 80

1- في ظلال القرآن 4 / 2022، تفسير روح المعاني 13 / 34.

2- القرية هنا ليست اسما لعاصمة مصر، حتى و إن رأى البعض أن اسم القرية إنما يعني المدينة الكبيرة لأن عاصمة مصر على أيام الهكسوس (أفاريس) و هو عصر يوسف، لم تكن عاصمة لمصر كلها، و إنما للجزء الذي كان يحكمه الهكسوس حتى مدينة القوصية (شمالي أسبوط بحوالي 15 كيلا-) فحسب، و لأن الله وصف مكة المكرمة عند ظهور الإسلام بأنها أم القرى (الأنعام 92) ثم يصف عاصمة مصر كلها بأنها قرية، و من ثم فالرأي عندي أنها ربما كانت القرية أو المدينة التي اختيرت لتوزيع الغلال خارج العاصمة أو قريبا منها.

لم يكونوا وحدهم فقد كانت القوافل ترد مصر بكثرة كاثرة لتمتار الغلة من أرض الكنانة في السنين العجاف، غير أن يعقوب ما كان يبحث عن أعذار، و من ثم فقد انصرف إلى ربه يدعوه و يضرع إليه و يقول: «بل سولت لكم أنفسكم أمرا، فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا، إنه هو العليم الحكيم»، و تولى عنهم يبكي ولدا بعد ولد، و الجرح الأول أعمق، و الجرح على الجرح أنكى و أشد، «و قال يا أسفا على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»، و يبلغ الحقد بقلوب بنيه لا يرحموا ما به، و أن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف و حزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرون عنه و لا يعزونه، و لا يعللونه بالرجاء، بل يريدون أن يطمسوا في قلبه الشعاع الأخير، «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين»، و يرد عليهم بأن يتركوه لربه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، و هو على صلة بربه غير صلتهم، و يعلم من حقيقته ما لا يعلمون، ثم يوجههم إلى تلمس يوسف و أخيه، و ألا يبأسوا من رحمة الله في العثور عليهما، فإن رحمته واسعة و فرجه دائما منظور (1).

و جهز القوم جهازهم و حملوا متاعهم و بضاعتهم، و دخلوا مصر، للمرة الثالثة، و قد هدّهم التعب و كدهم العيش، و ضاقت بهم السبل، و كاد أن يقضي عليهم القحط القاتل، فلقد أضرت بهم المجاعة، و نفدت منهم النقود، و جاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترى بها الزاد، يدخلون و في حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، و شكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام، و دخلوا على يوسف فقالوا: يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضرّ و جئنا ببضاعة مزجاة من صوف و دراهم زيوف أو رديئة، قال ابن عباس، فيما يروي الرازي، كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام،

ص: 81

ثم سألوه «فأوف لنا الكيل و تصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين»، وكان الصديق عليه السلام دقيق الحس، رقيق القلب، لطيف الوجدان، وإلى هذا الحد لا يطيق أن يرى على إخوته الذل والتذلل، والمهانة والاستكانة، و طلب الصدقة والمعونة، ومن ثم فقد أعلمهم بحقيقة أمره و عفا عنهم، و قال لهم «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا، و أتوني بأهلكم أجمعين»، و أما كيف عرف الصديق أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل، فذلك مما علمه الله، و المفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، و ما لها لا تكون خارقة، و يوسف نبي رسول، و يعقوب نبي رسول (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن صياغة التوراة لدعوة يوسف أباه و أهله أن يأتوا إليه في مصر، إنما تعطي تأكيدا يكشف عن مطامع يهود في مصر، تقول التوراة «خذوا أباكم و بيوتكم (خيامكم) و تعالوا إلي فأعطيكم خيرات أرض مصر و تأكلون دسم الأرض ... خذوا لكم من أرض مصر عجالات لأولادكم و نسانكم و احملوا أباكم و تعالوا، و لا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم (2)»، كما أن التوراة لم تهمل كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجاهدين الجياع إلى مصر المضيفة، دائما و أبدا، إنما كانت للقوت، و لكنها تؤكد كذلك أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض الطيبة التي استضافتهم (3).

و على أية حال، فإن يعقوب عليه السلام، سرعان ما يصل إلى مصر، بعد أن ارتد بصيرا، و يصف القرآن الكريم لقاء يوسف بأبيه و إخوته في قول الله تعالى: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن

ص: 82

1- في ظلال القرآن 4/ 2026-2027، تفسير الفخر الرازي 18/ 201.

2- تكوين 18/ 45-20.

3- تكوين 46/ 1-4.

شَاءَ اللَّهُ آمِينَ، وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (1).

و تذهب التوراة إلى أن يعقوب عليه السلام، إنما جاء و معه كل أفراد أسرته «ست و ستون نفسا»، فضلا عن نساء بني يعقوب، و أبناء يوسف اللذان ولدا في مصر نفسان، جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون (2).

[3] استقرار بني إسرائيل في أرض جوشن:-

تروي التوراة أن يوسف عليه السلام طلب من أبيه و إخوته أن يقولوا للملك إذا ما سألهم عن صناعتهم: عبيدك أهل مواشي منذ صبا إلى الآن نحن و آباؤنا جميعا لكي تسكنوا في أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين (3)، و هكذا يذهب إخوة يوسف إلى ملك مصر يسألونه السكنى

ص: 83

1- سورة يوسف: آية 99-102، و انظر: تفسير الكشاف 504/2-507، تفسير ابن كثير 334/4-337، تفسير الطبري 118/13-126، تفسير الفخر الرازي 210/17-217، تفسير أبي السعود 293/4 و ما بعدها، تفسير القرطبي ص 3492-3494، الدار المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 27/4-40، محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف ص 126-130 (القاهرة 1936)، تفسير النسفي 235/4-240، صفوة التفاسير 68/2-69 (بيروت 1981).

2- تكوين 26/46-27.

3- تكوين 33/46-34.

في أرض جاسان، و يجيب الملك سؤلهم (1)، و لعل في اختيار هذا المكان، إلى جانب جودته، روعى فيه قربه من حدود مصر الشرقية، و سيناء المطلة على أرض كنعان، حيث ورد يعقوب و بنوه، كي يقيموا ما أحبوا الإقامة، و يرحلوا متى شاءوا الرحيل (2).

و هكذا استقر المطاف ببني يعقوب إلى الاستقرار في مصر، حيث نزلوا أرض جوشن (جسم أو جسام، كما قرئ اسمها في النصوص المصرية (3))، أو أرض «جاسان»، كما وردت في توراة يهود، و يكون استقرارهم هذا في تلك البقعة من وادي طميلات شرقي الدلتا، فاتحة لقصة تاريخ أكبر تشعبت أحداثه، و تقلبت فصوله.

على أن هناك خطأ تاريخيا في رواية التوراة، حيث تقول في سفر التكوين أن يوسف قد أسكن أباه و أخوته في «أرض رعمسيس»، ذلك لأن كلمة «رعمسيس» لا تستعمل إلا منذ الأسرة التاسعة عشرة (1308-1194 ق م)، و ليس منذ عهد الهكسوس (حوالي 1725-1575 ق م)، و هو العصر الذي يفترض دخول بني يعقوب فيه مصر، كما سوف نفصل ذلك فيما بعد.

و على أي حال، فلقد قام جدل طويل حول موقع «أرض جوشن» أو جاسان، و ربما كان ذلك لأن «أرض جوشو» لم تذكر في أي نقش مصري (4)، و إنما بدلا عنها «أرض جسم أو جاسم» (5). هذا فضلا عن أن

ص: 84

1- تكوين 5/48-6.

2- كمال عون: اليهود من كتابهم المقدس - القاهرة 1970 ص 85.

3- ., 1959, p. 57. elbiB al te tpyg'E'L, tetnoM.

4- جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل - الجزء الأول، ترجمة لبيب حبشي و شفيق فريد، مراجعة محمد جمال الدين مختار، القاهرة 1963 ص 49.

5- .. P 57, elbiB al te tpyg'E'L, tetnom.

التوراة نفسها، إنما هي مضطربة في تحديدها بالنسبة إلى مصر، فهي في بعض نصوص التوراة، إقليم يقع على مقربة من مصر، ملائم لرعي الماشية، و لكنه غير مسكون بالمصريين (1)، وهي في نصوص أخرى- توراتية كذلك (2)- ليست إقليما مجاورا لمصر، و لكنه جزء من مصر نفسها (3)، و ليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن التوراة إنما تطلق نفس هذا الإسم (أرض جوشن)، على منطقة في فلسطين الجنوبية، تقع فيما بين غزة و جبعون (4)- و تقع في مكانها الآن قرية الجيب، على مبعده خمسة أميال إلى الشمال الغربي من أورشليم (5)- أحيانا، و على واحدة من مجموعة مدن في جبال يهوذا أحيانا أخرى (6).

وقد أدى ذلك كله إلى وجود أكثر من رأي بشأن موقع «أرض جوشن» فهناك من يرى مطابقتها بالمدينة و الإقليم المعروف لدى المصريين باسم «بر- سوبد» (صفت الحنة الحالية) (7)، و هناك فريق ثان يذهب إلى أنها إنما تقع في وادي طميلات، و تمتد من بحيرة التمساح حتى النيل (8)، على أن هناك من يرى أن وادي طميلات إنما يمتد من فرع النيل الشرقي حتى بحيرة التمساح الحالية، التي تقع في وسط قناة السويس، و يمثل اتساعا من أراض زراعية على الحد الشرقي لدلتا النيل المصرية، مجاورا لصحراء سيناء

ص: 85

- 1- تكوين 46: 34، خروج 9: 16.
- 2- تكوين 47: 6، خروج 3: 22821، 11: 2.
- 3- AEJ, renidraG A 262. p. 1918، 5، و كذا، AEJ ellivan. E. 10 31. p. 1924. 10.
- 4- قاموس المتاب المقدس 246/1.
- 5- يشوع 10: 41، 11: 16.
- 6- يشوع 15: 51، قاموس الكتاب المقدس 277/1 (بيروت 1964).
- 7- جيمس بيكي: المرجع السابق ص 49.
- 8- .p, tic. po, regnu. FM 420 .

مباشرة، و يبدو أن وادي طميلات- وربما جزءا منه- كان له اسم في العصور القديمة يظهر في التوراة على شكل «أرض جوشن» أو «جاسان»، و طبقا لما جاء في سفر الخروج (1) فإنه كان في أرض جوشن التي استقر فيها الإسرائيليون إبان هبوطهم مصر (2).

على أن هناك فريقا ثالثا، إنما يذهب إلى أن أرض جوشن إنما تقع في شبه جزيرة سيناء، و تمتد فيما بين تانيس و منطقة العريش، فضلا عن وادي طميلات الذي ينحدر من الشرق إلى الغرب فيما بين الزقازيق و الإسماعيلية (3)، و إن كان هناك فريق رابع يتردد في ذلك، على أساس أن هناك «جوشن» أخرى، قد ذكرت مع «قادش» و غزة في جنوب فلسطين، و تقع في تخوم نهر مصر (وادي العريش)، و بما أن هاجر أم إسماعيل دعيت في التوراة «مصرية»، فمن المستطاع إذن القول باتساع اسم مصر، و الأمر كذلك بالنسبة إلى «برية أرض مصر» حيث وضع «حزقيال» (4)- على ما يبدو- هؤلاء الإسرائيليين الرحل (5).

و هناك فريق خامس، يذهب إلى أن أرض جوشن إنما هي وادي طميلات- و الذي يرى أنه يمتد شرقا و غربا من الزقازيق حتى الإسماعيلية- غير أن هذا التوحيد غير مؤكد (6)، ذلك لأن الدكتور «سير ألن جاردنر» (1879-1962 م) يرى أن الكلمة المصرية التي قرأها «هينرش بروجش» (1827-1894 م) و «إدوارد نافيل» (1875-1914 م)، على أنها

ص: 86

1- خروج 8: 18. 9: 26.

2- , 1965 , M 113. p. htoN. ehT. yrotsiH fo learsI ,nodnoL.

3- حسن محمود: حضارة مصر و الشرق القديم- العبرانيون ص 351.

4- حزقيال 20: 26.

5- , 1965 , S 359. p. egdirbmaC, III, HAC, skooc. A.

6- 178. p. ,sdoL ,learsI ,sti mroF ,sgninnigeB eht ot elddim eht fo thgiE eht yrutneC ,nodnoL.

«جوشن» كانت اسما لسيناء (1)، وهناك تقاليد يهودية عديدة وضعت مكان استيطان العبرانيين بعيدا إلى الشمال، ناحية تانيس و بلوزيوم (2).

ومع ذلك، فهناك احتمال أن يكون وادي طميلات، على الأقل جزءا من «أرض جوشن»، ذلك لأن مدينة «بيشوم» (3)، كانت بالتأكيد في هذا الوادي و الأمر كذلك بالنسبة إلى مدينة «هيرونبوليس» والتي وحدتها الترجمة السبعينية التي تمت بمصر في عهد بطليموس الثاني (284-246 ق.م)، مرتين بجوشن (4)، هذا فضلا عن أن وادي طميلات إقليم بدوي تخترقه ترعة تتغذى من مياه النيل، وفي الوقت الحاضر- وطبقا للتطور الزراعي- تستطيع إعالة اثني عشر ألفا من السكان المزارعين، ولكن كان يسكنها منذ قرن مضى أربعة آلاف من البدو، وهكذا كانت طبيعة هذا الوادي وقت أن سمح موظف الحدود على أيام مرنباح (1224-1214 ق.م) لقبائل البدو الشاسو من أدوم بالدخول (5).

و الرأي عندي، أن «أرض جوشن» هذه، إنما تقع في وادي طميلات و الذي يمتد من فرع النيل الشرقي (البيلوذي) متجها نحو الشرق، حتى بحيرة التمساح- ذلك لأننا لا نستطيع أن نجعل «أرض جوشن» هذه في جنوب فلسطين، أو في المنطقة الممتدة من وادي العريش حتى غزة، إذ أن ذلك إنما يتعارض تعارضا تاما مع القول بأن الإسرائيليين دخلوا مصر و عاشوا فيها

ص: 87

1- .AEJ nehsoG fo emaN eht fo tnelaviuqE naitpygE desoppuS ehT ,renidraG .H .A 23- 18. p، 1918، 5، .-

2- مزمو 78: 12.

3- خروج 1: 11.

4- تكوين 28-29: 45.

5- .. 172-174 A .p, tic. po, sdoL.

هذا فضلا عن أن إطلاق اسم «جوشن» على منطقة بجنوب فلسطين، ربما كان إحياء لذكرى مصر التي ترسبت في نفوس القوم، دون أن يجدوا لها فكاكا، وقد ظهر ذلك الإسم على مدينة في جبال يهوذا كذلك، ربما لأن هذه المنطقة إنما كانت خصبة بدرجة تشبه في ذلك منطقة جوشن في مصر، كما أن الاضطهاد الذي تحدثت عنه التوراة قد ارتبط ببناء مدينتي رعسيس و فيثوم، و كانت الأولى في موقع على الأقل ليس ببعيد عن وادي طميلات، أما الثانية «فيثوم» (بيثوم بر- أتوم)، فهي بالتأكيد في هذا الوادي، كما أن خروج بني إسرائيل إنما تم من هذه المنطقة (من رعسيس إلى سكوت ... الخ)، و ليس هناك من دليل - أو حتى مجرد إشارة- على أن الإسرائيليين قد نقلوا من منطقة استقرارهم الأولى على أيام يوسف الصديق، و حتى الخروج على أيام موسى الكليم، عليهما السلام.

و أيا ما كان الأمر، فقد دخل الإسرائيليون مصر، و استقروا في «أرض جوشن»، و إن كان بعض الباحثين إنما يحاول أن يتشكك في ذلك كله، و أن ينفي دخول العبرانيين مصر من أساس، معتمدين في ذلك على عدة أسباب، منها (أولا) أنه لا توجد وثائق غير إسرائيلية تؤكد صحة التقاليد العبرية الخاصة بإقامة الإسرائيليين في مصر و خروجهم منها، و إن كان بعض المفسرين قد بحثوا جادين لإعطاء النصوص و التفسيرات المطلوبة.

و منها (ثانيا) أن النقوش المصرية المختلفة تسجل دخول الآسيويين مصر، و لكن ليس واحدا منها يشير إلى دخول بني إسرائيل أرض الفراعين، و إن كانت قد أشارت إلى العمال الآسيويين الذين كانوا يقدون إلى مصر، و يستخدمهم الفراعين في أعمال البناء، و كان يطلق عليهم «عبر» (R. P)،

و تقرأ «عايرو» (uirupA)، و قد استدل عليهم كثير من علماء المصريات، مثل «شاباس»، و علماء العبرية- من أمثال هومل و سكونر و درايفر و كريجلز- الذين و هوهم بالعبريين، إلا أن ذلك لم تثبت صحته بسبب الصعوبات

اللغوية، وأما عن وجود «العابرو» في مصر، فأمر تويده نقوش مصرية، ترجع إلى أيام «رعسيس الرابع» (1151-1145 ق.م) - من الأسرة العشرين- وهي ترجع إلى فترة متأخرة عن أي تاريخ مقترح لخروج بني إسرائيل من مصر، ومن هنا يمكننا- اعتمادا على سكوت المصادر المصرية- أن نستنتج أن دخول الإسرائيليين مصر، إنما هو خيال بحث، لا يعتمد على أي أساس تاريخي.

ومنها (ثالثا) أن كلمة «مصريايم» التي وردت في التوراة لا تدل على مصر، وإنما على الإقليم الواقع شمال شبه الجزيرة العربية والذي يمتد غربا حتى حدود مصر الشرقية، ولهذا فإن ما يقال عن إقامة العبريين في مصر، معناه إقامتهم في جنوب فلسطين، أو في شبه جزيرة سيناء، ذلك أن الخروج- طبقا لنظرية العالم اليهودي هوجوفنكلر- لم يحدث من مصر، إذ أن «فنكلر» يعتقد أن اسم «مصريايم» لم يكن مقصورا على الإشارة إلى مصر، ولكنه كان كذلك يشمل الإقليم الذي سماه الجغرافيون البابليون «مصر» (أو موصري)، والذي يقع جنوب البحر الميت شمال شبه جزيرة العرب، ويمتد غربا حتى حدود مصر الشرقية ويضم جبل سعيير ومدينة البتراء وأراضي مدين وأدوم.

ويعتقد «فنكلر» أن التقاليد الأصلية عند ما تحدثت عن إقامة الآباء- وبخاصة موسى- في «مصريايم»، فقد كانت تشير إلى ذلك الزمن، حيث عاش أسلاف العبرانيين في صحراء جنوب فلسطين، ثم بدأ سكان كنعان يستخدمون اصطلاح «مصريايم» على المراعي الجنوبية، وكذا على مصر نفسها، ذلك البلد الذي يقع بالنسبة إليهم فيما وراء الصحراء، ولعل مما يفسر افتراضنا هذا، أن الوادي القريب من غزة سمي «نهر مصريايم»، بالرغم من أنه كان على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود المصرية، ومن هنا فمن الممكن أن يشير اسم «مصريايم» في بعض النصوص و التقاليد العبرية إلى الصحراء

المصرية، وليس إلى اسم مصر بالذات (1).

غير أن هناك كثيرا من الصعاب التي تقف عقبة كئود في سبيل قبولنا لوجهة النظر هذه، منها (أولا) أن التقاليد الإسرائيلية لا تتحدث عن مجرد الإقامة المؤقتة في «مصر»؛ ولكنها تتحدث كذلك عن استبعاد الآباء الأولين فيها، وليس من المقبول أن يتحدث العبرانيون عن استعبادهم في مصر بهذه الصورة، لمجرد الثناء على قوة الرب التي يعززون إليها خلاصهم (2).

ومنها (ثانيا) أن مصر، وإن لم تقدم دليلا مباشرا على إقامة العبريين فيها، فإنها قدمت ما يجعل الإقامة والخروج منها أمرا مقبولا تماما، فهناك صلات عديدة بين الحياة في مصر، كما نعرفها من الآثار، و تفصيلات الرواية الإسرائيلية عن هذه النقطة (3)، ذلك لأن التقارير الخاصة عن أقدم صورة للتقاليد الإسرائيلية (في المصدر إيهوي) بشأن أسلوب الحياة في «جوشن» و مدن المخازن (رعمسيس و بيثوم)، تتفق مع الحقائق التي قدمتها الحفريات عنها (4)، هذا فضلا عن أن ما جاء بالتوراة من وصف لجو مصر و أحوالها، إنما يدل على إقامة فعلية في مصر، فقد وصفوا ماء النيل وقت الفيضان، و أشاروا إلى ما يعقب هبوط مستوى النيل بعد الفيضان من انتشار الأوبئة

ص: 90

-
- 1- حسن محمود: المرجع السابق 350، هز جز ويلز: معالم تاريخ الإنسانية 2/ 286 (ترجمة عبد العزيز جاويد)، محمد العزبي: مجلة الهلال يونية 1971 ص 65 و أنظر: مادة aidipolcycnE hsiweJ ehT في sudOXE و كذا: , ahhuleM, niaM, GVM, I, nilreB, 1898 H. W. relkniM. irsuM.
 - 2- . A 169 . p. tic- po. sdoL.
 - 3- 1956 . p. 53. G. E. W. thgir, lacilbiB, F. ygolocahcrA .F. و كذا. J 134 .F. J .p. tic- po nageni.
 - 4- .P. tic- po sdoL. A 169 ,

و الأمراض (1)، فطبقا للمؤرخ العبراني أن سبب ذلك هو أن ماء النيل يصبح «محمرا» وغير صحي في فصول معينة من السنة، وأن أسراب الضفادع إنما تتكاثر بعد الفيضان، كما أن البعوض يتكاثر بعد انحسار المياه، وهكذا اعتقد الإسرائيليون أن مصر قد أصبحت لهذا السبب بلد الأمراض الوبائية والمستوطنة (2).

و منها (ثالثا) أن بعض أسماء الأعلام الإسرائيلية من أصل مصري، فمثلا «فينحاس» و معناه «زنجي»، و كذا موسى و هو اسم مصري (3)- كما سوف نشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد-، و منها (رابعا) أن هناك فقرات كاملة من أدب الحكمة في مصر، قد ظهرت في كتابات الإسرائيليين، كما في المزامير و كتب الحكمة (4) و أعمال أنبياء بني إسرائيل (5)، و كلها تظهر صلة الأدب العبري بالأدب المصري (6).

ص: 91

1- حسن محمود: المرجع السابق ص 351.

2- , p. tic- po. sdoL. A 170

3- .P, tic- op, nageniF. J 134

4- قارن بين الرموز 104 و نشيد أختاتون، و بين المزامير بصفة عامة و قصائد المديح المصري في الإله آمون رع، ثم قارن بين سفر الأمثال في التوراة و تعاليم الحكيم المصري أمنمويي.

5- 49 p. F, LSJA, htimS. M. J 172. و كذا، 19 p. 15- 12. RBJ, htimS. S. W. و كذا. P, tic- po, nagniF. J 134

6- قدم لنا «أوسترلي» أهم خصائص الأدب المصري التي تشبه خصائص الأدب العبري، و التي منها (أولا) أن القصائد مقسمة في كل منهما إلى فقرات و أبيات، و منها (ثانيا) تكرار استخدام التماثل، فتأخذ الفكرة في كل منهما تعبيرا مزدوجا، حتى أن السطر يتكون فيها من جملتين قصيرتين، توجد فيهما نفس الفكرة بصيغة مختلفة عن الأخرى، و منها (ثالثا) أن السطور الشعرية في كل من الأدبين تحتوي على عدد محدد و منتظم من الأنغام، و منها (رابعا) تكرار التلاعب بالألفاظ، و ورود ألفاظ كثيرة متشابهة التطور جنبا إلى جنب و منها (خامسا) الاستعمال الغريب الذي يظهر أحيانا في أخذ كلمة وردت في سطر، ثم تكرر في السطر التالي، كما كانت الاستعارة كثيرة الاستعمال أيضا، و من كل هذا- و لوجود هذه الصور في الأدب العبري- استنتج العلماء أن اليهود قد اعتمدوا في التركيب النهائي لأدبهم الشعري على النماذج المصرية بدرجة ما، و بخاصة في مجالات رئيسية ثلاث، هي: الشعر الديني، و كتابات الحكمة، و الشعر غير الديني (أنظر: drofXO, tpygE, tneicnA eht fo erutaretL eht, namrE. A 242- 241. p, 1947

و منها (خامسا) أن هناك نصوصا صريحة في التوراة تتحدث عن دخول الإسرائيليين مصر، بل وقد ذكر كذلك أسماء الذين دخلوا منهم أرض الكنانة (1)، فضلا عما جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن (2).

وفي الواقع - وكما أشرنا آنفا - أن التوراة ليست وحدها من بين الكتب المقدسة التي تحدثت عن دخول بني إسرائيل مصر، وإنما ذلك أمر تجمع عليه الكتب المقدسة الثلاثة، فالإنجيل يقول في الرسالة إلى العبرانيين:

«بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج بني إسرائيل، وأوصى من جهة عظامه، بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعي ابن ابنة فرعون، مفضلا بالأحرى أن يذل مع شعب الله (3).

و أما القرآن الكريم، فإنه يتحدث بصراحة عن إقامة يوسف في مصر، وعن قدوم يعقوب وبنيه إليه فيها، يقول سبحانه و تعالى: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (4)، ويقول:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ

ص: 92

1- تكوين 46: 1-27.

2- سورة يوسف: آية 99.

3- الرسالة إلى العبرانيين 11: 22-29.

4- سورة يوسف: آية 21.

الْبُدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (1).

ثم يتحدث كتاب الله الكريم بعد ذلك عن حياة بني إسرائيل في مصر، وعن نماذج العذاب الذي أنزله فرعون مصر و جنده بني إسرائيل، من ذلك قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (2)، ويقول:

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَمْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (3)، ويقول: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (4).

وليس هناك من ريب في أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة لا يتفق و منتج البحث العلمي، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء- الأمر الذي لا يقره منطق أو عقل أو دين، فضلا عن العلم نفسه- هذا إلى أن جمهرة المؤرخين وأساتذة علم اللاهوت إنما يتحدثون عن قصة يوسف في مصر.

ص: 93

1- سورة يوسف: آية 99-100.

2- سورة البقرة: آية 49، وأنظر: تفسير الكشاف 1/137-138، تفسير الطبري 2/36-39، تفسير النسفي 1/49، تفسير روح المعاني 1/252-254، تفسير الطبرسي 1/231-235، التفسير الكاشف 1/98-100 (لمحمد جواد مغنية)، تفسير البحر المحيط 1/187-188، تفسير المنار 1/308-313، تفسير ابن كثير 1/128-129 الدر المنثور في التفسير بالمأثور 1/68-69، في ظلال القرآن 1/70-72، تفسير الجواهر ص 59-61.

3- سورة الأعراف: آية 141.

4- سورة إبراهيم: آية 6.

ويضيف «كيلر» إلى ذلك، أن قصة بيع الإسماعيليين للصديق عليه السلام إنما هي جد مقبولة، ذلك لأن القوم إنما كانوا يترددون على مصر لبيع التوابل و العطور التي كانت تستخدم في الخدمة الدينية، ذلك لأن هذه الأخشاب العجيبة ذات الرائحة الزكية إنما كانت تحرق في المعابد، و يستخدمها الأطباء في إبراء المرضى، و الكهان في تحنيط أجساد الموتى من النبلاء (1)، بل إن هناك ما يشير إلى أن هذه التجارة قد استمرت إلى زمن متأخر جدا بعد هذا الحادث، فهناك كتابة مدونة بخط المسند في الجيزة، ذهب «أدولف جرومان» إلى أنها إنما ترجع إلى عام (264-263 ق.م) (2)- وربما إلى ما بعد عام 261 ق.م، أو حتى إلى عام 159 ق.م، فيما يرى بعض الباحثين (3)- و تشير إلى وجود جالية معينة كانت تقيم في مصر، و تتجر في الطيب و البخور، ثم «فوطيفار» و هو اسم رئيس الشرطة المصري الذي اشترى يوسف الصديق، و هو اسم وطني تماما، فهو يعني في المصرية القديمة (با- دي- بارع) بمعنى «عطية الإله رع» (4).

و هكذا يبدو لنا بوضوح أن الروايات الإسرائيلية التي تتحدث عن إقامة القوم في مصر إنما هي روايات جد صحيحة، وأنه ليس من الغريب أن تستضيف أرض الكنانة على حدودها الشرقية بعضا من البدو و الرعاة، فذلك أمر عهدناه كثيرا طوال تاريخ مصر على أيام الفراعين، و إن كان يختلف في فترات ضعفها عنه في فترات قوتها.

و من النوع الأول ما حدث في أوائل عصر الثورة الاجتماعية الأولى، حين ضعفت البلاد من الإجهاد الداخلي الذي أصابها في أعقاب الدولة

ص: 94

1- . 103- 103 K. W relle, po- tic, p

2- , 1963 p. 26. G. A namhor, A. naibar, M. nehcnu

3- فؤاد حسنين: التاريخ العربي القديم ص 269، و كذا. 73، 1939، p. 7. ROSAB

4- , 1967 p. 103. K. W relle, ehT, elbiB sa H yrotsi

القديمة، فتركت الحدود مفتوحة دونما أية حماية، و من ثم فقد تدفق البدو الآسيويون إلى الدلتا واستقروا فيها (1).

و من النوع الثاني تلك القبيلة الآسيوية التي صورت على مقبرة «خنم حتب» ببني حسن، من عهد «سنوسرت الثاني» (1877-1897 ق م)، وعدتها 37 شخصا، يتقدمهم رئيس الجماعة «أبشاي» (2)، و من هذا النوع كذلك ما عرف «بتقرير موظف الحدود»؛ والذي يرجع إلى السنة الثامنة من عهد «مرنبتاح» (1224-1214 ق م)، وقد جاء فيه: أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بدخول الدلتا الشرقية، ليظلوا أحياء و لتظل ماشيتهم حيّة، و يشير هذا الموظف إلى أن هناك أياما يستطيع البدو فيها أن يدخلوا من استحكامات الحدود لمثل هذه الأغراض (3).

و بدهي أننا لا نستطيع القول أن واحدة من هذه الهجرات الآسيوية إنما هي هجرة العبرانيين إلى مصر، إلا أن تقرير موظف الحدود هذا يبدو منه أن تقاليد التوراة إنما تشير إلى نوع من الأحداث التي كانت تقع في أغلب الأحيان، كما يصور كذلك نوع الباعث الذي قاد الإسرائيليين إلى مصر (4).

و هكذا نستطيع أن نصور دخول الإسرائيليين مصر- فيما يرى أدولف لودز- بأن جماعة من البدو العبرانيين من الصعب أن نطلق عليهم اسم قبائل- و الذين كوّنوا فيما بعد بيت يوسف (أفرايم و منسي و بنيامين)، ثم لحقت بهم

ص: 95

1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص 99، حركات التحرير في مصر القديمة ص 73-88.

2- جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل- الجزء الثاني ص 72-73.

3- TENA، 259. p، 1966. و كذا. A 172- 171، tic- po، sdoL. و كذا. J 258، tic- po، nosliW. و كذا. f. oN، 636.

III، tpygE fo sdroceR tneicnA، detsaerB. H. J

4- .P، tic- pO، htroN nitraM 113 .

قبائل أخرى، وأجزاء من قبائل - قد سمح لهم بالاستقرار على حدود مصر في منطقة رعوية، تقع بين الدلتا والصحراء الشرقية (العربية)، ذلك لأنهم كانوا قد اضطروا أن يتركوا أماكنهم المعتادة، بسبب مجاعة أملت بهم نتيجة الجفاف، على رواية، وبسبب إختوتهم - أي البدو الآخرين - طبقاً لرواية أخرى (قصة يوسف في التقاليد العبرية وغيرها (1)). والأمر بهذه الصور مقبول نوعاً ما رغم اختلافه في بعض الأمور مع رواية الكتاب المقدس.

ويبدو أن هذا الخلاف بين روايات التوراة وآراء المؤرخين لم يكن مقصوداً على دخول الإسرائيليين مصر، وإنما امتد كذلك إلى الأسباب التي عاشت في مصر كذلك، و من ثم فإنه على الرغم من أن التوراة تروي في سفر التكوين أن يوسف قد استدعى أباه وإخوته جميعاً للإقامة معه في أرض الكنانة، وأن يعقوب قد أتى إلى مصر، (و معه كل نسله، بنوه و بنو بنيه معه، و بنات بنيه و كل نسائه، جاء بهم معه إلى مصر) (2)، هذا فضلاً عن أن التوراة إنما ذكرت أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر وعددهم. (3)

رغم هذا كله، فإن هناك فريقاً كبيراً من المؤرخين يذهب إلى أن هناك جزءاً كبيراً ممن أطلق عليهم اسم «الإسرائيليين» لم تطأ أقدامهم أرض النيل أبداً، أو على الأقل - فيما يرى البعض - لم يبقوا بها حتى الخروج المشهور على أيام موسى، عليه السلام، وهكذا رأينا «تيودور روبنسون» يذهب إلى أن شعب إسرائيل الذي يتحدث التاريخ عنه، إنما يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقاً، بل إن الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين قد يفهم منه أن يهوذا قد استقر في الجزء الجنوبي من كنعان، وأن

ص: 96

1- . 171 . A . sdoL . po- tic , p

2- تكوين 16 : 28 - 45

3- تكوين 46 : 7 - 27، أنظر: سورة يوسف: آية 93- 101.

قبيلة أشير كانت قد أقامت في ديارها التي استقرت فيها عند ولادة موسى (1)، ويكاد «فيليب حتى» يعتقد أن الإسرائيليين الذين دخلوا مصر، إنما هم قبيلة «راحيل» (أفرايم و منسي و بنيامين)، في زمن الهكسوس (2).

و يرى «ستانلي كوك» أن الذين هبطوا مصر لم يكونوا كل الإسرائيليين، وأن أولئك الذين بقوا في كنعان إنما كانت لهم تقاليد جد مختلفة عن تلك التي حدثت في الخروج (3)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى دائرة المعارف اليهودية، و يتجه «السير فلنדרز بتري» نفس الإتجاه، مستندا في ذلك إلى وجود أسماء مثل «يعقوب إل» و «يوسف إل»، في قوائم انتصارات فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث» (1490-1436 ق. م)، ثم يفترض بعد ذلك أن هذه الأسماء، إنما هي أسماء أولئك الإسرائيليين الذين عادوا إلى كنعان مباشرة بعد انتهاء القحط الذي ألم بها (4).

و أما المؤرخ اليهودي «سيسل جوزيف روث»، فالرأي عنده أن بيت يوسف - متضمنا سبطي أفرايم و منسي - هم الذين كانوا في مصر، و من ثم فإنه يذهب إلى أن موسى نفسه إنما كان عبرانيا أو إسرائيلييا، مع نوع من الانتساب المصري، و في كل الاحتمالات فإن الكلیم إنما ينتمي إلى قبيلة أفرايم، أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى، التي نسب إليها عن طريق التقاليد العبرية، ثم يرى بعد ذلك أن هناك موجات بدوية كثيرة دخلت فلسطين، و أن أكثرها أهمية تلك التي دعيت «بيت يوسف».

و من هنا، فالرأي عنده أن هناك بعضا من القبائل الإسرائيلية لم تكن قد

ص: 97

1- تيودور روبنسون: تاريخ العالم - إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس ص 108.

2- فيلب حتى: المرجع السابق ص 193.

3- . A. S 360 . p, tic- po. kooC.

4- , 1925 , p. 34, W 34, P. M. eirteP. M. W 34, p, 1925 , -4 .nodnoL, learsI dnatpygE,

شاركت في العبودية المصرية أو في الخروج من مصر، وبخاصة قبيلة يهوذا، والتي كانت بطنا كنعانيا، أكثر منه جماعة أرامية مهاجرة، وقد دخلت هذه القبيلة في المجموعة الإسرائيلية وامتصت مظاهرها القومية في تاريخ متأخر نسبيا، وربما كان ذلك في عصر الحروب و العناء الطويل الذي نجح آخر الأمر في إدخال العبرانيين إلى فلسطين (1).

ويرى «أدولف لودز» أن الجزء الأكبر من القبائل الإسرائيلية لم تهاجر إلى مصر، وإنما عاشوا حياة حل و ترحال حول الواحات الجنوبية (بئر سبع وقادش)، وأن بعض هذه القبائل هو الذي ذهب مهاجرا إلى مصر، وهناك استعبدتهم «رعمسيس الثاني» (1290-1224 ق.م)، أو أحد أسلافه، ثم هربوا بعد فترة ونصبوا خيامهم في واحة قادش، ويبدو أنهم اتحدوا هناك مع القبائل التي بقيت في هذا الإقليم، وكونوا معا أمة واحدة (2).

وأما «هوجو جرسمان» فالرأي عنده أن القبائل التي نزلت إلى مصر إنما كانت قبائل بيت يوسف، وربما شمعون، و من المحتمل كذلك لاوى، ولكن الجزء الأساسي من الإسرائيليين قد بقي في فلسطين (3).

ويرى «مارتن نوث» أن الرحيل من مصر، والخلاص الذي تم عن «طريق البحر»، لا يفترض عدد أكبر من قبائل كاملة، وإنما جماعة صغيرة كانت في موقف يضطرها بسبب صغر حجمها إلى الهروب، وأما اسم الجماعة فهي «جماعة راحيل» التي يقع الاختيار عليها غالبا بسهولة، ولكن الأسباب التي تدعو إلى ذلك لا تبدو سليمة تماما، وعلى أي حال، فإنه من الخطأ أن نسأل عن: أي القبائل الإسرائيلية هي التي كانت في مصر، لأن

ص: 98

1- 7, C 8- 7, R. J. C 8- 7, A, H trotsiH fo yrotsiH p, elpoeP hsiweJ

2- 188 - 189, L. A sdoL. po, tic- p.

3- 184, I dibI p.

هذه القبائل الإسرائيلية قد تكونت في وحدات معينة عند ما وصلت إلى فلسطين فحسب، و أنها قد أخذت أسماءها المعروفة هناك في فلسطين كذلك.

و على أي حال، فيمكن الظن بأن هؤلاء المهاجرين إلى مصر، إنما كانت لهم صلات بهذه البلاد في أوقات تغيير المرعى، وربما رجع هؤلاء المهاجرون إلى نفس الإقليم مرة أخرى بعد الخروج من مصر، وإن كنا لا ندري كيف حدث هذا، و أيا ما كان الأمر، فإن العناصر التي أتت إلى مصر إنما قد وصلت إلى حدود أقاربها الذين كانوا يعيشون في مجاورات فلسطين، وربما كانوا على صلة بهذه البطون إبان إقامتهم في مصر، و أنهم قد أخبروهم بقصة «معجزة الخلاص الإلهية» التي أثرت فيهم بعمق، لدرجة أنهم نقلوا القصة إلى كل مكان، ثم إلى أحفادهم من بعدهم، على أنها قد حدثت لهم جميعا، و ليس فقط إلى هؤلاء الذين كانوا في مصر و بهذه الطريقة كان الاعتراف بالعقيدة في الله، الذي أوضح عن نفسه بمهابة، و ذلك عن طريق تخليصهم من أيدي المصريين القوية، ثم أصبحت هذه القصة ملكية شائعة لكل بني إسرائيل، و واحدة من الأسس الخاصة بالعقيدة التي كانت حيوية في نظام اتحاد القبائل الاثني عشر، تحت حماية قانون الرب الإجابري (1).

[4] عصر يوسف عليه السلام:-

إشارة

يختلف العلماء في تحديد عصر يوسف عليه السلام، و بالتالي في وقت دخول بني إسرائيل مصر، و لعل السبب الأساسي في ذلك أن التوراة و القرآن العظيم، لم يحددا وقتا لدخول الصديق عليه السلام أرض الكنانة، بل إنهما حتى لم يذكر اسم الملك الذي عاصر يوسف الصديق عليه السلام، هذا

ص: 99

فضلا عن أن مصر- وهي البلد التي كان يأمل العلماء أن يجدوا فيها وثائق معاصرة للأحداث التي جاءت في التوراة- لم تشر أبدا إلى هبوط الإسرائيليين إليها، بل ليست هناك أية إشارة في التاريخ المصري القديم إلى إسرائيل، فيما قبل عصر مرتباتح (1224-1214-ق. م)، و من هنا كان الخلاف بين العلماء على تحديد ذلك العصر الذي دخل الإسرائيليون فيه مصر، فهناك من رأى أنهم قد هبطوا مصر على أيام الهكسوس (حوالي 1725-1575 ق. م)، وهناك من تأخر بهم إلى أيام أمنحتب الثاني (1436-1413 ق. م).

[1] الرأي الأول:

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن عصر الهكسوس (1) إنما هو العصر الذي هبط بنو إسرائيل فيه مصر، معتمدين في ذلك على أدلة كثيرة، منها (أولا) أن التوراة تروي في سفر التكوين أن يوسف كان يركب في عربة الفرعون الثانية على أساس أنه «نائب الملك»، وفي هذا دلالة على عصر الهكسوس، ذلك لأن «حكام البلاد الأجنبية» هؤلاء، إنما كانوا أول من أدخل عربة الحرب السريعة إلى مصر، و منها (ثانيا) أن الهكسوس هم أول من استعمل العربات الرسمية في المناسبات العامة في مصر، و كانت العربة الأولى من نصيب الملك، بينما كانت الثانية من نصيب وزيره الأول (2).

و منها (ثالثا) أن «ساكن الرمال» ما كان يستطيع أن يصل إلى منصب الوزير على أيام الفراعين المصريين في تلك العصور المجيدة من تاريخ

ص: 100

1- أنظر عن عصر الهكسوس: محمد بيومي مهران: «حركات التحرير في مصر القديمة» (و هو الجزء الثالث من سلسلة «دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم») - دار المعارف- القاهرة 1976، ص 127-130، 211.

2- . 103- 105 K. W relle. p, tic-

الكنانة، ذلك لأن البدو إنما كانوا يعملون في تربية الحمير و الغنم و الماعز «و أن كل راعي غنم رجس عند المصريين» (1)، و من هنا، و في عهد سيادة الهكسوس فحسب، يجد الأسيوي الفرصة سانحة ليصل إلى أعلى المراكز في الدولة- و الأمر كذلك في أيام الضعف- و من هنا فقد وجدنا موظفين يحملون أسماء سامية في عصر الهكسوس (2) و إن كانت نبوة يوسف و تأويله الأحاديث هما سبب وصوله إلى منصبه، و ليس لأنه أسيوي.

و منها (رابعا) أن هناك «جعولا» من ذلك العصر، جاءت بها أسماء رؤساء مثل «يعقوب حر» و «عنات حر»، و مهما يكن معنى «حر» هذه، فإن «عنات» هي الإلهة السامية المعروفة، و إنه لمن الصعب أن ننحى وجهة النظر القائلة بأن الأب يعقوب قد خلد ذكره في الإسم الآخر (3)، مما جعل المؤرخ الأمريكي «جيمس هنري برستد» يعتبر ذلك إشارة إلى أن قائد قبيلة يعقوب الإسرائيلية، ربما نال الفرصة ليصل إلى بعض السلطة في وادي النيل في تلك الفترة المظلمة، و التي تتناسب مع احتمال دخول بني إسرائيل إلى مصر وقت ذلك.

و منها (خامسا) ما ذهب إليه «حبيب سعيد» من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما حدث خلال حكم الهكسوس لمصر، لأنه في مثل هذا الاضطراب التاريخي فقط، يتسنى لهم أن يلقوا ترحابا، و هم الغرباء النازحون، و منها (سادسا) أن هناك من الباحثين من يجعل الهكسوس من أصول سامية شمالية غربية، (شمال غربي الجزيرة العربية) و من ثم فهم

ص: 101

1- تكوين: 46: 34.

2- . 105- 107 K. W relle, po- tic, p.

3- . 157 G. A renidra, E. tpyg fo eht P shoarah, p.

أقرباء للعبرانيين، مما جعل يوسف العبراني يجد الفرصة ليصل إلى مركز القوة في البلاط المصري (1)، و بالتالي فقد قوبل أبوه و إخوته بالترحاب من الهكسوس الساميين، و الذين سمحوا لهم بالإقامة في «جوشن» (2).

و منها (سابعاً) ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن دخول الإسرائيليين إلى مصر، إنما كان في عصر الهكسوس، على أساس أن هذا يعطي الإسرائيليين أربعة قرون كفترة إقامة في مصر، حتى تم طردهم منها على أيام رعمسيس الثاني (3) أو ولده و منها (ثامناً) ما ذهب إليه «فلنדרز بيتري» من أن عصر يوسف إنما كان على أيام الهكسوس، و يظهر ذلك عن طريق اللقب البابلي الذي أعطى له، و هو "kerbA"، و الذي هو "uhkarabA"، و هو واحد من ضباط الدولة الخمسة العظام (4).

و منها (تاسعاً) ما ذهبنا إليه من قبل من أن القرآن الكريم قد حرص في سرده لقصة يوسف، على أن يلقب الحاكم الذي عاصره بلقب «ملك» (5)، بينما حرص على أن يلقب الحاكم الذي عاصر موسى بلقب «فرعون»، و قد أثبتنا من قبل أن لقب «فرعون» (6) لم يستعمل للدلالة على شخص الملك إلا منذ أيام تحوتمس الثالث (7)، و بصفة مؤكدة منذ أيام «أخناتون» (8)، مما يدل

ص: 102

1- 1970, p. 15. I siaduJ, nietopE.

2- 4. C. htoB. pO, tiC- P,.

3- 242. G. xuoR. P, tiC- pO.

4- 27. P. F. M. W. eirteP. P, tiC- pO.

5- سورة يوسف: آية 43 و 50 و 4 و 5. E. O. W F. yelretseO. E. O. W F. I dna tpygE, learsI eht ni, fo ycaL

6- سورة الأعراف: آية 103 - 104، 109، 112، 123، 117، 117، 117، يونس. آية 75، 76، 83، 88، 90، هود: آية 97، الإسراء: آية 101-102، طه: آية 24، 43، 60، 78، 79، المؤمنون: آية 46 ... و هكذا.

7- 52. A. renidraG. P, tiC- pO.

8- 1966, p. 75. A. renidnaG. rammarg naitpygE.

على أن عصر يوسف إنما كان قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة التي أستعمل فيها لقب «فرعون» (1)، و بالتالي فهو في عصر الهكسوس.

ومنها (عاشرا) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ في عصر الهكسوس - وربما ليس بعد عام 1700 ق. م - ففي سفر التكوين ما يشير إلى أن قصر الملك لم يكن بعيدا عن «أرض جوشن»، وهذا يعني أن العاصمة المصرية كانت في منطقة الدلتا، وهو أمر يتفق وعصر الهكسوس، حيث كانت عصمتهم «أواريس» (حت و عرت - صان الحجر الحالية)، هذا فضلا عن أن سفر الخروج يقرر أن مدة إقامة الإسرائيليين في مصر، إنما كانت 430 سنة (2)، و حيث أن الخروج قد تم بعد عام 1300 ق. م (الأمر الذي سنناقشه فيما بعد)، فإن ذلك يرجع بعهد يوسف إلى حوالي عام 1700 ق. م، و هي فترة تتفق و حكم الهكسوس (3).

بل إننا نستطيع أن نصل إلى نفس النتيجة من إشارة سفر التكوين من أن قصر الملك كان في «أرض جوشن»، ذلك أن عاصمة مصر لم تكن في الدلتا الشرقية إلى في عصر الهكسوس، ثم في عصر الرعامسة بعد ذلك، حيث كانت «أواريس» في العصر الأول، و «بر - رعسيس» في العصر الثاني، و لما كان عصر يوسف لا يمكن أن يكون - بحال من الأحوال - في عصر الرعامسة، فهو إذن في عصر الهكسوس، بل إنني أعتقد أن تحديد إقامتهم في أرض جوشن - و هي منطقة نفوذ الهكسوس الأساسية، وقاعدة هذا النفوذ، كما نعرف - إنما يعد دليلا على أن عصر وجود الإسرائيليين في مصر، إنما كان على أيام الهكسوس.

ص: 103

1- , 1963 , W. A. J 102. p، nosliC, tpygE tneicna fo erutuc eht, ogacihC. و انظر عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة و

آثارها، الجزء الأول القاهرة 1962، ص 30 - 31.

2- خروج 12: 40.

3- . 28 ehT W retsenimtseH lacirotsiA saltA eht ot elbiB p.

ومنها (حادي عشر) أن هناك ما يشير إلى أن يوسف قد حمل إلى مصر، حيث كانت تجارة الرقيق من البنين و البنات الأسويين تلقي يومئذ رواجاً دلاً عليه ما كشفت عنه بريدة في متحف بروكلين (1) بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد جاء فيها ذكر ما يربو على أربعين أسويًا من نيف وثمانين، كانوا يعملون خدماً في بيت واحد من عصر الأسرة الثالثة عشرة قبل مجيء الهكسوس، ولم يكن من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة، و أحوال مصر المتواضعة، أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم في بيوت أخرى، من أسرى الحرب في زمان لم تقع فيه حروب (2).

و أما عدم ذكر «يوسف» في الآثار المصرية، رغم أنه شغل منصب الوزير للملك، فهذه - فيما أظن - هذا الرأي ولا ننقصه، إذ لو كان يوسف عاش في غير عصر الهكسوس، لكان من الممكن أن نعثر على دليل أثري يؤيد وجوده، أو على الأقل يشير إلى الأحداث التي روتها التوراة، ذلك لأن التاريخ المصري، رغم أنه يمتاز على تاريخ الشرق الأدنى القديم بوضوحه وكثرة آثاره، فإن عصر الهكسوس بالذات يمتاز بالغموض، بل إنه ليعتد واحداً من أغمض فترات التاريخ المصري القديم، ذلك لأن المصريين ما كانوا براغبين في تسجيل ذكرى هذا العصر البغيض إلى نفوسهم (3)، بل إنهم لم يحاولوا حتى الإشارة إليه إلا على أيام الملكة «حتشبسوت» (4)، (1490-1468 ق. م)، هذا فضلاً عن تدميرهم لآثار الهكسوس بعد نجاحهم في طردهم و تحرير البلاد من سيطرتهم.

أضف إلى ذلك كله، أن يوسف، على الرغم من أنه كان ذا مكانة في

ص: 104

1- W 1955 .C .W seyapA surypapA eht fo etalL elddim K modgni eht ni B nykooR muesum.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 43.

3- أنظر: كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص 103-106.

4- أنظر: AEJ renidraG. A 48- 45. p, 1946, 32.

حكومة مصر، غير أنه لم يعد أن يكون وزيراً فحسب، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل، إنما كان ينسب إلى الملك، الذي كانت النقوش تهدف إلى تعظيمه والإشادة بذكره، لأن كل شيء كان في مصر من وحيه هو، وعلى ذلك فإن اسم يوسف لم يكن ليظهر بطبيعة الحال (1).

و انطلاقاً من هذا، إذا أردنا أن نحدد- قدر استطاعتنا، وفي الوقت نفسه حدساً غير يقين- ملك مصر الذي عاصر الصديق، مستعينين في ذلك بقوائم الملوك من تلك الفترة، و مستعينين في الوقت نفسه بالمصادر الإسلامية، لوجدنا أن واحداً من ملوك الهكسوس كان يدعى «سا أوسر إن رع- خيان» (2) من ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية- أي في بداية عصر الهكسوس- لوجدنا في الوقت نفسه، أن المصادر الإسلامية تذكر أن ملك مصر على أيام الصديق، إنما كان من ملوك العرب، المعروفين بالرعاة (الهكسوس) (3) وأنه كان يدعى «الريان» (4)، وإني لأظن- وليس كل الظن إثماً- أنه ليس من الصعب كثيراً تصحيف الإسم «ريان» إلى «خيان» وإن كانت هناك قصة قديمة تجعلهم يصلون مصر على أيام الملك (إيبسي) (5).

ص: 105

-
- 1- سليم حسن: مصر القديمة- الجزء السابع- القاهرة 1950 ص 107-10.
 - 2- أنظر: عن هذا الملك: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص 145-148، و كذا fo tpygE. renidraG. A و كذا، AEJ, hgrebredaS- evasg .. T 63. p، 1951، 37. erneneqeS ot, III, semenemmA fo htaeD eht morf tpygE, و كذا. seyaH. C. W و كذا. 1965. p، 22. II, egdirbmaC, 158, shoarahP. p.
 - 3- محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف، القاهرة 1936 ص 68.
 - 4- الإمام الطبري: تاريخ الطبري 1/325-336، تفسير الطبري 16/17 الإمام ابن كثير: قصص الأنبياء 1/306، تفسير ابن كثير 4/306، تاريخ ابن خلدون 2/75-76، المسعودي: مروج الذهب 1/61، سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص 104 (بيروت 1975).
 - 5- نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم 1/403.

(ب) الرأي الثاني:

ويذهب إلى أن الإسرائيليين قد هبطوا مصر على أيام «أمنحتب الثاني» (1436-1413 ق.م) وينادى به «برني وجرسمان»، ذلك أن «برني» كتب في عام 1918 م مقالا عن الموضوع (1)، ثم عاد إليه مرة أخرى في عام 1920 م في تعليقه على «سفر القضاة» (2)، وفيه رأي: أن بعضا من قبائل العبريين قد استقر في مصر على أيام الهكسوس و طردوا منهم و هذا يتفق مع هبوط إبراهيم الخليل - عليه السلام - مصر، و خروجه منها (3).

هذا وقد وجد تحوتمس الثالث في فلسطين إحدى المجموعات العبرية، و تدعى «يعقوب إل»، بعد أن طردها الآدوميون من كنعان (هروب يعقوب من عيسو)، ثم غزت البلاد مرة أخرى (غزو الخايير و حوالي عام 1400 ق.م) لأن «لابان» - صهر يعقوب و خاله - كان يتعقبهم (أي القبائل الآرامية و ساجاز تل العمرانية)، و أن هؤلاء الخايير و الذين سموا «عايرو» (العبرانيين) قد وجهوا هجومهم نحو «شكيم» بصفة خاصة، و أن جماعة منهم - متضمنة يوسف، و ربما شمعون و لاوى - قد أخذت طريقها نحو مصر أثناء حكم أمنحتب الثاني، حوالي عام 1435 ق.م، لأن هؤلاء قد استقروا هناك - طبقا للترجمة السبعينية - مدة 215 (4) عاما، و لكن الجزء الأساسي من الإسرائيليين قد بقي في فلسطين، و من ثم فقد ذكر سبط «أشير» في سجلات «سي تي الأول» (1309-1291 ق.م) و رعسيس الثاني (1224-1290)

ص: 106

1- .naanaC ni tmemelteS learsI, yenruB. F. C 1918, .

2- .segduJ fo kooB eht, yenruB. F. C 1920, .

3- تكوين 12: 10-20.

4- خروج 12: 40-41، مع ملاحظة أن بعض المصادر الإسلامية ذهبت إلى هذا الإتجاه (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر 1/ 20، ابن حزم الفصل في الملل و الأهواء و النحل - الجزء الأول ص 10).

ق. م)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى إسرائيل عصر مرنبتاح، أو في فترة الاضطرابات التي تلت موته (1).

و أما الملامح الخاصة لنظرية «جرسمان»، فهي ضغط الأحداث إلى أقصر فترة زمنية ممكنة، فهو يرى أن الخابير و ينتمون إلى موجة من موجات الغزاة الآراميين سابقة للتي أتت بالإسرائيليين، و أن الأخرى قد وصلوا إلى حدود فلسطين حوالي عام 1300 ق. م، و أن جزءا منهم قد اتجه إلى مصر مباشرة، و أقاموا هناك فترة جيلين فقط، و هو الزمن الذي يتطلبه الجزء الأقدم من التقاليد الإسرائيلية (2)، و لنقل أنها كانت خمسين عاما، و أنهم هربوا أثناء حكم فرعون الاضطهاد، و استقروا في كنعان حوالي عام 1230 ق. م، و من ثم فليس من الغريب أن يذكر مرنبتاح إسرائيل بين الشعوب التي أخضعها أثناء حملته إلى فلسطين.

على أن هناك كثيرا من العقبات التي تقف في وجه قبولنا لرأي «برني» هذا، منها (أولا) أنه يتعارض تماما مع التوراة- مصدرنا الأساسي في هذه الفترة من تاريخ بني إسرائيل-، ذلك لأن التوراة إنما تذهب إلى أن بني إسرائيل إنما قدموا إلى مصر، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان، ثم بدعوة من يوسف- عليه السلام (3)- و ليس بسبب طرد الآدوميين لهم، و منها (ثانيا) أنه يختصر مدة إقامة بني إسرائيل في مصر إلى 215 عاما، و التوراة صريحة في ذلك، إذ تحدد مدة إقامتهم ب 430 عاما (4)- و إن كان ما ذهب إليه يتفق مع الترجمة السبعينية.

ص: 107

1- . 184- 185. A sdoL. tic- p.

2- تكوين 15: 16، خروج 1: 6- 8، 6: 20.

3- سورة يوسف: آية 58- 100، تكوين 41: 45- 56: 28.

4- خروج 12: 40- 41.

ومنها (ثالثا) أنها ترتبط بين نزول إبراهيم و خروجه منها، وبين عهد الهكسوس، الأمر الذي رفضناه من قبل، ومنها (رابعا) أنها ترتبط بين روايات إسرائيلية تتعلق بأحداث مبكرة في فلسطين، وبين قصة دخول الإسرائيليين مصر، ومنها (خامسا) أنها تجعل دخول الإسرائيليين مصر، إنما كان مقصورا على أسباط معينة، علما بأن التوراة تجعل ذلك للإسرائيليين عامة (1).

ومنها (سادسا) أن يوسف الصديق كان- كما هو معروف- قد شغل منصبا كبيرا في الدولة، ولم يكن من عامة القوم، فكيف لم تشر إليه النصوص المصرية؟ وهي التي أشارت كثيرا إلى الوزراء و كبار الموظفين، بجانب ملوكهم، وهو أمر قد عللناه في عصر الهكسوس بغموض هذا العصر و ضياع آثاره، وهذا ما لم يقل به أحد ممن أرخوا لعصر أمنحتب الثاني (1436-1413 ق. م).

أما نظرية «جرسمان» فهي تضغط الأحداث بدرجة كبيرة، هذا فضلا عن اعتمادها على تفسيرات معينة لنصوص معينة، وفي نفس الوقت، فإنها تتجاهل نصوصا أخرى تحدد بصراحة مدة الإقامة ب 430 سنة، أضف إلى ذلك أن تحديدها لدخول بني إسرائيل مصر في عام 1300 ق. م، و الخروج بعام 1230 ق. م، يجعل مدة إقامة بني إسرائيل في مصر، حوالي 70 عاما، كما يحددها جرسمان نفسه- وهو أمر يخالف كل التقاليد العبرية، بل إن القصة كلها- كما يقدمها لنا جرسمان- إنما تخالف كل التقاليد اليهودية، الخاصة بقصة دخول و خروج بني إسرائيل من مصر.

وهكذا يبدو لي أن عصر الهكسوس- وليس غيره- إنما هو العصر الذي دخل الإسرائيليون فيه أرض الكنانة.

ص: 108

1- تكوين 45: 16-28.

1- تمهيد:-

من البدهي أن تحمل قصص التوراة بعض أوجه شبه بالقصص القرآني، وإن كان قليلاً ذلك لأن التوراة في الأصل، إنما هي كتاب مقدس، فالإسلام الحنيف إنما يؤمن بموسى، كنبى و كرسول و ككليم لله تعالى، ثم يقرر بعد ذلك، دونما لبس أو غموض، أن موسى جاءته صحف (1)، و أنزلت عليه توراة (2)، غير أن توراة موسى هذه سرعان ما امتدت إليها أيد أئيمة، فحرفت و بدلت، ثم كتبت سواها، بما يتلائم مع يهود، و يتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا، بعد كل هذا، أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام (3) كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (4).

ص: 109

- 1- سورة النجم: آية 36، الأعلى: آية 19.
- 2- جاءت كلمة التوراة في القرآن الكريم 18 مرة (أنظر: آل عمران: 3، 48، 50، 65، 93، المائة: 43، 44، 46، 66، 68، 110، الأعراف: 157، التوبة. 111، الفتح: 29 الصف: 6 الجمعة: 5).
- 3- قدم المؤلف دراسة مستقلة عن التوراة (أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية 1979).
- 4- سورة الكهف: آية 5.

و الذي تولى هذا التصحيف و التأويل و التعمية، إنما هي طائفة متخصصة من أئمة يهود، بغية الحفاظ على مكانتها و مكاسبها، و إلى هذا يشير القرآن الكريم مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ (1)، وَفَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (2).

هذا و قد عمد لفيق من رؤسائهم الدينيين إلى إخفاء بعض الأسفار في الهيكل، و هي التي عرفت بالأسفار الخفية (3)، ثم اختلفت نظرتهم إليها، إذ كان بعضها، فيما يعتقدون، غير مقدس، بينما بعضها الآخر موحى به من عند الله، و إن رأى الأئمة إخفاءه في الهيكل حتى لا يطلع عليه العامة من القوم، كما رأوا عدم إدراجه بين أسفار التوراة، ربما لأن ما به من حقائق لا يتفق و أهواءهم، و ربما لأن ما به من بشارات لا- يتلاءم و ميولهم العنصرية، و من هذا يقول القرآن الكريم قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا (4)، و من ثم فقد كان حكم الإسلام على كتاب اليهود المتداول اليوم، أنه يحمل بعض لمحات من توراة موسى، ذلك لأن اليهود إنما قد أوتوا نصيبا منها، و نسوا نصيبا و خطأ، فلم يحفظوها كلها، و لم يضيفوها كلها، و إنما قد حرفوا ما أتوه عن مواضعه تحريفا لفظيا و معنويا (5).

و يقول الإمام ابن تيمية: أما من ذهب إلى أنها كلها (أي التوراة) مبدلة من أولها إلى آخرها، و لم يبق منها حرف إلا بدلوه، فهذا بعيد، و كذا

ص: 110

1- سورة النساء: آية 46.

2- سورة البقرة: آية 79.

3- أنظر: عن الأسفار الخفية في التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 219-223).

4- سورة الأنعام: آية 91.

5- تفسير المنار 1/ 213.

من قال لم يبدل شيء منها بالكلية بعيد أيضا، و الحق أنه دخلها تبديل و تغيير و تصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة و النقص، كما تصرفوا في معانيها، و هذا معلوم عند التأمل (1).

و من ثم فليس صحيحا ما ذهبت إليه بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم قد اعتمد إلى حد كبير في قصصه على التوراة و الإنجيل (2)، و زاد بعض من تابعهم من الباحثين العرب أن القرآن الكريم جعل هذه الأخبار مطابقة لما في الكتب السابقة، أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيل إلينا (أي الباحثين العرب) أن مقياس صدقها و صحتها من الوجهة التاريخية، و من وجهة دلالتها على النبوة و الرسالة، أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار (3).

و ذهب الأستاذ مالك بن نبي أن هناك تشابها عجبيا بين القرآن و الكتاب المقدس (التوراة و الإنجيل) و أن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ إبراهيم إلى زكريا و يحيى و مريم و المسيح، فأحيانا نجد القرآن يكرر نفس القصة، و أحيانا يأتي بمادة تاريخية خاصة به، مثل هود و صالح و لقمان و أهل الكهف و ذي القرنين (4)، و من عجب أن الدكتور البوطي ينقل عنه، فيما يزعم، أن القرآن جاء بقصص الأنبياء و الأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة و تفصيلا مع ما أثبتته التوراة و الإنجيل من عرض تلك الأخبار و القصص، و أن ذلك دليلا لا

ص: 111

1- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 149.

2- جولد تسيهر: العقيدة و الشريعة تب الإسلام- ترجمة محمد يوسف موسى- القاهرة 1946 ص 12، 15 و كذا: ((stooB nacileP)). 61- 62. p, 1964. emualliuG derflA malsI.

3- محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم- القاهرة 1953 ص 22، و أنظر ص 27، 28، 45، 173، 175، 182.

4- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية- ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين- بيروت 1961 ص 251.

يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثا يفترى، ولكنه وحى من الله عز وجل (1)، ولست أدري كيف نقل البوطي كل ذلك دون تعليق، والمستشرقون المبغضون للقرآن لم يقولوا أكثر من ذلك، فضلا عن أن الجملة التي قالها مالك بن نبي لا تعني ما ذهب إليه، وإن اقتربت منه.

وقد ناقشنا ذلك كله في الجزء الأول من هذه السلسلة، وبيّنا بطلانه، ثم أثبتنا ذلك البطلان بعقد مقارنة لكثير من قصص الأنبياء، مثل نوح وإبراهيم وموسى وهارون وداود وسليمان ومريم والمسيح عليهم السلام، كما جاءت في القصص القرآني وروايات التوراة (2).

[2] قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة:-

لعل قصة يوسف عليه السلام، إنما كانت أكثر القصص الذي طال الجدل واشتد حولها، حتى زعم «الفرد جيوم» أنها تدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف قصة الآباء الأوائل، كما جاءت في سفر التكوين من التوراة، فحسب، بل إنه يعرف كذلك التطور اليهودي المتأخر للقصة (3)، حيث تداخلت مصادر التوراة الثلاثة (إلهوي والإلهيمي والكهنوتي)، وكونت قصة تكون مزيجا عجيبا من هذه المصادر جميعا (4).

ولعل أفضل ما نفعله للرد على مزاعم «جيوم» وغيره من المستشرقين، بل وبعض المسلمين للأسف، أن نعقد مقارنة بين القصتين، ذلك لأن قصته التوراة، وإن كانت تحمل بعض أوجه شبه من القصة القرآنية، فإن هناك

ص: 112

1- محمد سعيد البوطي: من روائع القرآن- دمشق 1972 ص 221.

2- أنظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن- الجزء الأول- في بلاد العرب- الرياض: 198 ص 47-88.

3- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 251 و كذا.. A 61 tic- po, emualliuG.

4- أنظر عن مصادر التوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل 97/3-106، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي- الإسكندرية 1971 ص

28-31.

خلافات جوهرية بين القصتين، كما جاءت في الذكر الحكيم (سورة يوسف) وفي سفر التكوين من التوراة (الإصحاحات 37، 39-50)، تثبت، دونما أي ريب، أن المصدر الأول لم يعتمد على الثاني، بل إن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يؤكد الباحثون من المستشرقين، حتى المتعصبين منهم، لم يقرأ التوراة أو أي كتاب آخر من كتب أهل الكتاب (1).

و أما هذه الخلافات الجوهرية بين قصة يوسف القرآنية، و تلك التي جاءت في التوراة، فمنها (أولا) تلك الملامح الروحية التي تتميز بها القصة القرآنية، فضلا عن أن شخصية يوسف النبي، أكثر وضوحا في القصة القرآنية، منها في رواية التوراة، و منها (ثانيا) أن حب يعقوب ليوسف إنما تصوره التوراة، على أن الصديق إنما كان يأتي لأبيه «بنميمة أخوته الرديئة»، و لأنه ابن شيخوخته، في الدرجة الأولى، ثم رؤيا يوسف في الدرجة الثانية (2)، و أما في القرآن الكريم، فإن السبب إنما هو الرؤيا الصادقة، ثم إحساس عميق من يعقوب النبي، بما سوف يكون للصديق من مستقبل في عالم النبوة و تأويل الأحاديث (3)، و منها (ثالثا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن مؤامرة إخوة يوسف عليه، إنما بدأت قبل أن يذهب معهم، فضلا عن توضيح رأي أبناء يعقوب في أبيهم، و لنقرأ هذه الآيات الكريمة لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ

ص: 113

1- راجع عن تفسير سورة يوسف: تفسير المنار 12/ 251-324، 1/ 13 و ما بعدها+ تفسير سورة يوسف لرشيد رضا، تفسير البيضاوي 1/ 486-511، تفسير الطبري 12/ 149-238، 1/ 13-91، تفسير القرطبي 9/ 118-277، تفسير الألوسي 12/ 170-261، 1/ 13-84 مؤتمر تفسير سورة يوسف (جزءان)، تفسير النسفي 2/ 210-241.

2- تكوين 37: 2-11.

3- سورة يوسف: آية 6.

اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (1).

ومنها (رابعا) إن قصة التوراة تذهب إلى أن يعقوب هو الذي طلب من يوسف أن يذهب إلى إخوته الذين يرعون أغنامهم عند شكيم (2)- والتي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية- بينما يرى القرآن الكريم أن أخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم، لأن أباه إنما كان يخشى عليه من حقدهم، قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصي حون، أُرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَ إِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ (3)، ومنها (خامسا) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى ارتياب يعقوب في بنيه عقب تنفيذ المؤامرة- فضلا عن ارتيابهم في أنفسهم- و ما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً (4)، بينما تشير رواية التوراة إلى سرعة تصديق يعقوب لفرية أولاده، و يأسه عقب المؤامرة (5)، «فتحققه (أي قميص يوسف) وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه و وضع مسحاً على حقويه، و ناح على ابنه أياما كثيرة» و منها (سادسا) أن الحيوان الذي ألصقت به تهمة قتل يوسف، إنما هو «تيس من المعزى» في التوراة (6)، ولكنه الذئب في القرآن الكريم (7).

ومنها (سابعا) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف مع امرأة العزيز، لم

ص: 114

1- سورة يوسف: آية 7-!.

2- تكوين 37: 12- 16.

3- سورة يوسف: آية 11- 12.

4- سورة يوسف: آية 17- 18.

5- مالك بن نبي: المرجع السابق ص 302.

6- تكوين 37: 33- 34.

7- سورة يوسف: آية 13- 14، 17.

تحاول أن تركز على براءة يوسف، كما فعل القرآن الكريم الذي عرض البراءة في جلاء ووضوح، ومنها (ثامنا) أن القرآن الكريم يصور لنا يوسف بعد حادث المراودة، وهو يفر من أمام امرأة العزيز، غير أنها سرعان ما تلحق به، فتتعلق بقميصه، ويتمزق منه ما علقت يدها به، و هنا يصل العزيز ويفاجأ بما لا يتصوره، فتبادر المرأة إلى دفع التهمة عن نفسها، و ترمي بها على يوسف في جرة، ثم لا تنتظر رأي العزيز في صحة الاتهام، فتغريه به و تعمل على توكيده في نفسه، بأن تطلب إليه رأيه في الجزاء الذي يجزى به هذا المتهم (1)، يقول تعالى: وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَاجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (2)، بينما تتجاهل رواية التوراة حضور العزيز، و تذهب إلى أن امرأة العزيز قد أخبرت أهل البيت بأن الرجل العبراني قد حاول الاعتداء عليها، و أنه لم يتركها إلا بعد أن استغاثت بمن في البيت، و من ثم فقد ترك ثوبه و خرج، و أبقث الثوب حتى إذا ما جاء بعلها أخبرته أن عبده العبراني حاول الاعتداء على شرفها و لما صرخت ترك ثوبه بجوارها و فر هاربا، و لعل من المفيد هنا الإشارة إلى ما في النص التوراتي من اضطراب، فمرة لا يوجد أحد في البيت، و مرة أخرى، فإن البيت مليء بأهله، و مرة يوصف يوسف بأنه رجل عبراني، و أخرى عبد عبراني و فرق بين العبارتين في مثل هذه الحالة النفسية (3).

و منها (تاسعا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن الله سبحانه و تعالى - قد أظهر براءة يوسف على يد شاهد من أهل امرأة العزيز

ص: 115

1- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص 100.

2- سورة يوسف: آية 25.

3- تكوين 39: 11-18.

نفسها، تروي كتب التفسير أنه صبي في المهدي، وذلك حين قال إن كان قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (1)، كما شهدت ببراءته النسوة للآتي قطعن أيديهن بقولهن حاش لله ما علمنا عليه من سوء (2)، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أن العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن «أن غضبه حمي، فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن (3)».

ومنها (عاشرا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن عزيز مصر، حينما عرف الحقيقة، فإذا به يطلب من يوسف كتمان الأمر، و عدم إذاعته بين الناس، وفي نفس الوقت فإنه يتجه إلى امرأته يأمرها أن تستغفر لذنبها وأن تتوب إلى ربها (4)، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، وأهل مصر- وإن كانوا وقت ذاك غير موحدين- إلا أنهم إنما كانوا يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها، إنما هو الله وحده، لا شريك له في ذلك (5)، ومنها (حادي عشر) أن التوراة لم تتعرض لحادث النسوة اللاتي أخذن يرددن في المدينة، امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا، إنا لئراها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن أوسدت لهن وجوههن وأرسلهن، فقلن حاش لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم (6).

ص: 116

1- سورة يوسف: آية 26-28.

2- سورة يوسف: آية 51.

3- تكوين 39: 19-20.

4- سورة يوسف: آية 29.

5- ابن كثير: البداية والنهاية 1/ 204 التفسير 4/ 22.

6- سورة يوسف: آية 30-31.

و منها (ثاني عشر) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف - عليه السلام - قد فضل السجن، على أن يقترب الفاحشة، وذلك حين خير بين أن تنال المرأة منه ما تريد، وإلا فإن أبواب السجن مفتوحة على مصراعها لاستقباله، قال رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (1).

و منها (ثالث عشر) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يعقوب - عليه السلام - حينما فقد في عاصفة هو جاء من عواصف الفتنة و الحسد، أعز فلذات كبده - يوسف الصديق - لم يغلبه الحزن الذي عصف بقلبه، على الصبر الذي ملأ كيانه (2)، فإذا به يتقبل المأساة بما يتفق و مكان النبوة السامي، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (3)، بينما تصوره التوراة في صورة لا ترتضيها للنبي الكريم، «فأبى أن يتعزى، وقال إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية» (4)، و حين تتكرر المأساة مرة أخرى، و يفقد يعقوب بنيامين - كما فقد يوسف من قبل - فإن الجواب في القرآن الكريم، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (5)، و أما الجواب في التوراة - و حتى قبل وقوع الكارثة - «إذا أصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية» (6)، بل إن القرآن الكريم ليشير بوضوح إلى أن مر السنين، و كر الأيام، لا يفقد الأمل في نفس النبي الكريم،

ص: 117

1- سورة يوسف: آية 33-34.

2- عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق ص 211.

3- سورة يوسف: آية 18.

4- تكوين 37: 35.

5- سورة يوسف: آية 83.

6- تكوين 42: 36-38، 44: 29-31.

يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ بينما تنعى التوراة على موت يوسف «لا ينزل ابني معكم، لأن أخاه (أي يوسف) قد مات، وهو وحده باق».

ومنها (رابع عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف قد تنبأ بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، بعد سبع سنوات من القحط (1)، ومنها (خامس عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف بعد أن فسر الحلم لملك مصر، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام، رفض في إباء وشمم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه، حتى يتحقق الملك ورجاله- بل والناس جميعا- من براءته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز، وكان سببا في أن يلبث في السجن بضع سنين، اذ جع إلى ربك فسئل ما بال النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (2)، والآية الكريمة تفيد أن يوسف لم يشأ أن يقال عنه مجرم سر منه الملك، فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن، وتجيء الشواهد كلها- بعد بحث دقيق- بعفة الصديق وطهارته، وعندئذ يتقدم الصديق في ثقة وثبات، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، وهكذا يتحمل يوسف المسؤولية كاملة في صدق وشجاعة، وينجح آخر الأمر في أن يرسى السفينة على مرفأ الأمن والسلامة (3)، والأمر عكس ذلك تماما في التوراة، فما أن يفسر الصديق الحلم للملك، وما أن يعرض الملك الأمر عليه، حتى يقبله فورا (4).

ص: 118

1- سورة يوسف: آية 47-49.

2- سورة يوسف: آية 50، وأنظر: تفسير الطبري 16/133-137.

3- سورة يوسف: آية 46-57.

4- تكوين 41: 37-46.

و منها (سادس عشر) أن قصة يوسف إنما تشير إلى أن المصريين، ربما كانوا يعيشون في حرية شخصية إلى حد ما، حتى مع نفس الملك القابض على السلطة في مصر، وإن هذا الملك قد قبل أن يأمر بشيء في حق عبد دخيل، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره، إلا بعد إجراء التحقيق، مع أنه يمكنه الجمع بين امتثال إرادة الملك وأجراء التحقيق، بأن يبادر يوسف بالخروج من السجن، ثم يطلب من الملك التحقيق في قصيته (1).

و منها (سابع عشر) إن التوراة لم تشر إطلاقاً إلى قيام يوسف- عليه السلام- بدعوة التوحيد، بعكس القرآن الكريم الذي يشير إلى أن الصديق قد انتهز الثقة المكينه التي اكتسبها بين السجناء، بسبب تفسير الرؤيا وتأويل الأحلام، فيقوم بدعوته الدينية، شارحاً عقيدة الأنبياء جميعاً في وحدانية الله الخالق العظيم. و هاتفاً بمستمعيه (2)، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (3)، و ذلك لأن يوسف لم يكن عالماً يؤول الرؤيا فحسب، بل كان رسولاً مصلحاً، فما كان يرى فرصة يتنافس فيها برسالته إلا انتهزها، و لا نهضة صالحة للدعوة إلا علق بها (4)، و لهذا فإن الإشارة إلى

ص: 119

1- مؤتمر تفسير سورة يوسف 839/2.

2- محمد رجب البيومي: البيان القرآني ص 225 عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 140.

3- سورة يوسف: آية 37-40.

4- محمد أحمد جاد المولي وآخرون: قصص القرآن ص 103.

الآخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن (1) دون التوراة.

ومنها (ثامن عشر) إن القرآن الكريم هو وحده الذي يشير إلى إعلان امرأة العزيز براءة يوسف، وأنها هي التي راودته عن نفسها، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنني لم أحنه بالغيب وأن الله لا يهدي الخائنين (2)، وهكذا تقدم لنا القصة القرآنية امرأة العزيز، وهي تتحدث بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم وأرغمته طهارة التضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها وتقر بخطيئتها (3).

ومنها (تاسع عشر) إن يوسف عليه السلام قد وصف في القرآن الكريم بالصديق والعزيز (4)، وفي التوراة ب «صفنات فعنج» (5)، و منها (عشرون) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يتحدث عن نبوة عزيز مصر الصادقة في يوسف الصديق، وقال الذي اشتراه من مصر لأمراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (6)، و منها (واحد وعشرون) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة يوسف مع أبيه وأخوته إلى تحقيق حلمه الأول، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ

ص: 120

1- سورة يوسف: آية 57.

2- سورة يوسف: آية 51-52.

3- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص 304-305.

4- سورة يوسف: آية 46، 88.

5- تكوين 41: 45.

6- سورة يوسف: آية 21.

أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا، وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (1).

ومنها (اثنان وعشرون) أن قصة التوراة تتحدث دائما عن ملك مصر، على أنه فرعون مصر (2)، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون (3)، ويرى الأستاذ حبيب سعيد أن هذه كانت هي العادة المتبعة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق. م (4)، والحقيقة غير ذلك تماما، فمن المعروف تاريخيا أن كلمة «فرعون» في صيغتها المصرية، «بر-عا» أو «بر-عو»، كانت تعني - بادئ ذي بدء- البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي - وليس إلى ساكنه- ثم سرعان ما تغيرت و غدت تعبيراً محترماً، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة (5)، وأما متى حدث هذا التغيير في استعمال لقب فرعون، فإن «سير ألن جاردنر»-العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة- يحدد ذلك بعهد الفرعون «تحوتمس الثالث» (1490 - 1436 ق. م)، حيث بدئ في إطلاق الاصطلاح «أي فرعون» على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور «أخناتون» (1367 - 1350 ق. م)، مستندا في ذلك على خطاب من عهده، ثم استعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة (1308 - 1184 ق. م)

ص: 121

- 1- سورة يوسف: آية 99-101، وأنظر: تفسير الطبري 16/264-277 (دار المعارف- القاهرة 1969).
- 2- تكوين 40: 7-41: 15، 46: 31-50: 7.
- 3- سورة يوسف: آية 43، 50، 54، 72، 76.
- 4- حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص 76.
- 5- , 1963, p. 102. W. A. J nosli, C. tpygE tneicnA fo erutluC ehT, .ogacihC.

وفيما بعد، في بعض الأحيان، كمرادف لكلمة «جلالته»، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: «خرج فرعون» و «قال فرعون ... و هكذا (1)».

ومن ثم، فإن القرآن الكريم - فيما يبدو لي - أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس (2) فأطلق عليه لقب «ملك»، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى - مثلا - الذي أطلق عليه لقب «فرعون»، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد إخناتون، هذا فضلا عن أن ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ أنها تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (1575 - 1308 ق. م)، و فيما بعدها.

ومنها (ثلاث وعشرون) أن رؤيا يوسف في القرآن الكريم واحدة إذ قال يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ، بينما هي في التوراة حلمان، الواحد رأى فيه يوسف أنه وإخوته حازمون حزما في الحقل، وأن حزمته قامت وانتصبت فاحتاطت حزم أخيه فسجدت حزمهم لحزمته، فقاله إخوته أ لعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا

ص: 122

1- , 1964 , H. A 52. p. drofxo, shoarahP eht fo tpygE, renidraG. H. A 52. p. , كذا. , renidnaG. naitpygE, rammarG drofxo, H. A 75. p. , 1966

2- حوالي (1725 - 1575 ق. م)، وأنظر آراء أخرى في كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» دار المعارف 1976 ص 137 - 138، و كذا , D. B. drofdeR, ehT soskyH. J ni noisavnI. orettoB ehT tsaE raeN ehT ylraA noitaziliviC و كذا, noitidarT و كذا , H. A 165. p. shoarahP eht fo tpygE, renidraG. H. A 165. p. , 1970. dna yrotsiH 23. p. و كذا. J 159. A. J nosliW tic- po و كذا , 1967. 393. p.

تسلطاً، فزادوا له بغضاً من أجل أحلامه و من أجل كلامه، و الثاني. رأى فيه يوسف أن الشمس و القمر و أحد عشر كوكبا ساجدة له، و لما قصه على أبيه و إخوته نهره أبوه و قال له: ما هذا الحلم الذي حلمت هل نأتي أنا و أمك و إخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده إخوته، و أما أبوه فحفظ الأمر، و أما القرآن الكريم فيقول يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (1).

و منها (أربع و عشرون) أن الجب الذي ألقى فيه يوسف إنما هو في التوراة بئر فارغة ليس بها ماء، و لكنه في القرآن إنما كان به ماء و جاءت سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ (2)، و منها (خمس و عشرون) أن الذي اشترى يوسف من مصر، إنما هو في التوراة رئيس الشرطة، و هو العزيز في القرآن الكريم، و فرق كبير بين المنصيين (3)، و منها (ست و عشرون) أن التوراة تذهب إلى أن يوسف دخل السجن بمجرد أن سمع العزيز كلام امرأته، و دونما أي تحقيق، ذلك «أن غضبه حمى، و أخذ يوسف و وضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه»، بينما يؤكد القرآن الكريم أن الصديق قد أودع السجن، بعد ما ظهرت أدلة براءته، كقد القميص و قطع الأيدي و شهادة الصبي و غير ذلك ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليس جننهم حتى حين (4)، و هذا يدل على أن سجن الصديق لم يكن بسبب غضب فجائي من العزيز للموقف المخزي الذي رأى فيه امرأته، و إنما تم ذلك بتدبير و تخطيط الهدف منه أن ينسى الناس قصة أو قل فضيحة امرأة العزيز التي لاكتها الألسن كثيرا بين أوساط الناس.

ص: 123

- 1- سورة يوسف: آية 4-5، تكوين 37/5-11.
- 2- سورة يوسف: آية 19، تكوين 37/24.
- 3- سورة يوسف: آية 21، 30-تكوين 36/37.
- 4- سورة يوسف: آية 23-35، تكوين 39/7-19.

ومنها (سبع وعشرون) أن رؤيا الملك في القرآن واحدة، و أما في التوراة فقد رأى الملك رؤياه على مرتين، في الأولى رأى البقرات السبع السمان يأكلهن سبع عجاف، ثم نام فرأى السنابل الرقيقة تبتلع السنابل السمينة وقد علّلت التوراة تكرار حلم الملك مرتين، وفي صورتين مختلفتين، «لأن الأمر مقرر من قبل الله، والله مسرع ليصنعه» (1)، ومنها (ثمان وعشرون) أن التوراة تذهب إلى أن فرعون قد أرسل إلى يوسف في السجن من استدعيه لتأويل رؤياه «فأسرعوا به من السجن، فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون»، وفسر له حلمه، ثم اقترح عليه أن يختار رجلا بصيرا وحكيما ويجعله على أرض مصر (2)، على أن القرآن الكريم (3) على غير ذلك، فصاحب يوسف الذي نجا من السجن هو الذي أشار على الملك أن يرسله إلى الصديق ليعرف منه تأويل رؤيا الملك، وأن يوسف لم يذهب إلى الملك، وإنما فسر الحلم، بل وأشار بالحل الذي يمكّن البلاد من اجتياز هذه المحنة، وبشر بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وهو ما يزال بعد في زوايا الأرض سجيناً (4)، ومنها (تسع وعشرون) أن القرآن الكريم إنما يذكر أن يوسف الصديق إنما أمر بوضع صواع (مكيال) الملك في رحل أخيه، بينما تذكر التوراة أنه أمر بوضع طاسة الفضة في رحل أخيه بنيامين (5).

ومنها (ثلاثون) أن القرآن الكريم يشير إلى أن الصديق عليه السلام، لما اتهم إخوته بسرقة صواع الملك سألهم رجاله فما جزأوه إن كُنْتُمْ كاذِبِينَ، قَالُوا جَزَأُوهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَأُوهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ،

ص: 124

1- سورة يوسف: آية 43، تكوين 1/41-7، 23.

2- تكوين 14/41-36.

3- سورة يوسف: آية 45-48.

4- سورة يوسف: آية 49.

5- سورة يوسف: آية 70-72، تكوين 2/44.

و أما في التوراة فقد قال إخوة يوسف، دون أن يسألهم أحد عن عقاب من يوجد عنده صواع الملك، «الذي يوجد معه من عبيدك (يعنون أنفسهم) يموت، ونحن أيضا نكون عبيدا لسيدي، قال نعم الآن بحسب كلامكم هذا يكون، الذي يوجد معه يكون لي عبدا، و أما أنتم فتكونون أبرياء»، و مع ملاحظة التناقض في نص التوراة، فهي تذكر أن من يوجد معه يحكم عليه، بالموت، بينما يصبح الباقون أبرياء، فإن حكم يوسف عليهم أن من وجد معه يصبح وحده عبدا له، و أما الباقون فأبرياء، رغم هذا التناقض، فإن التوراة لم تذكر ما أضافه القرآن الكريم عن أن ذلك القانون إنما كان شريعتهم هم، و ما كان يطبق في الشرائع المصرية، و من ثم فما كان من حق يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه في دين الملك، لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك المصري وقضائه أن يسترق أحد بالسرقة، فضلا عن أن يحكم عليه بالموت (1).

و منها (واحد و ثلاثون) أن القرآن وحده من دون التوراة، هو الذي أشار إلى أن إخوة يوسف سرعان ما قالوا، عند ما وجد صواع الملك في رحل أخيهم بنيامين «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» (يعنون يوسف عليه السلام)، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ، قَالَ أَنْتُمْ سَرَّوْا مَكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (2)، و منها (اثنان و ثلاثون) أن القرآن وحده، من دون التوراة، هو الذي أشار إلى قول يعقوب لبنيه يا بني لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (3).

ص: 125

1- سورة يوسف: آية 74-76، تكوين 9/44-10.

2- سورة يوسف: آية 77.

3- سورة يوسف: آية 67.

ومنها (ثلاثة و ثلاثون) أن القرآن الكريم وحده، من دون التوراة، هو الذي أشار إلى قول إخوة يوسف ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين، ولما كانوا يخشون أن يكذبهم، نظرا لتجربة يوسف السابقة، فإنهم طلبوا منه أن يسأل القرية التي كانوا فيها، وسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون (1)، ومنها (أربع و ثلاثون) أن القرآن الكريم يشير إلى أن الصديق هو الذي سأل إخوته عما فعلوه به وبأخيه فعرفوه، ثم اعترفوا بخطئهم في حقه، وأن الله تعالى قد آثره عليهم، وحينئذ عفا يوسف عنهم قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون، قالوا أإنك لآنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، وأن ذلك إنما قد حدث بعد أن أخذ يوسف أخاه منهم، و بعد أن عادوا إلى أبيهم وأعلموه أن ابنه سرق، وفي التوراة، فإن يوسف هو الذي قدم نفسه لهم، بعد أن أحضروا أخاهم، وقبل أن يعودوا إلى أبيهم، و بعد أن سألهم عن أبيهم وهل ما يزال حيا، وأنهم ارتاعوا منه، ولم يستطيعوا أن يجيبوه (2).

ومنها (خمس و ثلاثون) أن القرآن الكريم وحده، من دون التوراة، الذي يشير إلى أن يوسف عليه السلام بعد أن عفا عن إخوته، وأكرم وفادتهم، قال اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين، ولما فصدت العير قال أبوهم إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تغمدون، قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم، فلما أن جاء البشير ألقاه على

ص: 126

1- سورة يوسف: آية 81-82.

2- سورة يوسف: آية 89-92، تكوين 1/45-14.

وَجْهَهُ فَازْتَدَّ بِصَدْرِهِ قَالاً لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (1). وأما كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل، فلقد سبق أن أشرنا أن ذلك مما علمه الله و المفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة، و ما لها لا تكون خارقة، و يوسف نبي رسول، و يعقوب نبي رسول (2).

و أخيراً فإن القرآن الكريم إنما يختم قصة يوسف عليه السلام، بقول الله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ، أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف و قصته من الأخبار المغيبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، و إنما نعلمك نحن بها على أبلغ وجه، و أدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة (3).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة إنما قد انفردت، من دون القرآن الكريم، بأمر، تتفق في بعضها و خلق يهود، و تتعد في بعضها الآخر عن الحقائق التاريخية، و من هذه الأمور (أولاً) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف الصديق، عليه السلام- بعكس القرآن الكريم- إنما تعطي تأكيداً يكشف عن مطامع يهود في مصر، و لنقرأ هذا النص «خذوا أباكم و بيوتكم و تعالوا إليّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، و تأكلون دسم الأرض ... خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم و نسائكم و احملوا أباكم و تعالوا، و لا تحزن عيونكم على أئاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم» (4)، كما لم تهمل التوراة كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجاهدين

ص: 127

1- سورة يوسف: آية 93-96.

2- في ظلال القرآن 4/ 2027.

3- سورة يوسف: آية 102، صفوة التفاسير 69/2.

4- تكوين 18: 20-25.

الجياع إلى مصر، إنما كانت للقت، و لكنها تؤكد أيضا أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض التي استضافتهم (1).

و منها (ثانيا) أن التوراة تزعم أن يوسف قد اشترى كل أرض مصر - من عليها و ما عليها- للفرعون (و هو اصطلاح لم يكن قد أستعمل في مصر بعد، كما أشرنا آنفا) يعد أن امتلأت الأرض جوعا (2)، الأمر الذي لم يثبت تاريخيا، فضلا عن أنني - علم الله- لست أدري: لما ذا تريد التوراة- أو بالأحرى يريد كاتبها- أن يصوروا النبي الكريم في صورة صوت عذاب المصريين، يستغل حاجتهم للمقومات الضرورية للحياة نفسها، فيستولي على أرض مصر كلها- باستثناء أرض الكهانة- لمصلحة الملك الهكسوسى؟. ثم و هل كان ملك مصر على أيام الهكسوس- و هو العصر الذي نرجع فيه دخول بني إسرائيل إلى أرض الكنانة (3)- يسيطر على مصر كلها، حتى يستولي له يوسف- عليه السلام- على كل حال أراضيها؟.

إن جمهرة المؤرخين، إنما ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبدا إلى أبعد من القوصية (4) جنوبا، اللهم إلا في احتلال مؤقت قصير لإقليم (بي حتحور)، قام به «أبوفيس»- ربما آخر من حمل هذا اللقب- و ليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر (5)، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا و السفلى على السواء، فموضوع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى احتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى و هم قضى عليه النص الكبير للملك «كاموزا» الذي يتضمن في وضوح

ص: 128

1- تكوين 46: 1-4.

2- تكوين 47: 13-26، و أنظر تفسير الخازن 3/ 193.

3- راجع كتابنا «إسرائيل» ص 237-245، و أنظر.

4- .FF .p ,zrutS rhi dnu netpygeA ni soskyH red tfahcsrreH eiD ,bibaL rohaP 18 .

5- .p, tic- po, renidraG. H. A. 168 .

أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقاً فيما وراء جبلين، و الذي يشير إلى أنهم اضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند «خمون» (الأشمونين مركز ملوي) (1).

و منها (ثالثاً) أن التوراة تصور لنا شعور المصريين تجاه الإسرائيليين بأنه شعور عدائي، أو على الأقل غير ودي، منذ اللحظة الأولى التي قدم الإسرائيليون فيها بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريم لأخيه، ولكنه يضطر إلى أن تكون له وليمة خاصة، و ثانية لإخوته، و ثالثة للمصريين، و ذلك «لأن المصريين لا- يقدرّون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين» (2)، و هكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهما، و في ضيافة يوسف العبراني نفسه، و هي نظرة لا تدل بحال من الأحوال على احترام المصريين للعبرانيين، و إنما تدل على أنفة المصريين و تأييدهم عن مخالطة العبرانيين، و عدم استعدادهم حتى للأكل معهم، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف عزيز مصر وقت ذلك، و الأمين على خزائنها، و الأثير عند مليكها، و ليس من شك أن هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين كانت واضحة لا تحتاج إلى بيان (3).

و منها (رابعاً) أن التوراة قد حددت اسم من اشترى يوسف و وظيفته، و أنه «فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة» (4) و بدهي أن القرآن الكريم لم يفعل ذلك، لأنه- كما قلنا من قبل- ليس كتاب حوادث و تواريخ، و إنما قصصه للعبارة و العظة، و إن لقبه «بالعزيز»، و لا شأن للقرآن بروايات

ص: 129

1- . P, dibl 167 و كذا كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص 143-145.

2- تكوين 43: 32، قارن: الظاهرة القرآنية ص 305.

3- كتابنا «إسرائيل» ص 243 (الإسكندرية 1983).

4- تكوين: 39: 1.

المفسرين عن اسمه واسم ملك مصر في عهده واسم امرأة العزيز، فتلك اجتهادات، وفوق كل ذي علم عليم (1).

وهنا لنا أن نتساءل عن وصف التوراة لفوطيفار بأنه «خصي فرعون» (2)؟ وهل يتزوج الخصيان؟ والحق أنني لست أدري كيف دار في خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة المصري كان خصيا (3)؟ أو لم يكن شافعا له في دحض هذه الفسرية بأنه زوج أجمل سيدة في البلاد، ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين - أول أسفار التوراة - يرى أن حاشية القصر كلها من الخصيان، ومنهم رئيس السقاة ورئيس الخبازين (4)، وهو أمر اعتدناه في مصر الفراعنة، وما حدثنا به تاريخنا، وإنما ذلك رأي يهود الأسر البابلي، حين كتبوا توراتهم على ضفاف الفرات، متأثرين بكل الحضارات القديمة التي شاهدوها - أو التي عاشوا في ظلالها - من ناحية، وبحقدهم الأعمى على مصر من ناحية أخرى، حتى أعماهم هذا الحقد عن حقائق التاريخ، فجعلوا كل رجال البلاط المصري من الخصيان.

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن الآية الكريمة عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا قد تفيد أن الرجل كان عقيما، لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، ولكنها لن تفيد أنه كان خصيا (5).

ص: 130

1- تفسير الطبري 174/12 - 176 تفسير المنار 272/12، تفسير ابن كثير 17/4.

2- تكوين 39: 1.

3- من عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير (الطبري 175/12، القرطبي 160/9)، وأن رفضتهما جمهرة المفسرين (تفسير البيضاوي 491/1، تفسير المنار 272/12، تفسير الألوسي 207/12، مؤتمر تفسير سورة يوسف 434/1، 503، 504، قارن 525/1، 526، 873/2).

4- تكوين: 40: 2.

5- تفسير المنار 272/12، تفسير البيضاوي 491/1، روح المعاني 207/12، تفسير القرطبي 160/9.

و منها (خامسا) ما تردده التوراة من أن يوسف إنما كان يتهم إخوته بأنهم «جواسيس جاءوا ليروا عورة الأرض»، فضلا عن أن يوسف إنما كان يكرر القسم بحياة فرعون (1)، الأمر الذي لا يتفق و مكانة النبوة بحال من الأحوال.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بذلك الاضطراب الواضح في قصة التوراة، ففي سفر التكوين (37: 26-28) نجد أن يهوذا هو صاحب الكلمة، و قد اقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين مثقالا، في حين نرى في نفس السفر (37: 21-24) أن راوئين هو صاحب الصوت الأعلى، يقترح إلقاءه في الجب فيوافق الجميع، حيث يأخذه التجار المديانيون، كما في (تكوين 37: 28) و الأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى فوطيفار، ففي أول القصة عن قوم من مدين (2)، بينما هم في آخرها من الإسماعيليين (3).

و بعد: فهذه نظرة سريعة إلى الفروق بين قصص القرآن و روايات التوراة، فإذا ما تذكرنا أن القرآن الكريم- كما هو معروف- جاء به محمد النبي الأُمي، الذي لا يكتب و لا يقرأ، كما قال تعالى: وَ مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (4)، مما يدل بوضوح لا لبس فيه و لا غموض- أن هذا القرآن من عند الله، و أنه و إن اتفق مع التوراة في القليل، فإنه يختلف معها في أكثر الكثير، كما يدل كذلك على أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب، و ليس لهم به دراية، و أخيرا فهو يدل على أن هذا القرآن ليس حديثا يفترى، و ليس أساطير الأولين اكتتبها، و لا

ص: 131

1- تكوين 42: 9-16.

2- تكوين 37: 36.

3- تكوين 39: 1.

4- سورة العنكبوت: آية 48.

يمكن أن تملأ عليه، وإذا كان بعض المشركين قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس في مكة- كما يقول بعض المستشرقين الآن- فهو لم يثبت اتصاله به، ولسانه أعجمي، وهذا كتاب عربي مبين، و فوق ذلك في القرآن من صادق الأخبار، ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة، ولا يأتيه الباطل فيما يقول (1)، و لست أدري إعجازا بعد هذا الإعجاز (2).

ص: 132

- 1- محمد أبو زهرة: القرآن ص 364-365، الباقلائي: إعجاز القرآن ص 53-54.
- 2- من إعجاز القرآن كذلك إخباره بأمر حدث في المستقبل، منها إخباره بانتصار الروم على الفرس بعد أن كانت الهزيمة من نصيب الأولين (الروم 1-2) و منها إخباره بنصر المسلمين في بدر قبل الموقعة الكبرى (الأنفال: آية 7) و أن ذلك سوف يقع في نفس الوقت الذي سيهزم فيه الفرس أمام الروم (الروم 3-5)، و غير ذلك من أمور لا- يمكن أن تكون حدسا أو تقديرا شخصيا، وإنما هي من عند علام الغيوب، كقيام دولة الإسلام الفتية على الأرض (النور 55) و عجز كل القوى عن القضاء عليها (الأنفال 36) و الانشقاق بين المسيحيين إلى يوم القيامة (المائدة 14) و الشتات الإسرائيلي (آل عمران 112) و التفوق المسيحي إلى اليهود حتى يوم القيامة (آل عمران 55) [أنظر: الباقلائي: إعجاز القرآن ص 77-79، تفسير القرطبي 1/73-78، الكشاف 3/252، 4/440، 445، مناهل العرفان للزرقاني 2/273، تفسير الطبري 21/16-21، 25/111-115، تفسير البيضاوي 2/215-216، 439، تفسير الجلالين ص 215-216 (نسخة على هامش البيضاوي) تفسير الألوسي 21/16-22، تفسير الطبرسي 21/5-9، تفسير الفخر الرازي 25/95-98، تفسير روح المعاني 6/95-97، تفسير الطبري 6/445-464، 7/116-118، 10/135-140، 13/398-407، 529-534 (دار المعارف بمصر)، تفسير مجمع البيان 3/94-96، 4/166-169، 6/54-55 (دار مكتبة الحياة، بيروت 1961).

(أ) فيما قبل الاضطهاد:-

قدم بنو إسرائيل، كما رأينا من قبل، لا كغزاة فاتحين، وإنما كلاجئين من جذب أصاب أرض كنعان، فوجدوا في مصر، وفي ظل أخيهم يوسف عليه السلام، ضيافة كريمة، فاختروا، أو اختار لهم يوسف، أرض جوشن في وادي طميلات، لأنهم رعاة أغنام، وهذه أرض مراعى، ولأنها تبعدهم عن مخالطة أهل البلاد والاندماج فيهم، والامتزاج بهم، حيث كانوا يؤثرون الإقامة في جهات خاصة بهم، ربما لأن تلك طبيعتهم، وربما بسبب نفور المصريين منهم أو من حرفتهم كراعة «لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين، ولعلنا نحس بذلك منذ اللحظة الأولى التي قدم فيها بنو إسرائيل بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريماً لأخيه، ولكنه، فيما تروي التوراة، يأمر بأن تكون له مائدة خاصة به، وأخرى لإخوته، وثالثة للمصريين «لأن المصريين لا يقدرُوا أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين» (1).

وهكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهم، وفي ضيافة يوسف العبراني نفسه، وهي نظرة لا تدل، بحال من الأحوال،

ص: 137

على احترام المصريين العبرانيين، وإنما تدل على أنفة المصريين، وتأييدهم عن مخالطة العبرانيين، وعدم استعدادهم حتى للأكل معهم على مائدة واحدة، لأن الأكل معهم رجس لا يليق بالمصريين، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف، عزيز مصر وقت ذلك، والأمين على خزائنها، والأثير عند مليكهما، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين ما كانت تحتاج إلى بيان، بل إن يوسف نفسه، طبقاً لرواية التوراة، إنما يسلم بها سلفاً، ومن ثم فقد أعد مائدة للمصريين، وأخرى لإخوته، وثالثة له، ولعل أراد بذلك ألا يغضب أحد الفريقين، إن جلس على مائدة فريق دون الآخر.

هذا وربما كان من أسباب هذه النفرة بين المصريين والإسرائيليين تلك النظرة المتعالية التي كان ينظر بها المصريون إلى من عداهم من الشعوب، بل إنهم إنما كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم هم «الناس» أو «الرجال» وأما الأجانب فلا، ومن ثم فقد كانوا يزدرونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»⁽¹⁾، وزاد الأمر بالنسبة للعبرانيين حريفهم كرهاً، «وكل راعي غنم رجس عند المصريين».

وأياً ما كان الأمر، فلقد عاش بنو إسرائيل في ظل الهكسوس الغزاة، ما شاء الله لهم أن يعيشوا، حتى تقوم ثورة التحرير، التي يحمل لواءها أبناء الصعيد من طيبة، أولئك الذين لم يخنعوا للهكسوس أو يخضعوا لسلطانهم، وتنتهي الأمور بمصر بطرد الهكسوس مصر ومطاردتهم حتى زاهى في لبنان، ومن ثم يسترد المصريون زمام الأمور، وتقوم الأسرة الثامنة عشرة عشرة حوالي عام 1575 ق. م، وعلى رأسها أحسن الأول، الذي مجّده الأجيال اللاحقة،

ص: 138

1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراغنة ص 162، 209، وكذا، drofxO, shoorahP ehT fo tpygE, renidraG. H. A 37. p, 1961.

كمؤسس للأسرة الثامنة عشرة، و كبداية لعهد الإمبراطورية المصرية، و كبطل لا يباري نجح في طرد الهكسوس من مصر (1).

كان الإسرائيليون مرتبطين بالهكسوس بأوثق رباط، فيوسف الصديق عليه السلام، وصل إلى ما وصل إليه في عهدهم، كما أن بني إسرائيل قد ساعدوا الغاصب الأجنبي و من ثم فقد تركهم في مراعيهم آمنين، و لعل هذا كان واحدا من الأسباب التي جعلت المصريين ينفرون من اليهود، و يضمرون لهم أشد المقت، هذا إلى أنهم ربما كانوا على اتصال بالهكسوس، اتصال الملق و المصانعة، و تقديم كافة الخدمات، و من بينها خدمات التجسس، و نتج عن ذلك أن تشابهت بعض الأسماء بين الفريقين، و إن كان علماء اليهود يردون ذلك إلى أن الهكسوس إنما كانوا أيضا قبائل من بينها العبرانيين (2) - الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد- و لعل هذا الذي يقوله علماء اليهود هو ذاته على ما كان بين الغزاة الهكسوس، و الضيوف الإسرائيليين، من صلات و ثقة أقرها اليهود في تراثهم العبري، و عزوا إليها استقرار العبرانيين في مصر.

على أنه يجب أن نشير هنا إلى أن الإسرائيليين إنما قد تأثروا كثيرا بسادتهم الهكسوس، الذين حاولوا بدورهم أن يكسبوا ود المصريين، و يتكيفوا بالحضارة المصرية، فتبنوا ثقافة البلاد، و طريقتها في الكتابة، بل و عبدوا الإله «رع»، و كانوا يقرنون اسمه بألقابهم مثل «عاقن رع»- و هو الملك أبو فيس - كما عبدوا الإله المصري «ست»، و الذي كان يشبه إلههم الأصلي «تشوب»، و كانوا يطلقون عليه أحيانا «سوتخ» (3).

ص: 139

1- أنظر عن عصر الهكسوس في مصر و حرب التحرير (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- القاهرة 1976 ط دار المعارف) ص 101-223).

2- . 5 . C . htoR . p, tic- po, nietspE. I 15 و كذا.

3- محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 155-160، عبد العزيز صالح: مصر و العراق ص 191.

و من هنا، فأكبر الظن، أن الإسرائيليين قد تأثروا بالهكسوس في اعتناق الديانة المصرية، و من ثم فقد رأينا «دين ستانلي» يقول: إن إقامة بني إسرائيل في مصر، قد أثرت فيهم كثيرا، فيما يتصل بحريتهم السابقة و نشاطهم السابق، و إن كان الأهم من ذلك كثيرا، أن الديانة السابقة التي تمتع بها عصر الآباء البطارقة الأقدمين، إنما قد تلاشت الآن كثيرا.

و تقدم لنا التوراة الكثير من الأدلة على أن الإسرائيليين إنما كانوا يعبدون آلهة البلاد التي كانت تستضيفهم، و من هنا جاء في سفر يشوع قول الرب: «انزعوا الآلهة الذين عبدتهم آبؤكم عبر النهر، و في مصر، و اعبدوا الرب» (1)، كما جاء في سفر حزقيال: «في ذلك اليوم رفعت لهم يدعني لأخرجهم من أرض مصر، إلى الأرض التي تجسستها لهم، تفيض لبنا و عسلا، هي فخر كل الأراضي، و قلت لهم: اطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه، و لا تتنجسوا بأصنام مصر، فتمردوا عليّ... و لم يتركوا أصنام مصر» (2).

و هكذا عاش الإسرائيليون في مصر فترة رخاء في بادئ الأمر، و اعتنقوا ديانة المصريين، ثم مضت فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق، و إن كنا لا نظن أن الاضطهاد قد بدأ بعد التحرير مباشرة، و إنما يبدو لي أن ذلك، إنما كان بعد حين من الدهر.

(ب) الاضطهاد - أسبابه و نتائجه:

ترجع التوراة أسباب اضطهاد المصريين للإسرائيليين إلى أنه «قام ملك جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر و أعظم منا، هلم نحتال لهم، لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب

ص: 140

1- يشوع 24: 14.

2- حزقيال 20: 6-8.

أنهم ينضمون إلى أعدائنا و يحاربوننا و يصعدون من الأرض» (1).

و في الواقع أننا إذا ما أردنا مناقشة أسباب التوراة هذه للاضطهاد المصري لبني إسرائيل، لرأينا فيها بعض الصواب، و لكننا سوف نرى فيها- في نفس الوقت- الكثير من الخطأ، فالتوراة تجعل من فرعون الذي «لم يكن يعرف يوسف» سببا في الاضطهاد، و رغم أنه سبب غير مقنع تماما، إلا- أنه ربما كان يحمل بعض الصواب بين طياته، ذلك لأن هذا الفرعون الذي تشير إليه التوراة- دون أن تذكر اسمه- ربما كان «رعمسيس الثاني» و ربما كان «سيتي الأول»- فيما يرى أطلس و ستمنستر التاريخي- هو الملك الذي بدأ العمل في بناء مدينة «بر- رعمسيس»، كما تدل بعض الآثار التي وجدت في موقع المدينة (2).

و أما جهل هذا الفرعون بيوسف الصديق، عليه السلام، فلعل السبب في ذلك أن الصديق إنما عاش قبل هذا الفرعون بقرون، ترجع إلى أيام الهكسوس، و هم الغزاة الذين يحمل لهم المصريون في قلوبهم كل الكره و البغض، و لم يحاولوا أن يسجلوا تاريخهم، فضلا عن تاريخ موظفيهم، و الصديق واحد منهم، و من هنا فقد ارتبط يوسف بحدث مؤلم في الضمير الوطني المصري، و ذلك لسببين، الواحد أنه كان أسيويا، و جواب رمال، و الآخر أنه كان من أكبر موظفي الدولة المحتملة المكروهة، و طبقا لوجهة النظر الأخيرة، فإن أي إعجاب بيوسف إنما كان يعني- في نظر فرعون- الثناء على الهكسوس (3).

و أما ما تذهب إليه التوراة من أن الإسرائيليين قد أصبحوا «شعبا أعظم

ص: 141

1- خروج 1: 8-10.

2- .. 37 ehT W retsenimtseH lacirotsiH saltA eht ot elbiB p.

3- .. 117 K. W relleK. po, tic- p.

وأكثر» من المصريين، فهذا منطوق غير مقبول، وأن النص التوراتي لا شك أنه قد أوغل في المبالغة، وأغرق في التعصب، ذلك أن التوراة نفسها إنما تحدثنا أن بني إسرائيل عند ما قدموا إلى مصر، للمرة الأولى، إنما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون» (1)، وها نحن الآن على أيام الاضطهاد- ثم الخروج فيما بعد- وقد انصرفت 215 سنة، على رأي التوراة السبعينية- أو ضعف هذا الرقم على رأي التوراة العبرية- حتى يصبح هذا البيت من الناس «شعباً أعظم وأكثر» من المصريين- أصحاب أعظم وأقوى دولة في العالم وقت ذلك- أو حتى يصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليون- ربما الثلاثة- فلما طردوا من مصر، كان من بينهم «نحو ستمائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبقار الذكور، من ابن شهر فصاعد، اثنين وعشرين ألفاً ومائتين وثلاثة وسبعون» (2)، فإذا ضاعفنا هذا العدد كان الأبقار من الجنسين قرابة 45 ألف.

ويعلق بعض الباحثين على ذلك، بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبقار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الأبقين، كانت تلد زهاء 65 وليداً، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلاً عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في سويحات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلي (3)،- الأمر الذي سوف نناقشه عند الحديث عن الخروج.

ص: 142

-
- 1- تكوين 26: 27-26.
 - 2- خروج 12: 32، عدد 43: 43.
 - 3- عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة 1965 ص 35، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 72. وكذا، 1931، p. 358. A. S. kooC. A. S. 358. p. 1931. II, HAC, learsI fo esiR ehT,

هذا فضلا عن أن الإسرائيليين لم يكونوا في مصر- في غالب الأحيان- إلا مجرد رعاة أغنام، وأن المصريين إنما هم أصحاب البلد الأصلاء هم المالكون للسلطة والقوة والثروة في البلاد، ومن ثم يبدو واضحا مدى المبالغة في نص التوراة الذي يصف الإسرائيليين بأنهم «شعب أكثر وأعظم» من المصريين، وليس أدل على ذلك من الاضطهاد الذي تقول به التوراة، وتحاول تبريره بمثل هذه الحجج الواهية، وإلا فخيرني بربك: كيف يضطهد الأقل الأكثر، والأذل الأعز، والأضعف الأقوى؟.

و أما قول التوراة، أنه «إذ حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»، فلعل هنا موطن السر، ولعل من كتبوا هذه النصوص في التوراة قد أشاروا إلى موطن الداء، دون أن يدروا، وهو عدم ثقة المصريين في بني إسرائيل، وخشيتهم من أن يكونوا حربا عليهم، إن طمع فيهم غاز لثيم، أو أراد معتد أثيم أن يدنس أرضهم، ولعل لهم من عهد الهكسوس ذكريات لا ترضع الإسرائيليين فوق مستوى الشبهات، بل إنهم- كما يقول الدكتور الحاخام أبشتين (1)- كانوا متهمين بالتعاطف مع الهكسوس، وأقرباء نائب الملك السابق، أو وزير تموينه على الأصح.

وهكذا يبدو واضحا- وبنص التوراة نفسها- أن سبب الاضطهاد من أقوى الأسباب التي تخيف منهم أمة متحضرة كمصر، وملكا مهيبا كفرعون، وهو انعدام ولائهم للبلاد التي يعيشون فيها، واستعدادهم للانضمام إلى أعدائهم وشن الحرب عليها (2)، حتى وقع في خلد فرعون وآله أنهم طابور خامس، وربما كان ذلك- فيما يرى سير ليونارد ولي- انعكاسا للكراهية القومية للهكسوس المحتلين التي رأت في العبرانيين ظلالهم (3).

ص: 143

1- . I 15 p, msiaJ, nietspE.

2- حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة 1971 م ص 4.

3- . L 495 p, tic- po, yellow.

هذا فضلا عن أن الشعب المصري لم يكن ينظر بارتياح إلى الإسرائيليين منذ أول يوم عرفهم فيه (1)، ثم تحول هذا الشعور إلى كره و مقت، حين رآهم أجراء أذلاء يستخدمهم الهكسوس الغزاة في أعمالهم، ثم تحولت به الكراهية إلى احتقار و ازدراء، بخاصة وأنهم كانوا منذ البداية يعتبرون الأكل معهم نجاسة، ثم رحل الغزاة من أرض مصر، فبقي هؤلاء الأذئاب ليلعبوا دور الذئاب، و كان من رعمسيس ما كان مع هؤلاء الجواسيس (2).

و هنا لنا أن نتساءل هل كان هناك حقا استعباد من المصريين للإسرائيليين؟ أم أن الأمر لا يعدو أن الإسرائيليين قد اعتادوا الدعة و الرخاء منذ أيام يوسف، فلما تغيرت الحال نوعا، و رأى الفراعين ضرورة اشتراك اليهود فيما كان يبذل في البلاد من جهود نحو التنمية في الزراعة. و أعمال البناء و تشييد التماثيل و المعابد و ما إلى ذلك، عدوا ذلك عننا لا يطيقون احتمالاه و بدءوا يتدمرون (3)؟

و إذا ما أردنا أن نصل إلى الحقيقة، أو حتى أن نقرب منها، فعلينا أن نتذكر أن مصر، إحدى الدول التي لم تعرف السخرة و الاستعباد قبل عهد الدولة الحديثة، حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل فيستعبدون عن هذا الطريق، و لم يقل أحد من العلماء أن الإسرائيليين دخلوا مصر كأسرى حرب، و من ثم استعبدهم المصريون، هذا فضلا عن أن التوراة إنما تذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم - حتى في أوقات الشغب - و كأنهم من الشعب ليسوا مجموعة من العبيد - أو حتى المستعبدين -، تقول التوراة:

ص: 144

1- تكوين 43: 32.

2- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 177-178.

3- صبري جرجس: التراث اليهودي الصهيوني، القاهرة 1970 م ص 25.

«فقال لهما ملك مصر: لما ذا يا موسى و هارون تبطلان الشعب من أعماله (1)»: بل إن القرآن الكريم إنما يقدم لنا الإسرائيليين على أنهم قد أصبحوا جزءا من رعية فرعون، أو طائفة منهم، يقول سبحانه و تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (2).

بل إننا- حتى لو افترضنا جدلا- أن المصريين قد استعبدوهم يعد طرد الهكسوس، فإن العمال- سواء كانوا يعملون في المقابر أو المحاجر الملكية، أو كانوا يعملون في تشييد المدن- إنما كانوا يعاملون معاملة طيبة، و يمنحون المكافآت في الأوقات المناسبة، و أنهم كانوا يتمتعون بفترات راحة رسمية، كانت تقع في اليوم العاشر و العشرين و الثلاثين من كل شهر، كما كانوا يمنحون إجازات في المناسبات الخاصة بالأعياد الكبرى للآلهة الرسمية كانت كثيرا ما تصل إلى أيام متتالية (3)، كما كان بعضهم يتخلفون عن العمل لأسباب مختلفة كالمرض و تقديم القرابين للإله، كما كان انحراف مزاج الزوجة أو الابنة كافيا- و إن كان غريبا- يسوغ أحيانا التخلف عن العمل (4).

و من ثم فقد رأينا بعض الفراعنة يفخرون بأنهم إنما يعاملون عمالهم برفق و سخاء، فها هو «سيتي الأول» يحدثنا أن الواحد من عماله، إنما كان «يتقاضى أربعة أرتال من الخبز، و حزمتين من الخضروات، و قطعة من

ص: 145

1- خروج 5: 4.

2- سورة القصص: آية 4.

3- J 18., ynreC ,ypgE morf eht htaeD fo sessemaR ,III ,eht fo dnE eht ot ,tsriF ytnewT ,ytsanyD ,egdirbmaC ,p, 1965.

4- أرمان، رانكة: مصر و الحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة 1953 ص 124.

اللحم المشوي كل يوم، و ثوبا من الكتان النظيف مرتين كل شهر» (1)، وفي الواقع أنه لو كان ما يقوله «سيتي» صحيحا، لكان عماله يعيشون في مستوى يقارب مستوى العمال في العصر الحديث، وفي أكثر البلاد تقدما، فإذا أضفنا إلى ذلك أن «سيتي الأول» هذا، أو ابنه رعمسيس الثاني، هما اللذان تدور حولهما روايات التوراة عن السخرة، وبناء مدينتي «فيثوم و رعمسيس»، لتبين لنا مدى ما في رواية التوراة من مجافاة للحقيقة.

و لعلنا نستخلص الدليل على حسن معاملة الفراعين للعمال من بني إسرائيل من توراة بني إسرائيل نفسها، ذلك أننا نقرأ في سفر الخروج أن الإسرائيليين قد ثاروا على موسى، و لما يمضي شهر و نصف الشهر على خروجهم من مصر، بعد أن أفقدهم موسى حياة الرخاء في مصر، و جاء بهم إلى البرية (2)، ثم سرعان ما تمضي فترة فتعود الثورة و يشتد الحنين إلى مصر، و من ثم نقرأ في سفر العدد: «فعاد بنو إسرائيل أيضا، و بكوا و قالوا من يطعمنا لحما، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً، و القثاء و البطيخ و الكرات و البصل و الثوم (3)، بل إن التوراة في سفر الخروج إنما تؤكد أن الإسرائيليين إنما كانوا يعارضون في الخروج من مصر منذ بادئ الأمر، تقول التوراة- على لسان الإسرائيليين- «ما ذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين» (4).

و هكذا يبدو لي أن الأمر لم يكن بالصورة التي قدمتها التوراة، و أن

ص: 146

1- , 1907 , p. 414. B. H. J. detsaer, tneicnA, sdroceR fo tpygE, VI, C.ogacih.

2- خروج 16: 2.

3- عدد 11: 4-6.

4- خروج: 14: 11-122.

الإسرائيليين لم يكونوا عبيدا مسخرين في مصر، وإنما كانوا قوما طفيليين اعتادوا حياة الدعة و الرخاء في ظل رعاية الهكسوس وإيثارهم على الوطنيين، وحين ولى ذلك كله، و تحررت البلاد من نير الهكسوس، وأراد الفراعين إعادة الدولة المصرية إلى ما كانت عليه من مجد و سؤدد، فكان لزاما عليهم الاهتمام بزراعتها وإعادة ما تهدم من منشآتها، وهنا كان على القاطنين بأرض الكنانة، الإسهام في هذا الجهد العظيم، فطلب أولوا الأمر من بني إسرائيل أن يشاركوا في ذلك كله، لا أن يكون عملهم مقصورا على رعاية المواشي و الأغنام، و هو أمر يعود عليهم بالنفع وحدهم.

وهنا غضب الإسرائيليون لأنهم ما تعودوا أن يشاركوا بجهد في إقامة الدولة من كبوتها، ولأنهم سوف يفقدون امتيازاتهم القديمة، وربما فكروا في العمل ضد الدولة، أو أن الدولة نفسها كانت تخشى - كما تقول التوراة (1) - أن يتآمر بنو إسرائيل ضدها في محاولة للانتكاس، بل إن بعض الباحثين إنما يذهب إلى أن شعب مصر إنما كان قد اكتشف فعلا أن بني إسرائيل يتآمرون عليه (2).

وعلى أي حال، فلو اتفقنا مع الآراء التي تنادي بأن فرعون التسخير، إنما كان «رعسيس الثاني» (3) - أو حتى أبوه «سيتي الأول»، لرأينا أن ظروف البلاد إنما كانت تستدعي وقت ذاك الحذر و الحيطة من الأخطار الخارجية التي كانت تهددها، ولم يكن لرعسيس - أو أبوه، - بداهة أن يفاجىء الناس - على غير علة و لا سبب - بتلك السياسة، عن مجرد مزاج مال

ص: 147

1- خروج 1: 10.

2- سليمان مظهر: قصة العقائد ص 283.

3- قاموس الكتاب المقدس 2/ 923، و أنظر: E. ellivan, T. eh و كذا. J. F. nageni, p. tic- po, hoN. M 134، 120. . p, tic- po, hoN. M 134، 120 و كذا. A. 39 p, tneatseT dlo eht fo yoloeahcr

الكرنك، فقد كتب النصر للفرعون، فضلا عما استطاع الحصول عليه من الغنائم والأسرى، إلى جانب إجبار الحِيثِين على العودة إلى بلادهم (1).

ويخلف «رعمسيس الثاني» أباه «سيتي الأول» على عرش الكنانة في عام 1290 ق. م، و يبدأ حكمه بأن يوجه كل جودة في متابعة الانتصارات التي حققها أبوه في فلسطين و مدها نحو الشمال، إلى سورية، و هنا تحدث مواجهة أخرى بين المصريين و الحِيثِين على أرض قادش (2)، حيث كانت

ص: 149

1- أنظر محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 230-232. و كذا O. R . 254. p، 1966. . Tena ni, nosliW. J، Kذا، AEJ، 33، 1974، 38-37. p، 1974، 33، I, sohteS fo sraW eht, renkluaF. O. R و كذا. fo tpygE, renidraG, HA . Kذا. 2، trap, II, HAC ni, renkluaF 201-218. p، 1975. , drofxo, shoarahP eht 254-253. p. 164، 1964

2- قادش: بلد تقع على نهر الأورنت (العاصي) في مكان «تل نبي مند»، على الشاطئ الأيسر لنهر العاصي، داخل الزاوية المكونة من التقاء العاصي بنهر الموقادية الصغير من ناحية الغرب، و على مبعده بضعة أميال جنوبي النهاية الجنوبية لبحيرة حمص، و كانت قادش تدعى في حوليات تحوتمس الثالث «قدشو» و في رسائل العمارنة «كنزا» أو «كدش» و في بعض الحالات «كدشو» و «جيزا» و ربما كان «إدوارد ماير» مصيبا في ظنه أن الاسمين مختلفان حقيقة، فالأول هو الاسم الحقيقي، و الثاني اسم بمعنى «المحراب» من الأصل السامي «قدش» أي مقدس، و يبدو أن المدينة قد خربت بعد المعركة الطاحنة بين رعمسيس الثاني و مواتيلا ملك الحِيثِين، ثم جددت بعد ذلك عدة مرات، ربما كان آخرها في العصر الروماني. و ترجع أهمية قادش من الناحية الإستراتيجية أنها تقع في النهاية الشمالية لوادي البقاع، و من ثم فقد كان لزاما على الجيوش المتجهة شمالا أو جنوبا أن تمر بها، إلا إذا فضلت السير على الساحل الضيق بطريق أرواد أو أجاريات. و أما قدش و قادش المذكورتان في التوراة فهما مكانان في جنوب فلسطين (غير قادش الأورنت)، فأما الأولى: فهي قادش برنيع، و التي يرجح أنها على مبعده 50 ميلا جنوبي بئر سبع، 70 ميلا جنوبي حبرون (الخليل)، و أما الثانية فهي مكان قرية قدس الحالية على مبعده عشرة أميال شمالي صفد، و أربعة أميال إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة (أنظر قاموس الكتاب المقدس 708 / 2 - 709 و كذا A. renidraG , tneicnA naitpygE O acitsamonI, J. H. B. detsaerT, elttaB fo hsedak و كذا. p, tic- po, regnU. F. M 625. و كذا 137-141.. 1903. P 13. ogacihC

معركتها المشهورة في السنة الخامسة من عهد رمسيس الثاني (حوالي عام 1285 ق م)، والتي انتهت بنصر غير مؤزر للمصريين، مما اضطر الفرعون إلى العودة إلى النضال ثانية عام حكمه الثامن (حوالي عام 1282 ق م) ضد أعدائه في الأرض الآسيوية، ويكتب له هذه المرة نجاحا بعيد المدى في إخضاع المدن الثائرة من جنوبي فلسطين حتى شمال سورية، ثم يتقدم حتى بلاد النهرين، ويوقع بالحيثيين هزيمة ثانية في «توب»، وهكذا ينجح رمسيس الثاني في أن يستعيد الإمبراطورية المصرية في آسيا، وفي أن يسجل اسمه كأحد الفراعين المحاربين، الذين أفنوا عمرهم في الحفاظ على الإمبراطورية المصرية التي ورثوها عن فرعون مصر العظيم «تحتمس الثالث»، كما كانت الحملة درسا قاسيا للحيثيين أجبرهم على احترام السيادة المصرية في آسيا، وعدم التدخل في شئون الولايات المصرية هناك (1).

هذه هي الظروف التي كانت تمر بها مصر في تلك الفترة التي تحدثت التوراة عن استعباد الإسرائيليين في مصر إبانها، ولعل أي منصف ليرى أن الفرعون ما كان في استطاعته أن يترك البلاد تحت رحمة الدسائس الإسرائيلية، وأغلب الظن أن رمسيس إنما طارد بني إسرائيل بعد أن أوعز صدره عليهم، وثقة مفقودة ربما افتقدها عندهم في حروبه ضد الحيثيين، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا عنه من خيانة و تجارة بولائهم للغالب في ظنهم من المتنازعين، و ما كان من حق الفرعون أن يترك طائفة من الناس - أيا

ص: 150

1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رمسيس الثالث- الإسكندرية 1969 ص 77-93 (رسالة دكتوراه) و أنظر: drofso, II, sessemaR, p, TENA 265: eht no noitaredisnoC, ekcideoG. H .: كذا. A. renidraG. ehT, hsedak و كذا. AEJ, hsedak fo elttaB 79- 72. p, كذا, و AEJ, hsedak fo elttaB eht no setoN snoS, neruB. A egdirbmaC, 230- 226. p. 1975. و كذا. 1966, 52. , 7, AEJ, hsedak fo elttaB eht no setoN snoS, neruB. A .195- 194. p, 1921

كانت- تنعم بخيرات الكنانة و دون أن تؤدي عملا يتفق و ظروف الحرب هذه، فضلا عن الخيانة و التجسس، بخاصة و أن الإسرائيليين كانوا يسكنون في منطقة الحدود الشرقية، و هو التي اضطر رعمسيس تحت ضغط الظروف أن ينقل إليها عاصمته، لتكون في مكان وسط بين مملكته في مصر و أملاكها في آسيا، و من ثم يصبح على مقربة من الأحداث التي كانت تدور وقت ذلك في أملاك مصر الآسيوية، أضف إلى ذلك كله أن الإسرائيليين إنما كانوا يرتبطون بفلسطين بالذات بالأساطير التي جعلها «أرض الميعاد»، فضلا عن أنهم قدموا إلى مصر منها كذلك، و من هنا كان خوف الفرعون من أن يكونوا جواسيس عليه، لمصلحة أعدائه من الأمراء الآسيويين، فضلا عن الحيثيين.

و انطلاقا من هذا كله، كان أمر فرعون أن يعمل عبيده الإسرائيليين في بناء المدن الجديدة- مكرهين كانوا أم راغبين- بل و تحت إشراف رؤساء مصريين، و لم يكن في هذا الأمر شيء من تعنت أو شذوذ- فما أظن- فالفرعون أراد بوضعهم تحت إشراف المصريين أن يكون في مأمن من جانبهم، و حتى لا يصاب بضربة خيانة منهم، في وقت هو في أشد الحاجة إلى من يؤمن له ظهره إبان قتاله الميرير ضد الحيثيين، و ضد الأمراء الآسيويين، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى، فإن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة قد قام بها من قبل مصريون، فما الغريب في الأمر، أن يسهم بنو إسرائيل في بناء مدينتي «فيثوم و رعمسيس»- و هما المدينتان اللتان شيدهما رعمسيس الثاني في نفس المنطقة التي يقيم فيها الإسرائيليون- و هو إسهام لم يتجاوز صنع قوالب من اللبن تستخدم في بناء المدن، بل إنه في أشد حالات قسوته- كما تصوره التوراة (1)- أن يجمع الإسرائيليون اللبن الذي يستخدمونه في صنع اللبن بأنفسهم من القرى المصرية، بعد أن كان

ص: 151

1- خروج 1: 8-14، 5: 6-11.

المشرفون عليهم هم الذين يقومون بجمعه.

هذا هو العمل القاسي الذي كلف به الإسرائيليون، إسهام في بناء بعض مدن الدلتا، و الحق أنه ما كان من المنطق، و ما كان من العدل، أن يعمل المصريون- فضلا عن الأسرى الآسيويين (1)- في الحقول، و في بناء المدن و تشييد المحاريب و التماثيل، ثم يخوض أشبال الكنانة و أسودها بعد ذلك المعارك الضارية، يقتلون و يقتلون، بينما يظل الإسرائيليون- ما شاء الله لهم أن يظلوا- عالية على البلاد التي استضافتهم نيفا و أربعة قرون، منذ أن وصلوا إليها لاجئين، يطلبون الرزق، و يلتمسون وسائل العيش الناعم، و الحياة السهلة الرضية، بين أهلها الكرام أبدا، دون أن يقوموا لأهلها جزءا و لا شكورا.

و الرأي عندي، أنه حتى هذه المرحلة، لم يكن هناك تعذيب للإسرائيليين قد بدأ بعد، و إنما العذاب المهين قد بدأ، حين «أمر فرعون جميع شعبه قائلا: كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها (2)»؛ و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا، يَسْتَصِدِّعُ عِشْرَةَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (3).** و قول: **وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (4).** .

ص: 152

1- أنظر عن استخدام الأسرى في المباني: te itnasaraB و كذا. on, III, ERA, detsaerB. J 498, IX, EASA (ibun) auobeS- .SE idauQ a seevuorT seletS, reihtuaG 84. p, 1911

2- خروج 1: 23.

3- سورة القصص: آية 4، و أنظر: تفسير روح المعاني 42/20-44، في ظلال القرآن 20/2676، تفسير ابن كثير 3/379-380 (دار إحياء التراث العربي- بيروت)، تفسير القرطبي ص 4963-4965.

4- سورة البقرة: آية 49، و أنظر: تفسير روح المعاني 1/252-254، تفسير الكشاف 1/127-138، تفسير الطبري 2/36-29 (دار المعارف)، تفسير النسفي 1/49، تفسير القرطبي ص 225-230 تفسير الطبرسي 2/231-215، التفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية 1/98-100، تفسير البحر المحيط 1/187-188، تفسير المنار 1/308-313، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 1/68-69 (طهرا 1377 هـ)، في ظلال القرآن 1/70-72، تفسير ابن كثير 1/128 130 (القاهرة 1971) الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/59-61 (للشيخ طنطاوي جوهرى).

وسؤال البدهة الآن: لم تغير الحال إلى هذا المصير الأليم؟ ولم أذاق الفرعون بني إسرائيل العذاب المهين؟

إن الإسرائيليين - كما هو معروف - لم يكونوا أول الشعوب الآسيوية التي استضافتها مصر، ولم يكونوا كذلك آخرها، وبخاصة إذا أرخنا مرحلة الاضطهاد هذه بعصر رعمسيس الثاني، فإننا نعلم أن عاصمته التي سخر الإسرائيليين في بنائها، طبقا لرواية التوراة، مثل سائر المدن الكبرى في مصر حيث كان يخالط المصريون الليبيين و الزنوج و الآسيويين، ولا شك في أن موقع العاصمة الجديدة بين مصر و أقاليم الشرق جعل الوفود تقصدها، فظهر الغرباء في بعض وظائف الدولة، و امتلأت لغة المصريين بكلمات آسيوية سامية وردت كثيرا في الأدب المصري، وبخاصة في القرن الثالث عشر ق.

م، و كان ازدواج اللغة واضحاً في عاصمة الرعامسة، هذا فضلا عن أن الآلهة الكنعانية قد مثلت في مجمع الآلهة المصري، كذلك شاعت بين المصريين بعض العادات السامية، بل أصبح للغرباء في العاصمة أحياء خاصة، كما أصبح لغير المصريين من جندها ثكنات خاصة بهم في قلبها وفي ضواحيها (1).

ص: 153

1- بيير مونتيه: الحياة اليومية في مصر الرعامسة، ترجمة عزيز مرقس منصور، القاهرة 1965 ص 19 - 20، و أنظر arZE ot Y. N, 1963, F. W. 14. p. thgirblA. ehT, lacilbiB doireP morF, maharbA.

وإذا كان ذلك كذلك، فلم حاق الإسرائيليون بغضب فرعون دون سواهم من ضيوف مصر وأسراها؟

وهنا علينا أن نبحث عن سبب مقنع لهذا التحول الخطير في حياة الإسرائيليين في مصر، وليس هذا السبب- بحال من الأحوال- ما ترويهِ الأساطير من أن الإسرائيليين قد أذاعوا بين الناس- أو أن الكهنة المصريين قد تبتئوا- بأنه سيولد من بني إسرائيل من سيكون على يديه زوال فرعون و ضياع ملكه (1)، فلعمري إنما تلك روايات رأينا مثلها عن إبراهيم الخليل (2) و عن المسيح (3)، عليهما السلام، فضلا عن تلك التي دارت حول «زرادشت» (4).

و من هنا، فليس أمامنا سوى أن نفترض أن أمرا قد حدث من الإسرائيليين الذين ساءهم ما كانوا به من عمل في مدينتي فيثوم و رعمسيس، فعصف ذلك الأمر بالبقية الباقية من صبر فرعون، وإن كنا لا ندري على التحقيق ما هو هذا الأمر، فربما كان خيانة، وربما كان بداية تمرد، أو على الأقل، فإن الإسرائيليين ربما بدءوا يوجهون حربا نفسية لخلخلة الرأي العام المصري- إن صح هذا التعبير- وبخاصة في منطقة شرق الدلتا، التي كانت تعج بالأجانب من كل جنس، إن لم يكونوا قد قاموا بالاتصال بالعدو الآسيوي، والقوات المصرية في حالة نزال معه على الأرض الآسيوية نفسها، وربما اكتشف المصريون ذلك بعد عودة قواتهم من معركة قادش

ص: 154

-
- 1- ابن كثير: البداية والنهاية 1/137-238، قصص الأنبياء 2/4-5، تاريخ الطبري 1/386-388، تاريخ اليعقوبي 1/33 مروج الذهب 1/61.
 - 2- تاريخ الطبري 1/234-236، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/94-95، ابن كثير البداية والنهاية 1/148، أبو الفداء المختصر في أخبار البشر 1/13.
 - 3- متى 2: 1-23.
 - 4- على عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة ص 129-130.

المشهوره، أو ربما كان ذلك بعد حملة العام الثامن التي قضى فيها رعمسيس الثاني على أعدائه- سواء أكانوا من الأمراء الآسيويين الثائرين، أو من الملوك الحيثيين الطامعين، ذلك لأننا نميل أن ما حدث إنما كان بعد هذه الحملة الأخيرة، حيث أن الفترة ما بين معركة قادش في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حوالي عام 1285 ق م)، وبين حملة العام الثامن (حوالي عام 1282 ق م) إنما تميزت باندلاع الثورة في كل فلسطين بتحريض من الحيثيين، وربما بدسائس الإسرائيليين كذلك.

و من هنا فقد عاد رعمسيس من حملته هذه، وفي غضب من أحس أنه طعن من وراء ظهره ممن آوئهم مصر بعد تشرده، و أطعمتهم بعد جوع، فكان العذاب الأليم صبه فرعون، دونما رحمة أو شفقة، على الإسرائيليين، حيث أمر بذبح أبناءهم و استحياء نسائهم، وفي هذه الأيام العصيبة ولد لبني إسرائيل أمل جديد، ذلكم هو «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب» عليه السلام.

و يعلق أحد علماء الإسلام الأجلاء على هذه الأحداث، و على موقف فرعون منها، فيرى فضيلته: أن فرعون كان عظيما و كريما في موقفه من بني إسرائيل، ثم يتساءل فضيلته: ما ذا يفعل أي حاكم- عادل أو ظالم- في قوم دخلاء غرباء، وجدوا في بلاده المرعى الخصيب، و العيش الرطب، و الضيافة الكريمة، على الرغم من أن أهلها يكرهونهم، ثم وجدهم بعد ذلك، و بعد طول الإقامة في بلاده خونة و جواسيس، و مثارفتن و دسائس و أذنابا لأعدائه، يعملون على هدم وطنه و استعباد أهله.

و حين سئل فضيلته: أ يقتل أطفالهم، و يستحي نساءهم، و يسخرهم في تعبيد الطرق، و بناء المدن، كما فعل فرعون؟

أجاب فضيلته: و هل هذا يعد شيئا إذا قيس بما وقع عليهم من «نبوخذنصر

« (605-562 ق. م) و«أدولف هتلر» (1889-1945 م)، وأباطرة الرومان، و ما عانوه من المذابح التي أكلت نساءهم و أطفالهم في روسيا و أسبانيا، وفي كل مكان كان لهم فيه كيان؟».

إن هؤلاء كانوا وراء كل فتنة عامة، و خلف كل محنة إنسانية في كل عصر و لم يكن هلاك فرعون تكريما لهؤلاء الذين يقول الله فيهم مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا، و إن كان انتقاما من فرعون لتكبره و تجيره و ما آل إليه أمره من الطغيان، حتى انتهى به إلى الكفر، و الإصرار على الكفر (1)، و قال: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (2)، و قوله لموسى: لَئِن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (3)، و قوله: فَحَشِّرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (4)، و كذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (5)، و هذا التعليل للفرق هو الذي تذكره الآية الكريمة: فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (6)، و أخيرا فإن النقيصة التي أخذت على فرعون إنما كانت اندفاعه في العذاب و إسرافه في القتل للمذنب و غير المذنب على السواء (7).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك رأيا يذهب إلى أن سبب اضطهاد الفراعين لبني إسرائيل إنما هي أسباب سياسية و دينية، ذلك أن ديانة

ص: 156

- 1- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 192-193.
- 2- سورة القصص: آية 38.
- 3- سورة الشعراء: آية 29.
- 4- سورة النازعات: آية 22-24.
- 5- سورة النازعات: آية 25-26.
- 6- سورة الأعراف: آية 136.
- 7- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 87.

التوحيد التي كانت قد عرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر، لا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك و استقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم، ثم من بعد ذلك في عهد أسرة الرعاة (الهكسوس) فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية، وهكذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني يعقوب، إلى جانب السبب السياسي، وهو أنهم جاءوا و استوطنوا و حكموا و استقروا في عهد ملوك الرعاة (الهكسوس) فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني يعقوب أيضا، و إن كان إختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع، ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعنة، فهي العدو الأصيل للطواغيت و حكم الطواغيت و ربوبية الطواغيت (1).

و رغم جاذبية هذه النظرية، و ما فيها من أوجه صواب، فإن فيها نقاط ضعف أيضا، منها (أولا) أن الهكسوس، على الأقل بعد عهد يوسف عليه السلام، لم يكونوا موحدين بدليل أن ملكهم أبو فيس الذي قامت ضده حرب التحرير لم يكن موحدا، فلقد أطلق على نفسه في رسالته لأمير كوش «عاوسرع، ابن رع، أبوبي»، كما وصف نفسه، كما أشرنا من قبل، بأنه «ابن رع من جسده» و «الصورة الحية لرع على الأرض»، و بدهي أن هذه ليست أسماء أو صفات الموحدين، و منها (ثانيا) أن كثيرا من ملوك الهكسوس، بعد عهد يوسف، قد قبلوا عبادة إله الشمس رع، بجانب ست، كما أن كثيرا من ملوكهم، كما أشرنا من قبل، كانت لهم أسماء مركبة من اسم «رع» مثل «هائلة هي قوة رع» و «رع هو سيد السيف».

ص: 157

1- في ظلال القرآن 4/ 1961 (بيروت 1982).

و منها (ثالثا) أن صورة الأنتى العاربية التي تظهر على الجعارين من عصر الهكسوس، إنما تمثل الإلهة السامية «عنات» أو «عتر-عشتارت»، و يشار إليها في نصوص متأخرة من عهدهم، و كأنها زوجة للإله «ست- بعل» (1)، و منها (رابعا) أن روايات المفسرين و المؤرخين المسلمين إنما تذهب إلى أن ملك الهكسوس الذي فسر له يوسف رؤياه، هو الذي آمن به فقط، أما من جاء بعده فلم يؤمن، يقول ابن الأثير في الكامل: لما ولي يوسف عمل مصر، دعا الملك الريان إلى الإيمان فأمن ثم توفي، ثم ملك بعده مصر قابوس ... فدعاه يوسف إلى الإيمان فلم يؤمن، و توفي يوسف في ملكه (2).

عقب طرد الهكسوس مباشرة أو حتى بعده بقليل، و إنما تم بعد ذلك بفترة طويلة، و إذا كان ما ذهبنا إليه من أن رعمسيس الثاني (1290-1224 ق.

م) هو فرعون التسخير، صحيحا، فإن هذا يعني أن بني إسرائيل لم يضطهدوا إلا بعد قرابة قرون ثلاثة من طرد الهكسوس حوالي عام 1575 ق. م، و منها (سادسا) صحيح أن بني إسرائيل على أيام يعقوب و يوسف عليهما السلام، بل و بعد ذلك بفترة ليست قصيرة، كانوا، دون شك، على ديانة التوحيد، و لكنه صحيح كذلك أنه بعد مضي قرون من عهد يوسف، قد تصل إلى الثلاثة، لم يكن بنو إسرائيل، كما كانوا موحدين، و إن ظلوا على بقايا من دينهم، و خاصة في فترة الاضطهاد العنيفة، و هكذا ما أن تمضي الأيام و تمر السنين على عهد يوسف الصديق، و تطول إقامة بني إسرائيل في مصر إلى

ص: 158

1- محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- القاهرة 1976 ص 152- 155، و كذا H. C. W. E. tpygE, seyah. C. W. AEJ, hgredaS- evoS. T 65- 64. p, 1951, 37 II ecneuqS ot, III semenemmA fo htaeD, 18- 17. p, و كذا, 1965.

2- تاريخ الطبري 363/1، ابن كثير: البداية و النهاية 212/1، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 83/1.

قرون، ربما تجاوزت الأربعة، حتى ينسى الإسرائيليون خلالها دعوة التوحيد، التي نادى بها الآباء من أنبياء الله الكرام، إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وينغمسون في وثنية المصريين، ويتعبدون لآلهتهم (1).

ومنها (سابعاً) أن سيرة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، لا تدل أبداً أنهم كانوا موحدين على أيام الاضطهاد فمن المعروف أنه ما أن كتب الله النصر لموسى على فرعون، ونجح في الخروج بقومه من قبضته، حتى عاد بنو إسرائيل إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، وفي الواقع فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك، على أن اليهود الذين رافقوا موسى لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث رحلة الخروج أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها، ويعبدونها مسوخة ممسوخة في الصحراء (2)، ومن ثم فلم يكذب بنو إسرائيل يمشون مع موسى عليه السلام، بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله، و نجاتهم مع موسى، وقالوا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (3)، و الفاء في قوله تعالى: فَأَتَوْا تقييد، كما هو معروف،

ص: 159

1- خروج 40/12، حزقيال 4/20-8.

2- عباس العقاد: مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية- القاهرة 1968 ص 107.

3- سورة الأعراف: آية 138-139.

الترتيب والتعقيب، ومعنى ذلك أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها، و ألفوا الذل معها، وهذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، ولم يتمكن من ضمائرهم ومشاعرهم، ولم يثمر فيهم الثمرة الطيبة لكل شجرة طيبة، وإنما كان إيمانهم بموسى إيماناً يمامته وزعامته، لا إيماناً بالذي خلقه وسواه (1).

وهكذا لم يمضي وقت طويل حتى كانت الردة الثانية، بعد فشل الأولى، ممثلة في العجل الذي عبده، والتي تحدثت عنها التوراة (2)، كما تحدثت عنها القرآن (3)، وليس هناك من شك في أن هذا من تأثير الديانة المصرية على بني إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل في مصر إنما هي جد عميقة الجذور، ترجع إلى أيام أسرة الأولى (4)، وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بني إسرائيل، حتى بعد انغلاق البحر لهم، وحتى بعد أن جاوزوه على ييس، وحتى بعد أن منّ الله عليهم بالمن والسلوى، وحتى بعد أن استقوا موسى فضرب الحجر بعصاه فانجست منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطهم مشربه، وحتى بعد أن نزلت عليهم شريعته تحذرهم من اتخاذ آلهة غير الله، حتى بعد هذا كله، ومع وجود موسى نبّيهم بين ظهرانيهم، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم، وكفروا بالله الواحد الأحد (وصنعوا لهم عجلاً مسبوكة وسجدوا له وذبخوا وقالوا: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر (5)»)، وهذا ما سوف يفعلونه في دولة إسرائيل على

ص: 160

1- عبد الرحيم قودة: من معارف القرآن ص 193-194.

2- خروج 1/32-28.

3- سورة البقرة: آية 51، 54، 92، 93، سورة النساء: آية 153، سورة الأعراف: آية 148-152، سورة طه: آية 83-98.

4- , 1963, W 124. B. W remE. A. ciahcrE tpyg.

5- خروج 8/32.

أيام ير بعام الأول (922-901 ق.م) وبعد موت نبيهم سليمان عليه السلام مباشرة عام 922 ق.م (1).

ومنها (ثامنا) أن المفسرين والمؤرخين المسلمين يذكرون أسبابا للاضطهاد، ليس من بينها أبدا عقيدة بني إسرائيل التوحيدية، وإنما هي أسباب تتصل بنبوءات خشي فرعون منها على ملكه (2)، وسوف نناقشها بالتفصيل في مكانها من الفصل التالي، ومنها (تاسعا) أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شرا كله، ولا نكرا كله، إذ أبدوا استعدادا للعيش مع المجتمع والتعاون بين بنيه، بل إن التوراة لتذكر صراحة أن الفرعون إنما كان ينظر إليهم، حتى في أوقات الشغب، وكأنهم من الشعب، وليسوا مجموعة من العبيد أو حتى المستعبدين «فقال لهما ملك مصر: لما ذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب عن أعماله (3)»، بل إن القرآن الكريم إنما يقدمهم على أنهم قد أصبحوا جزءا من رعية فرعون أو طائفة منهم، قال تعالى: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (4)**، وهكذا كان ينو إسرائيل «طائفة منهم» أي من الشعب المصري، ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس، أو ينفرد منها الملوك، بل لقد كان ساقى مرنبتاح رجلا يحمل اسما لا شك في صيغته العبرية هو «بن عزيز»، وقد روت التوراة من أمر موسى والتقاطه ما يدل على مكانة بني إسرائيل عامة من المصريين و تسامح المصريين معهم (5).

ص: 161

- 1- ملوك أول 25/12-33، هوشع 5/8-6.
- 2- أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية 1/231-238، قصص الأنبياء 3/4-5، تاريخ الطبري 1/386-388، تاريخ يعقوبي 1/33، المسعودي مروج الذهب 1/61.
- 3- خروج 4/5.
- 4- سورة القصص: آية 4.
- 5- أنظر: خروج 2/5-10، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 91-92.

[1] موسى في قصر فرعون:

في فترة الاضطرابات العصبية التي سلب الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم (1)، في هذه الظروف القاسية، ولد موسى عليه السلام (2)، وكان أصغر أولاد أبيه، و ثالث ثلاثة، مريم البكر، و هارون الثاني، و هو «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام»، و أما أمه فهي يوكابد بنت لاوى، و هي عمة زوجها عمران، فيما تروي التوراة (3)، و هكذا، و نظرا للظروف المحيطة

ص: 163

-
- 1- أنظر عن الروايات التي دارت حول ذبح فرعون لأبناء بني إسرائيل (تفسير الطبري 1/ 269-328 ط 1954، تاريخ الطبري 1/ 385-388، تفسير الدر المنثور 5/ 119-120، مختصر تفسير ابن كثير 1/ 63-64، البداية و النهاية 1/ 137-238. تفسير الفخر الرازي 24/ 225، تفسير الخازن 1/ 58-59، تفسير النسفي 3/ 225-226، الكامل لابن الأثير 1/ 95-96).
 - 2- أنظر عن قصة موسى في القرآن الكريم: سورة البقرة (47-98) المائدة (20-26) الأعراف (103-171) يونس (75-94) هود (96-99) إبراهيم (5-8) الإسراء (2) الكهف (60-82) مريم (51-53) طه (9-98) الأنبياء (48-49) المؤمنون (45-49) الفرقان (35-36) الشعراء (10-68) النمل (7-14) القصص (3-47) العنكبوت (39) الأحزاب (69) الصافات (114-122) غافر (23-54) الزخرف (46-56) الدخان (17-33) الذاريات (38-40) وغيرها.
 - 3- خروج 6/ 20، عدد 26/ 58-59.

ببني إسرائيل، فما أن ولد موسى عليه السلام حتى أخفته أمه عن العيون حيناً من الدهر، قدرته التوراة وبعض المفسرين بثلاثة أشهر (1)، و لكنها سرعان ما خشيت أن يفتضح أمرها، بل وكادت تبدي به لو لا أن ربط الله على قلبها، ففزعت إلى الله مما تخشى على وليدها من بطش فرعون، فأوحى الله إليها (2) أن أرضيه فإنه إذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني إنا رأوه إليك وجعلوه من المرسلين (3).

و شاءت إرادة الله، ولا راد لمشيئته، أن تقول لهذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع ملكه، قد حكم العظيم الذي لا يغلب ولا يمانع ولا يخالف أقداره، أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يتغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيته، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لتكذيبك ما جاء به من الحق المبين، حتى تعلم أنت وسائر الخلق أن الله هو الفعال لما يريد (4)، ومن ثم فإن إرادة الله إنما تلقى بالتابوت ومن فيه إلى جوار قصر

ص: 164

1- خروج 2/2، تفسير النسفي 227/3.

2- يقول ابن كثير: ليس هذا بوحى نبوة، كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح أنه وحي إلهام وإرشاد، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة، هذا وقد ورد عن ابن عباس: أنه وحي إلهام، وقال مقاتل: أخبرها جبريل بذلك، قال القرطبي: فعلى قول مقاتل هو وحي إعلام، لا إلهام، وأجمع الكل على أنها لم تكن بنية وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرب والأبرص والأعمى، كما في الحديث المشهور، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على «عمران بن حصين» ولم يكن نبياً (تفسير البيضاوي 88/2، تفسير القرطبي 249-250، صفوة التفاسير 425/2، البداية والنهاية 239/1).

3- سورة القصص: آية 7، وأنظر: مختصر تفسير ابن كثير 6/3.

4- ابن كثير: البداية والنهاية 238/1.

فرعون، فيقع موسى من قلب امرأة فرعون (1)، موقع الحب و الحذب و الإشفاق بل إنها لتقول لفرعون قُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ، لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (2)، فقد كان موسى عليه السلام، لا يراه أحد إلا أحبه، قال تعالى: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَ لِيُصَدِّقَ عَلَيَّ عَيْنِي (3)، لكن الشقي فرعون يقول لامرأته، فيما يروي الطبري، «يكون لك، فأما أنا فلا حاجة لي فيه، و لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «و الذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرّة عين، كما أقرت به، لهداه الله به، كما هدى به امرأته، و لكن الله حرمه ذلك»، و مع ذلك فقد قبل رجاء زوجته، فلا يقتل الطفل النبي لحكمة أرادها الله، لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا (4).

و هنا ظنت أم موسى أنها أوقعت وليدها بنفسها في عرين الأسد، حيث وقع موسى بين عدوه و عدوها، الذي حرصت على أن تباعد بينه و بين ابنها، و رضيت في سبيل استنقاذه منه أن يتعد عنها إلى حين وَ أَصَبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (5)، و لكن لله حكمة هو مبدئها، و أمر هو بالغه، فيحميه و يضمن له الحياة، و يكفل له التربية الكريمة الناعمة، و التعليم الناضج الذي يؤهله لقيادة شعب تعوذه القيادة، و لتعليم

ص: 165

1- ذهب بعض الباحثين إلى أن امرأة فرعون كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، بل إن البعض ذهب إلى أنها عمته، (البداية و النهاية 239/1، الكامل لابن الأثير 95/1) و بدهي أن هذا ليس صحيحا، فامرأة فرعون مصرية، لا شك في ذلك، كما ترى جمهرة المفسرين، ثم إن فرعون ما كان يتزوج من بني إسرائيل، و هو يذبح أبناءهم و يستحي نساءهم، كما أن قوانين وراثّة العرش في مصر لا تسمح بذلك.

2- سورة القصص: آية 9.

3- سورة طه: آية 39.

4- سورة القصص: آية 8، تاريخ الطبري 393/1.

5- سورة القصص: آية 10-11.

أمة أعمها الجهل، لحمل رسالة التوحيد، و يحميه بالحب الذي يطغى على كوا من الشر، و غوائل الأحقاد (1).

و يأتي آل فرعون لموسى بالمراضع فيعافهن جميعا، و هنا تتقدم أخته فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه و تكفله، و أن تكون له ناصحة مشفقة، و يقبل آل فرعون عرضها، و يبعثوا في طلب الطئر، و سرعان ما تجيء بأمه، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه، و هو أخوها، و يقبل موسى على ثدي أمه، و هنا تذهب المراجع الإسلامية إلى أن فرعون عند ما رأى ذلك، سألها: من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها و أجرى عليها، و ذهبت به إلى بيتها، و أنجز الله وعده في الرد، فعندها ثبت و استقر في علمها أنه سيكون نبيا، و هكذا عاد موسى إلى أمه ليعيش معها فترة حضانتها (2)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (3).

و لعل في هذا ما يشير إلى أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شرا كله، و لا نكرا، إن أبدوا استعدادا للعيش في المجتمع و التعاون بين بنيهم، و قد كانوا، كما قال سبحانه و تعالى: طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، و لم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس، أو ينفر منها الملوك، بل لقد كان ساقى «مرنبتاح» فرعون موسى، فيما نرجح، رجلا يحمل اسما لا شك في صيغته

ص: 166

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 89.

2- تفسير النسفي 3/228-229، خروج 7/2-10.

3- سورة القصص: آية 12-13.

العبرية هو «بن عزيز»، وقد روت التوراة من أمر موسى و التقاطه ما يدل على مكانة بني إسرائيل عامة من المصريين، و تسامحهم معهم (1)، هذا فضلا عما جاء في القرآن الكريم بشأن قارون، قال تعالى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُوا بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (2)، وهناك روايات تذهب إلى أنه كان من عشيرة موسى عليه السلام عمه أو ابن عمه، على خلاف في الرأي، و أن فرعون قد ولاه على بني إسرائيل، و أنه قد نafs موسى على رئاسة بني إسرائيل (3).

ص: 167

1- سورة القصص: آية 4، خروج 2/ 5-10، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 91-92.

2- سورة القصص: آية 76.

3- تشير بعض آي الذكر الحكيم إلى أن قارون كان من قوم موسى، و أن موسى أرسل إليه، و إلى فرعون و هامان (القصص: آية 76، العنكبوت: آية 39، غافر: آية 23-24)، و تذهب الروايات إلى أنه كان عظيم المال، كثير الكنوز، حتى أن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين بغلا، فبغى على قومه بكثرة ماله، و أنه قال لموسى: لك الرسالة، و لهارون الحبورة، و أنا في غير شيء، إلى متى أصبر، فقال موسى: هذا صنع الله، و في رواية أنه قال لموسى: أما لئن كنت فضلت على بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالدنيا، هذا و تذهب بعض الروايات إلى أن قارون قد دبر لموسى مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة مع بغى في مقابل رشوة من المال، قيل إنها ألف دينار أو طست من ذهب، فلما كان يوم عيد و خطب موسى فقال: إن من سرق قطعنا يده و من افترى جلدناه، و من زنى و هو محصن جلدناه، و إن أحسن رجمناه، فقال له قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلان، فأحضرها و ناشدها بالذي فلق البحر. و أنزل التوراة أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً، و هكذا برأ الله موسى، و أذن له في قارون، فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون، ثم دعا عليه، فحسب الله به و بمن اتبعه الأرض، هذا و قد لقب بعض الباحثين المحدثين أن قارون هذا، هو «قورح» الذي جاءت قصته في التوراة (عدد 1/ 16-50) و رغم وجه بعض شبه بين القصتين، فإنني أتردد في قبول هذا الرأي لوجود اختلافات كثيرة بينهما، إلا أن تكون من تحريفات التوراة (تفسير النسفي 3/ 244-248، في ظلال القرآن 5/ 2710-2714، تفسير البيضاوي 4/ 128-129، تفسير الكشاف 3/ 340-342، ابن كثير: مختصر التفسير 3/ 23-26، البداية و النهاية 1/ 309-312، تاريخ الطبري 1/ 443-452، ابن الأثير 1/ 115-116، سفر التثنية 22/ 22-29، ثم أنظر حكم الزنا في التوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل (195-194/3).

وأيا ما كان الأمر، فإن موسى عليه السلام، إنما ينشأ في قصر فرعون، أعظم ملوك الأرض في عصره، كما ينشأ الأمراء، وما أن يشب عن الطوق، حتى تظهر بواذر ذكائه وقوة شخصيته، فيتعلم، فيما يرى بعض المؤرخين، القراءة والكتابة والحساب، ونسخ الصحائف على البردى، ويتعلم شيئاً من الفلك والجغرافية، وأطرافاً من التاريخ، ويقرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمهم شيئاً كثيراً، وكما جاء في الإنجيل فقد «تهذب بكل حكمة المصريين»، وعلى أية حال، فلننا نعرف من حياة موسى عليه السلام، منذ مولده وحتى صدر شبابه شيئاً على وجه اليقين، وأكبر الظن أنه تولى منصباً، وتبوأ مكانة في دولة فرعون، حيث بدأ أتراه، كاتباً، وغير بعيد أن يكون قد التحق بالجيش مع من التحق من أمراء البيت المالِك (1).

وأما سياق قصة موسى في القرآن الكريم، كما يقول الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، إنما يسكت عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى عليه السلام، والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكماله، فلا نعلم ما إذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه، ولا كيف تربى في قصر فرعون، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة، ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه، بعد أن شب وكبر، ولا كيف كانت عقيدته، وهو الذي يصنع على عين الله، ويعد في وسط عباد فرعون وكهانته، يسكت القرآن عن كل هذا، ويبدأ الحلقة التالية مباشرة حين بلغ أشده واستوى فقد آتاه الله الحكمة والعلم وجزاه

ص: 168

1- أعمال الرسل 22/7، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 92-93، وكذا W. وكذا F, suhpesoJ suivalF fo skroW. وكذا dna efiL eht, notsihW 77. p, 1957. IX, retpahC, II, kooB, suhpesoJ

جزاء المحسنين، قال تعالى: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**، وبلوغ الأشد اكتمال القوة الجسمية، والاستواء اكتمال النضج العقلي والعفوي، وهو يكون عادة في سن الثلاثين، فهل ظل موسى في قصر فرعون ربيبا ومتبنا لفرعون وزوجته حتى بلغ هذه السن، أم أنه افترق عنهما واعتزل القصر، ولم تسترح نفسه في ظل الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة، كنفس موسى عليه السلام، وبخاصة وأن أمه لا بد أن تكون قد عرفت من هو ومن قومه وما دينه، وهو يرى كيف يسأم قومه الخسف البشع والظلم الشنيع، والبغي اللئيم (1).

في الواقع ليس لدينا من دليل على شيء من ذلك، وإن كان سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا، فلقد كان موسى، فيما يبدو، لا ينسى أنه من بني إسرائيل، أولئك الذين فرض عليهم فرعون العذاب المهين، وربما كان النبي الكريم يدرك أن الله إنما آتاه العلم والحكمة ليدرك قومه، وينقذهم من ظلم فرعون وجبروته، فكان كثير الحذب عليهم والشفقة بهم، ومن ثم فقد تعرض بسببهم لمحنة قاسية، انتهت به إلى الخروج من مصر، والبقاء في مدين سنين عددا، ذلك أنه ربما كان خارجا في أحد الأيام من قصر فرعون «و دخل المدينة على حين غفلة (2) من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته (3) وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على ا-

ص: 169

1- في ظلال القرآن 5/ 2681.

2- الغفلة: روى عن ابن عباس: أنها بين العشاءين، وروى عنه أيضا، وعن سعيد بن جبيرة وعكرمة و قتادة والسدي: أنها وقت القائلة يعني انتصاف النهار (أنظر: تفسير القرطبي ص 4976 تفسير النسفي 3/ 229، تفسير الفخر الرازي 4/ 233، صفوة التفاسير 2/ 427، البداية و النهاية 1/ 241، ابن الأثير 1/ 98، تفسير البيضاوي 4/ 125) وقيل الغفلة عن ذكر موسى ونسيان أمره (تفسير الفخر الرازي 24/ 233).

3- يقول الفخر الرازي في تفسيره (24/ 233-234) قيل الرجلان كانا كافرين، إلا أن أحدهما-

الذي من عدوه فوكزه (1) موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين (2)».

ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى عليه السلام على ألا يظاهرهم ويناصرهم، إلا هؤلاء من بني إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلي ضد المصري، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفسا حرم الله قتلها، و من ثم فقد عزم، بعد أن تاب و أناب، ألا يكون ظهيرا للمجرمين، وهذه العبارة قد يستشف منها أن الكليم عليه السلام إنما كان يستخدم نفوذه في مناصرة بني إسرائيل، و كف أيدي المصريين عنهم، و يبدو أن شبح القتل إنما كان يلوح أمام عينه، و يعترض طريقه أينما ذهب، و أن خوف الثأر أو القصاص إنما كان يملأ حياته قلقا و أرقا (3)، و مهما يكن من أمر، فسرعان ما يعثر القوم على جثة القتيل، فيطلب أهله من فرعون أن يأخذ لهم القصاص من قاتله، غير أن الفرعون إنما يمهل القوم إلى حين، حتى تكشف الشرطة عن الجاني، و تأتي بمن يشهد على أنه القاتل، أو أن ذلك المصري عند ما سمع الإسرائيلي في اليوم التالي يقول لموسى: «أ تريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس»، فلقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون و ألقاها عنده، - إسرائيلي، و الآخر مصري، و احتج على أنه موسى قال له: «إنك لغوي مبين»، و المشهور الذي كان من شيعته مسلما لأنه لا يقال لمن يخالف الرجل في دينه و طريقه إنه من شيعته، و قيل إن المصري كان طباخ فرعون و قد سخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخه، و قيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامري، و هو الذي من شيعته، و الآخر طباخ فرعون.

ص: 170

- 1- الوكز: الضرب بجمع اليد، و قال قتادة بعضا كانت معه، و المفهوم من التعبير أنها و كزة واحدة كان فيها حتف المصري، مما يشي بقوة موسى و فتوته، و يصور كذلك انفعاله و غضبه، و يعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون و من يتصل به (في ظلال القرآن 2682/5).
- 2- سورة القصص: آية 15-17.
- 3- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 160.

فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه (1).

و يصبح موسى في المدينة خائفاً و يتربق، و يذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن لفظ «يتربق» يصور هيئة القلق الذي يتلفت و يتوجس، و يتوقع الشر في كل لحظة، و هي سمة الشخصية الانفعالية تبدو كذلك في هذا الموقف، و التعبير يجسم هيئة القلق و الخوف بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتي «في المدينة»، فالمدينة عادة موطن الأمن و الطمأنينة فإذا كان خائفاً يتربق في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن و مستقر، و حالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن من رجال القصر، و إلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم و الطغيان، و ما كان ليخشى شيئاً، فضلاً عن أن يصبح خائفاً يتربق، لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون و قصره (2)، غير أن ابن كثير يذهب إلى أن الله تعالى يخبرنا أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً، أي من فرعون و ملئه أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرته رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، و يترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة هذا اليوم خائفاً يتربق (3)، و هذا ما نميل إليه و نرجحه.

و على أي حال، فإن موسى عليه السلام يمر بمن استصرخه بالأمس، فإذا به يستصرخه، مرة أخرى، ضد آخر، فيؤنبه موسى على مشاكسته و ميله إلى الخصام، و مع ذلك فما أن همّ موسى بنصرته حتى قال: أ تُرِيدُ أَنْ تُقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (4).

ص: 171

1- مختصر ابن كثير 9/3، تاريخ الطبري 1/391.

2- في ظلال القرآن 5/2682-2683.

3- ابن كثير: البداية و النهاية 1/242.

4- سورة القصص: آية 19.

وهكذا تورط موسى في قتل مصري، عن غير عمد، روى الإمام النسفي أن اسمه «فاتون»، ولا أدري كيف استقام لمفسري الإسلام هذا الإسم الذي تدل صيغته المصرية على أن سند الرواية و التواتر موصول، ذلك أنه اسم مصري خالص مؤلف من اسم الشمس «آتون» مع فاء التعريف (1)، وعلى أي حال، فإن موسى إنما يوشك الآن أن يتورط في محنة جديدة بسبب ذلك الإسرائيلي الذي استصرخه بالأمس، و يستصرخه اليوم، و من ثم فقد وصفه الكلیم بأنه «غوي مبین».

ويذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن العبرة التي تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين و ما تلاهما أنه لا يبرر الفعلة، ولكنه كذلك لا يضحّمها، و لعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية، و هو المختار ليكون رسول الله، المصنوع على عين الله، أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، و الله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاه، حيث لا تجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع، كما كف الله المسلمين في مكة المكرمة عن الاشتباك حتى جاء الأوان (2).

وعلى أي حال، فقد كان تصرف الإسرائيلي الأحمق أو هذا الغوي المبين، كما وصفه موسى، أن شاع الخبر، و أنبئت السلطات التي ارتاعت، كما ارتاع الناس، لما ارتكب موسى من قتل رجل، و الشروع في قتل آخر، فكان أن استقر الرأي على محاكمته بما ارتكب، و القصاص منه بما جنت يده، و إن كان موسى قد رأى في ذلك ظلماً صارخاً، و إفتئاتاً عنيفاً، أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده و لم يرغب فيه، و لكن الذي لا شك فيه أنه قتل،

ص: 172

1- تفسير النسفي 3/ 229، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 96.

2- في ظلال القرآن 5/ 2684.

وأن الظواهر وما وقع منه في اليوم التالي لا تقف إلى جانبه، و من ثم فقد تحقق موسى عليه السلام أنه مطلوب بدم القتييل، و أدرك ألا مظنة من القصاص، فلقد عرف المملأ- من قوم فرعون أنها فعلة موسى، و ما من شك أنهم أحسوا فيها بسبح الخطر، فهي فعلة طابعها التمرد و الثورة، و الانتصار لبني إسرائيل، و من ثم فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمل، و لو كانت جريمة قتل عادية ما استحققت أن يشتغل بها فرعون و المملأ و الكبراء، فانتدبت يد القدر واحدا من المملأ، الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتنم إيمانه، و الذي جاء ذكره في سورة غافر، انتدبته ليسعى إلى موسى من أقصى المدينة ليبلغه بتآمر القوم ضده قبل أن يبلغوه، قال تعالى: وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، و قد سمى الله هنا التشاور ائتمارا، لأن كلا من المشاورين يأمر و ياتمر (1)، و قد جاءت القصة كاملة في «حديث الفتون» الذي يروي قصة موسى عليه السلام، و قد رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس (2).

و هكذا لم يكدم موسى يسمع أن المملأ ياتمرون به ليقتلوه حتى عزم على التعجيل بالرحيل، و لم يجد مع الخوف فرصة يتزود فيها لهذه الرحلة التي لم يكن يعرف مداها و لا منتهاها، فلقد أوشك القوم أن يحدقوا به، و أن يطبقوا عليه، و أن يفتكوا به، فلا مجال للتفكير فيما وراء ذلك من تعب يضنيه،).

ص: 173

1- سورة القصص: آية 20، تفسير البيضاوي 125/4، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 97-99، في ضلال القرآن 15/2685.

2- أنظر عن حديث الفتون المشهور (ابن كثير: مختصر التفسير 457/2-481، البداية و النهاية 1/300-307، تاريخ الطبري 1/392-296، و أخرجه النسائي في سننه، و ابن جرير و ابن حاتم في تفسيرهما، و هو موقوف من كلام ابن عباس، و ليس فيه مرفوع إلا قليل منه، كما يقول ابن كثير).

و جوع يذوبه، و مسالك يقطعها، و مهالك يرجو النجاة منها، كان كل همه أن يفلت بعنقه من هؤلاء الذين يأترون به ليقتلوه، فإن أعوزه الدليل بين متاهات السهول و التلال و الجبال، فلن يعوزه أن يلتمس في رحمة الله دليله و سبيله، و إن كمن له الخطر في كل مكن و مسكن، فعساه يجد في رعاية الله ملاذه و معاذه (1)، و هكذا يخرج موسى من مصر هائما على وجهه في صحراوات سيناء المقفرة، فارا مستوحشا، خائفا من أن تناله هروات الشرطة من رجال «المجاي» الأشداء، أو تصل إليه أيدي السلطات، و كان في مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل «مدجا» على مقربة من الجندل الثاني (2).

[2] موسى في مدين: -

و يكتب الله للنبي الكريم سيدنا موسى عليه السلام نجحا بعيد المدى في اجتياز القفار، ملتصبا الأمن و السكينة و الهدى، حتى يصل إلى مدين، عند خليج العقبة (3)، حيث يجد هناك المأوى و الأمان، و هنا تبدأ حلقة جديدة من حياة موسى عليه السلام، بدأت عند ما ورد ماء مدين، و رأى مشهدا لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، كنفس موسى، رأى الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، بينما هناك امرأتان تمنعان غنمهما عن ذلك، مع أن الأولى أن تسقي المرأتان و تصدرا بأغنامهما أولا، و أن يفسح

ص: 174

1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 161.

2- أنظر: shoorahP eht fo tpygE, renidraG. A, 101. p, 1961.

3- عن: مدين القبيلة و الموقع (أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 558-561، دراسات تاريخية من القرآن 1/ 297-307)، هذا و قد اختلف المفسرون في «اسم مدين» فذهب فريق إلى أنه اسم رجل في الأصل، ثم كانت له ذرية، فاشتهر في القبيلة كتميم و قيس و غيرهما، و ذهب آخرون إلى أنه اسم ماء نسب القوم إليه، و الأول أصح، لأن الله تعالى أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى: «و لما ورد ماء مدين»، و لو كان اسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية، و الأصل في الإضافة التغاير حقيقة، (تفسير الفخر الرازي 25/ 64، ياقوت الحموي 5/ 77-78).

لهما الرجال ويعينوهما، ولم يقعد موسى، وهو الهارب المطارد، والمسافر المكدود، ليستريح، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف، بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب، وعند ما عرف قصتهما تقدم فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (1).**

هذا و يقدم لنا المفسرون عدة روايات عن الحادث، فقد جاء في تفسير ابن كثير (2): روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام، لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا- عشرة رجال، فإذا هو بمرأتين تذودان، قال ما خطبكما، فحدثناه فأتى الحجر فرفعه، لم يسق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم (أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح)، غير أن صاحب الظلال إنما يذهب إلى أنه لا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى، كرفع الحجر الذي يغطي البئر، وكان لا يرفعه، فيما قالوا، إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل، فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاة يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين أو سقى لهما مع الرعاة، ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة:

ص: 175

1- سورة القصص: آية 23-26.

2- مختصر تفسير ابن كثير 9/3-10.

امشي خلفي و دليني على الطريق خوف أن يراها، أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرجع الهواء ثيابها عن كعبها (1)، فهذا كله تكلف لا داعي له، و دفع لريبة لا وجود لها، و موسى عليه السلام عفيف النظر، نظيف الحس، و هي كذلك، و العفة و الأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل و امرأة، فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف و لا اصطناع.

و على أي حال، فلقد استجاب الشيخ لاقتراح ابنته، و لعله أحسن من نفس الفتاة، و نفس موسى، ثقة متبادلة، و ميلا فطريا سليما صالحا لبناء أسرة، و القوة و الأمانة حين تجتمعان في رجل، لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تقسد و لم تلوث و لم تنحرف عن فطرة الله، فجمع الرجل بين الغايتين، و هو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه و يرعى ماشيته ثمانين سنين، فإن زادها إلى عشر، فهو تفضل منه لا يلزم به، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرتني ثمانين حجاج، فإن أتممت عشرًا فمن عندك و ما أريد أن أشق عليك، سد تجدني إن شاء الله من الصالحين (2)، قال الإمام القرطبي: في الآية عرض الولي ابنته على الرجل، و هذه سنة قائمة، عرض شعيب ابنته على موسى، و عرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر و عثمان، و عرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه و سلم، فمن الحسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح (3).

و لعل سائلا يتساءل: من هو شيخ مدين هذا الذي صاهر موسى عليه السلام؟

ص: 176

-
- 1- تفسير النسفي 3/ 231، تفسير البيضاوي 4/ 126، الدر المنثور 5/ 126-127، تفسير الفخر الرازي 4/ 239-244، مختصر تفسير ابن كثير 3/ 11، تاريخ الطبري 1/ 398، ابن الأثير 1/ 99.
 - 2- سورة القصص: آية 27، في ظلال القرآن 5/ 2687-2688.
 - 3- تفسير القرطبي 13/ 271.

إن سياق القصة في القرآن الكريم لم يتعرض لاسم هذا الشيخ، ذلك لأن التحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة في القرآن الكريم، ولا يزيد في دلالتها شيئا، وأما التوراة فجد مضطربة في اسم هذا الشيخ، وكذا قبيلته، فمرة هو يثرون كاهن عديان، و مرة هو حوباب بن رعوثيل، و مرة ثالثة هو رعوثيل نفسه، و قبيلته مرة هي قبيلة مديانية و مرة أخرى هي قينية، و مرة ثالثة تأكيد على أنها قينية، حتى زعم البعض أن بني القيني ربما كانوا مديانيين (1).

هذا وقد اختلف علماء المسلمين في صهر موسى عليه السلام، فذهب فريق إلى أنه شعيب عليه السلام، نبي مدين، قال بذلك الأئمة الحسن البصري و مالك بن أنس و النسفي و ابن الأثير (2)، و قال ابن كثير (3): جاء ذلك مصرحاً به في حديث في إسناده نظر، و صرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً، بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام و تزوج ابنته، و روى ابن أبي حاتم و غيره عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، و كان سيد الماء، و لكن ليس بالنبي صاحب مدين، و قيل إنه ابن أخي شعيب، و قيل ابن عمه، و قيل رجل مؤمن من قوم شعيب، و قال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه «و ما قوم لوط منكم ببعيد، و قال ابن عباس و أبوه عبيدة بن عبد الله اسمه «يثرون»، زاد أبو عبيدة: و هو ابن أخي شعيب، و روى ابن جرير عن ابن

ص: 177

-
- 1- خروج 16/2-18، 1/3، عدد 29/10، قضاة 16/1، 11/4، و كذا. J 3080. H. J. 3080. I, p. acilbiB ideapolcycnE, sgnitsaH. و كذا. EAE. 616. p, 1908
 - 2- تفسير النسفي 3/232، مختصر تفسير ابن كثير 3/10، صفوة التفاسير 2/431، تاريخ ابن خلدون 2/93، الكامل لابن الأثير 1/99، مروج الذهب للمسعودي 1/61، تاريخ يعقوبي 1/34.
 - 3- ابن كثير: البداية و النهاية 1/244.

عباس أنه «يثري» صاحب مدين، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر يجب به الحجة في ذلك (1).

ويميل صاحب الظلال (2687/5) إلى ترجيح أن صهر موسى عليه السلام ليس شعيبا النبي، وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب النبي بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئا عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيبا النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات.

وأيا ما كان الأمر، فلم يكن لموسى من بلد يعرفه، ولا وطن يهفو إليه ويتطلع إلى رؤيته، بعد ذلك المنفى الذي فرض عليه أو قدر عليه، سوى مسقط رأسه مصر، وكأني به يستعجل الأيام ليعود إلى ذلك البلد الذي ولد فيه، ونشأ في ربوعه، وتنسم هواءه وسعد به، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد مع حميه، فأعطى الأمل، وخص نفسه بالخيار (2)، غير أنه من المعروف أن موسى عليه السلام أتم المدة، وهي عشر سنين، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: أكملهما وأفضلهما، وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى، قال: أتمهما وأكملهما، وعن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما، وأخرج ابن مردويه عن أبي

ص: 178

1- مختصر ابن كثير 10/3، تاريخ الطبري 400/1، ابن الأثير 99/1.

2- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 101.

هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل: يا محمد، إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى، فقل أوفاهما، وإن سألك أيهما تزوج فقل الصغرى، وروى البخاري عن سعيد بن جبيرة قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل (ورواه النسائي في حديث الفتون)، وجاء في تاريخ الطبري عن سعيد بن جبيرة قال: سألتني رجل من أهل النصرانية: أي الأجلين قضى موسى، قلت لا أعلم، وأنا يومئذ لا أعلم، فلقيت ابن عباس، فذكرت له الذي سألتني عنه النصراني، فقال: أما كنت تعلم أن ثمانيا واجبة عليه، لم يكن نبي لينقض منها شيئا، وتعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين» (1).

وهكذا يمكث موسى في مدين عشر سنين (2)، يرزق فيها بولدين من زوجته صفورة (3) ثم يعود إلى مصر، بعد أن قضى أكمل وأتم الأجل الذي كان بينه وبين صهره، وبعد أن علم، طبقا لرواية التوراة، أن ملك مصر الذي كان يطلبه قد مات (4)، فينبعث الأمل في نفس موسى عليه السلام في العودة إلى أرض الكنانة، بل إنه يقرر العودة فعلا، وقد «تنهد بنو إسرائيل من العبودية (5)».

ص: 179

1- تفسير النسفي 234/1، الدر المنثور 126/5-127، تاريخ الطبري 399/1، ابن كثير: مختصر التفسير 11/3، البداية والنهاية 1/245.

2- تذهب التقاليد اليهودية والنصرانية إلى أن موسى قد أقام في مدين أربعين عاما (خروج 7/7، أعمال الرسل 30/7، قاموس الكتاب المقدس 931/2).

3- خروج 21/2-22، 18/1-6.

4- خروج 23/2، 29/4، وأنظر: في ظلال القرآن 5/3077.

5- خروج 23/2-25.

في الطريق من مدين إلى مصر، ضل موسى عليه السلام طريقه في الصحراء، و الليل مظلم، و المتاهة واسعة، نعرف هذا من قوله لأهله:

امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٌ عَلَي النَّارِ هُدًى (1)، قال ابن عباس: إنه رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، فوقف متعجبا من شدة ضوئها، و شدة خضرة الشجرة، فلا النار تغير خضرتها، و لا كثرة ماء الشجر تغير ضوؤها، و قيل إن الشجرة كانت عوسجة، و قيل كانت سمرة، و هناك طور سيناء، و في تلك الليلة المباركة نُودِيَ يا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَع نَعْلَيْكَ (2) إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنِّي

ص: 181

1- سورة طه: آية 10، تفسير أبي السعود 7/6.

2- ذهب المفسرون مذاهب شتى في أسباب أمر الله تعالى لموسى بخلع نعليه، فقالوا ربما لأن الحفوة أدخل في التواضع و حسن الأدب، و ربما تعظيما لهذه البقعة المقدسة، و من ثم فقد كان السلف الصالح يطوفون بالكعبة حافين، و ربما ليباشر الوادي بقدميه تبركا به، و ربما لأن نعليه كانتا جلد حمار غير مدبوغ، و ربما كان المعنى فرغ قلبك من الأهل و المال، ثم قيل إنك بالوادي المقدس و ذلك لتعليل الخلع، ثم نودي باصطفائه رسولا نبيا (تفسير أبي السعود 7/6، مختصر تفسير ابن كثير 471/2).

أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (1)، وذهل موسى، ونسي ما جاء من أجله، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب: وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى فَلَقَّاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي، هَازُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (2).

وهكذا، هناك، وفي هذا الموقف المشهود، الذي وقفه موسى في تلك البقعة المباركة من سيناء، اصطفى الله تعالى موسى لنفسه، وعهد إليه برسالته إلى فرعون، اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (3).

وهنا يحس النبي الكريم بثقل العبء الذي ألقى على كاهله، وقد كان، وهو عائد إلى وطنه، يقدر الأمن بعد الخوف، والقرار بعد الفرار، فإذا

ص: 182

1- سورة طه: آية 11-14.

2- سورة طه: آية 17-36.

3- سورة طه: آية 42-46.

به يبعث، كما يقول ابن كثير إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفرا، وأكثرهم جنودا، وأبلغهم تمردا، ولا ريب في أن في أحداث التاريخ مصداقا لذلك، وموسى نفسه يعرف من هو فرعون، فقد ربّي في قصره، وشهد طغيانه وجبروته، وشاهد ما يصبه على قومه من بني إسرائيل من عذاب ونكال، إن موسى، عليه السلام، يعرف ذلك كله ويعرف أنه ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض و أطغى جبار، وأن قومه قد أذلهم الاستعباد الطويل و أفسد فطرتهم، و من ثم فإن رسالة موسى بالذات، قد تكون فيما يرى صاحب الظلال، أضخم تكليف تلقاه بشر، عدا رسالة سيد الأولين و الآخرين محمد صلى الله عليه و سلم، فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، و أدمهم عرشا، و أثبتهم ملكا، و أعرقهم حضارة، و أشدهم بعدا للخلق، و استعلاء في الأرض.

و هو مرسل أيضا لاستنقاذ قوم قد شربوا من كأس الذل حتى استمروا مذاقه، فمروا عليه و استكانوا دهرا طويلا، و الذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن و تتعفن، و يذهب بما فيها من الخير و الجمال و التطلع، و من الاشمزاز من العفن و النتن و الرجس و الدنس، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير، و هو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة انحرفوا عنها و فسدت صورتها في قلوبهم، فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة، براءة و سلامة، و لا هي باقية على عقيدتها القديمة، و معالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة، و هو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من أساس، فلأول مرة سيصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا، له حياة خاصة، تحكمها رسالة، و إنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير (1).

و من هنا كانت دعوة موسى و هارون «ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو

ص: 183

1- في ظلال القرآن 5 / 2690.

أن يطغي»، و الفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، و الطغيان أشمل من الأذى، و فرعون يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما، و هنا يجيء الرد الحاسم للنبيين الكريمين لا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى ثم يحدد لهما قاعدة رسالتهمَا فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه، و هو رب الناس، فليس هو إلها خاصة بموسى و هارون أو ببني إسرائيل (1)، كما كان سائدا في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلها أو آلهة، أو كما كان سائدا في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة، الأمر الذي سنناقشه فيما بعد، ثم إيضاح لموضوع رسالتهمَا «فأرسل معنا بني إسرائيل و لا تعذبهم»، ففي هذه الحدود كانت رسالتهمَا إلى فرعون، لاستنقاذ بني إسرائيل، و العودة بهم إلى عقيدة التوحيد، و إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميرا (2).

على أن موسى عليه السلام سرعان ما يتذكر أنه قتل من المصريين نفسا، ما زال يحمل وزرها في ضميره، و أنه قد خرج من مصر هاربا من

ص: 184

1- تطلق التوراة على الله، جل جلاله، لفظ «يهوه» و أحيانا «إلوهيم»، و هو في كلتا الحالتين إله بني إسرائيل دون سائر البشر، و ليس رب العالمين، كما يعتقد المسلمون و المسيحيون، و قد بدأت فكرة الإله الواحد في التوراة مع إبراهيم، حيث جعلت الرب الإله، ربا لإبراهيم ثم إسحاق فيعقوب ثم موسى، ثم جعلته بعد ذلك إلها لبني إسرائيل جميعا على أيام النبي إشعيا، و لكنها لم تخرج به من دائرة بني إسرائيل إلى غيرهم من الشعوب، فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم الله تعالى في التوراة على أنه إله إسرائيل في المقام الأول، و هكذا كانت ديانة يهود في التوراة ديانة أسرة بشرية واحدة هي بنو إسرائيل (تكوين 1/12-3، 13/14-18، 15/18-20، 24/26، خروج 3/6، 6/6-7، يشوع 3/8، 18/9، 13، صموئيل أول 33/25، أخبار أيام أول 36/16، ثم أنظر: محمد بيومي مهرا: 219/4 (الباب الأول- الديانة اليهودية).

2- في ظلال القرآن 4/2336-2337.

الذين ائتمروا به ليقتلوه، فكيف يعود إلى قبضة الحاقدين عليه، المتربصين به، المطالبين بالثأر منه، ليدعو فرعون بترك ألوهيته المزعومة، ثم استنقاذ بني إسرائيل من بين يديه، وهم، فيما يرى، عبيده وخدمه، ولكنه عليه السلام، وهو في حضرة ربه، وربّه يكرمه بلقائه، ويكرمه بنجائه، ويكرمه بآياته، ويكرمه برعايته، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتقطع رسالته قال رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (1)، يقولها لا ليعتذر أو يتقاعس، ولكن ليحتاط للدعوة، ويطمئن إلى مضيها في طريقها، لو لقي ما يخاف، وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي (2)، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (3)، ومن ثم فسرعان ما تأتيه البشارة من ربه سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا

ص: 185

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 102، عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 167. (1) سورة القصص: آية 33.
2- يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره (122/24 - 123، 249) لما أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون وقومه طلب أن يبعث معه هارون إليهم وذلك لسببين، الأول: أن فرعون ربما كذب موسى، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعثر الكلام على من يكون في لسانه جسة، ومن ثم فقد بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم تلت بعدم انطلاقة اللسان، وأما هارون فهو أفصح لساناً منه، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقاً، والثاني: أن لهم عندي ذنبا، فأخاف أن يبادروا إلى قتلي، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، وأما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة، وأعلم أنه ليس في التماس موسى أن يضم إليه هارون ما يدل على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون، بل مقصودة فيما سأل ربه أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد، وهكذا يكون تصديق هارون لموسى بمعنى أن يعاضده على إظهار الحجّة والبيان، و ذلك بأن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل و يجيب عن الشبهات و يجادل به الكفار، و يذهب السّدى إلى أن نبيّين أقوى من نبي واحد و آية واحدة، و إن ذهب آخرون إلى أنه من حيث الدلالة لا فرق بين معجزة و معجزتين و نبي و نبيين.

3- سورة القصص: آية 34.

فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (1)، و هنا تبدأ قصة موسى عليه السلام، و خروج بني إسرائيل من مصر.

[2] بني موسى و فرعون: -

صدع موسى بما أمره الله عز و جل به، فولى وجهه، مع أخيه هارون، شطر قصر فرعون، ليدعو صاحبه بدعوة الحق و العدل و العقيدة الصحيحة، أملا من الكلیم في أن يسمع فرعون دعوة التوحيد، و يسمح بخروج بني إسرائيل من مصر، تقول التوراة: «و دخل موسى و هارون، و قالوا لفرعون:

هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعودوا لي في البرية، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل، لا أعرف الرب، و إسرائيل لأطلقه، فقالا له: إله العبرانيين قد التقانا، فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية، و نذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف (2)»، و إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (3).

غير أن فرعون لم يؤمن بموسى و لم يسمح له، و إنما اتهمه و هارون بأنهما «بيطان الشعب من أعماله» ثم أمر ألا يعطي الإسرائيليين تبنًا، و من ثم فعليهم أن يجمعوه بأنفسهم من القرى لعمل ما كلفوا به من التبن، و أن من يتأخر منهم عن القيام بصناعة الكمية المحددة إنما سوف يكون عقابه الضرب الشديد (4)، و من عجب أن التوراة و إن أشارت من قبل إلى إيمان بني

ص: 186

1- سورة القصص: آية 35.

2- خروج 1/5-3.

3- سورة الأعراف: آية 104-105، و أنظر: تفسير القرطبي 13/13-14، تفسير ابن كثير 3/450، تفسير المنار 9/33، 37-40.

4- خروج 4/5-18، ابن كثير: البداية و النهاية 1/263.

إسرائيل بموسى و هارون و دعوتهما، إلا أنها سرعان ما تعود ثانية لتقول إنهم «لم يسمعوا لموسى من صغر النفس و من العبودية القاسية، رغم ما وعدهم به موسى من إقناذ لهم من عبودية المصريين، و من اتخاذهم شعبا مختارا لرب إسرائيل، و إدخالهم الأرض التي تفيض لبنا و عسلا، رغم ذلك كله فإنهم لم يؤمنوا بموسى و لم يسمعوا له، بسبب صغار في نفوسهم بسبب العبودية القاسية (1)»، و إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ (2) عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَن يُقْتِلَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (3)، و النص القرآني يفيد أن الذين أظهروا إيمانهم بموسى من بني إسرائيل إنما كانوا هم الفتيان

ص: 187

1- خروج 29/4-31، 6/6-9.

2- اختلف المفسرون في هذه الذرية التي آمنت بموسى، فذهب فريق، و هم الأكثر، إلى أنهم من بني إسرائيل، و ذلك أن موسى دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون، و أجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، و قال مجاهد: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان و مات آباؤهم، و اختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون، لعودة الضمير على أقرب المذكورين، و ذهب فريق آخر إلى أنهم من قوم فرعون، قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، و مؤمن آل فرعون، و خازن فرعون و امرأته خازنة (وإن كان لابن عباس قول آخر من بني إسرائيل)، و يذهب ابن كثير إلى أنهم من قوم فرعون لأن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام، و قد كانوا يعرفون نعتة و صفته و البشارة به من كتبهم المتقدمة، و أن الله سينقذهم به من أسر فرعون و يظهرهم عليه، و أما الضمير «و في ملئهم» فيرجع إلى فرعون، و الجمع لما هو معتاد في ضمائر العظماء، و لا ياباه مقام بيان علوه في الفساد و التسلط على العباد، أو لأن المراد به فرعون بمعنى آل فرعون أو لأنه ذو أصحاب يأترون أو إلى الذرية على خوف من فرعون و أشرف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم و على أنفسهم (تفسير النسفي 172/2-173، تفسير أبي السعود 170/4، تفسير ابن كثير 222/4-223، تفسير الطبري 163/15-167، تفسير الخازن 2048202/3، تفسير المنار 383/11-384، تفسير القرطبي ص 3208).

3- سورة يونس: آية 83.

الصغار، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنهم وردهم من أتباع موسى، خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة، وبخاصة من بني إسرائيل، وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مسرفا في الطغيان لا يقف عند حد، ولا يتحرج من إجراء قاس (1)، وهكذا يبدو واضحا إلى أي مدى قد أذل الاستعباد قوم موسى، وأفسد طباعهم، فأعرضوا عن الحق وأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، فلقي منهم نبيهم العنت الشديد.

وعلى أية حال، فلقد عجب فرعون، وهو يرى موسى عليه السلام، يواجهه بهذه الدعوى الضخمة «إني رسول رب العالمين» ثم يطالبه بهذا الطلب الضخم «أن أرسل معي بني إسرائيل»، ومن ثم فقد كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال ذكر فرعون فيه موسى بتربيته في القصر الملكي، وكيف أحسن سلفه (2) مثواه، ثم كيف ارتكب جريمته تلك، يعني قتل موسى لمصري، ثم فر هاربا من مصر كلها، دون أن يناله من القصاص ما يستحق قال ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (3)، وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قاتلا لا يملك معه موسى جوابا، ولا يستطيع مقاومته، وبخاصة حكاية القتل، وما يمكن أن يعقبها من القصاص، فأجابه موسى عليه السلام قال فعلتها إذا وأنا من الضالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل (4).

ص: 188

1- في ظلال القرآن 3/ 1815.

2- قارن: ابن كثير: البداية والنهاية 1/ 250.

3- سورة الشعراء: آية 18-19.

4- سورة الشعراء: آية 20-22.

و يتصل الجدل و الحوار بين الرجلين، النبي و الملك، قال فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ، قَالَ لِمَنْ حَوْلُهُ أَلَا- تَسْتَمْعُونَ، قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ إِلَّا وَ لِينَ، قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ (1)، و كانت هذه مفاجأة ضخمة لفرعون و ملئه، فالعصا (2) تنقلب إلى ثعبان لا شك في ثعبانيته، ثم إن).

ص: 189

1- سورة الشعراء: آية 23-33.

2- هناك عدة روايات بشأن عصا موسى هذه، منها (أولا) أن شعيبا كانت عنده عصى الأنبياء، فأمر موسى أن يأخذ له واحدة منها، فأخذ موسى عصا هبط بها آدم من الجنة و لم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب، ففضن بها شعيب على موسى و طلب أن يأخذ غيرها، فما وقع في يده غيرها سبع مرات فعلم أن له معها شأنا، و روى أن شعيبا أمر ابنته أن تأتي لموسى بعصا، فلما أتته بها قال الله بغيرها، فلما أرادت أن تأخذ غيرها لم يقع في يدها غيرها، فلما رآها الشيخ رضى، ثم ندم و خرج يطلب موسى، لكن موسى رفض أن يعطيه إياها، ثم اتفقا على أن يحتكما إلى أول من يلقاهما، فلقيةما ملك فقضى بأن يضعوها على الأرض فمن حملها فهي له، فلم يستطع الشيخ حملها، و أخذها موسى بسهولة، فتركها له الشيخ، و منها (ثانيا) رواية تقول أنه كان في دار بيرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله إلا هو و ابنته التي تزوجها موسى، و كان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا، و كان له أحد عشر ولدا، فأخذ كل واحد منهم عصا، ثم احتاج موسى عصا، و لم يجد أهلها في الدار، فدخل البيت و أخذ تلك العصا، فلم علم بيرون بما حدث فرح و قال لابنته: إن زوجك هذا نبي، و أن له مع هذه العصا لشأنا، و منها (ثالثا) رواية تقول إن موسى كان يرعى غنم حميه فنام، و إذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى فقتلته و عادت و هي دامية، فلما استيقظ موسى و رأى العصا دامية و التنين مقتولا، أرتاح و علم أن في تلك العصا آية، فأخبر حميه بالقصة ففرح و علم أن لهذه العصا شأنا، و أراد أن يكافئ موسى على حسن رعيه وصلته لابنته، فوهب له كل أبلق و بلبقاء تضعها أغنامه في تلك السنة، فأوحى الله إلى موسى أن أضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه، فوضعت جميعها ما بين أبلق و بلبقاء، فعلم شعيب أن هذا رزق ساقه الله لموسى و زوجته فوفي له شرطة، و منها (رابعا) رواية تقول إن هذه العصا عصا آدم و أن جبريل أخذها بعد موت آدم فبقيت معه حتى لقي موسى ربه ليلا، و منها (خامسا) رواية تنسب للحسن البصري تقول إنها من عرض الشجر أخذها موسى دون أن يتخيرها، و عن الكلبي أنها من شجرة العوسج، و رأى الفخر الرازي أنه لا مطمع في ترجيح رواية على أخرى، لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها و الأخبار متعارضة (تفسير الفخر الرازي 24/246-247).

يده السمراء، وقد كان موسى عليه السلام «آدم» أي مائلا إلى السمرة، يخرجها من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض، ولكنها المعجزة، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء، فإذا فرعون، وقد أحس بضخامة المعجزة وقوتها يسرع بمقاومتها ودفعها، و هو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق القوم من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (1).

و لعل سائلا يتساءل: لم اختار الله معجزة لموسى عليه السلام من نوع السحر؟

و لعل الجواب على ذلك، إنما يأتي من دراستنا للتاريخ المصري في عصوره القديمة، حتى نستطيع أن ندرك الحكمة من نزول الآية و المعجزة بالصورة التي شاء الله أن تنزل بهما، فما كانت لتنزل إلا في أمر من واقع حياة الناس و ما يدور بأذهانهم فتكون محققة في أعينهم على غير قاعدة و لا-قياس لخارق من الأعمال، طالما فكروا فيه و سمروا به و ضربوا به أغوار الوهم و تخيلوه، و قد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر و السحارين ما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة، و من دنيا الواقع إلى آفاق الخيال (2).

ص: 190

1- سورة الشعراء: آية 34/35، تاريخ الطبري 1/403، في ظلال القرآن 3/1347، 5/2594.

2- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 104.

وهكذا كانت معجزة موسى من نوع السحر الذي برع المصريون فيه، ومن نفس المنطق، وعلى نفس الدرب، كانت معجزة القرآن الكريم الأولى في بيانه الذي خرست معه الألسنة فما تنطق، وفي فصاحته التي شدهت معها الأفتدة فما تعي، وسوف يظل هذا البيان وتلك الفصاحة حجة على العالمين، تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسول العرب، وهم ما هم بياناً وفصاحة (1)، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم، وما أمر أسواق العرب التي كانوا يعرضون فيها بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة، بخاف على متأدب.

فما هو إلا أن جاء القرآن، وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه، وإذا الأندية صفرت، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى، ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفراد أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهمًا بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف (2)، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله (3)، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله (4)، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله (5)، ثم بسورة واحدة من مثله (6)، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم - والعلم كله -

ص: 191

-
- 1- إبراهيم الأبياري: تأريخ القرآن، القاهرة 1965 ص 44-45.
 - 2- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، الكويت 1970 ص 84.
 - 3- سورة الإسراء: آية 88.
 - 4- سورة هود: آية 13.
 - 5- سورة يونس: آية 38.
 - 6- سورة البقرة: آية 23.

بالعجز في غير موارد، فقال: قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (1).

وهكذا شاء الله، أن يقرأ النبي الأُمي، وأن تكون معجزته كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (2)، وأن يكون هذا الكتاب بما يتعلق فيه من آيات العلم والحكمة والسمو الأدبي، هو حجته البالغة على أنه مبلغ عن الله، لا بد له فيما يتلوه منه، كما يقول الله تعالى: وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (3)، ثم ليكون هذا الكتاب دستور أمة أمية، لم تكن تقرأ وتكتب، وأن يكون هذا الدستور أكمل وأمثل نظام عرفته البشرية، وأن يكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، معجزة الإنس والجن في كل دهر وعصر (4).

وعودا على بدء، إلى معجزة موسى عليه السلام، حيث نرى أن المصريين إنما كانوا- فيما تشهد به قصص أدبهم- يحبون أحاديث السحر و خوارق الأعمال، وفيما نسبوه إلى خوفو- وهو اختصار اسمه الكامل خنوم خوفو وي- في بردية وستكار (5)- أو قصة خوفو والسحرة، من حبه السحر

ص: 192

-
- 1- سورة الإسراء: آية 38، وأنظر: تفسير القرطبي ص 3942-3943، عبد الله محمود شحاتة: تفسير سورة الإسراء ص 234-237.
 - 2- سورة فصلت: آية 42، وأنظر تفسير الكشاف 4/ 201-202، تفسير مجمع البيان 24/ 24-26، تفسير روح المعاني 14/ 127-128، تفسير الفخر الرازي 26/ 131، تفسير النسفي 4/ 380، تفسير القرطبي ص 5810-5811، تفسير ابن كثير 7/ 171-172.
 - 3- سورة العنكبوت: آية 48، وأنظر: تفسير القرطبي ص 5067-5069.
 - 4- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 4-6.
 - 5- البردية محفوظة بمتحف برلين، و ترجع إلى أيام الدولة الوسطى، وربما إلى عصر الهكسوس، و كان «أدولف إرمان» أول من عني بنشرها، كما نشرها «جاستون ماسبيرو» و «ماكس بيير» و «بييت»، و مجموعة من العلماء المصريين والأوروبيين بعد ذلك، (انظر: , siraP ,euqninoarahP, و كذا , nodnoL, snaitpygE tneicnA eht fo erutaretiL ehT, namrE. A 47- 36. p. 1927 euqopE'L ed neitpygE setnoC te snamoR ,ervbefeL .G 77- 70. p. 1949. F. p, tpygE tneicnA fo seirotS ralupoP, orepsaM. J 21. . F. rutaretiL ehcsitpygA eiD, repeip xaM

وإقباله عليه، ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها (1).

تروى البردية في القصة الثالثة- أوقصة الزوج المخدوع- أن كاهنا يدعى «أوبا أونر» كانت له زوجة قد أقامت علاقة غير شريفة مع فتى من أواسط الناس، وأنهما كانا يلتقيان- في غياب زوجها- في منزل ريفي يملكه الزوج الكاهن على حافة بحيرة، حيث كانا يعاقران الخمر، و يرتكبان ما حرم الله، ثم ينزل الفتى آخر النهار في البحيرة، على أن حارس البيت، وقد سدرت المرأة في غيها، و مضت في ضلالها زمنا، قد عمد فمشى بخبرها إلى زوجها، الذي صنع من الشمع كهية التمساح، فألقاه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر، ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه و نزل به إلى الماء، ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك و دعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكي التمساح، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذي نادى التمساح فخرج إليهما فريسته، فما أن رأى الملك التمساح حتى ارتاع و فزع من مرآة، و لكن الكاهن ما كاد ينحني عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع (2).

ص: 193

1- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 105.

2- جوستاف لوفيفر: روايات و قصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمة علي حافظ، ص 141- 144، أحمد فخري: تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، الأدب المصري القديم، القاهرة 1962 ص 317، أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 47، 105، سليم حسن: الأدب المصري القديم، الجزء الأول، القاهرة 1945 ص 77- 78.

و تروي البردية في قصة سنفرو- رأس الأسرة الرابعة- وفتيات القصر، أن الملك إنما كان قد أحس ذات يوم ضيقاً في الصدر، و حزناً في النفس، فأشار عليه كاهنه «جا جام عنخ» بالنزول إلى بحيرة القصر، مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من فتيات قصره، يجدفن و يغنين، و قد فعل الملك، فتسربت إليه البهجة و سرى إلى نفسه السرور، بما شهد من فتيات ليس عليهم من اللباس إلا ثياب من شبك لا تكاد تستر شيئاً، و بما سمع من غنائهن، و هن يسرن به في أمواه البحيرة وسط الخمائل و الأغصان، لو لا ما رأى من توقفهن عن التجديف، لما شكت إحداهن من سقوط حلية لها في الماء و إصرارها على الحصول على حليتها لا ترضى عنها بديلاً و لا عوضاً من الملك.

و سرعان ما استدعى الكاهن «جا جام عنخ» على عجل، فما أن علم بالخبر، حتى قرأ من عزائم السحر، الذي انشقت له مياه البحيرة، حيث انطوت نصف على نصف، فأصبح ارتفاع ماء البحيرة أربعة و عشرين ذراعاً في أحد الجانبين، بعد أن كان اثني عشر فقط، و رأوا في قاع البحيرة تلك الحلية، و قد استقرت فوق قطعة مكسورة من فخار، فأشار إليها الكاهن ثم سلمها إلى صاحبته.

و تروي البردية- مرة ثالثة- في قصة الساحر «ددي» الذي بلغ من سحره أن يلحم الرأس المقطوع، و يذلّل الأسد لإرادته، أن قد دعى إلى حضرة الملك «خوفو»، حيث عرض سحره عليه، و أوقعه بأوزة ثم ثور، فصل رأس كل منهما، ثم ما زال يقرأ من عزائمه، و الرأس يقترب من الجسد حتى التحما و عادت الحياة إلى كل منهما، ثم أعاد التجربة مرة ثانية في بطة، ثم في ثور، فنجح في ذلك كله (1).

ص: 194

1- جوستاف لفيقر: المرجع السابق ص 147- 151، أحمد فخري: المرجع السابق ص 398- 400، سليم حسن: المرجع السابق ص 81- 83، أحمد عبد الحميد يوسف المرجع السابق ص 105- 106.

و هكذا يمكننا أن نفهم ما دار بين موسى و سحرة فرعون، حينما «كلم الرب موسى و هارون قائلاً: إذا كلمكما فرعون قائلاً: هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك و أطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً، فدخل موسى و هارون إلى فرعون و فعلاً هكذا كما أمر الرب، طرح هارون عصاه أمام فرعون و أمام عبيده فصارت ثعباناً» (1)، و إلى عصا موسى - و ليس هارون كما تقول التوراة- يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (2).

و هنا رأى الملاً من قوم فرعون ما راعهم و روعهم، و لكن خوفهم من فرعون منعهم من أن يقولوا كلمة الحق، رأوا عصا موسى و قد صارت حية تسعى، و رأوا يده بعد أن أخرجها من جيبه، و قد صارت بيضاء من غير سوء، فلم يصدقوه مع ذلك في أنه مرسل من قبل الله رب العالمين، و اتهموه بأنه ساحر ماهر، يريد أن يستعلي هو و أخوه في أرض مصر، ليخرجها منها أهلها، و يمكننا لبني إسرائيل فيها، و انتهوا بعد التشاور إلى أن يرجئ فرعون موسى و أخاه، دون عقاب، حتى تبطل حجتهما و تثبت إدانتهم، و ذلك بأن يحضر المهرة من السحرة من مدائن مصر، ليواجه بهم هذا الساحر الماهر، و إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَاتُمْرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَ ارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (3).

و اجتمع السحرة في ميقات معلوم، يوم الزينة، و لعله يوم عيد وفاء

ص: 195

1- خروج 7: 8-10.

2- سورة الشعراء: آية 32-33.

3- سورة الأعراف: آية 109-112، و أنظر: تفسير الطبري: 13/18-25، تفسير المنار 9/33-55، تفسير ابن كثير 3/451-452، و أنظر: يونس آية 78-79، طه 57-64، الشعراء 34-38.

النيل، أو غيره من أعياد المصريين (1)، ثم تقدموا ممثلين ثقة بأن لهم النصر والأجر، قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبيين، قال نعم و إنكم لمن المقتربين (2)، و من ثم فقد خيروا موسى فيمن يبدأ قائلين: يا موسى إما أن تلقي وإما أن تكون أول من ألقى (3)، و يذهب الإمام الفخر الرازي إلى أن السحرة المصريين قد تواضعوا لموسى عليه السلام فقدموه على أنفسهم، فقالوا «إما أن تلقي وإما أن تكون أول من ألقى»، فلما تواضعوا له، تواضع هو أيضاً فقدمهم على نفسه، وقال: ألقوا ما أنتم ملقون، وهكذا قدم موسى السحرة على نفسه، رجاء أن يصير ذلك التواضع سبباً لقبول الحق، و لقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب، و يقول الزمخشري في الكشاف: تخيرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاصموا في الجدل، و المتصارعين قبل أن يأخذوا في الصراع، و قال القرطبي: تأدبوا مع موسى بقولهم «إما أن تلقي» فكان ذلك سبب إيمانهم.

على أن هناك من يذهب إلى أن تخيرهم لموسى لم يكن من باب الأدب، وإنما كان كما يقول صاحب البحر المحيط، من باب الإدلال لما يعلمونه من السحر، و إيهام الغلبة و الثقة بأنفسهم، و عدم الاكتراث بأمر موسى، و قد أعطاهم موسى فرصة التقدم، و ثوقاً بالحق، و علماً بأن الله تعالى سيبطل سحرهم، كما حكى الله عن موسى، حيث قال: ما جئتم به السحر

ص: 196

1- أنظر عن الأعياد (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 112-115).

2- سورة الأعراف: آية 113-114، و أنظر: الشعراء: آية 41-42.

3- سورة طه: آية 65، و أنظر: الأعراف: آية 115، ثم قارن: يونس: آية 80 (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) و الشعراء آية 43 (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) و في هاتين الآيتين (بعكس آيتي الأعراف 115، طه 65) نرى موسى عليه السلام هو الذي يقدم السحرة، دونما تخيير منهم له، على أن يبدءوا بعرض مهاراتهم السحرية.

إِنَّ اللَّهَ سَيَّبِطِلُهُ وَيَذْهَبُ صَاحِبُ الظَّلَالِ إِلَى أَنْ التَّحْدِي إِنَّمَا كَانَ وَاضِحًا فِي تَخْيِيرِهِمْ لِمُوسَى، وَتَبْدُو كَذَلِكَ ثَقْتَهُمْ بِسِحْرِهِمْ وَقَدْرَتَهُمْ عَلَى الغَلْبَةِ، وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرَ تَتَجَلَّى ثِقَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَهَانَتُهُ بِالتَّحْدِي، «قَالَ أَلْقُوا» فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ تَبْدُو فِيهَا قَلَّةُ الْمَبَالَاةِ، وَتَلْقَى ظِلَّ الثِّقَّةِ الْكَامِنَةِ وَرَاءَهَا فِي نَفْسِ مُوسَى، عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي إِقَاءِ الظَّلَالِ بِالْكَلِمَةِ الْمَفْرَدَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآحْيَانِ (1).

وَأَيَّا مَا كَانَ الْأَمْرَ، فَلَقَدْ تَقَدَّمَ السِّحْرَةَ (2) وَاثْقَيْنِ مِنَ النُّصْرَةِ،

ص: 197

1- تفسير الفخر الرازي 133/24 - 134، تفسير البحر المحيط 361/4، تفسير القرطبي 214/11، في ظلال القرآن 1349/3.
2- اضطرب الناقلون للأخبار في عدد السحرة اضطراباً متناقضاً يعجب العاقل، كما يقول أبو حيان، من تسطيره في الكتب، فمن قائل 12 ألف أو 17 ألف أو 30 ألف أو 80 ألف، أو 70 ألف، ألقوا 70 ألف عصا، 70 ألف حبل، على أن أغرب ما في الروايات أنهم كانوا 72 ساحراً، اثنان من المصريين، 70 من بني إسرائيل، وقيل تسعمائة، ثلاثمائة من الفرس، و ثلاثمائة من الروم، و ثلاثمائة من الإسكندرية، و جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس أن فرعون قال: لا نغالبه (أي موسى) إلا بمن هو منه، فبعث بعلماء بني إسرائيل إلى الفرما يعلمونهم السحر، لما يعلم الصبيان الكتاب في الكتاب، فعلموهم سحراً كثيراً، حتى قال كبيرهم أنه علمهم سحراً لا يطيقه أهل الأرض، إلا أن يكون، أمراً من السماء، فإنهم لا طاقة لهم به، فأما سحر أهل الأرض فإنه لن يغلبهم (تفسير الطبري 25/13، تفسير البحر المحيط 360/4، 6/26، تفسير القرطبي 214/11، ابن كثير: مختصر التفسير 486/2، البداية و النهاية 254/1، تفسير الدر المنثور 106/3، تاريخ ابن الأثير 103/1، تفسير النسفي 57/3) و بدهي أن المبالغة واضحة من هذه الأعداد، فما كان التنافس بينهم وبين موسى يحتاج إلى أعداد تصل إلى تسعمائة ألف ساحر، وربما كان رقم 72 ساحراً، مقبولاً- نوعاً ما، و أما الأماكن التي جاء منها السحرة كبلاد الفرس و الروم و الإسكندرية، فليت الذين كتبوا ذلك يعلمون أن الإسكندرية أنشئت عام 332 ق.م، و بعد هذه الأحداث بما يقرب من ألف عام، و أن الفرس ظهرُوا عام 525 ق.م، أي بعد هذه الأحداث بحوالي 700 عام، و الروم بعدها بما يقرب من اثني عشر قرناً، و أن الفرما أو العريش لم تكن من المراكز العلمية في مصر، و أن مصر باتت تموج بالسحرة، و قد بلغوا شأواً بعيداً فيه، و ما كانوا في حاجة لبني إسرائيل، الذين ما كانوا يعرفون علماً أو فناً أو صناعة، غير سخرة في بناء المدن و رعي مواشيهم، ثم كيف يستعين فرعون ببني إسرائيل على موسى الذي جاء لينقذهم من فرعون الذي كان يذبح أبناءهم و يستبي نساءهم، ثم إن سياق القصة في القرآن يشير إلى استعانة فرعون بالسحرة المصريين، و ليس ببني إسرائيل.

فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (1)، وسرعان ما صارت الحبال والعصي، كما تقول التوراة، ثعابين، أو بالأحرى خيل إليهم من سحرهم إنها تسعى وكما نص الذكر الحكيم فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ، قال الزمخشري: استرعبوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، وحسبنا أن يقرر القرآن الكريم أنه سحر عظيم، لندرك أي سحر كان، وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة في قلوبهم، واسترعبوهم، لنتصور إي سحر كان، ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مصور، فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً، ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة، لنتصور حقيقة ما كان، يقول الله تعالى:

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَدَّ نَعْوَاهُ إِنَّمَا صَدَّ نَعْوَاهُ كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (2).

وجاء في تفسير ابن كثير: قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التهمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء، ليس هذا بسحر، فخرروا سجداً، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى

ص: 198

1- سورة الشعراء: آية 44.

2- سورة الأعراف: آية 116، طه: آية 65-70، في ظلال القرآن 3/1349، تفسير الطبري 13/28.

و هارون، قال ابن إسحاق: جعلت تتبع تلك الجبال و العصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل و لا كثير، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، و وقع السحرة سجدا، و قالوا: لو كان هذا ساحرا ما غلبنا، و في هذا إشارة إلى أهمية العلم و تكريمه، فقد كان هؤلاء السحرة أعرف الناس بما جاء به موسى عليه السلام، و أنه من عند الله، و ليس من فنون السحر الذي تجروا فيه، و من ثم فقد خروا ساجدين و قالوا: «آمنا برب العالمين رب موسى و هارون»، لأن العالم في فنه إنما هو أكثر الناس استعدادا للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له، لأنه أقرب من غيره إدراكا لهذه الحقيقة، و من ثم فما أن تأكدوا من معجزة موسى حتى ملك الحق قلوبهم، و ملأ الإيمان مشاعرهم، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف، و يصلبهم في جذوع النخل «و قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين».

و يقول أبو حيان: قال المتكلمون إن في هذا دلالة على فضل العلم، لأنهم كانوا كاملين في علم السحر، و من ثم فما أن علموا أن ما جاء به موسى خارج عن جنس السحر، حتى آمنوا به، و لو لا العلم لتوهموا أنه سحر، و أن موسى أسحر منهم، و لكن نظرا لأنهم كانوا، كما يقول الفخر الرازي، في الطبقة العليا من علم السحر، فقد علموا أن ذلك خارجا عن حد السحر، و ما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم في علم السحر، و من ثم لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا، قال أبو السعود: روى أن رئيسهم قال: كنا نغلب الناس، و كانت الآلات تبقي علينا، فلو كان هذا سحرا، فأين ما ألقيناه من الآلات، فاستدل بتغيير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم، و أن ظهور ذلك على يد موسى دليل على صحة رسالته، و من ثم فقد خروا سجروا، آمنا برب موسى و هارون (1).

ص: 199

1- تفسير البحر المحيط 4/364-365، تفسير الفخر الرازي 24/134، تفسير أبي السعود 6/27-28، في ظلال القرآن 3/1350، ابن كثير: مختصر التفسير 2/42، البداية و النهاية 1/258، تاريخ الطبري 1/409، الكامل لابن الأثير 1/103.

وبدهي أن ذلك كله إنما يدل على أن سلطان السحر محدود، فهو، وإن كان له حقيقة، فإن حقيقته لا تتجاوز الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقد جاءت هذه الرواية في معظم كتب التفسير، على أن هناك خلافاً في تنفيذ فرعون لوعيده، فليس في القرآن الكريم نص على أن فرعون أنفذ وعيده، ولكن الظاهر من سياق القصة أنه صلبهم وعذبهم، قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم: «ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين» (1)، وأما النص الذي يصور وسائل التعذيب في زمان فرعون فقد ورد في معبد عمدا من بلاد النوبة المصرية، ويرجع إلى السنة الرابعة من عهد «مرنبتاح» (حوالي عام 1220 ق. م)، ويؤكد أن مرنبتاح هذا، والذي شاع في الناس أنه فرعون موسى، إنما قطع من خلاف و صلب، وقد نشر هذا النص الزميل الفاضل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف (2).

وأيما ما كان الأمر، فلقد كان هذا موقف الذين آمنوا من المصريين، ملك الحق قلوبهم، وملاً الإيمان مشاعرهم، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل قالوا لا ضير إننا إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (3)، وهنا تتجلى قوة الإيمان، إذا سكن القلب واطمأنت به

ص: 200

-
- 1- تفسير الطبري 34/13، تفسير البيضاوي 23/3، تفسير الفخر الرازي 135/4، تفسير البحر المحيط 365/4، تفسير النسفي 70/2، الدر المنثور 107/3، ابن كثير: مختصر التفسير 43/2، البداية والنهاية 258/1.
 - 2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 110، وكذا F ,IIV L ,EASA ,adamA ta txeT raey htruof s'hatpnereM .A .A 273. p, 1964 .,fessuoJ .
 - 3- سورة الشعراء: آية 50-51، عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 179.

النفس و تتجلى الحقيقة بالاستعداد للفداء في سبيلها، و يظهر طغيان فرعون هذا الذي يستعظم أن يكون في مصر من يدعن للحق، قبل أن يأذن له الملك.

و فوجئ فرعون بما لم يكن يتوقع من عجز السحرة، و فضيحة الهزيمة أمام موسى بين الناس، و أحس أن صرح كبريائه بدأ ينهار، و أنه كاد أن يكون أضحوكة عامة تشيع في أرجاء مصر كلها، و من ثم فقد وقف يزأر و لا زئير، و يتوعد السحرة و لا وعيد، كما أحس المملأ من حوله أن مقامهم كذلك صائر إلى دمار، و البطانة من حول الملك، و كل الملوك و أصحاب السلطان، لا تخلد إلى السكون، فهي دائمة الحركة، دائمة القول و التحريض، لأن الدعوة الجديدة تعصف بمقامهم و مقام زعيمهم في البلاد، و لعل ذلك يمكن أن يفهم من قولهم لموسى و هارون من أول لقاء أ جِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (1)، و من ثم فإننا نراهم يحرضون فرعون على مذبحه جديدة بين بني إسرائيل، و قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذُرُكَ وَ آلهَتِكَ، قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (2)، و في سورة غافر قالوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ، وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (3).

و من المعروف أن بني إسرائيل قد عانوا من قبل، في إبان مولد موسى، مثل هذا التنكيل الوحشي من فرعون و ملئه، كما يقول تعالى:

ص: 201

1- سورة يونس: آية 78.

2- سورة الأعراف: آية 127.

3- سورة غافر: آية 25-26.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (1).

و من ثم فهناك، فيما يرى صاحب الظلال، أحد احتمالين، فيما حدث بعد ذلك الأمر، الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر، كان قد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده، وهذا ما تذهب إليه التوراة (2)، ولم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد، ويعرف تربيته في القصر، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل، فحاشيته تشير إلى هذا الأمر، وتوحي بتخصيصه لمن آمنوا بموسى، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه، والاحتمال الثاني، أنه كان فرعون الأول الذي تبني موسى ما يزال، على عرشه، وقد تراخى في تنفيذ الأمر بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته، فالحاشية تشير بتجديده وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف (3).

وأما قتل موسى عليه السلام، فإنما هو جد صعب المنال، وربما كان السبب في ذلك خوف الفرعون وملئه، من حدوث هياج عام بين المصريين أنفسهم، وخاصة بعد أن شاع وذاع، وملاً الأسماع، نبأ المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة وحملتهم على أن يؤمنوا ويعلموا إيمانهم على رؤوس الأشهاد بهذه الصورة المؤثرة، ومن ثم فأكبر الظن أن النبيين الكريمين لم تكن لهما قوة تحميتهما، في نظر فرعون، إلا الخوف من هياج

ص: 202

1- سورة القصص: آية 4.

2- خروج 23/2، 19/4، ثم قارن: البداية والنهاية 250/1.

3- في ظلال القرآن 3077/5 - 3078.

الرأي العام، إن صح هذا التعبير، بعد أن سمع ما سمع، ورأى ما رأى، و من يدري فقد يوحى هذا للجماهير بتقدیس موسى و اعتباره شهيدا، و الحماسة الشعورية له و للدين الذي جاء به، و لعنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة فيما حكاہ القرآن عن فرعون حين قال ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (1)، فإن كلمة «ذرنى» تقيده أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونهم أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، و قد يكون بعض مستشاري الفرعون أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له أو يبطش بهم، و ليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، و يتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتقدون عليه، و يكون قول فرعون «و ليدع ربه» ردا على هذا التلويح، و إن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون إنما كانت تبجحا و استهتارا، لقي جزاءها في نهاية المطاف، حيث أغرقه الله و جنده في البحر (2).

هذا فضلا عن أن هناك دليلا من القرآن يفيد أن هناك من يعارض في قتل موسى عليه السلام، ذلك أن فرعون عند ما ضاق ذرعا بموسى، و عقد مع الملائكة مؤتمرا للفتك به، فوجئ بواحد من هذا الملائكة يكتم إيمانه، ينهض لمعارضة هذه الفكرة و يقول: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ، يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا، وَ هَالِ فرعون ما سمع، فأخذته العزة بالإثم و نفخ الشيطان في روجه، فقال: مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، و عاد الرجل يعقب على كلام

ص: 203

1- سورة غافر: آية 26.

2- في ظلال القرآن 5/ 3078.

فرعون، ويحذره من غضب الله و بطشه، وبما حدث لغيره من الطغاة العتاة، ثم أعلن أنه أبرأ ذمته فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (1).

وهكذا فشل فرعون و ملؤه في تدبير خطة لاغتيال موسى، بل إن القرآن إنما يحدثنا أن فرعون إنما وجد المعارضة في داخل بيته نفسه، من زوجته، ذلك أن امرأة فرعون قد استطاعت أن تحرر فكرها و وجدانها من كل الأواصر و المؤثرات و القيود، فترفض أن تسير في ركاب زوجها، و أن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه، بل و تعلن عن موقفها في ثبات و إيمان، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون، و تبين لها الحق في دعوة موسى، رغم ضغط المجتمع و شدة وطأته، و رغم مغيرات الحياة الرخية الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض، و أكثرهم غنى، و أرفعهم حضارة، و رغم آصرة الزوجية التي تربطها بفرعون، فكانت مثلاً للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان و القيم (2)، و إلى هذه السيدة الجليلة يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

وَ صَدَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِدَدَكَ يَبْتَأ فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (3)، و هي التي).

ص: 204

1- أنظر: سورة غافر: آية 28-44، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 315-330.

2- التهامي نقرة: المرجع السابق ص 401.

3- سورة التحريم: آية 11، هذا و قد جاءت أحاديث شريفة في فضل امرأة فرعون منها قوله صلى الله عليه و سلم «خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، و آسية امرأة فرعون، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد رسول الله»، و منها قوله صلى الله عليه و سلم: حسبك من نساء العالمين بأربع، مريم بنت عمران و آسية امرأة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد» و قوله صلى الله عليه و سلم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد و مريم بنت عمران و آسية امرأة فرعون» (و أنظر عن هذه الأحاديث الشريفة و روايات أخرى لها: ابن كثير: التفسير 2/ 32-34، البداية و النهاية 2/ 59-63، تفسير الطبري 6/ 393--؟!، صحيح البخاري 4/ 193، 6/ 239، صحيح مسلم 2/ 243، سنن الترمذي 4/ 365-366، المستدرک للحاكم 3/ 184، تحفة الأوحدي 10/ 389) و أن امرأة فرعون ستكون زوجة للنبي صلى الله عليه و سلم في الجنة (أنظر: البداية و النهاية 2/ 62).

أودع الله في قلبها حب موسى عليها السلام، و الشفقة عليه، و الرحمة به منذ أول لحظة رآته فيها، و قالتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (1).

و على أي حال، فلقد علم موسى عليه السلام أن فرعون ماض في غلوائه و كبريائه، كما علم بنو إسرائيل ما ينتظرهم من المحن و البلايا و الفتن، فتملكهم الرعب، و لم يجدوا في أنفسهم قوة تعينهم على مجرد الصبر و الاحتمال، فقد قال لهم موسى: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، فكان جوابهم مما حكاه القرآن عنهم: أُؤذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا، و هو جواب ينم عن عدم الإيمان بالله و الثقة بعونه و نصره، كما ينم عن شعورهم بهوان قدرهم و العجز عن الصبر (2).

و نقرأ في التوراة أن موسى ضرب النهر بعصاه، فتحول الماء دما، و مات السمك و أنتن النهر، و بعد أيام سبعة سلط الله عليهم الضفادع حتى اكتظت بها الأرض، و حتى خيل أن الأرض تتحرك بسببها، مما جعل فرعون يطلب من موسى أن يسأل ربه أن يرفع عنه هذا البلاء، و حين أُجيب إلى مسأله عاد ثانية فاشتد قلبه (3). فسلط الله على كل أرض مصر البعوض (4)، فإذا ما تذكرنا أن المصريين كانوا قوما يراعون منتهى الدقة في النظافة، كما «.

ص: 205

1- سورة القصص: آية 9.

2- سورة الأعراف: آية 128-129، عبد الرحيم مودة: المرجع السابق ص 183.

3- خروج 14/7-22، 1/8-15، ف. ب. ماير: حياة موسى - ترجمة القس مرقس داود ص 104.

4- استعملت الترجمة العربية و الألمانية للتوراة كلمة «البعوض»، و أما الترجمة الإنجليزية و الفرنسية و هامش الكتاب المقدس، فقد استعملت كلمة «القمل» بدلا من كلمة «البعوض».

كان الكهنة أكثر القوم مراعاة للنظافة كانوا يغتسلون مرارا، ويحلقون شعورهم لكي لا يعلق بها أي دنس يعطلهم عن واجباتهم الدينية، ومن ثم فقد كانت ضربة «البعوض» هذه، فوق أنها أليمة، فهي بغیضة إلى نفوسهم، فإذا أضفنا إلى ذلك الذباب، ولعله الجعران، لعرفنا السبب الذي جعل فرعون يكرر طلبه إلى موسى أن يسأل ربه أن يرفع عن مصر هذه المصائب، في مقابل أن يسمح لبني إسرائيل أن يذبحوا لربهم في البرية، على ألا يتعدوا كثيرا، فما أن دعا موسى ربه، وفرج الله كربة فرعون وقومه، حتى عاد الطاغية إلى سيرته الأولى، فاشتد على بني إسرائيل، ومنعهم من الخروج، ومن ثم فإن دعوات موسى بالمصائب على فرعون وقومه سرعان ما تتكرر، ولكنها هذه المرة في الحقول، وعلى الخيل والحمير والجمال (1).

والبقر والغنم، ولا يستثنى رب إسرائيل من هذا الوباء غير ماشية بني إسرائيل، ولعل الأخيرة كانت السبب في أن فرعون لم يطلق سراح بني إسرائيل، بجانب عناده وإصراره على الكفر والعناد، ومن ثم فقد كرر رب إسرائيل مصائبه على فرعون وقومه، فإذا الدمامل تنتشر في كل أرض مصر.

ومع ذلك فإن فرعون لم يؤمن بدعوة موسى وهارون، ولم يسمح بخروج بني إسرائيل من مصر، ومن ثم فقد سلط الله عليه وعلى قومه عاصفة محملة بالرعد والبرد، ولم تهدأ إلا برجاء من فرعون لموسى بأن يكف الله هذا البرد، وذلك الرعد عن البلاد والعباد، وما أن تم ذلك حتى عاد فرعون سيرته الأولى، فسلط الله عليه الجراد، حتى أصبح وجه مصر الأخضر أسمرا).

ص: 206

1- لعل كلمة «الجمال» هنا من تحريفات التوراة، ذلك لأن الجمال وقت ذاك ظلت على التحقيق غريبة على المصريين، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر من الساميين، فقد جاءت قبيلة «أبشاي» في الأسرة الثانية عشرة على الحمير، لا الجمال، بل إن استعمال الجمال لم يعرف في هذه المنطقة إلا في أخريات القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعد ذلك (حسن ظاذا: الساميون ولغاتهم ص 12-13، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 26).

بسبب الجراد، وأخيراً، وبدون إنذار، حل الظلام على الأرض، حتى لم يبصر أحد أخاه، فشلت كل حركة في البلاد، وارتعدت أفسى القلوب، وطلب فرعون من موسى ألا يرى وجهه أبداً (1).

هذه هي الضربات التي أوقعها رب إسرائيل بفرعون وقومه، كما جاءت في توراة يهود، وهي وإن اتسمت بالمبالغة أحياناً، وعدم الدقة أحياناً أخرى، فإن ملامح مما جاء عنها في الذكر الحكيم، قال تعالى: **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** إلى قوله تعالى: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ (2) وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِدَ لَكَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (3).**

وروى ابن كثير في التفسير عن سعيد بن جبير، وغيره من السلف، قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل،

ص: 207

1- خروج 16/8، 32-16/8، 35-1/10، 29-1/10، مزور 47/78-48، ماير: المرجع السابق ص 111-118.

2- اختلف المفسرون في لفظ «القمل» فقليل هي «الدبا» (الدي) بفتح الباء، وهي صغار الجراد الذي لا أجنحة له، وهي البراغيث، وهي دواب سود صغار، وهي «الحمنان» وهي ضرب من القردان، واحدها «حمنانة» فوق القمقامة، وهي ضرب شديد الشبث بأصول الشعر، وهي السوس الذي يخرج من الحنطة، وهي الجعلان وهو دابة سوداء من دواب الأرض، وهي القمل جمع قملة، وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل (تفسير ابن كثير 3/461-463، تفسير الطبري 13/54-56، مجاز القرآن 1/226، الدر المنثور 3/107-108، تفسير القرطبي ص 2705-2706، تفسير النسفي 2/72، صفوة التفاسير 1/467).

3- سورة الأعراف: آية 130-136، وأنظر: تفسير الطبري 13/45-75، تفسير المنار 9/74-84، تفسير ابن كثير 3/455-464، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/210-212، تفسير القرطبي ص 2699-2708، تفسير البيضاوي 3/24-25، الدر المنثور 3/107-108.

فأرسل الله عليهم الطوفان و هو المطر، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا أدع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع و الثمار و الكلاً، فقالوا هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلاً، فلما رأوا أثره في الكلاً عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك فيكشف عنا الجراد، فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فدادسوا و أحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل، و هو السوس الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجرية إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقدرة، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون ما تلقى أنت و قومك من هذا، فقال و ما عسى أن يكون كيد هذا، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفدع، و يهم أن يتكلم فيشب الضفدع في فيه، فقالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا، و أرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقروا من الأنهار و الآبار و ما كان في أوعيتهم و جدوه دما عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم و ليس لنا شراب، فقال إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا و نحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دما عبيطاً، و قالوا يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا و لم يرسلوا معه بني إسرائيل» (1).

ص: 208

وعلى أية حال، فإن الكوارث التي جاءت في القرآن الكريم وترددت في التوراة، على أنها لحقت بمصر سنين عددا، فأصيبت البلاد بالقحط و العلل والآفات، إنما تصدقها أحداث التاريخ، فمصر لم تكن، كما رأينا من قبل، بمنجاة مما قد ينزل بها من كوارث، فربما انحس النيل فصوّح الزرع، أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم، وهو على الحالين، كما يدمننا، نذير النوازل ونقص في الثمرات، فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدواء والأوبئة، فحصدت الناس حصدا يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور، وقد حدث مثل ذلك على أيام الثورة الاجتماعية، وفي أخريات أيام الأسرة العشرين، كما حدثنا «إيبو-ور» عن الأولى، وكما تحدثت وثائق أخريات أيام الدولة الحديثة عن عام اشتد فيه الجوع بالناس، حتى سموه «عام الضياع» (1).

على أن الأمر هنا، بين موسى وفرعون، فيما نعتقد ونؤمن به، إنما هو معجزة نبي، وبدهي أنه ليس بالضرورة أن تتفق المعجزات مع بعض أحداث في التاريخ، فإذا ما كان لها صدى في هذه الأحداث التاريخية، فإن ذلك تصديقا لهذه الأحداث، وليس للمعجزات، والتي سوف نتحدث عنها بالتفصيل عند حديثنا عن انقلاب البحر لموسى عليه السلام، وعلى أي حال، فالواضح من نصوص التوراة و آي الذكر الحكيم أن البلاد قد أصيبت في تلك الفترة بالقحط والجذب، ونقصت ثمراتها بالجوائح الجوية والآفات السماوية، وغرقت أرضها بطوفان، و هجمت عليها جيوش جراحة من الجراد تجتاح الأخضر واليابس، و امتلأ الجو بالبعوض، و كثر «الدبا» في الأرض، و كذا الضفادع التي نغصت على الناس حياتهم، فكانوا يجدونها في كل

ص: 209

1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 357-359، و كذا، p. 173-177. J ynreC. OA, 1933، 6، و كذا، 1927. EAL, namrE. A 95. p.

مكان، وهكذا كانت النعمة عامة، و كان بلاء من السماء، لم يصب الطبقة الحاكمة وحدها، وإنما شمل الناس جميعا، بما فيهم الكهنة و عامة الناس (1)، و صدق الله العظيم حيث يقول: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2).

و مع ذلك فقد ظل فرعون على عناده و كفره و كبريائه، فدعا موسى على فرعون و ملئه، و استجاب الله لدعاء نبيه الكريم و أخذ فرعون و قومه ببعض ذنوبهم، لعل فرعون يرعوي و يؤمن بموسى و رسالته، و يطلق بني إسرائيل من أسرهم، غير أن ذلك لم يزد إلا تجبرا و تكبرا، فيعلن للملا: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (3)، و لعل من الأهمية بمكان أن نقف قليلا عند هذه الآية الكريمة، ذلك أن ما عرف عن فراعين مصر، و ما تشهد به اليوم آثارهم، أنهم إنما كانوا ينشئون، ما شاءوا، من الحجر، و هو كثير وافر يغنيهم عما سواه، إن أرادوا لما ينشئون الدوام و طول البقاء، فكانوا يتخذون منه المعابد و المسلات و القبور، و لم يصطنعوا الطوب المحروق، و لغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق، فكانوا يتخذون منه بيوتهم، سواء أ كانت للعلية من القوم و الملوك، أم للعامة و غمار الناس، و ربما تردد القارئ غير المسلم فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد له هامان على الطين، و قد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا الأجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان (4).

ص: 210

- 1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 183-184.
- 2- سورة الأنفال: آية 25.
- 3- سورة القصص: آية 38، و أنظر: سورة غافر: آية 36.
- 4- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 137-138.

و هنا لعنا نتساءل: ما ذا عن الطوب المحروق الذي جاء في الآية الكريمة على عهد فرعون موسى، وقد سبق عصره عصر الرومان بما لا يقل عن ألف من الأعوام؟

يروى الإمام الطبري في تاريخه عن قتادة أن فرعون موسى كان أول من طبخ الآجر ليبنى به الصرح، و روى الإمام النسفي في تفسيره لقوله تعالى: فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ، أي أطبخ لي الآجر و أتخذه، وإنما لم يقل مكان الطين هذا لأنه أول من عمل الآجر، فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة، و لأنه أفصح و أشبه بكلام الجبارة، إذ أمر هامان وزيره بالإبقاء على الطين فنادى باسمه ب «يا» في وسط الكلام، دليل التعظيم و التجبر، و روى القرطبي عن حبر الأمة و ترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أن فرعون موسى إنما كان أول من صنع الآجر و بنى به، و روى عن الإمام السيوطي في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن قتادة: كان فرعون أول من طبخ الآجر و صنع له الصرح، و أخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال:

فرعون أول من صنع الآجر و بنى به، و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن سعيد بن جبيرة في قوله: «فأوقد لي يا هامان على الطين» قال: أوقد على الطين حتى يكون آجرا، و قال الإمام البيضاوي: أول من اتخذ الآجر فرعون، و لذلك أمر باتخاذها على وجه يتضمن تعليم الصنعة، مع ما فيه من تعظيم، و لذا نادى هامان باسمه بيا في وسط الكلام (1)، و من ثم فأكبر الظن أن المفسرين، كما بدا لنا من قبل، قد كانوا يستندون إلى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم، و أن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام، كحديثهم عن أصل فرعون موسى هذا (2).

ص: 211

1- تفسير النسفي 237/3، تفسير الدر المنثور 129/5، تفسير القرطبي ص 5004، تفسير البيضاوي 128/4، تاريخ الطبري 405/1.

2- يروي المفسرون عن فرعون موسى حكايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ، فهو، فيما يزعمون، الوليد بن مصعب أو مصعب بن ريان أو هو قنطورس أو قابوس، و كنيته أبو مرة، و هو مصري أو هو من بني عمليق و من يقايا عاد، على أن أسوأ ما في هذه الأساطير أن يكون فرعون مصر، (أعظم دول العالم وقت ذلك، و أعرقها حضارة و أرسخها ملكا، و أقدمها عرشا، بل و يكاد الوحيد، فيما نعلم، في كل تاريخ النبوات الذي أرسل إليه نبيين، و ليس نبيا واحدا) فرعون مصر هذا، فيما يزعم المفسرون، كان فارسيا من إصطخر أو أصفهان، و كان عطارا ركبته الديون فأفلس، فخرج إلى الشام فلم يتسن له المقام، فدخل مصر، و رأى في ظاهره حملا من البطيخ بدرهم، و في نفسه بطيخة بدرهم فخرج إلى السواد فاشترى حملا بدرهم، و توجه إلى السوق فكل من لقيه من المكاسين أخذ منه بطيخة، فدخل مصر و ما معه إلا بطيخة فباعها بدرهم، و رأى أهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم (تصور هذا في عصر الإمبراطورية و في وقت كانت مصر تحكم فيه الشرق، و كان ملكها سيد الملوك طرا، لأنه أعظمهم و أغناهم و أقواهم) فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه، على أنه أمين المقابر، و منعهم من دفنه حتى يدفعوا خمسة دراهم، فدفعوها، و كذا فعل آخرون، حتى جمع في ثلاثة أشهر مالا عظيما، ثم تعرض له يوما أحد أولياء متوفى و ذهبوا به إلى فرعون، فسأله: من أنت و من أقامك بهذا المقام، فقال لم يقمني أحد، و إنني فعلت ذلك لأحضر إلى مجلسك، فأنبئك إلى اختلال حال قومك، و قد جمعت بهذا الطريق هذا المال و أحضره و دفعه إلى فرعون، ثم قال ولني أمورك ترني أمينا فولاه فسار بهم سيرة حسنة فانظمت مصالح العسكر و استقامت أحوال الرعية و لبث فيهم أمدا طويلا، و ترامى أمره بالعدل و الصلاح (و بدهي أن المفسرين تأثروا في هذا بقصة يوسف عليه السلام) فلما مات فرعون أقامه مقامه، فكان من أمره ما كان، و كان فرعون يوسف ريان، و كان بينهما أكثر من أربعمئة عام (و لا تعليق على هذه الأساطير سوى أنها تدل على جهل فاضح بالتاريخ المصري القديم). و على أية حال، فلقد ذهب الزمخشري إلى فرعون اسم علم لمن ملك العمالق، كقيصر لملك الروم و كسرى لملك الفرس. و لعتو الفراعنة اشتقوا

تفرعن إذا عتا و تجبر (تفسير الكشاف 102/1، الدر المنثور 105/3، روح المعاني 253/1، تفسير أبي السعود 172/1).

و مهما يكن من أمر، فلقد أعترتنا الأحافير على ما يوافق أقوال المفسرين من حيث البناء بالآجر، فلقد عثر «بتري» على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق، بنيت به قبور، و أقيمت به بعض من أسس المنشآت، ترجع إلى عصور الفراعين: رعمسيس الثاني و مرنبتاح و سيتي

ص: 212

الثاني، من الأسرة التاسعة عشرة (1308-1184 ق.م)، وكان عثوره عليها في «نيشة» و«دفنة» غير بعيد من «بي رعمسيس» (قنيتير) عاصمة هؤلاء الفراعين في شرق الدلتا، وقال «بترى» في ذلك: إن حرق اللبن قد ظل نادرا إلى عصر الرومان، و هو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق، على عهد فرعون موسى، و هو كذلك من قرائن القرآن الكريم التي نتخذها مطمئنين في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر، وبأنه كان على أيام الأسرة التاسعة عشرة التي بدأت، كما أثبتت الحفائر، وأمع القرآن الكريم، تصطنع في بنائها الآجر المحروق (1).

[3] ألوهية الفرعون المزعومة:-

إشارة

لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا، وقبل أن نترك موضوع موسى وفرعون، أن نشير إلى «ألوهية الفرعون المزعومة» التي رأيناها موضوع جدل شديد بين النبي الكريم والملك الفرعون بل هي الصخرة التي تحطمت عليها، فيما نعتقد، كل أوجه التقارب بينهما، و مما يزيد الأمر أهمية أننا لا نعرف في تاريخ النبوات، دعوة يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل إليه، على أنه إله للناس، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي الكريم نفسه قال لئن اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (2)، ثم يعلن للناس عامة ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (3)، و عند ما يتقدم له موسى عليه السلام بمعجزات تدل على صدق رسالته، إذا به يرفض الدعوة كلها ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى فَحَسَّ رَفْنَاذَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (4).

ص: 213

- 1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 138، و كذا. 18- 19، 47، P. F. M. W 47، dna hehsebN، henefeD p.
- 2- سورة الشعراء: آية 29.
- 3- سورة القصص: آية 38.
- 4- سورة النازعات: آية 22- 24.

يحدثنا التاريخ أن مؤسس الأسرة المصرية الأولى، استطاع أن يكون لمصر حوالي عام 3200 قبل الميلاد، حكومة مركزية قوية ثابتة الأركان، كان على رأسها «الملك المؤله» الذي استطاع أن يجمع بين يديه كل السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور، بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة هو المحور، بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة، و كل ما يحدث فيها و حي منه، على أسس دينية عميقة الأثر، فهو «الإله الأعظم»، و هو «الإله الصقر حور»، الذي تجسم في هيئة بشرية، و لهذا فهو- في نظر رعاياه- إله حي على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، و من ثم فله حق الاتصال بهم، و له على شعبه- ما لغيره من الآلهة- من التقديس و المهابة (1).

و من هنا كان الأساس السياسي و الاجتماعي الذي قامت عليه الحضارة المصرية، هو التأكيد كل التأكيد، بأن مصر يحكمها إله، و أن هذا الإله الجالس على العرش غير محدود المعرفة و المقدر، و أنه على علم بكل ما يدور في أرض الكنانة، و من هنا كان من الصعب أن نفرق بين الملك و الدولة، إذ كانت كلمته قانون، و رغبته أمر، و رعيته ملك يمينه، يتصرف فيها كيف شاء، و متى شاء (2).

و قد اختلف المؤرخون فيما بينهم في كيفية إيمان المصريين بأن الجالس على العرش إله يحكم بشرا؟ و كيف أصبحت ألوهية الفرعون عقيدة الدولة الرسمية، فهناك من يرى أنها إنما كانت وليدة أسباب انتصاره على

ص: 214

1- محمد بيومي مهران: التنظيم السياسي في مصر و العراق القديم ص 4 (الإسكندرية 1970)، الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 99-115.

2- محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة 1976 ص 17.

منافسيه. ثم اصطناعه صفات إلهية، حتى غدا إلهها بين الآلهة (1)، و من يرى أن الصعاب التي لاقاها مؤسسوا الوحدة دافعا للقول بأن مصر يحكمها إله، تتمثل فيه القوى التي تهيم على القطرين (الصعيد والدلتا)، بل إنه ادعى منذ الأسرة الخامسة بأنه الابن الشرعي لإله الشمس «رع»، أعظم الآلهة طرا وسيدهم، وبذلك تمكن الملك من أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر، و عن أن يكون منتسبا لأي جزء من أجزاء مصر، و من ثم فقد انتفت حجة الوجه البحري في معارضته في أن يحكمه رجل من الصعيد (2).

و هناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن المصري كان لا يحس بضرورة تحديد الأنواع تحديدا صريحا، فقد سهل عليه أن ينتقل من البشري إلى الآلهي براحة تامة، و أن يقبل العقيدة التي تنص على أن الفرعون الذي كان يعيش بين الناس كأنما هو من لحم و دم إنساني، كان في الحقيقة إلهها تكرم فأقام فوق الأرض ليحكم أرض مصر، و من ثم فإن طريقة التفكير هذه، فيما يرى جون ويلسون- بجانب العوامل الجغرافية- إنما كانت سببا في عقيدة الملكية الإلهية، التي ربما كانت سهلة و طبيعية بالنسبة للمصريين، و ربما كانت متصلة الجذور منذ أيام ما قبل التاريخ (3).

و هناك رأي رابع، يجعلها نتيجة أسباب دينية، ذلك أن المصريين القدامى إنما كانوا يعتقدون- كما تروي الأساطير- أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض في مصر ذاتها، قبل أن يعرجوا إلى السماء- أو فيما يختص بالذين ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا إلى الجحيم-

ص: 215

1- نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم- الجزء الرابع- ص 74 (الإسكندرية 1966).

2- عبد المنعم أبو بكر: تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، النظم الاجتماعية- القاهرة 1962 ص 111.

3- . p, tic- po, nosli W. A. J 47, 45 .

و كانت القوائم الملكية تبدأ بهم، بل و تحدد عدد سنى حكمهم- كما تفعل بردية تورين- و قد ترك «أوزير» آخر الآلهة العظام، لابنه حور ملك مصر، و من «حور» هذا تحدر في زعمهم كل ملوك مصر، و بناء على ذلك، فإن حتى الملك يقوم على طبيعته الإلهية التي كانت تنتقل مع الدم، و في عهد الأسرات الأولى لم تكن ألوهية الملك مؤكدة إلا لتسلسله من «حور» إله الأسرة بغض النظر عن أية مؤلفة دينية (1).

و تذهب وجهة النظر الخامسة إلى أن ألوهية الفرعون إنما تتصل اتصالاً وثيقاً بالعناصر الأساسية التي شكلت المبادئ و القيم المصرية منذ البداية، و تتركز تلك العناصر بصفة خاصة على تأثر الإنسان بكافة المقومات البيئية المحلية في مصر تأثراً كاملاً بطريق مباشر أو غير مباشر، فقد بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة، و نشأ لأول مرة المجتمع الزراعي المستقر و المعتمد على ضمان توفير مياه الري و مساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للإنتاج الزراعي السليم، ثم سرعان ما أدرك الإنسان ضرورة ضمان ذلك الاستمرار حتى يطمئن على حياته المستقلة، و في نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطة به و المسيطرة على تلك البيئة، و شعر بارتباط حياته و مستقبله بتلك القوى الكونية المسيطرة على هذا العالم، و قد اعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الإنسان و الآلهة، حتى يستطيع أن يضمن رضى تلك القوى على الإنسان، و بالتالي اطمئنانه على حياته الحاضرة و المستقبلية، و لذلك ارتبط ملوك مصر بعالم الآلهة ارتباطاً كبيراً لم يألفه المؤرخ في أنظمة الحكم الأخرى في منطقة الشرق الأدنى القديم (2).

ص: 216

-
- 1- أيتين دريوتيوجاك فانديه: مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة 1950 ص 90-91.
 - 2- رشيد الناصوري: جنوب غربي آسيا و شمال إفريقيا- الكتاب الأول- بيروت 1968، ص 282-283.

وهكذا نرى العلماء يختلفون في تفسيرهم لألوهية الملك المصري، وكيف نشأت؟ وكيف اقتنع المجتمع المصري و آمن بألوهية ملوكه؟

وإذا أردنا مناقشة هذا كله، لرأينا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع وحدها أن تصل بالمغلوبين إلى الإيمان بألوهية ملوكهم، ذلك لأن الغزو قد يجبر قوما على الخضوع لآخرين، وقد يجعل من زعيم المنتصرين «دكتاتورا» يأمر فيطيع المغلوبين، ولكنه لا يجعل منه -بحال من الأحوال- إلها يؤمن الناس به، كواحد من آلهتهم الأخرى، وحتى لو آمنوا به في فترة الغزو- وفي أعقابه لفترة ما- فكيف تسنى لملوك مصر أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها الناس حتى نهاية العصور الفرعونية.

و أما النظرية التي تجعل الصعاب التي لاقاها مؤسسوا الوحدة دافعا إلى القول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التي تهيمن على القطرين، فقد يكون الأمر كذلك إلى حد ما، وفي هذه الحال، فإن توطيد هذا المبدأ في جميع أنحاء البلاد إنما احتاج إلى وقت طويل، حتى قبل القوم أن ذلك الإنسان الذي يحكمهم ليس بشرا، بل هو من نوع آخر، فلدينا ما يثبت أن الوحدة التي قامت في أول عصر التأسيس لم يكتب لها البقاء طويلا، وإنما إنهارت في النصف الثاني من عصر الأسرة الثانية، إذ تدلنا آثار الملك «خع سخم»- والتي تقتصر على مدينة «نخن»- على مدى جهوده في استرجاع الدلتا، و توطيد الوحدة، و القضاء على الفتنة، الأمر الذي تم على يد خلفه «خع سخموي».

و أما الرأي الذي جعل من العوامل الجغرافية- إلى جانب طريقة التفكير المصري- سببا في الإيمان بألوهية الفرعون، فإنها تضعف كثيرا، إذا ما تذكرنا أن ألوهية الملك المصري إنما كانت مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها- وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأن أية فترة من الفترات

التي كان يضعف فيها الحكم، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما إلا اعتمادهما المشترك على مياه النيل.

و أما ذلك الرأي الذي أرجعها لأسباب دينية، فهو في الواقع إنما يعتمد على الأساطير - أكثر من اعتماده على الأدلة التاريخية - إذ لو كان الأمر كذلك، و كان مؤسس الوحدة معترفاً بالوهيته على اعتبار أنه سليل الإله «حور»، لما احتاجت الوحدة إلى كل هذه الحروب التي خاضها أبطال التوحيد، من أمثال «عقرب» و «عحا»، و لما احتاجت كذلك إلى جهود خلفائهم بعد النكسة التي أصيبت بها الوحدة في عصر الأسرة الثانية.

و أما النظرية الاقتصادية، فرغم أهمية ضمان توفير الأمن الاقتصادي وغيره من مظاهر الاستقرار في المجتمع، على أساس إمكان توسط الفراعنة بعد حملهم لتلك الصفة الإلهية من أجل تحقيق ذلك، فإن ذلك الأمر ليس بكاف لتعليل إيمان المصريين بالوهية ملوكهم، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان ملوك العراق القديم أحق بالوهية من ملوك مصر، فبلاد الرافدين إنما كانت معرضة بصورة مستمرة بتقلبات الجوية التي تحول دون الاستقرار و الطمأنينة، مما أدى إلى تعدد القوى الإلهية، و ظواهر التنبؤ و التمام، بينما كانت البيئة المصرية مطمئنة إلى حد كبير (1).

و من ثم، فالرأي عندي: أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي عملت على تأليه الفرعون في أرض الكنانة، و ربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية الإلهية في مصر، و لكنها فكرة غير منتظمة، ثم جاءت الأسرة الأولى و انتهزت فرصة وجود هذا الرأي لتأييد النظام الجديد، فرفعت الفرعون من رتبة بشر متميز - من الجائز أن ينازعه في سلطانه بشر آخر متميز و أقوىاء - إلى مرتبة «إله» لا يمكن منازعته، و هكذا كانت عقيدة الملكية الإلهية، كما

ص: 218

نعرفها قد صيغت و عدلت كثيرا، ثم وجدت قبولاً رسمياً في أوائل أيام الأسرات، و هذا قول لا يمكن إثباته بالتأكيد، و لكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية. و حاجة الناس إلى وسيط يكون بينهم و بين آلهتهم، لتحقيق ما يمكن أن نسميه «بالأمن الوقائي» ضد كل ما يصيبهم بأذى من قريب أو بعيد، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم- بعد قيام الوحدة و إخضاع الدلتا- إلى الإله «حور»، خليفة أبيه «أوزير»- آخر الآلهة العظام الذين حكموا مصر في عصور ممعنة في القدم- و منذ الأسرة الخامسة (حوالي عام 2480 ق. م)، يصبح الملوك أبناء للاله «رع» من صلبه، و في عصور تالية، و حين يصبح آمون- سيد الآلهة و كبيرهم- يصبحون أبناء له.

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ألوهية الفرعون لم تكن بمعنى أنه خالق الكون و مدبره أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية، إنما كان يدعي الألوهية على شعبه، بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريعته و قانونه، و أنه بإرادته و أمره تمضي الشئون و تقضي الأمور، كما أشرنا من قبل، كذلك لم يكن الناس، في مصر يتعبدون إلى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، كما كان لفرعون نفسه آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر، من قول المأله «و يذرك و آلهتك»، و كما يثبت ذلك تاريخ مصر في العصور الفرعونية، و من هنا فإن هذا الملك المؤله لم تكن تقام له المعابد، كما كانت تقام لغيره من الآلهة، كما لم تكن تقدم له القرابين (1)، و أن تسميته بالآله العظيم لم تقف حائلاً دون أن تكون له شخصية بشرية، و أن طبيعته لم تمنع القوم من أن ينظروا إليه كحاكم بشري، له أملاكه الخاصة و مخازنه و دواوينه الخاصة. (.

ص: 219

1- قارن حالات: أمنحتب الثالث و رعمسيس الثاني و الثالث (محمد بيومي مهران- الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 128).

وبدهي أنه في مقابل هذه الحقوق التي كان يتمتع بها الفرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن مصر و حماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة في خيراتها، وهو الذي يعمل على تدعيم العدالة و نشر لواء الحور بين أفراد شعبه، وهو المسئول عن تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع و إقامة الجسور ليتيسر فلاحه الأرض و زراعتها، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، و تشجيع الصناعات و الفنانين، فضلا عن إقامة المعابد للآلهة و تقديم القرابين لها، فإن أهمل واجباته، كلها أو بعضها، فقد قدسيته، و من ثم يحور لغيره من الآلهة ألا يعترفوا به كواحد منهم، و هكذا يبدو أن الملكية، و إن أفاءت على الملك القداسة و الألوهية، فهي في الوقت نفسه، قد حددت من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات.

و من هنا فإن القوم في عصر الثورة الاجتماعية الأولى، و قد تدهورت أحوال البلاد الداخلية و الخارجية، فضلا عن ظهور اللامركزية منذ أخريات الدولة القديمة، لم يعودوا ينظرون إلى ملوكهم تلك النظرة التي كان أسلافهم ينظرون بها إلى ملوك الأسرة الرابعة مثلا، الأمر الذي أدى إلى التقليل من هالة التقديس التي كان يحاط بها الملك أو يحيط بها نفسه، و هكذا لم يعد الملك ذلك الإله المترفع و الحاكم الجبار فوق البشر، و الذي يرجو رعاياه عطفه و رضاه، و إنما أصبح شخصا غير معصوم يتحدث عن ضعفه و عن خطاياهم، كما يتحدث الآخرون من رعاياه، بل إننا نرى في هذا العصر الحكيم «إيبو-ور» يتهم الفرعون بأنه سبب الفوضى و الاضطرابات التي سادت في البلاد، فرغم أنه قد أعطي الحكمة و السلطة، فقد بقي في قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين، حتى ساءت الحال و فقد الناس الأمن و الأمان، ثم يبلغ به العنف أشده حتى يتمنى للملك أن يذوق البؤس بنفسه، و حين يرد الفرعون بأنه حاول جهده أن يحمي شعبه، يتهمه «إيبو-ور» بالجهل و عدم الكفاءة للمنصب الخطير، ثم يرسم له صورة الملك

الأمثل بأنه الحاكم العادل الكفء الذي لا يحمل في قلبه شرًا لرعيته، ويعمل جهده على جمع كلمتها و توحيد صفوفها، إنه كالراعي يصرف يومه في جمع قطيعه بعضه إلى بعض، و من ثم فإن الثورة رغم أنها أبقت على مبدأ الملكية الإلهية، فإنها في الوقت نفسه نادى بحقوق الأفراد وبالعدالة الاجتماعية مما جعل الملك المؤله راعيا لشعبه يسهر على مصالحهم و يضني نفسه في سبيل سعادتهم، و هكذا لم يعد الملك ذلك الحاكم الجبار، فوق البشر، وإنما غدا إنسان له ما للإنسان من ضعف و نزوات، و حاكما يعمل لخير شعبه، و يجهد نفسه على أن يكون دائم اليقظة، حتى لا يؤخذ على غرة، شأنه في ذلك، شأن أي إنسان، قد يفعل الخير فيجد خيرا، و قد لا يجد سوى الشر.

هذا و قد أشرنا من قبل عن أن مصر لم تكن أبدا تعرف عبادة الملك الحي طوال العصور الفرعونية، و إن حاول ذلك «أمنحتب الثالث»، و على استحياء شديد في النوبة، و ليس في مصر نفسها، ثم حاول كذلك رمسيس الثاني في معابده التي أقامها في النوبة للالهة المصرية و في «هريبط» و كانت مدينة عسكرية، ثم رمسيس الثالث في منف و في العاصمة «بي رمسيس»، و إن لم تشر سجلات عصره في بردية هاريس و مدينته هابو إلى ذلك أبدا (1).

ص: 221

1- أنظر عن الموضوع و المراجع (محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى، الإسكندرية 1966 ص 190 - 240، الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 97-128).

[1] أسباب الخروج:

يختلف العلماء في أسباب خروج بني إسرائيل من مصر، أو طردهم منها، و لعل السبب في ذلك تناقض نصوص التوراة بشأنها، فهي تصوره، و كأنه إضراب عن العمل، و من ثم فإنها تتحدث عن تمرد العمال العبرانيين على رؤسائهم المصريين، كما تتحدث عن تكاسلهم عن القيام بواجباتهم بسبب رغبتهم في الخروج إلى البرية ليذبحوا للرب إلههم، و لكن فرعون يرفض ذلك (1)، الأمر الذي دفع «وارد» إلى القول بأن الخروج لم يكن إلا إضرابا عن العمل (2)، و يذهب «كيلر» إلى أن الإسرائيليين إنما كانوا يكوّنون رصيذا هائلا من الأيدي العاملة الرخيصة، و الأجنبية كذلك، و ما كان المصريين براغبين في تركهم يخرجون من البلاد (3)، في فترة البناء النشطة في عهد رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م) و الذي كان اهتمامه مركزا في الدلتا الشرقية، و من هنا حاول الإسرائيليون الهروب ضد رغبة المصريين (4)،

ص: 225

1- خروج 4/5-5.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة 2/326، و كذا. p, II, ylwoL tneicnA, draW 76.

3-, -yrotsiH sa elbiB ehT, relleK. W 123. p. 1967,

4-, -nodnoL, learsI fo yrotsiH ehT, htoN. M 114. p. 1965,

على أن هناك من يذهب إلى أن مصر عند ما قررت التوسع شرقاً إلى بابل، رأت أنه من ضروريات السياسة الجديدة إقرار البدو نشراً للأمن، فضلاً عن الاستقرار، فشق هذا الوضع الجديد على بني إسرائيل الذين كانوا ينزلون «وادي جوشن» من عهد يوسف عليه السلام، كبدو يروحون ويغدون، وهم بحكم هذا الضرب من الحياة تغلب عليهم النزعة الفردية، وينفرون من الملكية الجماعية، و من ثم فقد تمردوا مفضلين البداوة والترحال، على الحضارة والاستقرار (1).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يذهب إلى أن الخروج إنما قد تم برغبة المصريين، ذلك لأن الطاعون قد انتشر بين الإسرائيليين، مما اضطرت المصريين إلى أن يتركواهم يخرجون حتى لا ينتشر الوباء بين المصريين أنفسهم، ولعل هذا الرأي إنما يتفق مع ما رواه «يوسف اليهودي» نقلاً عن مانيتو، من أن خروج بني إسرائيل من مصر، إنما كان رغبة من المصريين في أن يتقوا وباء فشا بين اليهود المستعبد المملكين، وأن موسى نفسه إنما كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود المجذومين، وأنه علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الكهنة المصريين، هذا فضلاً عن أن المؤرخين الأغارقة والرومان إنما يفسرون قصة الخروج على هذا النحو (2).

ولعل الوصول إلى رأي في المشكلة يقرب من الصواب، أو يكاد، من وجهة نظر التوراة، إنما يتطلب منا الرجوع إلى نصوص التوراة نفسها، وبخاصة فيما يتصل بدعوة موسى عليه السلام، و هل كانت لهداية المصريين والإسرائيليين سواء بسواء، أم أنها كانت تهدي إلى إخراج بني إسرائيل من

ص: 226

1- فؤاد حسنين: إسرائيل عبر التاريخ 1/ 54-55.

2- ول ديورانت: المرجع السابق ص 326، وكذا F, mor sti B sgninnige ht fo elddiM ht yrutneC ,nmdnoL .A 168. p, 1962 .,learsI ,sdoL .

مصر فحسب، و من هنا لعلنا نعرف قدر الطاقة، هل خرج بنو إسرائيل من مصر راغبين أم مكروهين؟

إن التوراة تزخر بالنصوص التي تدل على أن دعوة موسى عليه السلام، إنما كانت تهدف إلى إخراج بني إسرائيل من مصر، وإطلاق سراحهم من عبودية المصريين، يبدو هذا واضحاً خاصة من الإصحاحات العشرة الأولى من سفر الخروج (1)، و من ثم فالهدف من دعوة موسى، كما تصورها التوراة، إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، وأن يقيهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القول بأن موضوع رسالة موسى إنما كان إطلاق بني إسرائيل من عبودية فرعون وقومه، إنما هو أمر يقره القرآن الكريم في عدة سور، من ذلك قول الله تعالى: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (2)، وقوله تعالى:

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ (3)، وقوله تعالى: فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (4)، ويقول صاحب الظلال: و واضح من هذا أن موسى عليه السلام لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه و يأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، و هو يعقوب أبو يوسف

ص: 227

1- أنظر: خروج 7/3-11، 5-1/5، 10-13، 26-2/7-5، 14، 8-1/2، 20-32، 9-1/2، 13، 17، 28، 35، 10/3، 7-11، 20.

2- سورة الأعراف: آية 104-105.

3- سورة طه: آية 47.

4- سورة الشعراء: آية 16-17.

عليهما السلام، فهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد، ويقول في مكان آخر من تفسيره أن موضوع رسالتهم (أي موسى و هارون) فَأُرْسِلُ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبُهُمْ، ففي هذه الحدود كانت رسالتهم إلى فرعون، لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمروها (1).

ويقول أبو حيان في بحره المحيط في تفسير آية الأعراف (105) لم يطلب موسى من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه، وفي غيرها دعاه إلى الإقرار بتوحيد الله و ربوبيته، قال تعالى: قُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (2)، و كل بدعوته إلى توحيد الله، وقوله تعالى حكاية عن فرعون: فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِسِحْرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (3) فهذا و نظائره دليل على أنه طلب منه الإيمان، خلافا لمن قال إن موسى لم يدعه إلى الإيمان، و لا إلى التزام شرعه، و ليس بنو إسرائيل من قوم فرعون و لا من المصريين (القبط)، ألا ترى أن بقية المصريين، و هم الأكثر، لم يرجع إليهم موسى (4).

و عودا على بدء، عودا إلى التوراة، حيث نرى اتجاه النصوص يتغير عند ما يعلن فرعون موافقته على رغبة موسى بإطلاق الرجال من بني إسرائيل ليعبدوا للرب إلههم في البرية، غير أن موسى لا يرضى إلا أن يخرج

ص: 228

1- في ظلال القرآن 4/ 2337، 5/ 2590.

2- سورة النازعات: آية 18- 19.

3- سورة المؤمنین: آية 47.

4- تفسير البحر المحيط 4/ 356.

الإسرائيليون جميعاً، بل حتى الغنم والبقر، و هنا يرفض الفرعون، وإن كان لا يمضي طويل وقت حتى يوافق على خروج بني إسرائيل جميعاً، وإن استثنى من ذلك الأغنام والأبقار، غير أن موسى لا يقبل إلا بخروج أغنامهم وأبقارهم معهم، لأن بني إسرائيل، فيما ترى توراتهم، ما كانوا بقادرين على عبادة ربهم بدون مواشيهم (1)، ويصر الفرعون على رأيه، و هنا تبدأ التوراة لا تتحدث عن خروج بني إسرائيل من مصر، وإنما تتحدث عن طردهم (2)، كما تبدأ النصوص التوراتية تخطط لسرقة المصريين (3)، و عن البلايا التي نزلت بمصر مما اضطر فرعون إلى أن يوافق على خروج الإسرائيليين بأغنامهم وأبقارهم (4)، و هنا لا يتورع كتابة التوراة أن يدونوا في نصوصها أن مشروع سرقة المصريين الذي كان قد دبر لبيل، إنما قد تم تنفيذه الآن «و أعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، أمتعة فضة و أمتعة ذهب، فسلبوا المصريين (5)»، و أن هذا قد تم برضى من موسى و بأمر منه، و في الحقيقة أن الإساءة إلى الأنبياء الكرام من بني إسرائيل أنفسهم، أمر معروف في التوراة، و نظائره كثيرة.

و أيا ما كان الأمر، فإن نصوص التوراة تشير إلى أن الخروج إنما قد تم بأمر فرعون و موافقته، بل إنها تشير صراحة إلى أن بني إسرائيل قد أكرهوا على الخروج من مصر (6)، أو على الأقل، فإنهم لم يكونوا جميعاً راضين عن الخروج، إذ وافق عليه فريق، و أنكره آخرون، إلا أن الغلبة إنما كانت

ص: 229

1- خروج 9/10-11، 24-26، 11/1-2.

2- خروج 6/1.

3- خروج 1/11-3.

4- خروج 12/29-33.

5- خروج 12/34-36.

6- خروج 12/39.

للأولين على الآخرين، و من هنا فإن الله لم يهدهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان «لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر (1)»، بل إن هناك نصوصاً توراتية تقرر أن بني إسرائيل إنما كانوا يعارضون فكرة الخروج من مصر منذ أن عرضها عليهم موسى، بادئ ذي بدء، و أنهم حين خرجوا منها، سواء أكان ذلك بأمر فرعون أو بتحريض من موسى، فقد كانوا لذلك من الكارهين، و من هنا فقد كثرت ثوراتهم على موسى في سيناء، بل حتى و هم على أبواب كنعان، حيث نادوا بخلع موسى، و المناداة برئيس جديد يستطيع أن يعود بها إلى أرض الكنانة «أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً و نرجع إلى مصر (2)».

على أن آي الذكر الحكيم إنما تقرر أن الخروج من مصر، إنما كان بوحى من الله تعالى إلى موسى عليه السلام، قال تعالى: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَ لَا تَخْشَى (3)، و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (4)، و قال تعالى: فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ، وَ اتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (5) و هذا كله يفيد أن الخروج إنما كان بأمر من الله لموسى عليه السلام، فلقد أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسري بعباده، و أن يرحل بهم ليلاً، بعد تدبير و تنظيم، و نبأه أن فرعون سيبعثهم بجنده، و أمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (6)، و بدهي أنه ليس بعد قول الله تعالى قول،

ص: 230

1- خروج 17/13 - 18.

2- خروج 11/14 - 12، عدد 3/14 - 4.

3- سورة طه: آية 77.

4- سورة الشعراء: آية 52.

5- سورة الدخان: آية 23 - 24.

6- في ظلال القرآن 5/ 2597.

والتالي فإن الخروج من مصر إنما تم بأمر الله تعالى، وليس بأمر موسى أو فرعون.

[2] تاريخ الخروج:-

اختلف المؤرخون، القدامى منهم والمحدثون، في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وبالتالي في الاستقرار الذي تلاه في كنعان (فلسطين)، و من ثم فقد قدموا لنا نظريات مختلفة، يصل الفرق بين أقدمها وأحدثها إلى أربعة قرون، و من ثم فقد رأينا البعض يجعل من طرد الهكسوس من مصر (حوالي عام 1575 ق.م) تاريخا للخروج، بينما يتأخر آخرون إلى ما بعد عصر رعمسيس الثالث (1182-1151 ق.م)، والفرق بينهما، كما رأينا، كبير، يصل إلى أربعة قرون، وفي نفس الوقت، إنما يشير إلى الغموض الذي يرين على تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام.

ولعل صعوبة الوصول إلى رأي محدد بشأن تاريخ الخروج، إنما يرجع، في أكبر الظن، إلى أسباب ثلاثة، أولها: أن الآثار المصرية، وكذا الفلسطينية، لم تقدم لنا تاريخا محددًا عن هذا الحدث الخطير، والذي أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الديني، وما برح حتى الآن يؤثر في نفسية اليهود، بل إنه هو الذي أثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة، وأما سبب عدم ذكر هذا الحادث في الآثار أو الوثائق المصرية، فيرجع، فيما نرى، إلى أمرين، أولهما: أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل، صلوات وسلامة عليهم، في النصوص الإنسانية، وخاصة المصرية، ضعيف إلى درجة كبيرة، في ذلك لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية والبشرية، ربما كان سببا، وهو كذلك، في إغفال ذكرها، وهذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف

بالمعارضين (1)، و ثانيهما: أن المصادر المصرية القديمة، و التي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها و كثرة آثارها و نصوصها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر المصرية بمعلومات كافية عن موسى عليه السلام، غير أن هذه المصادر، في غالبيتها، إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة مؤلها، كان من الطبيعي ألا يستسيغ الفكر المصري أن يهزم الملك المؤله أو الإله في حرب خاض غمارها، و لهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، و قد تكون الحقيقة غير ذلك (2)، و من المعروف أن قصة موسى، كما جاءت في التوراة و القرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون و جنوده في البحر، و نجاة موسى و من آمن معه بالواحد الأحد، و ليس من المقبول، طبقا للعقيدة الملكية الإلهية في مصر القديمة، أن تسجل النصوص غرق الفرعون الإله، و نجاة عبده العبرانيين، و من هنا كان من الصعب العثور على اسم موسى و قصة خروجه ببني إسرائيل من مصر، حتى الآن على الأقل، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر في العصور الفرعونية (3).

و أما ثاني الأسباب فإنما يرجع إلى الاضطراب الواضح بين نصوص التوراة، حتى استطاع العلماء أن يستخرجوا منها تاريخين مختلفين للخروج في وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان، حيث اعتمد البعض على نص في سفر الملوك، توصلوا إلى أن الخروج إنما كان على أيام تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) (4) بينما

ص: 232

1- رشيد الناضوري: الفكر الديني - بيروت 1969 ص 174.

2- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص 3.

3- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/314-315.

4- ملول أول 1/6.

اعتمد آخرون على نص في سفر الخروج توصلوا منه إلى أن الخروج إنما كان على أيام رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م) (1).

وأما ثالث الأسباب، فيرجع إلى أن القرآن الكريم، وكذا التوراة، لم يذكر أي منهما اسم الفرعون الذي عاصر موسى عليه السلام وذلك على الرغم من أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتان مسهبتان في أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارات الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين و أمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة، جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم، ولعل السبب في عدم ذكر القرآن لاسم فرعون موسى، أن الاسم لا أهمية له في موضوع القرآن أو في صميم رسالته، فإنه كتاب هداية وإرشاد، ومن ثم فهو يكتفي من القصة والوقائع التاريخية الصحيحة بالقدر الذي يستخلص منه العبرة، ويقتضيه المقام، ومن ثم فههدف قصة موسى في القرآن، كههدف غيرها، ليس التاريخ لهما، وإنما عبرا تفرض الإفادة بما حل بالسابقين.

وعلى أي حال، فإن أهم الآراء التي دارت حول تاريخ الخروج خمسة، أولها رأي يذهب أصحابه إلى أن الخروج إنما تم أثناء طرد الهكسوس من مصر على أيام أحمس الأول، حوالي عام 1575 ق. م، و ثانيهما أنه تم على أيام تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) أو ولده أمنحتب الثاني (1436-1413 ق. م)، و ثالثها أنه تم في أعقاب أيام إخناتون (1367-1350 ق. م)، وربما في الفترة ما بين موت إخناتون و توليه حور محب العرش حوالي عام 1335 ق. م، و رابعها أنه تم على أيام رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م)، و خامسها أنه على أيام ولده «مرنبتاح» (1224-1214 ق. م)، فإذا كان هذا الرأي صحيحا، وهذا ما

ص: 233

نميل إليه ونرجحه، فإن الخروج لا بد وأن يكون في العام الأخير من حكم مرنبتاح، سواء أكان هذا العام العاشر من الحكم (حوالي عام 1214 ق. م) أو العام الثامن من الحكم (حوالي عام 1216 ق. م)، على خلاف في الرأي، وذلك لأن التوراة (1) و القرآن العظيم إنما يقولان إن الفرعون قد غرق في البحر، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة الفرعون قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه (2)، على أن هناك آراء أخرى، ذهب أولها إلى أن الخروج تم على أيام «سيتي الثاني»، وذهب ثانيها إلى أنه كان في نهاية الأسرة التاسعة عشرة، وأما ثالث الآراء فقد تأخر به إلى ما بعد عهد رعمسيس الثالث، ثاني ملوك الأسرة العشرين، الأمر الذي سنناقشه بالتفصيل في الفصل الثالث (فرعون موسى) من هذا الباب الثاني.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوصول إلى تاريخ محدد، على وجه اليقين أو حتى على وجه التقريب، أمر في غاية الأهمية من الناحيتين التاريخية والدينية، فأما من الناحية التاريخية، فلعلنا نستطيع، عن طريق معرفتنا لتاريخ الخروج، أن نعرف وقت دخول بني إسرائيل فلسطين، وبالتالي بداية التاريخ الإسرائيلي، ذلك لأن تاريخ بني إسرائيل كشعب، لا يبدأ إلا بالخروج من مصر، وأما من الناحية الدينية، فإننا نستطيع أن نعرف بداية ظهور اليهودية، ذلك أننا إذا عرفنا فرعون مصر الذي خرج اليهود في عهده من مصر، فإننا نستطيع، اعتماداً على وضوح التاريخ المصري على أيام الفراعين، أن نحدد عصر موسى عليه السلام، ذلك العصر الذي يعتبر واحداً من أهم الأعصر في تاريخ البشرية الديني، لأنه العصر الذي ظهرت فيه أولى الديانات السماوية الثلاثة الكبرى المعاصرة، اليهودية والمسيحية والإسلام.

ص: 234

1- خروج 14/26-31، 15/1-5، الرسالة إلى العبرانيين 15/29.

2- سورة يونس: آية 90-92.

ولعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نعرف البداية المؤكدة للمسيحية والإسلام، عن طريق معرفتنا لتاريخ نبييهما الكريمين سيدنا عيسى و سيدنا
و مولانا محمد رسول الله، صلوات الله وسلامه عليهما، فأما المسيح عليه السلام، فقد ولد على أيام أول قياصرة روما «أوغسطس» (27 ق.
م-14 م)، وأيام «هرودوس الكبير» (37-4 ق.م) أو ولده «إرخيلاوس» (4 ق.م-6 م) حاكمي اليهودية من قبل الرومان، وعلى أيام
«الحارث الرابع» (9 ق.

م-40 م) ملك الأنباط، هذا و يذهب البعض إلى أن المسيح ولد ما بين عامي 6، 2 قبل الميلاد، بينما رأى آخرون أنه ولد عام 5 ق.م، أو
أوائل عام 4 ق.م، أما الاحتفال بمولده في 25 ديسمبر، فقد بدأ في القرن الرابع الميلادي، و من ثم فر بما كان مولده في 25 ديسمبر عام 5
ق.م، و هذا يجعله سابقا للتاريخ الذي وضعه «ديونيسيوس» في 25 ديسمبر عام 1 م، بخمس سنوات، على أن هناك من يراه قد ولد في عام
4 م، وأنه رفع إلى السماء في عام 27 م، وربما في 23 مارس عام 29 م، على أن هناك من يرى المسيح بدأ دعوته، و قد ناهز الثلاثين من
عمره في عهد الإمبراطور «تيبريوس» (14-37 م) (1).

و أما المولد النبوي الشريف لمولانا و سيدنا وجدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه و آله و سلم، فقد كان، طبقا للمصادر الإسلامية، في
عام الفيل (2).

ص: 235

1- قاموس الكتاب المقدس 684/2، ه. ج. ويلز: تاريخ العالم- القاهرة 1967 ص 172، 416، فيليب حتى: المرجع السابق 311/1-
312، 363، محمد بيومي مهران: إسرائيل 359/1، 1145/2، و كذا ehT، suhpsoJ و كذا، 6، 4، suhpsoJ، seitiuqtnA، VIX،
8، raW hsiweJ، I، IIIX، 8، 3، 5، VX.

2- تاريخ الطبري 155/2-157، ابن كثير: البداية و النهاية 259/1-363، سيرة ابن هشام 158/1-159، دلائل النبوة للبيهقي، عماد
الدين خليل: دراسة في السيرة ص 37، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم 388/1-410 (الرياض 1980).

غير أن عام الفيل نفسه غير معروف على وجه التحديد (1)، و الأمر كذلك إلى من يروونه يتفق و موقعه «ذي قار» (2)، و من ثم فقد اعتمد العلماء على تاريخين محققين من السيرة النبوية الشريفة، لتحقيق المولد النبوي الشريف، وهما: تاريخ الهجرة في عام 622 م، و تاريخ الانتقال إلى الرفيق الأعلى في عام 632 م، و مع ذلك لم يصل العلماء، إلى نتائج مؤكدة.

و على أية حال، فإن «جوستاف لوبون» يرى أن مولد المصطفى صلى الله عليه و سلم إنما كان يوم 27 أغسطس عام 570 م، بينما يتأخر به «كوسان دي برسيفال» يومين، فيراه في 29 أغسطس 570 م، و أما محمود باشا الفلكي فقد حدد لمولد مولانا و سيدنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم 9 ربيع الأول، الموافق 20 أبريل عام 571 م، و يتفق معه في ذلك «سلفستر دي ساسي»، و الحق أن الإمام السهيلي (1114 - 1185 م) قد سبق كلا من الفلكي و سلفستر في تاريخهما للمولد النبوي الشريف بيوم 20 أبريل (نيسان)، على أن المترجمين لحياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم إنما يجمعون على أنه ولد يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل، و يذهب جمهور كبير من العلماء على أن هذا التاريخ يوافق العام الثالث و الخمسين قبل الهجرة، أي عام 571 م، و أما الانتقال إلى الرفيق الأعلى فقد كان يوم 12 أو 13 ربيع الأول عام 11 هـ، الموافق 7 أو 8 يونيو عام 632 م، بعد أن بلغ صلى الله عليه و سلم 63 عاما قمريا بالكامل، أي أكثر من واحد و ستين عاما شمسيا، بحوالي شهر و أكثر من نصف الشهر، روى البخاري و مسلم و الترمذي عن ابن عباس أنه قال: مكث النبي صلى الله عليه و سلم بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، و بالمدينة عشرا، و توفي و هو ابن ثلاث و ستين سنة (3).

ص: 236

- 1- تتراوح تقديرات العلماء فيما بين أعوام 552 م، 563 م، 570 م، 571 م.
- 2- أنظر: محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص 594-597.
- 3- محمود الفلكي: التقويم العربي قبل الإسلام ص 38، محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص 22، و انظر: صحيح البخاري 6/19، صحيح مسلم 15/99-104 (بيروت 1981) و كذا P, emsimalstI'L tnava sebarA ed egA, snenammaL .P, I 283. P, temohaM ed melporP eL, erehcalB. R 15. P, sed erioticsiH'L rus iassE, lavecneP ed nissuC .dammahoM 209

التف بنو إسرائيل حول موسى عليه السلام في مصر، لا كنبى، وإنما كقائد يرجي على يديه الخلاص من استعباد المصريين، وبدأ موسى مسيرة الخروج، و معه بطانة من السحرة المصريين الذين آمنوا به و صدقوه، بل كما وصفهم القرآن الكريم **أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**، هذا فضلا عن الإسرائيليين و من لاذ بهم ممن آمنوا بموسى و دعوته، و كانت بداية المسيرة من مدينة «بي رعمسيس» مقر الفرعون و عاصمة الإمبراطورية المصرية وقت ذاك، و التي قام جدل طويل بين العلماء حول موقفها، و إذا كان صحيحا ما ذهبنا إليه من دراسات سابقة لنا، فإنها تقع مكان قرية «قنتير»، على مبعدة 19 كيلا إلى الجنوب من صان الحجر، و على مبعدة 9 كيلا إلى الشمال الشرقي من فاقوس شرقية (1).

و على أية حال، فلقد ارتحل بنو إسرائيل من «بي رعمسيس».

(رعمسيس في التوراة) إلى سكوت (2)، و كان عددهم، فيما تروي التوراة،

ص: 237

- 1- محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث- الإسكندرية 1969 ص 46-62، إسرائيل 1/ 439-443.
- 2- سكوت: مكان غير معروف الآن بالضبط، و لكنها تقع في الإقليم الثامن من أقاليم الدلتا، و كان يسمى «واع إيب» أو «نفر إيب» و يقع في نهاية الدلتا الشرقية بين وادي طميلات و البحر الأحمر، و يذهب البعض إلى أن سكوت هي تل المسخوطة على مبعدة 15 كيلا شرقي الإسماعيلية و من يرى أنها «بيثوم» (فيثوم) (بر أتوم) و هي تل سليمان على مبعدة 3 كيلا من غربة أبو سعيد، قريبا من القصاصين، و على مبعدة 13 كيلا- غربي تل المسخوطة، أو هي التل الكبير على مبعدة 49 كيلا غربي الإسماعيلية، و من يرى أنها «ثكو» عند المصريين القدامى على مبعدة 10 كيلا- من قنتير، و إن رأى فريق رابع أن ذلك أمرا يحتمل الكثير من الشك، (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الإسكندرية 1984 ص 172-173).

نحو ستمائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد (1)، وقد تابع بعض المؤرخين و المفسرين (2) التوراة في ذكر تلك الأرقام، التي أثارت جدلا بين العلماء حول صحتها، ذلك لأن رقم (600 ألف) إنما يصل بيت يعقوب، و الذين كانوا سبعين نفسا يوم دخلوا مصر على أيام يوسف (3) منذ 215 عاما، طبقا للترجمة السبعينية (4) للتوراة، أو ضعف هذا الرقم طبقا لرواية التوراة العبرية، يصل بهم الآن، و عند الخروج من مصر، إلى ما يزيد عن المليونين، وربما الثلاثة، تقول التوراة: كان من بينهم «نحو ست مائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبقار الذكور، من ابن شهر فصاعد، اثنين وعشرين ألفا و مائتين و ثلاثة و سبعون (5)»، فإذا ضاعفنا هذا الرقم كان الأبقار من الجنسين قرابة 45 ألفا.

و من ثم فقد رفض كثير من العلماء هذه الأرقام، و إن قبلها آخرون، بينما حاول فريق ثالث إيجاد تفسير آخر لهذه الأرقام و من ثم فقد ذهب «فلند

ص: 238

1- خروج 37/12.

2- أنظر: تاريخ الطبري 404/1، تاريخ ابن خلدون 94/1، الكامل لابن الأثير 106/1، البداية و النهاية لابن كثير 270/1، تاريخ اليعقوبي 36/1، مروج الذهب للمسعودي 61/1، تفسير روح المعاني 270/1، تفسير الدر المنثور 84/5، تفسير أبي السعود 244/6، ثم قارن ذلك بما جاء في تفسير النسفي (60/3) حيث جعل بني إسرائيل سبعين ألفا فقط، و أن فرعون ركب إليهم في ستمائة ألف، هذا و قد جاء في تفسير السيوطي (85/5): روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: كان أصحاب موسى الذين جاوزوا البحر اثني عشر سبطا، فكان في كل طريق اثني عشر ألفا، كلهم ولد يعقوب عليه السلام.

3- تكوين 26/46-27.

4- أنظر عن الترجمة السبعينية للتوراة: محمد بيومي مهران: إسرائيل 107/3-112.

5- خروج 32/12، عدد 43/43، و انظر: عصام الدين حفني ناصف: محنة التوراة على أيدي اليهود- القاهرة 1965 ص 35.

رزبيري» إلى القول بأن الألف إنما تعني الأسرة و الجماعة أو العشيرة أو الخيمة، و على ذلك فإن 400 و 54 مثلا لا تعني إن هناك 54400 شخصا، و إنما تعني (54) عشيرة، عدتها (400) فردا، ثم يفترض «بيري» بعد ذلك أن الخيمة الواحدة كانت تضم في المتوسط تسعة أفراد، هم الجددين و الوالدين و ثلاثة أطفال، فضلا عن اثنين من الرعاة أو التابعين من الجمهور المختلط الذي صعد معهم، و هذا على اختلاف بين القبائل، فالقبيلة الفقيرة كانت تضم خيامها خمسة أفراد و ثلاثة أطفال، بينما تضم القبيلة الغنية أطفالا أكثر، ثم يقترح «بيري» بعد ذلك أن المجموع الكلي كان 5550 (خمسة آلاف و خمسمائة و خمسون شخصا) و بهذا يمكن لموسى عليه السلام أن يحكم في كل الخصومات التي تشب بين حوالي ستمائة خيمة أو مجموعة، لأن الفصل بين ستمائة ألف رجل جد محال (1).

هذا فضلا عن أن هناك قابلتين، هما شفرة و فوعة (2)، كانتا تقومان بمساعدة نساء بني إسرائيل في مصر أثناء الوضع، و ربما كان مقر الواحدة منهما في مدينة «بي رعسيس»، و الأخرى «فيثوم» (بر أتوم)، و هو أمر مقبول بالنسبة لمجموعة تعدادها ستة آلاف، و مواليدها بمعدل مولود كل أسبوع (3)، أضف إلى ذلك أننا لو أخذنا الرقم الأكبر، و هو ستمائة ألف، فهذا يعني 140 مولودا في كل يوم، و هو أمر جد محال بالنسبة لأية قابلة (4)، هذا فضلا عن أننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبقار لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية كانت تلد زهاء 65 وليدا، و هذا أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلا عما تعرضوا له من ذل و عسف تحت رؤساء التسخير، و لا مع ما روى من عبورهم البحر في

ص: 239

1- , 1925 , 42- 44 . P. F. M. W 44- 42. p. 1925 , -1 .nodnoL, learsI dna tpygE, cirteP.

2- خروج 15 / 1.

3- . 44 - 46 . P. F. M. W 46- 44 . p, tic- po, eirteP.

4- نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم 3 / 388.

سويغات قصار، و من ثم فإن علماء اللاهوت و المؤرخين سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية، و يعتبرونها محض خيال إسرائيلي (1).

و على أية حال، فإن التوراة تروي أن الرب كان يعلم ما في الإسرائيليين «من صغر النفس و من العبودية القاسية»، و أنهم لم يصبحوا بعد أكفاء لدفع ثمن الحرية، أو حتى جادين في الخروج من مصر، حرصا منهم على حياة، و تقاعسا عن جهاد، و خوفا من موت، و من ثم فإنه لم يهدمهم إلى أقرب الطرق إلى كنعان، مع أنها قريبة، «لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا و يرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب في طريق بحر سوف (2)»، و ربما كان السبب أن لا يمروا بجوار الحصون المصرية التي كانت تحمي البلاد من غارات البدو، و بخاصة عند «ثارو» (و هي تل أبو صيفة الحالي في مجاورات القنطرة شرق) و قد علمنا من نص موظف الحدود، و يرجع إلى العام الثامن من عهد مرنبتاح، كيف كانت سلطات الأمن تسيطر سيطرة كاملة على حركات الناس و البدو في تلك البقاع من تخوم مصر الشرقية (3).

و هكذا ارتحل بنو إسرائيل من سكوت، و نزلوا في «إيثام» في طريق البرية، ثم كلم الرب موسى قائلا «كلم بني إسرائيل أن يرجعوا، و ينزلوا أمام فم الحيروث، بين مجدل و البحر، أمام بعل صفون، مقابله تنزلون عند البحر (4)».

ص: 240

1- عصام الدين حفني ناصف: المرجع السابق ص 35، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 73، و كذا، I, HAC ni, lears, II, fo esiR ehT, kooC. A. S 358. p, 1931.

2- خروج 17/13-18.

3- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/415-416، و كذا، G. H. A, renidra, E, naitpy, B. H. J, detsaer, ERA, و كذا. P, TENA, nosli, W. J 259- 258 و كذا، 636-638, III, rammar, G 77- 76. p. 1966. oN,

4- خروج 13/20، 1/14-2.

علم فرعون أن بني إسرائيل قد فروا بليل، وأنهم قد أخذوا معهم (1) ما

ص: 241

1- جاء في التوراة في ختام قصة يوسف عليه السلام أنه أوصى عند موته أن يحمل بنو إسرائيل عظامه معهم حين يخرجهم الرب من مصر إلى الأرض التي وعدهم بها (تكوين 24/50-26) وأخرج أبو يعلي والحاكم بسنده عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أَعْجَزَ تَمَّ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: إِنْ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ مَا هَذَا؟ فَقَالَ عِلْمَاؤُهُمْ نَحْنُ نَحْدُثُكَ، إِنْ يُوسُفَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ عِلْمَ مَوْضِعِ قَبْرِهِ، قَالُوا: مَا نَدْرِي أَيْنَ قَبْرِ يُوسُفَ إِلَّا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَبَعَثْنَا إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دَلُونِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ:، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَعْطِينِي حَكْمِي، قَالَ: وَ مَا حَكْمُكَ، قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهَا حَكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بَحِيرَةٍ مَوْضِعِ مَسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: انْضُبُوا هَذَا الْمَاءَ فَانْضُبُوا، قَالَتْ: احْفَرُوا وَ اسْتَخْرَجُوا يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقْلَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَارِ» (محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة بيروت 1403 هـ، حديث رقم 313). وَ تَذَهَبُ رِوَايَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ اللَّهَ حِينَ أَمَرَ مُوسَى بِالْمَسِيرِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَمَرَهُ أَنْ يَحْتَمِلَ يُوسُفَ مَعَهُ حَتَّى يَضَعَهُ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَسَأَلَ مُوسَى عَمَّنْ يَعْرِفُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ، فَمَا وَجَدَ، إِلَّا عَجُوزًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَتْ: يَا بَنِي اللَّهِ: أَنَا أَعْرِفُ مَكَانَهُ، إِنْ أَنْتَ أَخْرَجْتَنِي مَعَكَ وَ لَمْ تَخْلُفْنِي بِأَرْضِ مِصْرَ دَلَلْتُكَ عَلَيْهِ، (وَ أَضَافَتْ رِوَايَةُ الْخَازِنِ: أَلَّا يَنْزِلَ مُوسَى غُرْفَةً مِنْ غُرْفِ الْجَنَّةِ إِلَّا نَزَلَتْهَا مَعَكَ، فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، بَعْدَ أَنْ سَأَلَ رَبَّهُ، فَقَالَتْ: هُوَ فِي (النَّيْلِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ) فَخَرَجَتْ بِهِ الْعَجُوزُ حَتَّى أَرَتْهُ إِيَّاهُ فِي نَاحِيَةِ مِنَ النَّيْلِ فِي الْمَاءِ، فَاسْتَخْرَجَهُ مُوسَى صَنْدُوقًا مِنْ مَرْمَرٍ، فَاحْتَمَلَهُ مَعَهُ، قَالَ عُرْوَةَ: فَمَنْ ذَلِكَ تَحْمِلُ الْيَهُودُ مَوْتَاهَا مِنْ كُلِّ أَرْضٍ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ (تاريخ الطبري 419/1، الكامل لابن الأثير 105/1، تفسير الخازن 57/1-58، تاريخ يعقوبي 35/1).

أعاره المصريون لهم من الأمتعة والذهب والفضة (1) وطبقا لرواية التوراة، فلقد تغير قلب فرعون و ملئه على بني إسرائيل، «وقالوا: ما ذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا (2)»، وهنا لم يجد الفرعون مناصا من أن يلحق بالفارين حتى يعيد ما سرقوه، إن لم يردهم إلى ما كانوا عليه من ذل العبودية، أو يفتك بهم ويستأصل شأفتهم من البلاد، و من ثم فقد أمر بما يسمى في عصرنا الحاضر «التعبئة العامة»، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون الجند، وإن كان هذا الجمع، كما يقول صاحب الظلال، قد يشي بانزعاج فرعون، و بقوة موسى و من معه و عظيم خطرهم، حتى ليحتاج الملك بزعمه، إلى التعبئة العامة، و لا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين إنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَ إِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِطُونَ، وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ، مستيقظون لمكائدهم محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور، قال الزمخشري: و هذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يظن به ما يكسر من قهره و سلطانه (3).

و تقول التوراة: و شدد الرب قلب فرعون حتى سعى وراء بني إسرائيل، و أدركتهم جميع خيل مركبات فرعون و فرسانه و جيشه، و هم نازلون عند البحر، و رأى بنو إسرائيل الخطر الزاحف من خلفهم، و هو يقترب منهم، فتملكهم الذعر و الخوف، و أيقنوا أنهم هالكون، و صاحوا

ص: 242

1- خروج 35/12-36، و انظر: تاريخ الطبري 1/413-414، تفسير الخازن 1/57، الدر المنثور 5/84، ابن الأثير 1/106.

2- خروج 5/14.

3- سورة الشعراء: آية 52-56، في ظلال القرآن 5/2597-2598، تفسير الكشاف 3/248.

بموسى «ما ذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر، قائلين: كف عنا فنخدم المصريين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية» (1)، و يصبح موسى عليه السلام في مأزق حرج، فقد كانت بحيرة البوص على يمينه، و حصن مجدل، بما فيه من حامية، أمامه، سادا الطريق من جهة الشمال، و على يساره مستنقعات فرع النيل البيلوذي، و خلفه الفرعون و قواته الضاربة، و هكذا وقف موسى و قومه أمام البحر، ليس معهم سفن، و لا هم يملكون خوضه، و ما هم بمسلحين، و قد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم و لا يرحمون، و قالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر و البحر أمامهم، و العدو خلفهم (2)، و هنا صاح بنو إسرائيل: «إنا لمدركون»، و قالوا يا موسى: أودينا من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا و يستحيون نساءنا، و من بعد ما جئنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، إنا لمدركون البحر من بين أيدينا، و فرعون من خلفنا، و في).

ص: 243

1- خروج 8/14-12.

2- في ظلال القرآن 2598/5، محمد بيومي مهران: إسرائيل 450/1. تذهب روايات المفسرين و المؤرخين إلى كثير من المبالغة، بل الخيال، في تقدير أعداد جيش فرعون، فتذهب رواية إلى أن فرعون تبع بني إسرائيل في ألف ألف (مليون) و قيل في ألف ألف و سبعمائة ألف حصان (مليون و سبعمائة ألف) و تذهب أخرى إلى أنهم مليون و ستمائة ألف، و تذهب رواية ثالثة إلى أنهم مليون و مائة ألف، و تذهب رابعة إلى أنهم مليون و خمسمائة ملك، مع كل ملك ألف، و خرج فرعون في جمع عظيم، و كانت مقدمته سبعمائة ألف فارس، و تذهب رواية خامسة إلى أن فرعون كان في سبعة آلاف (7 مليون) و كان بين يديه مائة ألف ألف ناشب، و مائة ألف ألف حراب، و مائة ألف ألف معهم الأعمدة، و بدهي أن سكان مصر جميعا وقت ذاك، ربما لم يبلغوا هذا العدد، ثم إننا حتى لو صدقنا مبالغات التوراة و من تابعها من المفسرين عن أعداد بني إسرائيل وقت الخروج، فإن عددهم (ستمائة ألف غير الأولاد و الشيوخ) لا يتطلب بحال من الأحوال هذه الملايين من جنود مصر، لمطاردتهم، ثم كيف تمكن فرعون من جمع هذه الملايين من الرجال و الخيل من كل أنحاء مصر، حين علم فجأة بخروج بني إسرائيل، و راءهم مطاردا، و ربما كان أقرب إلى الصواب ما قاله الإمام النسفي «فخرج موسى ببني إسرائيل من أول الليل، و كانوا سبعين ألفا، و قد استعاروا حليهم، فركب فرعون في ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم (تفسير الطبري 275/1-279، تفسير الخازن 58/1، الدر المنثور 84/5، تفسير أبي السعود 244/6، تفسير النسفي 60/3، تفسير البغوي 58/1، تاريخ الطبري 414/1-415، ابن كثير: البداية و النهاية 270/1، تاريخ يعقوبي 36/1، ثم قارن خروج 5/14-9).

رواية قالوا يا موسى: أين ما وعدتنا، فكيف نصنع، هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا، و البحر أمامنا إن دخلناه غرقنا (1).

وهكذا سدت السبل أمام بني إسرائيل، ولم يجد موسى عليه السلام من وسيلة لإيقادهم سوى طلب العون والرحمة من الله، ومن ثم فهو يصبح في وجوه الخائفين الفرعين من أتباعه «إن معي ربي سيهدين»، قال الرازي:

قوى نفوسهم بأمرين أحدهما أن ربه معه، وهذا دلالة النصر والتكفل بالمعونة، والثاني قوله «سيهدين» أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دل على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصر، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال:

يا من كان قبل كل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجا، فأوحى الله أن اضرب بعصاك البحر (2)، وهنا تحدث المعجزة الكبرى، إذ أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فأنفلق فكان كل فرقة كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (3).

ولعل سؤال البداهة الآن: أين ومتى وكيف تم انغلاق البحر لموسى عليه السلام؟

ص: 244

1- تاريخ الطبري 415/1، تفسير الخازن 58/1.

2- تفسير الفخر الرازي 138/24 نختصر تفسير ابن كثير 648/2.

3- سورة الشعراء: آية 63-67.

قام جدل طويل بين العلماء حول تحديد هذا البحر الذي انغلق لموسى عليه السلام، فهو البحر الأحمر، في رأي التوراة، و هو بحيرة المنزلة أو جزء منها، في رأي آخر، و هو المنطقة التي كان يطلق عليها في العصور الهلينستية و الرومانية «بحر سربونين» (aeS nainobriS) أي «سبخة البردويل» في رأي ثالث، أو هو النهاية الشمالية لخليج السويس، في رأي رابع، أو إحدى البحيرات المرة، دونما تحديد لواحدة منها بالذات، في رأي خامس، أو حتى خليج السويس، في رأي سادس (1).

و هو عند المفسرين و المؤرخين المسلمين بحر القلزم (بحر السويس - أي البحر الأحمر و خليج السويس) أو هو عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات، أو هو النيل (أي أحد فروع النيل في الدلتا الشرقية) أو هو بحر «إساف أو ساف» من وراء مصر، فلقد أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن قتادة في تفسير قوله تعالى: فَتَبَدُّنَاهُمْ فِي الْيَمِّ قَالَ: في البحر، بحر يقال له ساف من وراء مصر، أغرقهم الله فيه، بل إن هناك رواية عن ابن عباس جاءت في تفسير الفخر الرازي تذهب إلى أن موسى لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا، إلا يوشع بن نون، فإنه ضرب دابته و خاض في البحر حتى عبر ثم رجع، فأبوا أن يخوضوا، و ربما كان هذا يشير إلى بعض البحيرات و ربما إلى بحيرة المنزلة بالذات (2).

على أن الحماس لإثبات أن البحر الذي انغلق هو البحر الأحمر،

ص: 245

1- , 1975 , 323. p. egdirbmaC ehT 323. p. 1975 , -1. egdirbmaC, 2. traP, III, yrotsiH tneicnA egdirbmaC

2- تفسير الفخر الرازي 139/24، تفسير روح المعاني 1/255، تفسير النسفي 3/185، تفسير الخازن 1/58، تفسير الدر المنثور 5/129، تفسير البيضاوي 4/67، تفسير أبي السعود 4/377، صفوة التفاسير 1/468، تاريخ ابن خلدون 1/94.

وصل بالبعض إلى أن يتعسفوا له الحلول، وأن يتكلفوا النظريات و من هنا قامت نظرية تنادي بأن فرعون قد غرق في البحر الأحمر، مع خلاف على المكان الذي وقع فيه هذا الحادث العظيم، فهناك ما كان يفكر فيه الحجاج المسيحيون القدامى، وهو الطريق الشمالي لخليج السويس، قرب مدينة السويس الحالية (1)، وهناك من يرون أن البحر الأحمر كان يمتد إلى الشمال بعد خليج السويس الحالي، و من هؤلاء علماء الحملة الفرنسية (1798- 1801 م) الذين افترضوا أن خليج السويس كان في العصور اليونانية يمتد شمالا حتى بحيرة التمساح الحالية، ثم جاء «لينان دي بلفون» وقام بدراسة برزح السويس، والمنطقة التي تليها حتى البحر المتوسط في الفترة ما بين عامي 1821، 1840 م، وذهب إلى أن تربة البحيرات المرة قبل أن تملؤها المياه قبل حفر قناة السويس، كانت بها أصداف ونباتات لها مثل على ساحل البحر الأحمر، و من ثم فقد رأى أن مياه البحر الأحمر كانت تغطي هذه الأماكن في فترة غير بعيدة جدا، لا تمتد إلى أبعد من العصور التاريخية (2)، بل وزاد البعض فذهب إلى أن خليج السويس ربما كان في الألف الثانية قبل الميلاد (حيث تم الخروج في أخرياته) ما يزال على اتصال بالبحيرات المرة، بل و مع بحيرة التمساح كذلك، هذا فضلا عن أن بحيرة البلاح إنما كانت على اتصال بالبحر المتوسط، و من ثم فقد كان هناك برزخ ضيق نسبيا بين بحيرة التمساح و بحيرة الملاح، لعل الحادث العظيم كان قد وقع فيه (3).

ويتشكك كثير من العلماء، و منهم جادرنر و كوتمان، فيما قدمناه آنفا،

ص: 246

1- قاموس الكتاب المقدس 1/164، و كذا، 1965، p. 116. M nitraM htoN eht, I fo yrotsiH leartsI, L.nodno.

2- , 10, 1924, p. 36-48. E ni, ellivoN. AEJ.

3- .P, tic- Po, htoN. M 116 .

لعدم وجود أدلة تدعم هذا الرأي (1)، بل إن «مارتن نوث» إنما يذهب إلى أنه ليس هناك شيء مؤكد بالنسبة لهذا الأمر، سوى أن هذا الحادث قد وقع على حدود الدلتا الشرقية، و من المستحيل التحقق من مكان الحادث العظيم بدقة أكثر من ذلك، حتى لو كانت لدينا معلومات صحيحة عن امتداد فروع البحر والبحيرات في منطقة قناة السويس الحالية في الفترة التي وقع فيها هذا الحادث (2).

على أن هناك من يرى أن مكان انغلاق البحر إنما كان إلى الجنوب من مدينة السويس، و من هذا الفريق «روبرتسون» الذي خفض مستوى البحر الأحمر بما يتراوح ما بين خمسة عشرة عقدة، و عشرين عقدة، ليجعل عبوره من قبالة الطور ممكنا، و بذلك يقدم للناس اتساعا معقولا، بين سلسلة الجبال المعروفة باسم جلال الشمالية و الجنوبية (3)، و ربما قريب من هذا ما يراه البعض من أن هناك مكانا في خليج السويس يدعى «بركة قارون» يقولون: إن العبور كان بها، و هي بعيدة عن السويس كثيرا، بينما هناك من يرى أن بني إسرائيل قد عبروا في مكان ما، شمالي المكان المعروف باسم «عيون موسى» في البر الأسيوي، و هو لا يبعد كثيرا عن مدينة السويس (4).

هذا و يرى فريق من العلماء في نص التوراة «كلم بني إسرائيل أن يرجعوا و ينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل و البحر، أمام بعل صفون، مقابلة تنزلون عند البحر» (5)، بعض الإشارات الموجزة، و التي تعتبر واضحة

ص: 247

1- .P, tic- po, ellivoN. E 36 .

2- .P, tic- po, htoN. M 115 .

3- سليم حسن: مصر القديمة 7 / 128 .

4- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 203 .

5- خروج 2 / 14 .

بما يكفي للقول بأنها تخص منطقة كان يطلق عليها في العصور الهلينستية والرومانية «بحر سربونين» (أي سبخة البردويل الحالية)، ولكن رغم أن الإشارة دقيقة، فإنها موجودة فقط في النص الكهنوتي (1)، وربما كانت تصور مجهودا متأخرا، لوضع الحادث العظيم والحاسم في مكان يتفق والوضع التقليدي للأحداث التاريخية، ذلك لأن أقدم رواية في «البناتوك» (2) تبدو وكأنها على غير دارية بمثل هذا المكان المحدد بدقة، والذي لم نتوصل إليه حتى الآن، وإن أشير فقط، وبغموض، إلى مكان «على البحر» (3).

هذا ويذهب فريق من الباحثين إلى أن المراد بالبحر هنا «بحيرة المنزلة أو جزء منها»، على أساس أن ترجمة «يم سوف» بالبحر الأحمر، ترجمة خاطئة، والصحيح «بحيرة البوص أو القصب»، ذلك لأن كلمة «يم» ما تزال تعيش في لغتنا العربية، ونفهم أن من معناه «الماء»، و أما قديما فكانت تطلق على فروع النيل، وأما كلمة «سوف» فهي كلمة دخلت في اللغة العبرية من اللغة المصرية القديمة، وتعني «البوص» وهو نبات يكثر وجوده في المياه الضحضاحة عند مصبات الترع والمصارف العامة، وفي بحيرة المنزلة، قبالة «قنتير» (وهو مدينة بي رعمسيس التي بدأ منها الخروج) بصفة خاصة، ولما كان هذا النبات الذي تمتد فروعه كالسيوف ينمو بكثرة، وبارتفاع عظيم، في هذه الجهة، وكانت بلاد مصر، ولا سيما العاصمة «بي رعمسيس» (قنتير) تأخذ منه حاجتها، وكانت كلمة «البردي» التي أطلقت عليه من بعد لم تعرف وقت ذلك، لأنها لم تظهر في اللغة المصرية القديمة، إلا في عهد الدولة

ص: 248

1- أنظر عن: النص الكهنوتي وغيره من مصادر التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية 1979 ص 97-106).

2- أنظر عن «البناتوك» (محمد بيومي مهران: إسرائيل 32/3، 136).

3- .P, tic- po, htoN. M 116- 115 . و كذا 2، 1975، p. 323. traP, III, HAC

الحديثة، فقد عرفت مصر القديمة هذه البحيرة باسم «يم سوف» (1) وليس هناك من ريب في أن النصوص المصرية مليئة بالإشارات إلى مستنقعات القصب في مجاورات «صوعن» (تانيس) أو مستنقعات البردي في شرق الدلتا، وهكذا يتضح لنا أن المعنى من كلمة «سوف» التي جاءت في الأصل العربي، و ترجمت في التوراة إلى «بحر سوف» فإن معناها العبري هو «بحر القصب»، و الذي ترجم خطأ إلى «البحر الأحمر»، و هو لا يعني شيئاً سوى «بحيرة المنزلة» إن لم يكن جزء منها، بخاصة و أن مدينة «بي رعمسيس» هي «قنتير» الحالية، و ليست «تانيس»، كما يعتقد بعض الأثريين من قبل (2).

هذا فضلاً عن أن «اليم» في اللغة العربية «البحر أو النهر»، و هو كذلك في اللغة المصرية القديمة، إذ «اليم» لفظة سامية عرفت في اللغة المصرية القديمة منذ الأسرة الثامنة عشرة، حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد، و كان المصريون يطلقون على البحر و النهر، و ما اتسع من لج الماء لفظة «أليم»، و منه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة «فاء التعريف» في المصرية إليه (و كانت في الدولة القديمة تدعى تاحت إن مرور)، على أن الذي يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد في القرآن الكريم ثماني مرات (3)، لم يذكر في أحد ما غير ما يخص مصر، ليس غير، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثاً، و أطلق على البحر الذي غرق فيه فرعون أربعاً، و الثامنة بشأن عجل السامري، فكأنما يشير القرآن الكريم إلى موضع معلوم، كما يدعوه أهله

ص: 249

1- سليم حسن: المرجع السابق ص 129، ألكار السقاف: إسرائيل و عقيدة الأرض الموعودة- القاهرة 1967 ص 196.
2- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 46-62، و كذا. p, II, tpygE fo retpecS ehT, و كذا. W seyaH. و كذا، 11، 1952، 433- 559. L, EASA, ihcabaH. L 30، 1930، 31- 68. M, EASA, azmaH. و كذا 256.

3- سورة الأعراف: آية 136، طه: آية 39، 39، 78، 97، القصص: آية 7، 40، الذاريات: آية 40.

باسمه المعلوم (1)، هذا ورغم أن كثيرا من المفسرين يرون أنه بحر القلزم، يعنون بذلك البحر الأحمر، غير أن طائفة منهم ترى أنه النيل، و لعلهم يعنون أحد فروع النيل، و يرون أن العرب كانت تسمي الماء و الملح و العذب بحرا، إذا كثر، هذا إلى أن فريقا ثالثا ذهب إلى أنه بحر ساف (بحر سوف)، بل إن الإمام الفخر الرازي روى عن ابن عباس أن يوشع بن نون ضرب دابته و خاض في البحر حتى عبر ثم رجع (2)، كما رأينا من قبل، و بدهي أن يوشع لا يمكنه أن يخوض البحر الأحمر بدابته، و من ثم فربما هذه الرواية قد تشير إلى مكان آخر، غير البحر الأحمر، و ربما كانت بحيرة المنزلة.

هذه هي الآراء المختلفة التي دارت حول مكان انغلاق البحر لموسى عليه السلام، و كل منها له مؤيدوه و معارضوه، و من ثم فإنني لا أستطيع أن أجزم بمكان بعينه انغلاق فيه البحر لموسى، ما دمنا لا نملك نصا صريحا واضحا، و كل ما قدمناه إنما هو اجتهادات، و فوق كل ذي علم عليم، و الله وحده يعلم الغيب من الأمر، و هو وحده العليم بكل شيء.

[2] تاريخ انغلاق البحر:-

في الواقع أن تاريخ انغلاق البحر لموسى عليه السلام، إنما يتصل بتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، و غرق فرعون و جنده، و نجاة موسى و من معه، و هذا ما سوف نناقشه بالتفصيل عند حديثنا عن «فرعون مصر»، و هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب، و يكفي أن نشير الآن إلى أننا نرجح أن فرعون موسى إنما هو «مرنبتاح» (1224 - 1214 ق. م)، على أن يكون تاريخ الخروج و غرق الفرعون في العام الأخير من حكمه، ذلك لأن

ص: 250

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 87.

2- تفسير الفخر الرازي 4/139، تفسير روح المعاني 1/255، تفسير النسفي 3/185، و انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/446-449.

التوراة والإنجيل والقرآن العظيم إنما تجمع كلها على أن الفرعون قد غرق في البحر عند ما أراد اللحاق ببني إسرائيل (1).

والقرآن العظيم لا يحدد زمنا بعينه للحدث الجلل، ذلك لأن التحديد التاريخي، كما هو معروف، ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية و لا تزيد في دلالتها شيئا، وأما الحديث النبوي الشريف، فليس فيه، على قدر ما أعلم، سوى أن الحادث الجليل إنما كان يوم عاشوراء، فلقد روى البخاري و مسلم و النسائي و البيهقي عن ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه و سلم المدينة، و اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي صلى الله عليه و سلم لأصحابه: و أنتم أحق بموسى منهم فصوموه» و أخرج أبو يعلي و ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: فلق البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء»، و أخرج الإمام أحمد و البخاري و مسلم و النسائي و ابن ماجه، من طرق، عن ابن عباس أنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومون، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز و جل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم «أنا أحق بموسى منكم، فصامه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أمر بصومه» (2).

و أما التوراة فلا تذكر إلا أن الخروج حدث في شهر أبيب (3)، و هو

ص: 251

1- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 413-436.

2- تفسير الدر المنثور 1/ 69، تفسير النسفي 2/ 73، تفسير الخازن 1/ 59، تفسير ابن كثير 1/ 138، 2/ 667-668، صحيح البخاري 3/ 56، 57، 91/6، صحيح مسلم 8/ 9-10، مسند أحمد 1/ 292، 310، مجمع الزوائد 3/ 188، المطالب العالمية ص 3467، تفسير القرطبي ص 333.

3- خروج 4/13.

الشهر قبل الأخير من شهور السنة المصرية القديمة، (المعروفة خطأ بالشهور القبطية)، و ليس العبرية، غير أن اليهود إنما يحتفلون بخروجهم من مصر في عيدهم الأكبر، في الشهر الأول من السنة العبرية، شهر أيب (نيسان- أبريل)، و يبدو أن الطريقة القديمة للتقويم العبري تجعل بدء السنة في الربيع، وربما كان بدء التاريخ هو قصة خروج بني إسرائيل من مصر، في الفترة التي يقع فيها عيدهم الأكبر «عيد الفصح» حيث يتم الاحتفال به بين العشاءين (أي بين المغرب و العتمة) في ليلة الرابع عشر من أبريل (1).

[3] معجزة انغلاق البحر:-

رأينا من قبل كيف أحاط فرعون بقواته الضاربة ببني إسرائيل، و كيف تملكهم الذعر و الخوف، و أيقنوا أنهم هالكون، و كيف بلغ بهم الكرب مداه، و إن هي إلا دقائق تمر، ثم يهجم الموت و لا مناص و لا معين، و لكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه لا يشك لحظة، و ملء قلبه الثقة بربه، و اليقين بعونه، و التأكد من النجاة، و إن كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بد كائنه، و الله هو الذي يوجهه و يرعاه، «قال كلا إن معي ربي سيهدين»، و هكذا، و في اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس و الكرب، و يفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْتَرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، و هكذا وقعت المعجزة، و انكشف بين فرقي الماء طريق، و وقف الماء على جانبي الطريق كالتود العظيم (2)، و أرسل الله الريح على أرض البحر، فلحفته حتى صار يابساً كوجه الأرض (3)، فلماذا قال: فَأَصْرَبَ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا

ص: 252

1- أنظر: عن التقويم العبري و عيد الفصح (محمد بيومي مهران: إسرائيل- الجزء الرابع- الإسكندرية 1979 ص 153- 163).

2- في ظلال القرآن 5/ 2598-2599.

3- أخرج الطبراني و أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير: أن هرقل كتب إلى معاوية بن أبي سفيان و قال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه، قال و كتب إليه يسأله عن المجرة و عن القوس و عن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة، قال فلما أتى معاوية الكتاب و الرسول، قال هذا شيء ما كنت أوبه له أن أسأل إلى يومي هذا، من لهذا؟ فقالوا: ابن عباس (ابن عم النبي صلى الله عليه و سلم) و طوى معاوية كتاب هرقل و بعثه إلى ابن عباس فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، و المجرة باب السماء الذي تشق منه، و أما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار، فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل (الدر المنثور 1/ 69)، حلية الأولياء 1/ 320).

واقترح بنو إسرائيل البحر الذي صار فيه اثنا عشر طريقا، في كل طريق سبط، وكان الطريق إذ انغلقت بجدران، فقال: كل سبط، قد قتل أصحابنا، فلما رأى ذلك دعا الله فجعلها قناطر كهيئة الطيقان، فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعا، ثم دنا فرعون وأصحابه فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقا، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلب بني إسرائيل، لكنه أظهر لجنوده تجلدا، وقال: ألا ترون البحر فرق مني، وقد تفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، فذلك قول الله وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (2).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة قد اختلفت في تفسيرها للمعجزة الكبرى عن القرآن الكريم، فالتوراة ترجعها إلى ريح شرقية هبت فأزالت الماء وظهرت اليابسة، وحينئذ عبر بنو إسرائيل (3)، ويذهب «روبنسون» إلى أن ريحا شرقية شمالية هبت على هذا الجزء، بدرجة تكفي لطردها من بعض الأماكن، وعلى كل حال، فلقد تغيرت

ص: 253

1- سورة طه: آية 77.

2- سورة الشعراء: آية 64-66، تاريخ الطبري 415/1، البداية والنهاية لابن كثير 272/1.

3- خروج 14/21-31.

المعالم في الصورة الغابرة، بحيث يتعذر معرفة الموضوع بالضبط (1)، وهناك من يرى أن منسوب الماء ما يزال حتى الآن متأثراً بدرجة عظيمة بالرياح في بحيرة المنزللة و البرلس، ويلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس تغطى بالمياه عند ما يهب الهواء غرباً، ثم تصبح جافة عند ما يهب الهواء من الشرق، ويمكن للإنسان أن يسير عليها بالسيارة (2)، وفي أنشودة الاحتفال بهذا الخلاص، نرى كاتب سفر الخروج يعلن عن قدرته الشعرية فيقول:

«بريح أنفك تراكمت المياه، انتصبت المجاري كرابية» (3)، وقد وضعت هذه التقاليد أخيراً في الترجمات النثرية التي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد (4).

ويقول «جراي» رغم أننا لا نستطيع أن ننكر التدخل الإلهي في الخلاص العظيم، فإنه لم يتضمن انغلاق البحر، وأن الأمر إنما تم عن طريق عاصفة ممطرة، بطريقة فجائية غير مألوفة، في مكان ووقت يتناسبان مع إرادة الله، ولم تقدم المعجزة بطريقة خارقة للطبيعة، كما جاءت في التوراة (5)، وإنما بطريقة مطابقة لها تماماً (6).

وأما في القرآن الكريم، فالمعجزة واضحة لا ريب فيها، وذلك حين أوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخريين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (7).

ص: 254

1- قاموس الكتاب المقدس 164/1.

2- سليم حسن: المرجع السابق ص 135.

3- خروج 8/15.

4- .Y. N, ygolohtyM nretsaE raeN eht ni, learsI, yarG. J 107. p. 1969 .

5- خروج 32/12.

6- .P, tic- po. yarG. J 107 .

7- سورة الشعراء: آية 62-67.

و لعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن الله، جلت قدرته، قد أسند فرق البحر إلى ذاته الكريمة، ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه، وهو معهم، بعنايته، وقوله تعالى: فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بَيَانًا لِلْمُنَّةِ الْعَظْمَى التي امتن الله بها على بني إسرائيل، والتي ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر ترتب عليه أمران: أولهما: نجاتهم، وثانيهما إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظيمة، والإيمان الصحيح يقتضي بأن نفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية لموسى عليه السلام، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية، بدون سند و لا دليل (1).

وانطلاقاً من كل هذا، فإننا نرفض ما يذهب إليه البعض من أن انغلاق البحر، إنما كان نتيجة المد والجزر، وبالتالي فتلك علة طبيعية لنظام جغرافي (2). كما نرفض كذلك القول بأن عنصر التهويل قد لعب دوره في القصة حتى أظهرها بهذه الصورة، وأن هناك رواية مشابهة لها قد رددتها التوراة عن يشوع (3)، خادم موسى وفتاه، وعبوره الأردن على ييس (4)، وأن (4).

ص: 255

1- محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة 1/ 459 (القاهرة 1968).

2- , 1969, C 6. p. elpoP hsiweJ eht fo yrotsoH trohS A, htoR.

3- يشوع 10/ 18، 23/ 4-24.

4- تروي المصادر الإسلامية أن الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي كان قد بعثه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك البحرين المنذر بن ساوي فأسلم على يديه وأقام فيهم الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم مات المنذر بعده بقليل، فارتد أهل البحرين، فبعث إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه العلاء بن الحضرمي، ثم حدثت معركة بين المسلمين والمرتدين، انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً، ففر كثير من المرتدين إلى «دارين» بالبحرين، فتبعهم العلاء حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول «يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محي، يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت يا ربنا»، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك و يقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله، يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء، لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى ركب الخيل، ومسيرته للسفن يوم و ليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقاتل عدوه وقهرهم، واجتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبراً، واستاق الذراري والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون شيئاً سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع ذلك رجع العلاء فجاء بها، ثم قسم الغنائم فأصاب الفارس ألفين، والراجل ألفاً، مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، وروى أن راهبا من هجر رأى ذلك فأسلم، وقال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخني الله، لما شاهدت من الآيات (ابن كثير: البداية والنهاية 6/ 369-371، تاريخ ابن خلدون 2/ 505).

و أما سبب رفضنا للآراء السابقة، فذلك لأننا نرى في حادث انغلاق البحر لموسى رأياً آخر، فهو، فيما نعتقد و نؤمن به الإيمان كل الإيمان، أنه معجزة موسى الكبرى، و المعجزة، فيما نعلم، قوى إلهية يعجز البشر عن الإتيان بمثلهما، و الحصول على نظير لها، و لا تأتي إلا في مقام التحدي و الإعجاز، و هي، كغيرها من معجزات الأنبياء، من عمل الله، و لا فضل لأحد فيها سواه سبحانه و تعالى، فليس لنبي يد في هذه الخوارق التي بهرت الناس و فهرت الخلق، و قامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم في أنهم مبلغون عن الله سبحانه و تعالى، و من هنا خاف موسى عليه السلام، حين تحولت عصاه حية تسعى، فولّى مدبراً و لم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه و أمن خوفه، و على هذا الأساس لا يستغرب و لا يستبعد وقوعها ممن لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء (1)، فإنه جل شأنه، كما يقول **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (2)**، هذا فضلاً عن أن المعجزة إنما هي من البراهين العقلية التي تقرر قيومية الله الخالق عز شأنه، و إطلاق قدرته من قيود القوانين و العادات المعلومة في حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية و قوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول، تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية و الأعاجيب الإعجازية، إذا تطلبها أسبابها، و حانت مناسبتها، و الله سبحانه و تعالى فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل (3).

و يقول الإمام الفخر الرازي أن انغلاق البحر لموسى معجزة من

ص: 257

1- أنظر: سورة طه: آية 66-69، النمل: آية 10، القصص: آية 31-32، عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 109.

2- سورة يس: آية 82.

3- محمد الصادق عرجون: معجزة الأنبياء بين العقل و العلم- الإسكندرية 1955 ص 2، ثم أنظر عن المعجزة و شروطها: الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- القاهرة 1969 ص 70-72.

وجوه، منها (أولا) أن تفرق ذلك الماء معجزة، و ثانيا: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن، فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الإعجاز، و ثالثا: أنه إن ثبت ما روى في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الريح والظلمة ما حيرهم، فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل، فهو معجز ثالث، و رابعا: أن الله تعالى جعل في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض، فهو معجز رابع، و خامسا: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون و طمعوا منها آل فرعون و طمعوا أن يتخلصوا من البحر، كما تخلص قوم موسى، فهو معجز خامس (1).

و هكذا نستطيع أن نصل من ذلك كله إلى نتيجة واحدة هي: أن انغلاق البحر لموسى عليه السلام، لا علاقة له ببني إسرائيل فتلك معجزة نبي، كما أن غرق فرعون لم يكن تكريما للإسرائيليين، فتلك عاقبة من أصر على كفر، و لم يؤمن بالله الواحد الأحد، بل و تجاوزه لكل الحدود البشرية، فقال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي (2)، ثم يهدد النبي الكريم قال لئن اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (3)، و أخيرا اندفاعه في العذاب و إسرافه في القتل للمذنب و غير المذنب على سواء، و أما حساب بني إسرائيل فعسير عند الله تعالى، حتى أنه عز و جل، ليكتب على هؤلاء الذين أنجاهم من فرعون أن يتيهوا في الأرض أربعين عاما، ثم يحرم عليهم الأرض المقدسة أبدا (4).

ص: 258

1- تفسير الفخر الرازي 139/24.

2- سورة القصص: آية 38.

3- سورة الشعراء: آية 29.

4- سورة المائدة: آية 21-26، سفر العدد 4/34، أعمال الرسل 7/26، 42.

تحدث القرآن الكريم عن إيمان فرعون حين أدركه الغرق، فقال تعالى: وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، آ لَآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (1).

و الآيات الكريمة تشير إلى أن فرعون حين غشيته سكرات الموت آمن، حيث لا ينفعه الإيمان، و لهذا قال تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال:

آ لَآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَ ذَلِكَ لِأَن التَّوْبَةَ، كما يقول علماء السلف، قبل المرض و الموت، و روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، أي ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به (2).

و يقول ابن السعود في تفسيره: إن فرعون حين أدركه الغرق «قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»، لم يقل كمقالة السحرة «آمنا برب العالمين رب موسى و هارون»، بل عبّر عنه تعالى بالموصول، و جعل صلته إيمان بني إسرائيل به، تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، و اتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا في القبول و الانتظام معهم في سلك النجاة (3)، و قال النسفي إن الآية دليل على إن الإيمان و الإسلام واحد، قال آمنت، ثم قال: و أنا من المسلمين»، كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصا على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ

ص: 259

1- سورة يونس: آية 90-92.

2- مختصر تفسير ابن كثير 2/205، حسن باجودة: التفسير البسيط للقرآن الكريم 4/286 (مكة المكرمة 286، تفسير القرطبي ص 1662.

3- تفسير النسفي 2/174-175.

وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار، أتؤمن الآن في وقت الاضطرار، حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك، وروى الخازن في تفسير عن ابن عباس أنه قال: لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب وقد كان في مهل، وقال العلماء: إيمانه، غير مقبول لأن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين، وقيل إنه قال ليدفع ما نزل به من البلية الحاضرة، ولم يكن قصد به الإقرار بوحدانية الله، والاعتراف له بالربوبية، وقيل إن فرعون كان من الدهريين المنكرين لوجود الخالق، فلهذا قال:

«أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»، فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه، ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين أغلق بابهما، بحضور الموت ومعاينة الملائكة، قيل له: «الآن وقد عصيت من قبل»، يعني الآن تتوب، وقد أضعت التوبة في وقتها، وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، وقيل إن المخاطب بذلك لفرعون هو جبريل وقيل الملائكة، وقيل هو الله تعالى، عرف فرعون قبيح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض، بدليل قوله تعالى: **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ**، والقول الأول أشهر **(1)**، ويعضده ما روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لما قال فرعون: «أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فسدسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة» **(2)**، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أعطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله، فيغفر له، يعني فرعون، وفي بعض الروايات إن جبريل قال: ما بغضت أحدا بغضي لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولقد

ص: 260

1- تفسير الخازن 206/3.

2- مختصر تفسير ابن كثير 206/2، وأنظر: تفسير الدر المنثور 315/3.

جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال» (1).

على أن الإمام فخر الدين الرازي اعترض في تفسيره على ذلك، فقال:

هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين، لئلا يتوب غضبا عليه، والجواب الأقرب أنه لا يصح، لأنه في تلك الحال إما أن التكليف كان ثابتا أم لا، فإن كان ثابتا لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة، وأما إن كان التكليف زائلا عن فرعون في ذلك الوقت، فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة، وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر، والرضا بالكفر كفر، وأيضا كيف يليق بجلال الله بأن يمنعه من الإيمان، وإذا قيل إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله، فهذا يبطله قول جبريل: **وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**.

وعلى أي حال، فإن موسى عليه السلام حين أخبر بني إسرائيل بغرق فرعون وقومه، قالوا: ما مات و ذلك لعظمته عندهم، و ما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا، كأنه ثور، فرآه بنو إسرائيل، فمن ذلك الوقت لا يقبل البحر ميتا أبدا، و روى عن ابن عباس: أن الله أنجى فرعون لبني إسرائيل من البحر، فنظروا إليه بعد ما غرق، و أما معنى قوله تعالى: **بِيدْنِكَ**، يعني نلقيك جسدا بلا روح فيه، و قيل هذا الخطاب، على سبيل التهكم و الاستهزاء، كأنه قيل له ننجيك، و لكن النجاة لبدنك، لا لروحك، و قيل أراد بالبدن الدروع، و كان، لفرعون دروع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف في درعه عرفوه، و قيل ننجيك ببدنك، أي نجعلك على نجوة من الأرض كي ينظروا فيعرفوا أنك مت، و أخرج ابن الأبياري عن ابن سعود أنه قرأ «فاليوم ننجيك ببدنك» (2).

ص: 261

1- ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 273.

2- تفسير الخازن 3/ 207-209، الدر المنثور 3/ 315-316.

و أما قوله تعالى: لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً، أي عظة وعبرة، وذلك أن بني إسرائيل ادعوا أن قتل فرعون لا يموت أبدا، فأظهره الله حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم، ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة، ملقى على الأرض لا يهابه أحد، أو لتكون آية لمن يأتي بعدك من القرون، إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان، أو حجة تدل على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك، إنما هو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية، وقرئ «لمن خلقتك» أي لخالقك آية كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل، دليل على أنه نعمد منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، ودليل على كمال قدرته و علمه وإرادته، وأيا كان المعنى، فإنه لم يكن آية لمن خلفه لمدة جيل أو جيلين، وإنما بقي آية للعشرات الكثيرة من الأجيال، والمئات الكثيرة من السنين، وذلك بما كان رب العرش لأهل مصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط (1).

بقيت الإشارة إلى أن موت فرعون غرقا، ناسب هلاك بني إسرائيل على يديه بالذبح فيه تعجيل الموت بأنهار الدم، والغرق فيه إبطاء الموت و لا دم خارج، ولما كان الغرق من أعسر الموتات، وأعظمها شدة، فكان لمن ادعى الربوبية وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ولك أن تقول: لما افتخر فرعون بالماء، وقال: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي»، جعل الله موته بالماء، بما افتخر به (2).

ص: 262

1- تفسير البيضاوي 100/3، الدر المنثور 316/3، تفسير الخازن 209/3، أحمد عبد الحميد: المرجع السابق ص 123، تفسير النسفي 175/2.

2- تفسير روح المعاني 1/255-257.

إشارة

اختلفت الآراء، كما أشرنا من قبل، في هذا الفرعون الذي كان يعذب بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، ثم يرفض بعد ذلك دعوة موسى عليه السلام، وكان الفرعون الذي أغرقه الله في البحر، انتقاماً منه لتجبره وكفره، و ما آل إليه أمره من الطغيان والكفر، و ادعاء الألوهية، فقال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (1)، وقوله لموسى:

لَئِنِ اتَّخَذَتِ الْهَاءَ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (2)، وقوله: «أنا ربكم الأعلى»، و من ثم فقد جاء بعد هذه الآية فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3)، هذا فضلاً عن تجاوزه لحدوده البشرية، و اندفاعه في التعذيب، و إسرافه في القتل للمذنب و غير المذنب على سواء.

و سنحاول هنا، قدر الطاقة، مناقشة الآراء المختلفة التي دارت حول تحديد اسم هذا الفرعون، لعلنا نستطيع، بمشيئة الله، أن نصل إلى رأي قريب من الصواب، أو لا يبعد عن الصواب كثيراً، مؤمنين تمام الإيمان، أن اليقين ما زال، و سيظل أبداً الدهر، عند صاحب اليقين، و ما زال، و سيظل، العلم عند رب العلم، يؤتاه من عباده من يشاء، و هو علام الغيوب، و ما تقوم

ص: 263

1- سورة القصص: آية 38.

2- سورة الشعراء: آية 29.

3- سورة النازعات: آية 22-26.

به، أو يقوم به غيرنا، لا يعدو محاولات قد تخطئ و تصيب، بل قد تخطئ كثيرا و تصيب قليلا.

[1] الرأي الأول: فرعون موسى هو أحمس الأول:-

يزعم اليهودي «يوسف بن متى» (37-98 أو 100 م) أن «مانيتو» المؤرخ المصري، الذي كتب تاريخه حوالي عام 280 قبل الميلاد، إنما يرجع بالهكسوس (1) إلى أصول يهودية (2)، و من ثم فالخروج، في نظر المؤرخ اليهودي، إنما هو طرد الهكسوس من مصر حوالي عام 1575 ق.

م، بقيادة أحمس الأول (1575-1550 ق. م)، و بالتالي فإن أحمس الأول هو فرعون موسى، هذا وقد تابع يوسف اليهودي بعض المؤرخين، و منهم الدكتور هول و الدكتور باهور لبيب.

و يذهب «هول» إلى توحيد «الخاير و» بالعاير و (العبرانيين)، و أن الخاير و هم قبائل بدوية قدمت إلى الجنوب الشرقي لفلسطين، فاكتمحت كنعان في الفترة ما بين عامي 1390، 1360 قبل الميلاد، و أن رسائل العمارنة تظهر لنا كيف أشاعت هذه القبائل الذعر بين الكنعانيين، ثم سيطرت على فلسطين بعد انسحاب السلطة المصرية منها على أيام «إخناتون» (1367-1350 ق. م)، و من ثم يجب أن يكون الخروج قبل أيام «أمنحتب الثالث» (1405-1367 ق. م)، ثم يقترح أن تكون لحظة خروج بني إسرائيل من مصر، هي لحظة قيام الأسرة الثامنة عشرة، و أن مؤسس هذه الأسرة الملك «أحمس الأول» هو فرعون موسى الذي روت التوراة أنه «لم يكن يعرف يوسف»، و بالتالي فإن التقرير التوراتي عن

ص: 264

1- قدم المؤلف دراسة مفصلة عن عصر الهكسوس و طردهم من مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- دار المعارف- القاهرة 1976 ص 101-223).

2- F, egdirbmaC (yrarbiL lacissalC beoL ehT), ohtenaM, leddeW. G. W 77. p. 1940

الخروج إنما هو ترجمة عبرية لطرده الهكسوس من مصر (1).

ولعل مما يعضد نظرية «هول» ما يؤكد «إرنست سيللين»، طبقاً لبقايا فخارية عثر عليها في موقع أريحا، من أن المدينة قد دمرت حوالي عام 1500 ق. م، أو حتى بعد فترة وجيزة من عام 1600 ق. م، فيما يرى «كارل فترزinger»، وهو مكتشف آخر موقع أريحا، ولكن «سيللين» يرفض أن يكون الإسرائيليون هم الذين دمروا أريحا (2)، كما أن «روينسون» يرى أنه ليس من الميسور أن نضع رواية التوراة في هذا الإطار (3).

و أما الدكتور «باهور لبيب» فيذهب إلى أن الأبحاث الحديثة قد أسفرت عن أن الهكسوس من أصل سامي و موطنهم فلسطين، وأنهم من طائفة اليهود الذين جاء ذكرهم في التوراة و القرآن الكريم (4)، اعتماداً على أن «مانيتو» رأى أنهم قوم شرقيون أتوا إلى مصر من الشرق، و أنهم من بني إسرائيل، و أن أسماءهم من أصل سامي، و أن لهم علاقة بفلسطين، حيث يقطن اليهود، و أن أغلب أسمائهم التي عثر عليها بمصر من أصل سامي كنعاني، مما يدل على أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين، و أن هناك آلهة سامية كانت تعبد أصلاً في فلسطين، و قد ظهرت في مصر على أثر غزو الهكسوس لها، فلو لم يكن الهكسوس ساميين لما نقلوا معهم آلهتهم السامية إلى مصر، كما أن استخدام الجواد و العربة في مصر إنما يرجع إلى عهد الهكسوس، هذا و قد أظهرت الحفريات في فلسطين عدة مقابر ترجع إلى أيام الهكسوس و مؤرخة بأسماء ملوكهم، و هذا دليل مادي على وجود صلة

ص: 265

1- ., 1963 ., 409- 406. R. H 409- 406. ., tsaE raeN ehT fo yrotsiH tneicnA ehT, llaH. R. H 409- 406. ., nodnoL.

2- أنظر: ., 1913 tsnrE 1913 ., nilleS dna IraC dna regniztaW ohcireJ, nodnoL. و كذا. A 182 ., tic- po, sdoL.

3- .. 29 ., nosniboR. W. H 29 .. ., learsI fo yrotsiH ehT,

4- ., 1934 ., bibaL ruohaP 8. p, netpygeA ni soskyH red tfahcsreH eiD, .F,

بين الهكسوس و اليهود في فلسطين، كما أن العبرانيين كانوا يعبدون الحمار، فإذا أمكن هذه هي كل حجج الباحثين الذين رأوا في اليهود دليلاً على أنهم من أصل سامي (1).

هذه هي كل حجج الباحثين الذين رأوا في اليهود هكسوسا، أو في الهكسوس يهودا، ولعل من الأفضل قبل مناقشتنا لهذا الإتجاه، الإشارة إلى أننا لا-نطمئن تماما إلى رواية المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» و من دعوا بدعوته، من أنهم ينقلون عن «مانيتو»، ما دمنا لا نملك النص الكامل لكتاب «مانيتو»، و الذي فقد في حريق الإسكندرية عام 48 ق. م، و قد وصلت إلينا منه مقتطفات مختصرة أحيانا، و مبتورة أحيانا أخرى، و ما دمنا، في نفس الوقت، لا-نملك من الأدلة التاريخية ما يقوم دليلاً على صحة ما نقله «يوسف اليهودي» و غيره، عن «مانيتو»، بل إن رواية يوسف اليهودي نفسه، و التي يزعم أنه نقلها عن مانيتو، من أن اليهود هم الهكسوس، تناقضها روايته التي أشرنا إليها من قبل، من أن سبب خروج بني إسرائيل من مصر، إنما كان رغبة المصريين في اتقاء وباء نقشى بين اليهود.

هذا فضلا عن أن يوسف اليهودي لم يقبل تفسير مانيتو لكلمة الهكسوس من أنها تعني «الملوك الرعاة» على أساس أن «هك» تعني في اللغة المقدسة «ملك»، و أن «سوس» تعني في اللغة الدارجة «راعي»، فيتابع هذا الاشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر، بمعنى «الأسرى الرعاة» لأن كلمة «هك» تعني «أسير»، و هو يفضل هذا الاشتقاق، لأنه يعتقد أن قصة التوراة عن دخول الإسرائيليين مصر، ثم الخروج بعد ذلك، لهما أصول في احتلال الهكسوس ثم طردهما فيما بعد، و الواقع،

ص: 266

1- باهور لبيب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة- القاهرة 1947 ص 41-45، و كذا. P, tic- po, bibaL. P 25.

فيما يرى «سير ألن جاردنر»، العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة، أنه على الرغم من وجود أسس لغوية للاشتقاق، فإنه قد جانبه الصواب، وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غير شك من اصطلاح «حقاخست»، أي «رئيس البلد الأجنبية الجبلية» التي كانت تعني منذ عهد الدولة الوسطى «مشايخ البدو» (1).

و أما أن قصة دخول بني إسرائيل مصر، ثم الخروج منها، لها صلة بدخول الهكسوس مصر، ثم الخروج منها، كما روح ذلك يوسف اليهودي، فقد كان يوسف هذا يهدف منها إلى رفع شأن قومه اليهود، الذين كان يحقرهم الإغريق و يحطون من قدرهم، و ليرهن للملا أن اليهود و الهكسوس من عنصر واحد، و أنهم قد خرجوا من مصر حوالي ألف عام قبل حرب طروادة، التي يراها الإغريق تاريخا سحيقا من القدم، غير أن كثيرا من المؤرخين ينكرون الصلة بين اليهود و الهكسوس، فيذهب «جاردنر» إلى أنه ليست هناك صلة بين الاثنين، بدليل أن الهكسوس لم يتركوا أي أثر في قصص العبرانيين، كما روتها التوراة، كما أن مجيء يوسف عليه السلام إلى مصر، إنما قد حدث، كما أثبتنا من قبل، على أيام حكم الهكسوس لمصر، هذا فضلا عن أن أحداث الملوك الرعاة (الهكسوس) لم تصور أبدا في قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بل إن مدينة «بي رعمسيس» التي أنشأها رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م)، بعد طرد الهكسوس، بحوالي ثلاثة قرون، إنما تدخل في قصة بني إسرائيل في مصر و خروجهم منها، فهي المدينة التي سخر بنو إسرائيل في بنائها، كما أنها كانت بداية مسيرة الخروج من مصر (2)، و من ثم فليس من المستحيل أن تكون اقتباسات يوسف اليهودي

ص: 267

1- , 1964, p. 154. H. A. G. H. A. 154. p. 1964, -1.drofxO, shoarahP eht fo tpygE, renidraG.

2- خروج 11/1، 12/37.

من مانيتو، إنما توحى بأحداث وقعت فيما بعد، في أوائل عهد الأسرة التاسعة عشرة، وأنها قد اختلطت بذكر حوادث الهكسوس، وهناك ما يشير إلى مثل هذه العلاقات الموجودة في أغلب الأحيان بين مصر وأولئك البدو الذين يعيشون على تخومها، جاء ذكرها في «بردية أنسطاسي، السادسة»، ولكن ليس هناك ما يشير إلى حدوث مأساة كالتى مثلت في التوراة، كما جاءت في سفر الخروج (1).

و أما ما ذهب إليه «هول» فيناقضه أنه يتعارض تماما مع ما جاء في التوراة و القرآن العظيم بشأن دخول و خروج بني إسرائيل من مصر (2)، كما أن حملات تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) المظفرة، تكون طبقا لهذا، قد حدثت بعد استقرار بني إسرائيل نهائيا في فلسطين، وهنا فمن الصعب أن نجد تفسيراً لصمت التقاليد الإسرائيلية فيما يختص بالنزاع الذي لا يمكن تجنبه مع الفاتحين المصريين، وخاصة فيما يتعلق بإدارة البلاد بموظفين مصريين، فضلا عن وجود الحاميات المصرية في فلسطين، تلك الحقيقة التاريخية التي كانت أهميتها تظهر أكثر فأكثر (3)، هذا فضلا عن أن التوراة تجعل إقامة بني إسرائيل في مصر 430 سنة (4)، بينما يتفق العلماء الآن على أن مدة حكم الهكسوس في مصر لا تتجاوز القرن ونصف القرن (1725-1575 ق. م) (5)، أضف إلى ذلك أن التوراة والإنجيل و القرآن).

ص: 268

1- , 10 , 1924، 87- 88، H. A renidraG. H. A 88- 87، 1924، 10 ، AEJ ni, suduoxE ehT fo yhpargoeG ehT, renidraG. H. A 88- 87، 1924، 10 ،

2- أنظر: سورة يوسف: آية 8- 22، 57- 100، سفر التكوين: الاصحاحات 37- 47، خروج: اصحاحات 12- 14.

3- . P, tic- po, sdoL. A 183- 182 .

4- خروج 12/ 40- 41.

5- انظر: عن عصر الهكسوس في مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص 137- 138، 211).

العظيم، إنما تجعل فترة التيه أربعين سنة (1)، بينما فترة التيه هنا تتجاوز القرنين من الزمان، وهي فترة أطول بكثير مما يجب، و مما افترضته التقاليد العبرانية، كما يرى «هول» نفسه (2).

و أما أدلة «باهور لبيب»، غير اعتماده على رواية مانيتو، كما نقلها يوسف اليهودي، فإنها تقوم أساسا على ما ذهب إليه من أن الهكسوس ساميون، و من فلسطين، و بالتالي فهم يهود، و الواقع أن رأيه هذا يحمل كثيرا من وجوه الخطأ، منها (أولا) أن وجود أسماء كنعانية بين الهكسوس، لا يعني أن اليهود كنعانيون، و إن كان كل منهما ينتمي إلى نفس المجموعة البشرية السامية و إن كانت التوراة ترفض، لأسباب سياسية و دينية، أن يكون الكنعانيون ساميين (3)، مع أنهم كانوا يعلمون ما بينهم و بين الكنعانيين من صلات لغوية و بشرية (4)، و منها (ثانيا) أن العبرانيين لم تكن لهم لغة خاصة بهم قبل عام 1000 ق. م، إذ كانوا يتكلمون الآرامية قبل دخولهم فلسطين، و الكنعانية بعد ذلك، كما أن اللغة العبرية نفسها، ليست إلا خليطا من الآرامية و الكنعانية و كثير من اللغات السامية و غير السامية (5)، و من ثم فإن الاعتماد على اللغة كأساس للعلاقة بين اليهود و الهكسوس، اعتماد مضلل لا يثبت تلك العلاقة، و منها (ثالثا) أن القول بأن اليهود كانوا يعبدون الحمار، قول غير صحيح، على وجه اليقين، بل إنه من المؤكد أن بني إسرائيل كانوا

ص: 269

-
- 1- أنظر: سورة المائدة: آية 26، حيث يقول تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، و انظر: سفر العدد 33/14، أعمال الرسل 7/36، 40.
 - 2- .. P, tic- po, llaH. R. H 408
 - 3- تكوين 6/10.
 - 4- أنظر: محمد بيومي مهران: الساميون و الآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي - الرياض 1974 ص 247-248.
 - 5- فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص 4، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 32.

قبل دخولهم مصر موحدين، على ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قال تعالى على لسان يوسف: **وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (1)**، ومن ثم فعبادة الهكسوس للحمار أو عدم عبادتهم لا تفيدنا في معرفة العلاقة بين اليهود و الهكسوس، كما أنه ليس هناك من دليل على أن اليهود عبدوا الحمار في مصر.

و منها (رابعاً) أن استخدام العربة و الحصان في عصر الهكسوس لا يدل أبداً على أن اليهود هم الهكسوس، وإن كانت الأسماء كنعانية و ليس الكنعانيون هم اليهود على أية حال، و مع ذلك فهناك من يرى أن الحصان، و ربما العربة التي تجرها الخيل، قد عرفا في وادي النيل، و في ميز و بوتاميا، قبل عصر الهكسوس (2)، بل و يذهب أمري» أن ذلك كان منذ أيام الدولة الوسطى، فقد عثر في حفرياتة في منطقة بوهن (وادي حلفا) في عام 1962 م على هياكل دفنت في مستويات قديمة من أحد الحصون المصرية حددها بعصر الدولة الوسطى، و إن لم يعرفوا العربة، و إن كان أستاذنا المرحوم عبد المنعم أبو بكر (1907-1976) طيب الله ثراه، يرد هذا المستوى إلى عهد الدولة الحديثة (3)، هذا فضلاً عن أن هناك من يرى أن الهكسوس لم يستخدموا الحصان حتى فترة متأخرة جداً من حكمهم، و أن أقدم نص يشير إلى ذلك إنما يتحدث عن طرد الهكسوس، و أما المقابر التي وجدها «بتري» في تل العجول بجنوب فلسطين، و قد دفنت فيها الحمير مع الخيول، مع الموتى من الآدميين، و أنها تدل على استخدام الهكسوس للحصان، فهي

ص: 270

1- سورة يوسف: آية 38.

2- W 18. p, 1965, seyah .W 18. p, 1965, erneneuqeS ot ,II semenemmA fo htaeD eht morf tpyge, egdirbmaC II

3- عبد العزيز صالح: مصر و العراق ص 190، نجيب ميخائيل: المرجع السابق 407/1.

ترجع إلى فترة متأخرة من عهد الهكسوس، وربما ترجع إلى بداية الدولة الحديثة، أما في مصر، فليست هناك أية دفنة لحصان واحد، أو حتى عظام حصان، في المقابر العديدة التي ترجع إلى عهد الهكسوس، كما أنه لا يوجد نقش واحد لحصان ما (1).

ومنها (خامسا) أن توحيد كلمة «خاييرو» بكلمة «عابيرو»، وأنها هي نفس الكلمة الحالية «عبري»، فقد اتفقت جمهرة من العلماء على أن هؤلاء العابيرو، لم يكونوا أبدا من بني إسرائيل، والأرجح أن الكلمة سامية لقبائل بدوية كانت تعيش في شرق الأردن، بل حتى الذين ينادون بتوحيد كلمة خاييرو بعابيرو، يرون أن الأمر غير مؤكد، ولا يمكن أن نتخذه أساسا لأية نتيجة تاريخية (2)، ومنها (سادسا) أن اليهود ساميون، بينما الأمر جد مختلف بالنسبة للهكسوس فمن يؤكد أنهم سلالة آرية كان موطنها في آسيا الصغرى (3)، ومن يرى أنهم من أعراب شبه الجزيرة العربية (4)، بل ويذهب المؤرخون المسلمون إلى أنهم العمالقة أو من العرب البائدة (5)، ويذهب «جاردنر» إلى أن اصطلاح «حقاخست» (حقيق خاس) أي رئيس البلدية الجبلية الأجنبية يشير إلى الحكام، وليس، كما يظن يوسف اليهودي، إلى

ص: 271

-
- 1- E, ott و Kذا, II, P, 333. oN, 37. 1951, p. 59-60. T evaS- hgrevredoS- ehT, soskyH eluR tpygE ni AEJ, VPDZ 259. p. 61, و Kذا, FOFA, gnissiB noV. W. F 61
- 2- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 22/1-28، الكسندر شارف: تاريخ مصر ص 144، تيودور روينسون: إسرائيل في ضوء التاريخ ص 108، و Kذا, F. W. 1970. I, neitSpE, msiaDuJ, و Kذا. J 201. W. J, tic- po, nosli و Kذا. J 118. F. J, tic- po, nageni. P, و Kذا E. emrahD. aL, noigileR sed xuerbeH sedamoN, 13-14. P. و Kذا, 1966, p. 486. on 13., thgirblA TENA, sellexurB, E. S. N 85-75, 1937.
- 3- 1933, p. 105. H 105. p. 1933, retpygeA red ethcihcseG, reknuJ.
- 4- 1907, p. 134. L 134. W. L, gnik. S, seidutS, ni nretsaE yrotsiH, dna tpygE, yrotsiH nretsaE ni seidutS, gnik. W. L 134. p. 1907-4.
- 5- تفسير القرطبي ص 427، تاريخ الطبري 1/335-336، تاريخ ابن الأثير 1/10، 104، تاريخ ابن خلدون 2/27.

الجنس كله، و طالما أخطأ الباحثون في هذا الأمر، بل إن البعض منهم، كما رأينا، يرى أن الهكسوس جنس معين من الغزاة شقوا طريقهم إلى مصر، بعد أن تم لهم غزو سورية وفلسطين، وليس هناك ما يؤكد وجهة النظر هذه، وإن بدا أن كلمات مانيتو قد تشير إلى ذلك (1)، و من هنا فإن العلماء يكادون يجمعون على أن الهكسوس ليسوا شعبا معيناً، وإنما خليط من شعوب متعددة، اختلطت بعضها ببعض الآخر وهي في طريقها إلى مصر، وهذا يبدو واضحاً في أسمائهم التي تنبئ عن خليط من أجناس مختلفة، حتى وإن غلبت فيها الأسماء السامية، ففيها كذلك عناصر غير سامية، لا شك أن بعضها «كاسي»، و الآخر «حوري»، و كلا الجنسين من أصل «هندو-أوربي» نزل من أواسط آسيا، و على أية حال، فإن الساميين لا يكاد يتألف منهم العامل الرئيسي المسئول عن الزحف الجديد، و قد تغري غلبة الأسماء السامية المعروفة لنا الآن بتفوق الساميين في العدد، و لكن يمكن أن يرجع سببها لعدم كفاية الأدلة التي في متناولنا، أو لأن العناصر غير السامية قد هضمت بسرعة (2).

و منها (سابعاً) أن هذا الرأي الذي يرى في طرد الهكسوس قصة خروج بني إسرائيل من مصر، إنما يتعارض تماماً عما جاء في التوراة و القرآن الكريم (3)، اللذين لم يتحدثا أبداً عن دخول بني إسرائيل أرض الكنانة غزاة فاتحين، أو أن ملوك مصر كانوا يوماً ما ينتمون إلى أرومة سرائيلية، وإن

ص: 272

1- .P, tic- po, renidraG. A 156 .

2- أحمد فخري: مصر الفرعونية ص 187، سليم حسن: مصر القديمة 187/4، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 402، و كذا. P, tic- po, nosliW. J 164 .P, tic- po, renidraG. A 157 .

3- أنظر: سورة يوسف: آية 41-100، تكوين: إصحاحات 37-47، و أنظر: قصة يوسف في هذه الدراسة.

تحدثنا عن وصول يوسف الصديق إلى منصب كبير في الحكومة المصرية على أيام الهكسوس كما أشرنا إلى ذلك من قبل، كما تحدثنا عن دخول بني إسرائيل مصر، وقد عضهم الجوع في أرض كنعان، فأتوا إلى أرض النيل يلتمسون المأوى و الشبع، وقد حققت لهم مصر ما يريدون، و تلك عاداتها طوال عصور التاريخ، و منها (ثامنا) أن التوراة تتحدث في سفر التكوين أن الرب أخبر خليله إبراهيم بأن بني إسرائيل سوف تكتب عليهم الذلة و المسكنة في مصر فترة قوامها قرونًا أربعة، زادهما سفر الخروج ثلاثين عاما، كما تحدثت عن خروج القوم من مصر، و قد كانوا في عجلة من أمرهم، حتى أنهم ما كانوا قادرين على أن ينتظروا حتى يختمر عجبتهم، و من ثم فقد خرجوا دون أن يصنعوا لأنفسهم زادا (1)، و قد أشار القرآن الكريم إلى أن الإسرائيليين قد خرجوا من مصر بأمر الله ليلا قال تعالى في سورة الدخان:

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ، و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (2).

و منها (تاسعا) أن التوراة تجعل من مدينة «بي رعسيس» نقطة التجمع التي بدا منها بنو إسرائيل الخروج من مصر (3)، و هذه لم تنشأ، كما أشرنا من قبل، إلا على أيام «رعسيس الثاني» (1290-1224 ق. م)، و منها (عاشرا) أن التوراة و القرآن العظيم يصفان حياة بني إسرائيل في مصر، بكل الذل و الهوان، تقول التوراة «فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف، و مروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين و اللبن و كل عمل في الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفا» (4)، و كان الهدف، فيما يرى جيمس

ص: 273

1- تكوين 13/15، خروج 12/31-40.

2- سورة الشعراء: آية 52، و أنظر سورة طه: آية 77.

3- خروج 12/37.

4- خروج 1/13-14، 23-24.

فريزر، أن المصريين أرادوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم في الأعمال الشاقة التي ربما قضت عليهم، ولما فشلت هذه المعاملة في تحقيق النتيجة المرغوبة، أمر الملك بقتل الذكور من أطفالهم إثر ولادتهم، غير أن القابلات اللاتي كلفن بذلك كن يتهربن في تنفيذه (1)، و من ثم فقد أمر فرعون شعبه جميعا بأن «كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن البنت تستحيونها» (2)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (3)، وكان من نتائج ذلك كله، أن غدا العرف الشائع بين العبرانيين أنهم يتشاءمون تشاؤما تقليديا بالأيام التي قضوها بمصر، و يحسبونها بلية البلايا، و محنة المحن في تاريخهم كله، من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد النازية الهتلرية، أي طوال أربعين قرنا، من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد، و قد مرت بهم محنة السبي إلى وادي النهرين، و لكنهم لا يتشاءمون بها، كما تشاءموا بالمقام في مصر، و لا يجعلون الخروج من بابل (عام 539 ق. م) عيدا باقيا متجددا، كعيد الخروج من أرض وادي النيل في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، و هكذا كان الخروج من مصر أكبر أعياد اليهود، عيد الفصح، في الرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) بين العشاءين.

و هكذا نستطيع أن نقول، دون أن يخالجننا ريب فيما نقول، أن دعوى).

ص: 274

1- جيمس فريزر: الفلكور في العهد القديم- القاهرة 1974 ص 5 (مترجم) و انظر: خروج 1/ 15-21.

2- خروج 1/ 22.

3- سورة البقرة: آية 49، و انظر: سورة الأعراف: آية 141، سورة القصص: آية 4 عباس محمود العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان و العبريين- القاهرة 1960 ص 58، و انظر: عن هذا الرأي الأول (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 361-376).

يوسف اليهودي في الربط بين الهكسوس وأجداده العبرانيين لم تكن إلا- من نوع تلك الدعاوي الكذوب التي لا يزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون، وأنه ليست هناك صلة بين الهكسوس واليهود، وذلك لأن اليهود لم يكونوا وقت ذلك قد استوطنوا فلسطين كقوم لهم كيان يستطيعون أن يحتلوا دولة كبرى كمصر، بل أكبر وأعظم دول الشرق الأدنى القديم قاطبة، الأمر الذي لم يكتب لهم أبداً، بل إنهم لم يكونوا حتى هذه المرحلة إلا- مجموعة من الرحل الذين يستقرون على أطراف إقليم زراعي بمواقفة أصحابه، وهم في مركز الرعايا الخاضعين، إن لم يكونوا العبيد المستذلين، و ما حدثنا التاريخ من قبل و من بعد عن مستعمر يستدل في أرض يستعمرها، و من هنا فإننا نستبعد هذا الرأي تماماً، و لا نرى أن خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، و كاموزا و أحمس الأول، و بالتالي فإن أحمس الأول ليس هو فرعون موسى.

[2] الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى:-

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن فرعون موسى هو تحوتمس الثالث (1490-1436 ق. م) أو ابنه «أمنحتب الثاني» (1436-1413 ق. م) (1) اعتماداً على نص التوراة «وكان في سنة الأربع مائة و الثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على بني إسرائيل، في شهر زيو، هو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب» (2)، و لما كان حكم سليمان يقع في الفترة (972-936 ق. م) (3)، فالعام الرابع إذن هو عام 967 ق. م

ص: 275

1- قاموس الكتاب المقدس 933/2.

2- ملوك أول 6/1.

3- يختلف المؤرخون في فترة حكم سليمان، فيرى فضلو حوراني أنها في الفترة (974-932 ق. م) و يرى حسن ظاظا أنها في الفترة (973-936 ق. م) و يرى شموكل أنها في الفترة (970-932 ق. م) و يرى فيلب حتى أنها في الفترة (963-923 ق. م) و يرى هيتون أنها في الفترة (961-922 ق. م) و يرى أولبرايت أنها في الفترة (960-922 ق. م) و هكذا.

(أوعام 967/966 ق.م)، و بالتالي فالخروج في عام 1446 أو 1447 ق.

م (1)، إذا ما عدنا إلى الوراء 480 عاما، و من ثم فالخروج تم في عهد تحوتمس الثالث (1490-1436 ق.م) أو بالأحرى في العقد الأخير من عهده.

و يرى أصحاب هذا الإتجاه أن الصورة التي تقدم لتحوتمس الثالث كفرعون لموسى مقبولة تماما، لأنه كان بناء عظيمًا، ولأنه استخدم الأسرى الأسويين في مشروعاته البنائية، ولأن مدة الأربعين سنة التي قدرت لفترة التيه (2)، تجعل الإسرائيليين يصلون إلى كنعان حوالي عام 1400 ق.م، و من هنا يمكن توحيد العبرانيين (العابرو) بالخابير و الذين كانوا يضغطون على كنعان وقت ذاك (3)، هذا إلى جانب ما يقوله «جون جارستانج» من أنه قد كشف في مقابر أريحا الملكية ما يشير إلى أن موسى قد انتشلت من الماء الأميرة المصرية «حتشبسوت» عام 1527 قبل الميلاد، على وجه التحقيق، وأنه قد تربي في بلاطها بين حاشيتها، ثم فر من مصر حين جلس على العرش المصري عدوها، تحوتمس الثالث، و يعتقد «جارستانج» كذلك أن المخلفات التي وجدت في قبور أريحا (جريكو ohcireJ) تؤيد ما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر يشوع، و أن هذه البقايا ترجع إلى حوالي عام 1400 ق.م، و أن الخروج تم عام 1447 ق.م (4).

ص: 276

-
- 1- أنظر:، 3، 1953، JEI, revil. J 122- 113. p، وكذا، 100، 1945، ROSAB, thgirbla'. F. W 22- 16. p، وكذا،
3، 1944، SENJ, eleihT. R. E 184- 147. p،
 - 2- خروج 16/35، تثنية 7/2، يشوع 6/5.
 - 3-، 1925، J. W. J kcaJ. W. J 125- 117، E, sudoxE hT, fo etaD ehT, nageniF. J 118- 117، و كذا. P, tic- po,
 - 4- ول ديورانت: قصة الحضارة- الجزء الثاني- ترجمة محمد بدران- القاهرة 1961 ص 326، وانظر: عن هذا الرأي الثاني (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/377-390).

هذا و يؤيد «هومل» و «أور» هذا الرأي، مع بعض الاختلافات، فهما يذهبان إلى أن دخول بني إسرائيل مصر، و غزو الهكسوس لها، إنما كان في عام 1877 ق. م، و أن الخروج، طبقا لرواية التوراة التي تجعل إقامة الإسرائيليين في مصر 430 سنة، إنما كان في عام 1447 ق. م، في عهد الملك أمنحتب الثاني، و أن غزو فلسطين تم بعد ذلك بأربعين سنة و هذا بالضبط عصر رسائل العمارة (1)، ثم بدأ سليمان في بناء معبده بعد خروج أسلافه من مصر ب 480 سنة، أي في عام 967 ق. م (2).

و لعل قريبا من هذا ما يراه «أونجر» من أن موسى عليه السلام ولد في عام 1520 قبل الميلاد، على أيام الملك تحوتمس الأول (1528-1510 ق. م) و أن ابنة فرعون التي أنجته هي حتشبسوت، و أن اضطهاد بني إسرائيل قد بدأ بعد أن نشب النزاع بين حتشبسوت و تحوتمس الثالث، ثم وصول الأخير إلى العرش المصري، و من ثم فإن «أونجر» يحدد تاريخ الخروج بعام 1441 ق. م، على أيام أمنحتب الثاني الذي يراه قد حكم في الفترة (1450-1425 ق. م)، و أن أباه تحوتمس الثالث قد حكم في الفترة (1482-1450 ق. م).

(م) (3).

ورغم جاذبية هذه النظرية، فيما يرى البعض، إلا أننا نعتقد أن هناك عقبات كئود تقف في طريق قبولنا لها، و التي منها (أولا) أن توحيد «عابيرو» رسائل العمارة عبراني التوراة أمر بعيد الاحتمال، كما أشرنا آنفا، و منها (ثانيا) أن رسائل «عبد خيبا» أمير أورشليم من قبل الفرعون إنما تفيد أن

ص: 277

1- أنظر: عن رسائل العمارة و عصرها (محمد بيومي مهران: إخناتون- الإسكندرية 1979 ص 233-245).

2- خروج 40/12، ملوك أول 1/6، و كذا. 182. P, tic -po, sdoL .A ,aveneG ,tnematseT dlo eht fo melborP eht ,rrO و كذا 422-424. 1908. p،

3- , 1970, -332. p. 333-332. F. M regnU, regnU. s'elbiB elbiB yranoitciD.

مدينته كانت عرضة لهجوم كبير (1)، هذا مع أن رواية التوراة يفهم منها أورشليم لم تكن هدفا رئيسيا بالنسبة إلى يشوع، بل إن احتلالها، طبقا لرواية التوراة لم يتم إلا على أيام داود عليه السلام (2)، و منها (ثالثا) أن التفاصيل التي يقدمها سفر يشوع والقضاة عن الاستيطان الإسرائيلي النهائي في فلسطين، لا يتفق بصفة عامة مع المادة التاريخية التي جاءت في رسائل العمارنة، فمثلا أسماء الملوك الكنعانيين التي جاءت في سفر يشوع والقضاة، إنما تختلف عن أسماء الأمراء الذين حكموا نفس المدن أثناء عهد أمنحتب الثالث وولده إخناتون، فمثلا «عبدي خيبا» من رسائل العمارنة (3)، هو «أدونني صادق» من يشوع، أو «أدونني بازاق» في القضاة (4)، وكذلك حاكم «جارز» هو «يباخي» أو «يباخو» في رسائل العمارنة (5)، و هو «هورام» في يشوع (6)، و حاكم صور هو «عيد تيرش» في رسائل العمارنة (7)، و هو «يابين» في سفر يشوع والقضاة (8) ... وهكذا.

و منها (رابعا) أن نص سفر الملوك الأول (1/6) و الذي يحدد الفترة من الخروج و حتى بناء المعبد في العام الرابع من حكم سليمان بمدة 480

ص: 278

1- محمد بيومي مهران: إسرائيل 826/2-827، إخناتون ص 233، و كذا، o dna .rebeW .o dna، giapieL, nlefaT anramA -IE eiD، P, TENA 489- 487, otnoroT, II, stelbaT anramA- le lleT eht, recreM. و كذا. A. J, thgirbla .F .W .p, 1934، B. A. S 727، 721. p، و كذا 877. 1915 .p.

2- محمد بيومي مهران: إسرائيل 828/2-839، و كذا، 1965، 342- 346. p، III, HAC ni, retsilacaM. S. A. R 346- 342. p، و كذا. P, tic- po, nageniF. J 118

3- .P, TENA 489- 487 .

4- يشوع 1/10، قضاة 1/5-7.

5- .P, TENA 490 .

6- يشوع 10/33.

7- .P, tic- po, sdoL. A 184- 182 . و كذا. A. S 7- 356، tic- po, kooC. P,

8- يشوع 1/11، قضاة 2/4.

سنة، يناقضه، فيما يرى سبينوزا، من يجعل هذه الفترة نفسها 440 سنة، كما أن هذه المادة، طبقاً لنصوص من التوراة تصل إلى 580 سنة (1)، و من ثم فقد رأى البعض أن مدة الـ 480 سنة، إنما هي عنصر متأخر في النص، وأن الترجمة السبعينية للتوراة قد وضعته في مكان آخر، و من ثم ربما كان تخميننا لأحد المؤلفين المتأخرين نسبياً، والذي ربما قد استخلصها من السجلات التوراتية، ذلك لأن هناك فترة اثني عشر جيلاً تقع ما بين الحادثنين (الخروج وبناء المعبد)، وأنه قد أعطى لكل جيل كتقدير أعلى أربعين عاماً، فكانت النتيجة 480 عاماً (40 x 12 عاماً)، و من ثم فنفس الشيء يكون صحيحاً في حالة التقويمات المتصلة في أسفار يشوع والقضاة و صموئيل، والتي تقوم على نفس التقدير، أي 40 عاماً لكل جيل (2)، و هناك افتراض آخر، هو أن الـ 480 عاماً، ربما تشير إلى الوقت الذي دخلت فيه مجموعة مبكرة، ربما يهوداً أو قبائل أخرى، إلى فلسطين من الجنوب، و هذا يفصلها عن قبائل «بيت يوسف» التي خرجت من مصر تحت قيادة موسى و يسوع، كما يجعلها سابقة لها، و لو أن التقاليد التوراتية، و كذا أي الذكر الحكيم، تجعل الحادثنين مرتبطتين معاً في النهاية (3).

و منها (خامساً) أن الخروج، طبقاً لهذه النظرية، كان في عام 1447 ق. م، و إذا سمحنا بفترة 430 سنة للإقامة في مصر، طبقاً لرواية التوراة (4)، فإننا سوف نصل إلى عام 1877 ق. م، كما رأى هومل و أور، و هذا يصل بنا إلى قرابة قرن و نصف القرن قبل دخول الهكسوس مصر، و إنه لأمر غير

ص: 279

1- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت و السياسة- القاهرة 1971 ص 290-296 (مترجم).

2- P, tic- po, nageniF. J, yelwoR. H. H 121- 120 F 147, F 139. و كذا. nodnoL, auhsoJ ot hpesoJ morF 1950, -3 .P

3- P, tic- po, nageniF. J 118 .

4- خروج 12 / 40.

مقبول أن يدخل بنو إسرائيل مصر قبل عصر الهكسوس، لأسباب سبق لنا مناقشتها عند الحديث عن يوسف عليه السلام، هذا فضلا عن أن دخول بني إسرائيل مصر عام 1877 ق.م، فإن ذلك يجعل دخولهم على أيام الأسرة الثانية عشرة، وفي عصر «سنوسرت الثالث» (1878-1843 ق.م) على وجه التحديد، إلا إذا اعتمدنا على النص السبتاجوني للثورة الذي يختزل مدة الإقامة في مصر إلى النصف، أو أخذنا بوجهة النظر التي إذا اعتمدنا على النص السبتاجوني للترابط بين مجموعة «أبشاي» الآسيوية، وعددهم 37 فردا، والتي دخلت مصر على أيام سنوسرت الثاني (1897-1877 ق.م) وقد وجدت مناظرهم في مقبة «خنوم حتب» أمير بني حسن بمحافظة المنيا (1)، وبين دخول سيدنا إبراهيم عليه السلام أرض الكنانة، فضلا عن دخول بني إسرائيل، بقيادة يعقوب عليه السلام إليها (2)، غير أنه من المعروف أن إبراهيم دخل مصر على أيام سنوسرت الثالث (1878-1843 ق.م)، وأن يعقوب عليه السلام كان يعيش في الفترة (1780-1633 ق.م).

م) وأنه دخل مصر، هو وأسرته، على أيام الهكسوس (1725-1575 ق.م) بدعوة من الصديق عليه السلام، وكان عددهم، طبقا لرواية التوراة، 70 نفسا، وأقاموا في وادي جوشن على حدود الدلتا الشرقية (3)، كما أشرنا إلى ذلك بالتفصيل من قبل.

ومنها (سادسا) أن نص التوراة (ملوك أول 1/6) الذي يعضد هذه النظرية، يناقضه نص آخر من التوراة (خروج 11/1) يجعل رعمسيس الثاني فرعونًا للتسخير، لأن بني إسرائيل قد سخروا في بناء مدينتي «بي رعمسيس وفيثوم»،

ص: 280

1- محمد بيومي مهران: مصر- الجزء الأول- الإسكندرية 1982 ص 646-648، و كذا، nodnoL, I, nassaH- ineB, yrrebweN. .E. P 31- 28. sIP, 1893

2- , 1969, 16. p. etogreV ne hpesoJ, tpygE ne sirap.

3- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 213-359.

وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أنشئت في عهد رعمسيس الثاني، والثانية قد أعيد بناؤها، كما سنشير فيما بعد بالتفصيل، ومنها (سابعاً) أن تحوتمس الثالث كان بناء عظيمًا، دون شك، وكما يقول أصحاب هذه النظرية، ولكن مشاريعه البنائية كانت في الصعيد، وبخاصة في العاصمة طيبة (1) (الأقصر الحالية)، هذا فضلاً عن أن عاصمة الفراعين المصريين لم تكن أبداً في الدلتا، فيما قبل الأسرة التاسعة عشرة، كما أنه لم تكن هناك اهتمامات رئيسية بمشروعات بنائية في الدلتا، وبخاصة في شرقها، حيث كان يقيم بنو إسرائيل هناك (2)، بل إنه بالكاد يفهم أن التحامسة قد كرهوا هذا المكان لاتصاله بالغزاة الهكسوس المكروهين وربما كان هذا هو السبب في عدم وجود آثار للأسرة الثامنة عشرة في «تانيس» عاصمة الهكسوس، وأما في الأسرة التاسعة عشرة، والتي كان ملوكها من هذه المنطقة، فقد وجد لدى رعمسيس الثاني الباعث السياسي لاختيار عاصمة ملكه في الدلتا، فبنى أو أعاد بناء «فيثوم»، ثم بنى «بي رعمسيس» التي حملت اسمه (3)، ومنها (ثامناً) أن الفترة ما بين عامي 1500، 1200 ق. م، إنما تمثل فترة التقدم الذي أظهره الصناع الكنعانيون في وسائلهم الفنية تحت التأثير الإيجي، ومن ثم فقد كان هذا العصر هو العصر الذهبي لصناعة الفخار الكنعاني، ومن العجيب أن يتطابق ازدهار الفن، مع غزو البلاد بواسطة هؤلاء البدو، الذين كانوا بالتأكيد أقل مدينة من السكان الأصليين، ولهذا فمن الطبيعي جداً أن يتفق دخول هؤلاء البرابرة أرض كنعان، مع فترة التدهور التي نملك عليها الكثير من الأدلة، والتي جاءت بعد عام 1200 ق. م.

ومنها (تاسعاً) أن النتائج التي توصل إليها «جون جارستانج» من أن

ص: 281

1- أنظر: سليم حسن: مصر القديمة 4/ 455-496.

2- .P, tic- po, sdoL. A 183 .

3- , 19, 1933, p. 126-127. AEJ, renidraG. A

المدينة قد انهارت أمام قوات يشوع، فهناك احتمال على أن الزلازل ربما كانت هي السبب، لأن الموقع الجيولوجي للمدينة يبعث على مثل تلك الأحداث هذا إلى أن الجدار الأول، والذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، كان فيما يبدو، قد انهار بسبب الزلازل كذلك (1).

ومنها (عاشرا) أن الدليل الأثري من عبر النهر (شرق الأردن) وكذا من لخيش (2) وديبر، لا يتفق مع الخروج المبكر، فلقد قام «نلسون جلوك» بمسح أثري لمنطقة شرق الأردن، و توصل إلى أن الفترة فيما بين عامي 1900، 1300 ق. م، تمثل ثغرة في السكان المقيمين في المنطقة، فإذا كان خروج بني إسرائيل من مصر، حوالي عام 1400 ق. م، فالمفروض، والأمر كذلك، ألا يلتقوا بالملوك الآدوميين و العمونيين و المؤابيين، الذين عاقوا تقدمهم، كما تقول التوراة، وإنما كان هناك بدو متفرقون هنا وهناك، والأمر كذلك بالنسبة للدليل الأثري من «لخيش» و «ديبر» (3)، ومنها (حادي عشر) أن الحفريات التي أجريت في دبير، (تل بيت مرسيم الحالية على مبعدة 13 ميلا جنوب غربي جبرون) (4) اكتشفت طريق الفرعون أمنحتب الثالث، والذي كان ما يزال يستعمله الموظفون في دبير، مما يدل على أن مصر كانت ما تزال صاحبة السيادة هناك حتى عصر أمنحتب الثالث، وأن الإسرائيليين لم يكونوا قد قدموا بعد إلى هذه المنطقة، وفي نهاية عصر البرونز المتأخر وجدت آثار حريق هائل، وفوقها بقايا إسرائيلية، مما يدل على عدم وصول

ص: 283

1- . P, tic- po, nagniF. J 159. و كذا F. P, tic- po, gnatsraG. J 144

2- لخيش: وهي تل الدوير الحالية، على مبعدة خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين، وقد أثبتت الحفائر أنها سكنت منذ عصر البرونز المبكر (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 614).

3- . P, tic- po, regnU. F. M 334

4- . P, tic- po, nageniF. J 163 و كذا. P, . dibl 255

الإسرائيليين حتى هذا العصر (1)، و منها (ثاني عشر) أن حفائر متحف جامعة بنسلفانيا في بيت شان (2) (بيسان) في سهل يزرعيل أثبتت أن المنطقة ظلت تحت سيطرة الحاميات المصرية (3)، كما كانت على أيام أمنتب الثالث، و حتى أيام رعمسيس الثاني، حيث وجدت أسماؤها على معبد المدينة (4)، مع أنها ذكرت من بين المدن التي استولى عليها يشوع (5).

و منها (ثالث عشر) أن التاريخ يحدثنا أن «حتشبسوت» حكمت مع أختها تحوتمس الثاني (1510-1490 ق. م)، كزوجة و ليست كملكة، ثم حكمت بعد ذلك مع ابن أخيها تحوتمس الثالث، كوصية على العرش، و إن ظلت المراسيم تصدر باسمه فترة ما بين أربع و سبع سنوات، بل إن «جاردنر» يرى أن هناك نصا لم ينشر بعد، يحدد تتويج حتشبوت كملك بالسنة الثانية (6)، و استمرت كذلك حتى عام 1468 ق. م، حيث خلفها تحوتمس الثالث، و الذي خلفه ولده أمنتب الثاني، و إذا ما طبقنا ذلك على ما أرتآه «جارستانج» من أن موسى عليه السلام هرب من مصر بعد وفاة حتشبسوت، و جلوس عدوها تحوتمس الثالث على العرش، ثم خروج بني إسرائيل في أخريات عهده، لرأينا ذلك إنما يتناقض مع ما جاء في التوراة و القرآن العظيم من أن موسى عليه السلام قد خرج من مصر إلى مدين لأنه قتل مصريا على سبيل الخطأ (7)، كما أننا لو صدقنا «جارستانج» و من تابعه في رأيه، من أن

ص: 284

-
- 1- , F. A. thgirblA. و كذا. ، ROSAA 79، K. G. M 192، E, elyK. s'nehpeS htajriK snoitavacxE, tic- po, seitiC neT .p. 13، 128- 55، 17، 21- 22.
 - 2- أنظر:، A 1930، R. A. ewoR. ehT, yhpargopoT dna yrotsiH dna S- hteB fo yrotsiH dna yhpargopoT .ainavlysnncP.
 - 3- . P, tic- po, thgirblA. F. W 125 .
 - 4- . P, tic- po, regnU. F. M 142 .
 - 5- يشوع 11 / 17.
 - 6- . P, tic- po, renidraG. A 184 .
 - 7- سورة القصص: آية 15- 22، خروج 11 / 2- 15.

هروب موسى من مصر كان بسبب استيلاء تحوتمس الثالث على العرش، لكان على موسى ألا يعود إلى مصر إلا بعد وفاة تحوتمس الثالث، خاصة وأن التوراة تشير إلى أن عودة موسى إلى مصر كانت مرتبطة بوفاة من كان يطالبه بالقصاص (1)، هذا فضلا عن أن تدمير أريحا إن كان في عام 1407 أو عام 1400 ق. م، فهذا يعني أنه حدث في أخريات، عهد تحوتمس الرابع، أو أوائل عهد أمنحتب الثالث، و في كلا العهدين كانت مصر، دون شك، ما تزال تحتفظ بامبراطوريتها الواسعة في آسيا الغربية، بل إن تحوتمس الرابع إنما يعتبر واحدا من الفراعين العظام، وأنه قام بواجبه تماما في الحفاظ على الامبراطورية المصرية هذا فضلا عن أن أمنحتب الثالث كان، على الأقل، في النصف الأول من حكمه كبير ملوك الشرق الأدنى دون منازع.

ولعل سؤال البداهة الآن: كيف استطاع بنو إسرائيل دخول كنعان، وهي ولاية مصرية، ثم تدمير أريحا و عاي وبيت أيل وغيرها من فلسطين، دون أن يحرك الفرعون ساكنا؟ في الحقيقة إن هذا أمرا لا يمكن قبوله بسهولة، ما لم تعضده أدلة قوية، وهذا ما لم يثبت حتى الآن، فضلا عن أنه أمر تحيط به عوامل الشك و الريبة من كل جانب، و من ثم، فإنني أتردد كثيرا في الأخذ بهذا الرأي.

و منها (ثالث عشر) أن بعثة «جامعة ستراسبج» كشفت عام 1965 م عن نص في معبد أمنحتب الثالث في «صولب» في التوبة السودانية، وفيه ذكر لقبائل من بدو الصحراء، و منهم قبيلة «يهوه» في عصر أمنحتب الثالث (2)، و لعلنا نستنتج من هذا أن قبيلة يهوه البدوية كانت عصر أمنحتب الثالث (1405-1367 ق. م) ما تزال في مصر، و إن كنا على غير يقين من أن اسم

ص: 285

1- خروج 23 /2 -25، 19 /4.

2- مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم- القاهرة 1968 ص 19.

«يهوه» هنا له صلة ببني إسرائيل أم لا، و مع ذلك، فهو، على الأقل، يثير ظلالات من شك حول نظرية الخروج في عهد تحوتمس الثالث أو ولده أمنحتب الثاني.

[3] توت عنخ آمون: هو فرعون موسى: -

يعتمد هذا الرأي على آراء العالم اليهودي «سيجيموند فرويد» (1856-1939 م) في موسى الذي يراه مصريا، وليس عبرانيا، وفي ديانة إخناتون، و من ثم فقد عقد مقارنة بين الديانتين، الموسوية و المصرية القديمة، و خلاص منها إلى أنهما على طريق نقيض، فبينما نرى في الموسوية وحدانية متشددة (1)، نرى في المصرية القديمة وثنية مفرقة في التعدد، هذا فضلا عن أننا نكاد نعرف شعبا آخر في تاريخ العالم القديم وصل إلى الدرجة التي وصل إليها المصريون من تجاهل للموت، و لا بذل ما بذلوا لتأمين معيشتهم في الآخر، في الوقت الذي أغفلت فيه الموسوية الحياة الأبدية تماما، فلم يرد في أي موضع من التوراة ذكر لإمكان حياة بعد الموت (2)، و هو أمر تزيد غرابته، إذا تبين لنا أن الإيمان بالآخرة يتفق تماما مع عقيدة التوحيد (3).

ص: 286

1- لا ريب في أن دعوة موسى عليه السلام، شأنها في ذلك شأن بقية دعوات الأنبياء الكرام، إنما هي دعوة توحيدية صحيحة غير أن دعوة موسى تلقاها عن ربه، شيء، و ما سجلته توراة اليهود، و ليست توراة موسى، عن التوحيد شيء آخر، و قد قدمنا دراسة مفصلة عن الديانة اليهودية، اعتمادا على ما جاء في توراة اليهود المتداولة اليوم، و التي تبعد عن دعوات التوحيد كثيرا أو قليلا (محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الرابع - الباب الأول (7 فصول) الديانة اليهودية ص 1-218).

2- أنظر عن الحياة بعد الموت، كما قدمتها توراة اليهود (محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل - ص 102-106، إسرائيل Y. N, msiehtonoM dna sesoM, duerF. S 29- 18. و كذا: 183-182، و كذا: 236-234/4، و كذا: حبيب سعيد: أديان العالم ص 182-183، و كذا: Y. N, msiehtonoM dna sesoM, duerF. S 29- 18. و كذا: F. P, i, learsI'd stehporP tnematseT dlo ehT, notaeH. W. E 137- 134. p. 1969، و كذا: 1939, naneR. E .elpueP ud eriotSiH 128.

3- Y. N, msiehtonoM dna sesoM, duerF. S 20- 18. p. 1939 , -3.

و هنا يبدأ «فرويد» يتحدث عن ديانة إخناتون، ثم يعقد مقارنة بينها وبين ديانة العبرانيين، فيقدم لنا صورة عن عقيدة الشمس منذ نشأتها حتى أيام إخناتون (1367-1350 ق. م)، ثم اعتناق الفرعون لعقيدة التوحيد، و تمجيده لها في أناشيده (1)، و على أن إله الشمس هو الخالق و الحافظ لكل الكائنات، و عن الحرارة التي تبدو في تسيحاته، و التي تسبه تلك التي تسري بعد ذلك ببضعة قرون في المزامير التي تمجد «يهوه» إله اليهود (2)، غير أن إخناتون، على وجه اليقين، لم يعبد الشمس على أنها شيء مادي، و إنما على أنها الكائن مقدس تتم هذه الأشعة عن قدرته، و هو أمر ذهب إليه من قبل كثير من الباحثين، من أمثال إرمان و برستد و هول و غيرهم (3)، هذا فضلا عن إخناتون قد أضاف إلى فكرة عالمية الرب شيئا جديدا أوضح فيه فكرة الوحداية، و هي الطبيعة الخاصة به، و من ثم فهو يقول في تسيحاته «اللهم إنك أنت الإله الواحد الذي ليس معه سواه» (4)، و من هنا فقد أغلقت معابد الآلهة في كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، و صودرت ممتلكاتها، و عطلت شعائرها، و ضرب الحجز على خزائن الكهنوت، و ذهب إخناتون في حماسه إلى حد أنه أمر بفحص الآثار المصرية، و محو كلمة «الآلهة» حيثما وجدت منقوشة عليها في صيغة الجمع، لأن الله واحد لا يجمع (5)، كما حرم

ص: 287

- 1- أنظر: عن عقيدة الشمس قبل أيام إخناتون، و عن التوحيد في دعوة إخناتون و أناشيده (محمد بيومي مهران: إخناتون ص 295-315، ص 337-382).
- 2- .P, tic- po, deurF. S 21 .
- 3- محمد بيومي مهران: إخناتون ص 349-350، أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة ص 125-146- القاهرة 1952 (مترجم)، و كذا. .P, tic- po, llaH. R. H 300- 298. . P, . tic- po, duerF. S 22- 21
- 4- .Y. N, necneicsnoC fo nwaD ehT, detsaerB. H. J 280- 278. p, 1939 .,
- 5- أدولف إرمان: المرجع السابق ص 133-138 و كذا. H. J. و كذا. .P, tic- po, duerF. S 22. P, tic- po, detsaerB 280

إخناتون جميع الأساطير و أعمال السحر، و عدم السماح بعمل أي صنم لإلهه «آتون» (1) لأن الإله الحق لا صورة له، هذا فضلا عن التغيير في التعبير الشكلي لإله الشمس، فلم يصور بصورة هرم صغير و صقر، وإنما بأسلوب يكاد يكون عقلانيا، يبدو فيه قرص الشمس و قد انبعثت منه أشعة نهايتها على شكل الأيدي، و أخيرا فلم يرد أي ذكر للإله «أوزير»، إله الموتى و رب الآخرة عند المصريين، و لا لمملكة الموتى و الحساب في الآخرة (2).

ثم يبدأ «فرويد» في عقد مقارنة بين الديانتين، الأخناتونية و الموسوية، مع إقراره بأن ذلك سيكون أمرا صعبا، ذلك لأن تعطش كهنة آمون الحاقدين للثأر من ديانة آتون، قد حرمت الكثير من المعلومات عنها، بسبب تحطيم الغالبية العظمى من آثار إخناتون، كما أننا لا نعرف ديانة موسى عليه السلام، إلا في شكلها، كما تم تثبيتها بعد موسى عليه السلام، بثمانية قرون، على الأقل، (إذا أخذنا بالرأي الذي يناهز بأن الخروج كان على أيام مرنبتاح) على يد رجال الدين اليهودي، في العصر الذي تلا السبي البابلي (586-539 ق. م)، حيث ابتعثت دولة يهوذا في ظل الحماية الفارسية على يد «عزرا» الذي جاء من السبي، فيما يرى كثير من المؤرخين، حوالي عام 398 ق. م (3)، هو الذي يعزي إليه إرساء العقيدة اليهودية، كما تطالعنا الآن (4).

ص: 288

1- .P, tic-po, renidraG. H. A 227 .

2- .P, tic-po, detsaerB. H. J 300 . و كذا. .P, tic-po, duerF. S 26- 22 .

3- أنظر: نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 469، .F .W .F .P ,elbiB eht dna enitsalP fo ygoloeahcrA ehT ,thgirblA .F .W .P, tic-po, kooC .A .S ehT no yassE rehto dna droL ehT fo tnavreS ehT ,yelwoR .H 413 و كذا. .P, tic-po, htoN. M 230 و كذا. .P, tic-po, nageniF. J 239 و كذا، 1952، p. 131- 159 .tnematseT dlO .

4- إذا كان «عزرا» هذا، هو «عزير» الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، فإن اليهود وقت ذاك القرن (القرن 4 ق. م) قد أشركوا بربهم، و جعلوا من عزير ابنا لله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبة: آية 30).

هذا ويقدم لنا «فرويد» بعض المقابلات بين الديانتين، لعل من أهمها (أولا) أن صيغة إعلان الإيمان (الشهادة اليهودية) إنما تنطق على الوجه التالي «شمع إسرائيل أدوناي إلهينو أدوناي أحد» و ترجمته إلى اللغة العربية كالتالي «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا إله واحد»، فإذا لم يكن بالصدفة هذا التشابه في اللفظين بين «أتون» المصري، و «أدوناي» العبري و «أدونيس» السوري، وإذا كان هذا التشابه بالعكس نتيجة تماثل في الأصل من حيث اللفظ و المعنى، أمكن أن نترجم الجملة العبرية هكذا «اسمع يا إسرائيل أتون إلهنا إله واحد»، و منها (ثانيا) أنه من السهل أن نبيّن أوجه الشبه و الخلاف بين الديانتين، فكلاهما مظهر لوحداية مطلقة دقيقة (1)، و يميل «فرويد» أن يرد، من أول وهلة، لهذا الطابع الأساسي فيهما كل نقاط التشابه القائمة بينهما، و منها (ثالثا) أن الدين اليهودي، كما قدمته لنا تورا اليهود المتداولة اليوم، كان يجهل الآخرة و الحياة بعد الموت، و هي معتقدات لا تتعارض مع الوحداية مهما بلغت من الشدة، و الأمر كذلك بالنسبة لديانة إخناتون، و هذا التوافق بين اليهودية و الآتونية في هذه النقطة، إنما يعتبر أول حجة جديدة، إلى جانب مصرية موسى، و إن كانت ليست بالحجة الوحيدة (2).

و منها (رابعا) أن موسى عليه السلام لم يعط اليهود دينا جديدا فحسب، و إنما فرض عليهم الختان كذلك، و رغم أن التورا ترجعه إلى عصر الآباء

ص: 289

1- أنظر عن الوحداية في الآتونية و اليهودية (محمد بيومي مهران: إخناتون ص 462-477، إسرائيل 4/ 83-121).

2- .P, tic- po, duerF. S 29- 27 .

الأولين، وأن الرب غضب على موسى عند تركه و كاد أن يقتله، لو لا أن أسرعت زوجته المدنية وقامت بختان ابنها (1)، غير أن الحقيقة التي لا شبهة فيها أن الختان جاء إلى اليهود من مصر، وأنه لا يوجد شعب آخر في حوض البحر المتوسط يتبع هذه السنة غير المصريين، الذين تدل آثارهم على أنهم عرفوا الختان منذ عصور ما قبل التاريخ، حوالي عام 4000 ق. م، كما تدل على ذلك أجسام بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال منها على اتباع المصريين لسنة الختان، هذا فضلا عن صور تمثل عملية الختان يقوم بها جراح مصري في قبر جبانة مثقف من الدولة القديمة، وآخر في الكرنك من الدولة الحديثة (2)، كما أن رواية التوراة (3) يفهم منها أن إبراهيم عليه السلام قام بعملية الختان بعد عودته من مصر، وإنجابه ولده إسماعيل عليه السلام، هذا فضلا عن أن النص نفسه إنما دونه أحبار السبي البابلي، فيما بين القرن السادس والخامس ق. م. (4)، أي بعد عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، بما يربو عن ألف وخمسمائة عام، كما أنه لم يدخل في صلب أسفار الشريعة في صورتها الحالية، إلا في عام 400 ق. م، فلا غرو أن يتعارض تعارضا جذريا مع روايات أخرى في سفر التثنية (5)، والتي ربما كانت أصداء خافتة لوقائع في صورة من أساطير عن نشأة سنة الختان، تلك السنة كانت عادة مصرية متأصلة (6).

ص: 290

-
- 1- تكوين 10/17-11، خروج 24/4-26.
 - 2- .P, tic- po, detsaerB. J 10. on. 303.
 - 3- تكوين 10/17-11، 23-27، وانظر: محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (2) مجلة الأسطول- العدد 67، الإسكندرية 1971 ص 5-6.
 - 4- .P, tic- po, sdoL. A 152.
 - 5- تثنية 1/5-3، وكذا. P, tic- po, sdoL. A 199.
 - 6- محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 6، وكذا، 1956. p. 59-60. Y. N, stnemdnammoC neT, seivaD. P. A 60-

و هنا يتساءل فرويد: إذا كان موسى يهوديا راغبا في تحرير بني جلدته من نير المصريين، فما الذي دعاه إلى فرض سنة الختان على قومه، و كل ما يتوقع منها أن تجعل اليهود مصريين، و ما الداعي لتخليد ذكرى مصر فيما بينهم، رغم أن جهوده كانت موجهة إلى عكس ذلك، و هذا كله يدل على أن موسى لم يكن يهوديا، بل كان مصريا (1)، الأمر الذي يترتب عليه أن الديانة الموسوية كانت على الأرجح ديانة مصرية، و لكن ليست الديانة السائدة بين الشعب، و إنما ديانة إخناتون التي تتفق مع اليهودية في كثير من النقاط.

و هنا يتجه «فرويد» إلى هدفه مباشرة، و هو أن موسى كان مصريا، و كان طموحا عالي الهمة، و ربما راودته فكرة أن يصبح في يوم ما زعيم شعبه، و رئيس الإمبراطورية المصرية، و لما كان من المقربين إلى فرعون (إخناتون) فقد أبدى حماسة شديدة بالعقيدة الجديدة التي فهم أفكارها الرئيسية و تشربها، و لكن عند ما زحفت الرجعية على إثر موت إخناتون، رأى موسى أن كل آماله و تدابيرته تنهار، فمصر لم يعد عندها ما تعطيه له، اللهم إلا إذا كفرت بمعتقداتها التليدة، و هكذا أصبح موسى رجلا فقد وطنه، و هنا واثته فكرة: إن إخناتون الحالم قد بلبل فكر شعبه و ترك إمبراطوريته تتمزق إربا، فإذا موسى، بما جبل عليه من علو الهمة، يتصور خطة ينشئ بها إمبراطورية أخرى يكون دينها هو الدين الجديد الذي نبذته مصر، و ربما كان في ذلك الوقت حاكما للإقليم المتاخم للحدود الشرقية، حيث تقيم في «جوشن» بعض القبائل السامية منذ أيام الهكسوس، فمن هذه القبائل يقرر موسى أن يتخذ له شعبا جديدا، و من ثم فقد قام بإنشاء علاقات مع القبائل السامية في أرض جوشن و نصب نفسه زعيما عليها، و قادها إلى الخروج «بيد (1) ليس صحيحا، على وجه اليقين، أن موسى كان مصريا، و سوف تناقش هذه القضية بالتفصيل في هذه الدراسة (الباب الرابع - الفصل الأول).

قوية»، ويمكننا خلافا للتراث العبراني افتراض أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة، فإن سلطة موسى جعلت ذلك ممكنا، ولم يكن هناك حينئذ قوة مركزية يمكنها أن تمنعه، ثم يرى «فرويد» أن الخروج من مصر حدث خلال فترة السنوات الثماني التي تلت موت إخناتون و سبقت استيلاء «حورمحب» على العرش (1)، بل إن «آرثر ويجال» إنما يحدد الخروج بعام 1346 ق. م، و يرى أنه تم في آخر عهد «توت عنخ آمون» (2).

وفي الواقع فإن «كارل إبراهيم» إنما سبق «فرويد» في القول بأن إخناتون إنما كان مصلحا، و نبيا عظيما، ففي عصره لم ترسم الآلهة في شكل آدمي، و هكذا كان إخناتون رائد التوحيد الموسوي، بل الأبعد من ذلك أنه كان رائد المسيح عليه السلام، ففكرة إخناتون عن الإله أقرب إلى الفكرة المسيحية منها إلى الفكرة الموسوية (3)، هذا و يذهب المؤرخ "hceeW" إلى أن موسى قد دعا بني إسرائيل إلى التوحيد، و كانت هذه العقيدة قد ظهرت في العالم قبل ذلك على يد «إخناتون»، و يبدو أن موسى، و قد أمضى طفولته و صباه و شبابه في مصر، قد عرف هذه العقيدة و تأثر بها و دعا إليها (4)، و على أية حال، فنحن و إن كنا نرفض الربط بين وحدانية موسى عليه السلام، و دعوة إخناتون، ذلك الربط الذي يصل عند «فرويد» إلى أن الأولى منقولة عن الثانية، فلا نشك في وجود مقابلات بين الديانتين، حتى و إن كانت غير مباشرة، فالوحدانية المطلقة كانت من أوضح الصور الشائعة بينهما، و على سبيل المثال، فإنه إسرائيل يقول «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (5).

ص: 292

1- .P, tic- po, duerF. S 32- 29 .

2- .siraP, enneicnA etpygE'L ed eriotSiH, lagieW. A 146. p. 1968 .

3- .I, ogamI, maharbA. C 364- 346. p. 1912 .

4- .P, tsaE raeN eht fo noitaziliviC, hceeW. H. E 88 .

5- خروج 3/20.

وإخناتون يصف إلهه بأنه «الإله الذي لا إله إلا هو»، ثم التأكيد بعد ذلك في التعاليم الآتونية، و الضغط المستمر على «الإله الواحد، و الخالق لكل شيء»، فأتون، كيهوه، هو الإله الخالق لكل من يأتي إلى هذه الحياة و ما يأتي إليها (1).

و أيا ما كان الأمر، فهناك من الأسباب ما يجعلنا نرفض وجهة نظر «فرويد» هذه، منها (أولاً) أن هذه النظرية تحتاج إلى دراسة جادة عميقة متأنية للديانتين، الموسوية و الآتونية، و هذا أمر في منتهى الصعوبة، إن لم يكن محالاً، و قد تنبه فرويد نفسه إلى ذلك فنحن حتى الآن لا نستطيع القول بأننا نملك، على وجه اليقين، الصورة الصحيحة للآتونية أو الموسوية، فالأولى قد أضع حقد كهان آمون أكثر الكثير من نصوصها، و الثانية لعبت فيها أيدي اليهود بما شاءت لهم أهواؤهم، كما أن معلوماتنا الحالية عنها إنما ترجع إلى نصوص كتب بعد الأسر البابلي أو أثناءه (586-539 ق. م)، و موسى عليه السلام عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إن لم يكن في القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما رأينا من قبل، و الفرق بين نزول الرسالة على موسى و بين تدوينها، فرق كبير، يصل إلى ثمانية قرون على رأي، و قد يصل إلى أحد عشر قرناً أو حتى عشرة قرون فيما يرى آخرون، و منها (ثانياً) أنا لا نعرف عن إخناتون غير أنه الملك الذي جلس على عرش الكنانة في الفترة (1367-1350 ق. م)، و أنه نادى بعبادة الإله الواحد الأحد و من ثم فقد أغلقت معابد الآلهة في كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، و صودرت ممتلكاتها و عطلت شعائرها، مما أثار عليه تجار الدين من كهنة آمون و غيرهم، و من ثم فقد هاجر من طيبة إلى بقعة عذراء لم تشهد عبادة إله آخر من قبل، فأقام عليها مدينته الجديدة «آخت أتون» (العمارنة) (2)، و بقي

ص: 293

1- , 1963 , 15- 16 p. F. w thgirblA. ehT, doireP lacilbiB morF, arZE ot maharba morF, Y. N.

2- العمارنة، و تقع على مبعده 190 ميلاً جنوبي القاهرة، 260 ميلاً شمالي الأقصر، فيما بين ملوي و ديروط، في مقابل دير مواس عبر النهر، و كانت تمتد على مسافة تقرب من الميل شمالي قرية التل، و حتى الحوطة شرقي النهر، و تمثل العمارنة (أخيتاتون) في الوقت الحاضر، قرى بني عمران و الحاج قنديل و العمارنة و الحوطة، ثم الخرائب القليلة التي تقع على طول المدينة القديمة و من ورائها المقابر، و تحمل «أخيتاتون» اسم مليكها لأن المقطعين آخت و أخن مشتقان من نفس الجزع، على حين ألحقت كلمة أتون بكل من اسم الملك و عاصمته.

هناك حيناً من جدهر، يتعبد إلى ربه ويزعم مجالس الدعوة إليه، وأخيراً تجمعت قوى الشر ضده حتى انتهى أمره، فصب كهان آمون كل حقدهم عليه وعلى دعوته واصلحوا أتباعه، ونصّبوا من بعده على العرش صبياً لما ينفع، فمكن لهم وأطلق أيديهم، فأبادوا ديانة آتون، و أعادوا ديانة آمون (1).

ولعل سؤال البداهة الآن: ما صلة كل هذا بأستاذية إخناتون لموسى عليه السلام؟ وهل كانت دعوة إخناتون إرهاباً لدعوة موسى عليه السلام؟

أو هي تمهيد لدعوة التوحيد بين قوم ألفوا تعدد الآلهة، دون أن يجدوا في ذلك أمراً إذاً؟ أم أن إخناتون نبي، كما يرى بعض الباحثين؟

إن الإجابة على واحدة من هذه الأسئلة، لا يستطيع صاحب هذا الكتاب أن يتحمل مسئوليتها أمام الله تعالى، أو قل: لا يستطيع أن يتحمل وذر الخطأ فيها رجل صحب القرآن الكريم، وهو لما يعدو السادسة من عمره، وما يزال وسيظل، إن شاء الله في صحبته الكريمة ما دام حياً يرزق في هذه الدنيا، حيث الصحبة الأبدية، إن شاء الله، في عالم الآخرة، ذلك لأننا نحن المسلمين ملتزمين بما جاء في محكم التنزيل عن الأنبياء عليهم السلام، وليس إخناتون، بالتأكيد، واحداً ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم، وفي نفس الوقت نحن نعلم كمسلمين، أن موسى عليه السلام، نبي).

ص: 294

1- أنظر عن النكسة التي أصابت دعوة إخناتون وعودة الوثنية (محمد بيومي مهران: إخناتون ص 383-421).

الله ورسوله، كما نص على ذلك الذكر الحكيم (1) سورة غافر: آية 78. (2) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص 26، الماوردي: أعلام النبوة ص 52، مجمع الزوائد 8/210، تفسير ابن كثير 2/422-428، تفسير الكشاف 3/18-19، تفسير القرطبي ص 2014-2015، تفسير روح المعاني 4/88-89. (3)، بل ونعلم كذلك أسماء خمسة وعشرين من هؤلاء المصطفين الأختيار (4)، غير أننا في الوقت نفسه لا نستطيع القول، ونحن مطمئنون إلى ما نقوله عن إختاتون إنما هو الحق كل الحق، ذلك لأن سبحانه تعالى أخبرنا في كتابه العزيز، أنه ما من أمة إلا وجاءها رسول من عند الله، العزيز الحكيم، قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (5)**، وقال تعالى: **وَكَم أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (6)** ثم يخبر نبيه ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم **مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (5)**، وقال تعالى: **رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ (7)**.

و من هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء عليهم السلام، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل، ومن قائل إنهم أربعة آلاف، ومن قائل إنهم ثلاثة آلاف (7)، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم

ص: 295

-
- 1- أنظر: عن نبوة موسى عليه السلام: سورة البقرة (87) آل عمران (84) الأنعام (91، 154) الأعراف (103، 104، 144) يونس (75) هود (96)، إبراهيم
 - 2- مريم (51) طه (24، 43، 47) الأنبياء (48) المؤمنون (45) الفرقان (35) الشعراء (10، 16، 27) النمل (10) القصص (32، 36) العنكبوت (39) الأحزاب
 - 3- الصفات (17-18) غافر (32) الزخرف (46) الدخان (17) الذاريات (38).
 - 4- هم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم.
 - 5- سورة فاطر: آية 24.
 - 6- سورة الزخرف: آية 6.
 - 7- سورة النساء: آية 164.

آدم، و آخرهم محمد صلى الله عليه و سلم (1)، و على أي حال، فليس من المستحب الخوض في إحصاء الرسل و الأنبياء، فإنه لا يعلم إلا بوحى من الله تعالى، و لم يبين الله ذلك في كتابه الكريم، و لا رسوله فيما صح عنه من الخبر (2)، غير أن حديث أبي ذر المشهور، فيما رواه ابن مردويه، و قد جاء فيه أنه دخل المسجد النبوي الشريف، فإذا رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس وحده، فسأله عن أشياء، منها الصلاة و الهجرة و الجهاد و الصيام و الصدقة، ثم قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً، قال قلت يا رسول الله: كم الرسل من ذلك، قال ثلاثمائة و ثلاثة عشر، جم غفير، كثير طيب، قلت يا رسول الله: من كان أولهم، قال: آدم، قلت يا رسول الله نبي مرسل؟ قال نعم، خلقه الله بيده، و نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلًا، و قد روى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة، قال قلت: يا نبي الله كم الأنبياء؟ قال مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً، و الرسل من ذلك ثلاثمائة و خمسة عشر، جما غفيرا (3)، غير أن هناك رواية عن أنس بن مالك تذهب إلى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث بعد ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل (4).

و بدهي أنه ليس في كل هذا ما يشير من قريب أو بعيد، على أن إختاتون كان واحدا من أنبياء الله الكرام، و إن كانت آيات القرآن الكريم لا تمنع من أن يكون من الذين لم يقصصهم الله على رسوله صلى الله عليه و سلم، و هذا يعني

ص: 296

1- أنظر: تفسير القرطبي ص 4472 (دار الشعب- القاهرة 1970).

2- محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم ص 24.

3- تفسير ابن كثير 2/ 422-426، مختصر التفسير 1/ 465، ثم قارن سند الإمام أحمد 5/ 265، 266، تفسير روح المعاني 24/ 88.

4- تفسير ابن كثير 2/ 424، مجمع الزوائد 8/ 210.

أن سؤالنا ما يزال بغير جواب، هل كان إخناتون واحدا من أنبياء الله الأبطال؟ أم أنه لا يعدو أن يكون مجرد ملك ثار على دين قومه، وأتى لهم بدين جديد انتهى بانتهاك حياته؟ في الواقع أنه لا توجد لدى صاحب هذا الكتاب إجابة، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله.

ومنها (ثالثا) أن هذا الرأي يذهب إلى أن فرعون الخروج (فرعون موسى) إنما هو «توت عنخ آمون» طبقا لما صرح به «آرثر ويجال» أو لما ارتآه «فرويد»، صاحب النظرية، من أن الخروج تم بعد موت إخناتون بثماني سنوات، و من المعروف أن فترة حكم «توت عنخ آمون» كانت، فيما يرى جاردنر في الفترة (1347-1339 ق. م) أو في الفترة (1352-1343 ق. م) فيما ترى «كريستيان نوبلكور»، وكلا التاريخين يقع في الفترة التي حددها «ويجال» (أي في عام 1346 ق. م)، أو ما بين عامي 1350، 1342 ق. م، فيما يرى فرويد، غير أن آخر فحص لمومياء «توت عنخ آمون» في عام 1971، قد أثبتت أن الفرعون الشاب كان عمره في لحظة الوفاة فيما بين الثامنة عشرة و العشرين، كما أثبتت كذلك أنه مات بسبب حادث أو اغتيال، وذلك من أثر صدمة عنيفة في مؤخر رأسه، قد تكون ضربة من هراوة أو سقوطا من مرتفع (1)، ولم يثبت الفحص أنه مات غرقا، وهو الأمر المؤكد في وفاة فرعون موسى، كما أشارت إلى ذلك التوراة والقرآن العظيم (2).

هذا فضلا عن أن أحداث قصة فرعون مع موسى، وتجبره وعناده وإصراره على الكفر، و وصف الله تعالى له في القرآن الكريم بقوله تعالى:

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ، وقوله تعالى:

ص: 297

1- , 1963 , 173. p. C 215، 173. p. 1963 , -1 .nemahk natuT, truocelboN. D.

2- سورة يونس: آية 90-92، خروج 14/26-31.

فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (1) وقوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (2)، وقوله تعالى: اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالََا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (3)، وأخيرا ادعاؤه الألوهية، كما جاء ذلك في كثير من آي الذكر الحكيم (4)، كل هذا وغيره إنما يتناقض و ما نعرفه تاريخيا عن «توت عنخ آمون»، ذلك الطفل الذي ولي العرش صبيا في التاسعة، وربما الثامنة من عمره، بتدبير من كهان آمون، فمكّن لهم وأطلق أيديهم في شؤون الدين و الدنيا، و لم يعمر على عرش الفراعين سوى عقد من الزمان، ثم ذهب غير مأسوف عليه، و إن كانت الأقدار قد حققت لذلك النكرة بين الفراعين أمجادا كان أولى بها غيره من الفرعين العظام، و سبحان علام الغيوب الذي أضع آثار كبار الفراعين، من أمثال تحوتمس الثالث و رعمسيس الثاني، و أبقى للدينا آثار نكرة، ما كان لها في تاريخ مصر دور يعتد به، حتى بين المعاصرين لها، و ذلك بسبب الكشف المثير الذي قام به، «هوارد كارتير» في الرابع من نوفمبر عام 1922 م (1342 هـ) في طيبة الغربية، حيث عثر على مقبرته بكل ما فيها (5).

و منها (رابعا) أن هذه النظرية لا يمكن أن تكون مقبولة أصلا، إلا إذا كان موسى عليه السلام يعيش فعلا على أيام إخناتون، و أنه، كما يقول جون

ص: 298

1- سورة الزخرف: آية 54.

2- سورة القصص: آية 4.

3- سورة طه: آية 43-45.

4- سورة الشعراء: آية 29، القصص: آية 38، النازعات: آية 22-26.

5- أنظر: 1923-1933 HdrawoH retraC ehT, fo bmoT tuT hknA- nemA- sloV 3, Lnodno.

روته التوراة، ورعمسيس الثاني حي يرزق، بل و ما يزال يجلس على عرش الكنانة، و لمدة تقارب ثلاثة أرباع القرن (1290-1224 ق. م) دون أن ينجح في القضاء على هؤلاء البدو الرحل، و هو الذي كتب له أن يهزم أكبر قوة في عصره، بعد مصر، و هي قوة الحيثيين، ثم يصبح بعد ذلك سيد الشرق كله، و هل من المنطق أن نتصور أنه لم يلتق بهم في حملة السنة الرابعة أو الخامسة أو الثامنة، أو حتى في حملة عامه الحادي والعشرين، ثم كيف استطاع أن يخضع كل فلسطين، و يحارب الحيثيين في شمال سورية، و بنو إسرائيل يعثون في فلسطين فسادا و ينشرون في ربوعها الخراب و الدمار، بل و يستولون على مدنها الواحدة تلو الأخرى، كما يحلو لمن كتبوا التوراة، أن يصفوا عمالهم، بعد دخولهم فلسطين، بقيادة يشوع بن نون (1)، كل هذه أسئلة لا نجد لها جوابا يتفق و خروج بني إسرائيل من مصر، بعد موت إخناتون بسنوات ثمان، أي في عام 1342 ق. م، طبقا لنظرية «فرويد» هذه.

و من هنا، فإننا نرى «فرويد» نفسه، يتردد في قبول نظريته هذه، ثم يفترض أن موسى عليه السلام، ربما عاش في عصر لاحق لإخناتون (و بهذا يهدم نظريته كلها من أساس) و أن هذا سوف يتأخر بتاريخ الخروج بعض الوقت، و يجعله إلى الزمن المفترض أكثر قربا، أي إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، و إن كان يعود ثانية ليفضل الخروج في أعقاب موت إخناتون (2).

و أخيرا (خامسا) فليس لهذه النظرية من أساس من الآثار و التاريخ

ص: 300

-
- 1- أنظر: سفر يشوع، محمد بيومي مهران: إسرائيل 601/2 - 622 (الإسكندرية 1978)، ف. ب. ماير: يشوع و أرض الموعد- ترجمة مرقس داود- القاهرة 1949. و كذا، J. Gnatsra, J. Auhso, J. Segdu, T. FehT, F. Snoitadnuo, B. I. H. Elbi, S. Yrotsi.
- 2- . P, tic- po, duerF. S 36- 35 .

تعتمد عليه، غير اعتمادها إلى افتراضات فرويد، هذا فضلا عن معارضتها لكل ما جاء في التوراة و القرآن العظيم بشأن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، مثل محاجة موسى فرعون و تقديم المعجزات الباهرة (1)، و تنكيل الله تعالى بفرعون و قومه (2)، فضلا عن الجدل الذي طال و استتال حول ألوهية الفرعون المزعومة (3)، و محاولة فرعون قتل موسى (4)، و خروج بني إسرائيل من مصر ليلا (5)، و أن فرعون قد تبعهم و لكن الله فرق لهم البحر، فاتخذوا لهم فيه سبيلا إلى النجاة، بينما هلك فرعون و جنده غرقا في البحر (6)، و أن موسى تلقى رسالة ربه على طور سيناء (7)، و غير ذلك من أحداث فصلناها من قبل في قصة موسى عليه السلام، تجاهلها فرويد في نظريته هذه، و ارتضى أن الخروج تم بسهولة لمكانة موسى في مصر، سواء أ كانت هذه المكانة دينية أو سياسية أو عسكرية، و أن التفاصيل التي ذكرتها التوراة عن موسى و الخروج، ليست أكثر من أسطورة دينية تسجل تراثا انحدر من زمن سحيق على نحو يخدم ميولها (8).

و انطلاقا من كل هذا، فإننا نرفض رأي فرويد هذا، لأنه مبني على

ص: 301

-
- 1- أنظر: سورة الأعراف: آية 103-126، طه: آية 17-24، الشعراء: آية 10-51، النمل: آية 8-14، القصص: آية 29-42.
 - 2- سورة الأعراف: آية 130-36، خروج 7/19-24، 8/11-32، 9/1-35، 10/1-29.
 - 3- سورة الشعراء: آية 29، القصص: آية 38، النازعات: آية 22-26، ثم قارن: سورة المؤمنون: آية 45-49.
 - 4- سورة غافر: آية 26-28.
 - 5- سورة طه: آية 77، الشعراء آية 52، الدخان: آية 23-24.
 - 6- سورة البقرة: آية 50، يونس: آية 90-92، طه: آية 77-99، الشعراء: آية 52-68، القصص: آية 40، الدخان: آية 23-24، الذاريات: آية 40، خروج 14/5-31.
 - 7- سورة طه: آية 9-16، القصص: آية 29-35، خروج 3/1-18.
 - 8- .P, tic- po, duerF. S 38 .

من تسخير فرعون للعبانيين في إنشاء مدينة ضخمة في أرض جوشن بشرق الدلتا، تقول التوراة «فجعلوا عليهم (أي بني إسرائيل) رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورمسيس» (1)، واعتمادا على هذا النص رأى البعض أن بني إسرائيل بنوا لفرعون التسخير مدينتين، الواحدة فيثوم، والثانية رمسيس، وقد دلت الحفائر على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أنشئت في عهد رمسيس الثاني، وأن الإشارة إلى المدينتين في سفر الخروج لا يمكن أن تكون مصادفة، لأن ذلك إنما يتطابق مع كل ما نعرفه من المصادر الأخرى عن إقامة بني إسرائيل في مصر، لدرجة أنها يمكن أن تعتبر تقاليد يمكن الاعتماد عليها، فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذه المعلومات لها وزن تاريخي أكثر من الافتراض المبهم حول الظروف التاريخية، و تاريخ دخول بني إسرائيل مصر.

وانطلاقا من هذا كله، فقد نظر بعض الباحثين إلى رمسيس الثاني، على أنه «فرعون التسخير» (2)، وهو أمر يتفق تماما مع نشاطه البنائي الكبير، بخاصة وأنه قد استقر في شرق الدلتا، وأن الانطباع العام الذي يعطيه لنا سفر الخروج أن بني إسرائيل إنما كانوا يقيمون في مكان ما ليس بعيدا عن البلاط الملكي في قنتير، هذا فضلا عن أن المزمور (78) إنما يعطينا تأكيدا بأنهم قد عاشوا في «أرض مصر في حقول صوعن» (3)، و صوعن هو الاسم العبري لمدينة «تائيس» (على مبعدة 19 كيلا من قنتير) حيث كان بلاط الفرعون في هذه المنطقة في عهد رمسيس الثاني، وليس في فترة مبكرة على أيام تحوتمس الثالث.

ص: 303

1- خروج 11 / 1.

2- .P, tic- po, htoN. M 120 .

3- مز مور 12 / 78، 41.

و يذهب «جاك فنجان» (1) إلى أن بني إسرائيل قد استخدموا، بادئ ذي بدء، في عهد «سيتي الأول»، ولكنهم لم يحملوا أثقالهم إلا في أيام رعمسيس الثاني، مما دفعهم إلى الهروب، وفي هذا الوقت ولد موسى عليه السلام، و تربى ثم عاش في البرية، وأخيرا عاد إلى مصر، كما يروي سفر الخروج (25-1/2) وهكذا فإن عصر رعمسيس الثاني يجب أن يكون عصر رحيل القوم المستعبدين، و من ثم فيجب أن يكون وصول الإسرائيليين إلى فلسطين و توغلهم في البلاد و التقاء مرئتاح بهم في حوالي عام 1220 ق.

م، و هذا بالكاد يعطيهم الوقت للتيه في البرية مدة الأربعين سنة، وربما كان هذا الرقم تقليديا، لأن التيه في الواقع كان أقصر من ذلك (2)، و أما «وليم أولبرايت» فيحدد عام 1290 قبل الميلاد، تاريخا للخروج، على أساس أن حكم رعمسيس الثاني في رأيه كان في الفترة (1301 - 1234 ق. م) و أن السنين العشرة الأولى من حكمه قد شغلت بالنشاط العمراني الكبير في المدينة التي حملت اسمه (بررعمسيس) (3)، و يذهب «كيلر» إلى أن المطابقة المدهشة بين هذا التاريخ (أي عام 1290 ق. م) و بين طول مدة إقامتهم بمصر، و التي يحددها سفر الخروج (40/12) بمدة 430 سنة، تكاد تكون تامة، و هي في نفس الوقت جديرة بالاعتبار، و من ثم فإن الهجرة الإسرائيلية إلى مصر يجب أن تكون قد حدثت في عام 1720 ق. م (4).

غير أن هناك من العقبات ما يقف في وجه قبولنا لوجهة النظر هذه، منها

ص: 304

1- .P, tic- po, . nageniF. J 134، 120 .

2- إن فترة التيه أربعون سنة على وجه التأكيد كما تشير إلى ذلك و الإنجيل و القرآن العظيم (سورة المائدة: آية 26، عدد 33/14، أعمال الرسل 36/7).

3- .P, tic- po, thgirblA. F. W 194 . و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 332

4- جون الدر: الأحجار تتكلم ص 55 (كترجم)، و كذا، P. 121- 122، 1967، K. W 1967، 122- 121. P. 121- 122، 1967، K. W 1967، 122- 121. P.

(أولاً) أنها تجعل من رمسيس الثاني فرعوناً للتسخير وللخروج في آن واحد، وهذا يتعارض مع بعض نصوص التوراة، التي تفرق بينهما (1)، هذا وقد أشرنا من قبل، إلى تحريض الملأ من قوم فرعون على أن يقوم فرعون، بعد إيمان السحرة بدعوة موسى، وفضيحة فرعون أمام موسى بين الناس، بمذبحة جديدة بين بني إسرائيل، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرِكَ وَ آلِهَتِكَ، قَالَ سَدُّ نَفْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسَّ تَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (2)، وقال تعالى: قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسَّ تَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (3)، ونحن نعرف أن بني إسرائيل قد عانوا من قبل، من إبان مولد موسى مثل التنكيل الوحشي من فرعون و ملئه، كما يقول تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسَّ تَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)، و من ثم فهناك، فيما يرى صاحب الظلال، أحد احتمالين، أولهما: أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر الأخير، كان قد مات و خلفه ابنه و ولي عهده، و لم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى و واجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه و هو ولي العهد، و يعرف قصته، و الاحتمال الثاني أن فرعون الذي تبني موسى ما يزال على عرشه، ولكنه تراخى أو وقف ذبح الأبناء و استحيا النساء، فالحاشية تشير بتجديده، و تخصص به الذين آمنوا مع موسى و حدهم للإرهاب

ص: 305

- 1- خروج 23/2 - 25، 19/4.
- 2- سورة الأعراف: آية 127.
- 3- سورة غافر: آية 25-26.
- 4- سورة القصص: آية 4.

والتخويف (1)، وبدهي أن الاحتمال الأول يثير الشك حول أن يكون رعمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

ومنها (ثانيا) أن الفترة الأولى من حكم رعمسيس الثاني، والتي شغلت بناء المدينة، كما يقول أصحاب هذا الرأي، لا تتناسب، مدة بقاء موسى في مدين أربعين عاما، كما تقول التقاليد اليهودية و المسيحية (2)، وإن كنا نحن المسلمين لدينا ما يتناقض ذلك، ذلك أن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه الكريم أنها سنون ثمان أو عشرا، وهو الأرجح، كما بينا من قبل، قال تعالى: قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِدِّكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (3)، ومنها (ثالثا) أننا لا نستطيع حتى الآن أن نحدد تاريخا معيننا لبناء مدينة «بر رعمسيس» بالنسبة إلى عهد الفرعون، فضلا عن أن يكون ذلك في العقد الأول منه بالذات، وهو الذي حدثت فيه كل حروبه تقريبا في غربي آسيا (حملات العام الرابع و الخامس و الثامن من حكمه)، و من ثم فربما كان النصف الثاني من عهد رعمسيس الثاني أكثر ملاءمة لبناء المدينة من النصف الأول، و أن لزوجاه بنتت ملك الحيثيين «خاتوسيل» في عام حكمه الرابع و الثلاثين (حوالي عام 1256 ق. م)، نتيجة لمعاهدة التحالف بين البلدين في العام الحادي و العشرين من عهد رعمسيس الثاني (حوالي عام 1269 ق. م) إلى جانب أسباب أخرى، أثر في بناء المدينة،

ص: 306

1- في ظلال القرآن 5/ 3077-3078، وانظر: البداية و النهاية 1/ 250.

2- خروج 7/ 7، أعمال الرسل 7/ 23، 30، قاموس الكتاب المقدس 2/ 931، شاهين مكاروريوس: تاريخ الأمة الإسرائيلية- القاهرة 1904 ص 40.

3- سورة القصص: آية 27-28.

مما يجعل بناءها في فترة متأخرة من عهده، وليس، على أية حال، في العقد الأول من عهده (1).

ومنها (رابعا) أن فترة التيه، وهي أربعون سنة، ليست رقما تقليديا، كما يقول أصحاب هذا الرأي، وإنما هي حقيقة دينية و تاريخية مؤكدة كل التأكيد، ذلك أن هذا الرقم إنما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم (2)، و بدهي أنه ليس من العلم، فضلا عن الإيمان بكتب السماء، أن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب، ومنها (خامسا) أن القول بدخول بني إسرائيل مصر عام 1720 ق. م، أمر غير مقبول، لأنه يجعل دخولهم مصر مع أو قبل دخول الهكسوس مصر، ذلك لأن الهكسوس، طبقا للوحة الأربعمائة سنة (3)، قد دخلوا مصر ما بين عامي 1730، 1720 ق. م، بل إن «ردفورد» إنما يذهب إلى أن بداية حكم الهكسوس في مصر يجب أن تكون في وقت ما في السنوات العشر التي تقع ما بين عامي 1660، 1649 قبل الميلاد (4)، و من المعروف، كما فصلنا من قبل، أن يوسف عليه السلام دخل مصر على أيام الهكسوس و بعد فترة لا تقل عن ربع قرن بحال من الأحوال، استدعى أباه وإخوته، بل إن هناك، كما رأينا من قبل، من يجعل دخول بني إسرائيل مصر على أيام أمنحتب الثاني (1436 - 1413 ق. م)، و إن كنا نرجح الرأي الأول، الذي يذهب إلى أنهم دخلوا على أيام الهكسوس، و من ثم فإن هذه الفترة من دخول بني إسرائيل مصر و حتى خروجهم منها، كما

ص: 307

-
- 1- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث- الإسكندرية 1969 ص 46-62. مصر- الجزء الثاني- الإسكندرية 1984 ص 175-183.
 - 2- سورة المائدة: آية 26، عدد 33/14-34، أعمال الرسل 7/36، 42.
 - 3- أنظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- القاهرة 1976 ص 137-139، و كذا. na'L ed eletS eL, tetnoM. P 400., VI, imeK 215- 191. p, 1933.
 - 4- 39، 1970، D 28. B .D 28. p, 1970، 39، 4- .abatneirO ,noitidarT dna yrotsiH ni noisavnI soskyH ehT ,drofedR .B .D 28. p, 1970، 39، 4-

يرى أصحاب هذا الرأي، لا تتفق وبقائهم في مصر مدة 430 سنة، وبالتالي فإن رعمسيس الثاني قد يكون فرعون التسخير، ولكنه ليس فرعون الخروج.

[5] مرنبتاح: هو فرعون موسى: -

يعتمد أصحاب هذا الرأي الذي يذهب إليه مرنبتاح (1224-1214 ق.م) هو فرعون موسى، على نص التوراة الخاص ببناء مدينتي فيثوم و رعمسيس (1)، وعلى ما جاء في «لوح إسرائيل» (2)، والذي ذكر فيه اسم إسرائيل لأول مرة في النصوص المصرية، وهكذا رأَت جمهرة كبيرة من المؤرخين أن مرنبتاح هو فرعون الخروج، وأن أباه رعمسيس الثاني هو فرعون التسخير، و تتفق آراء «نافيل» و «بتري» و «سايس» على أن خروج بني إسرائيل من مصر إنما حدث على أيام مرنبتاح، ذلك لأن «نافيل» ظل متمسكا برأي «لبسيوس» من أن رعمسيس الثاني هو مضطهد اليهود، وأن ولده مرنبتاح هو الفرعون الذي خرجوا في عهده من مصر (3)، و أما «سايس» فإنه يرى أن الآثار المصرية إنما تحصر هذا الحادث في عصر مرنبتاح (4)، و أما «بتري» فيرى في كتابه «تاريخ مصر» (5) أن الخروج تم في عصر مرنبتاح، و في عام 1213 ق.م بالذات، ثم يقدم لنا في كتابه «مصر وإسرائيل» (6) التقويم التالي: دخول بني إسرائيل مصر في عام 1650

ص: 308

1- خروج 11/1.

2- لوح إسرائيل: محفوظ بالمتحف المصري بالقاهرة برقم 340 25، وقد عثر عليه «بتري» عام 1896 م في خرائب معبد مرنبتاح الجنازي في طيبة الغربية، وقد نشره كثير من العلماء، منهم بتري و برستد و كونتز و إرمان و ويلسون وغيرهم.

3- , 1913 p. E 93. ellivA, ygoeahcrA fo ehT dIO tsematseT L, .nodnoL

4- , 1896 H. A S. H. A 1896, epye ehT fo ehT swerbeH dna sudoreH L, .nodnoL

5- , 1927 p. 115. W 115. F. M. W 115, epye fo yrotsiH A, eirteP. F. M. W 115, .nodnoL, III,

6- , 1925 p. 38. W 38, epye, eirteP. F. M. W 38, .nodnoL, learsI dna tpye,

م، و بداية الاضطهاد في عام 1580 ق. م، ثم الخروج من مصر في عام 1220 ق. م، و بناء معبد سليمان في عام 973 ق. م، و أن الاضطهاد قد استمر، طبقاً للتقاليد اليهودية و المسيحية، أربعة قرون (1).

و يرى الدكتور عبد الحميد زائد أن حفائر «بيير مونتيه» في تانيس إنما تثبت صحة الرأي القائل بخروج اليهود في عهد مرنتاح، وأنه لا يوجد أي نشاط لملوك الأسرة الثامنة عشرة هناك، فقد كانت «بي رعمسيس» من إنشاء رعمسيس الثاني، و ليست من عمل ملك آخر، و قد جاء في المزامير (12، 43، 138) ما يفيد أن الحوادث التي سبقت خروج اليهود قد وقعت في تانيس، و تميل جمهرة العلماء إلى ترجيح خروج بني إسرائيل من مصر في الأيام الأولى لعهد مرنتاح (2)، و أما «فيليب حتى» فيرى أن الفرعون الذي «لم يكن يعرف يوسف» إنما هو رعمسيس الثاني، و أن الخروج قد حدث على أيام ولده مرنتاح (3)، و أما «رولي» فالرأي عنده أن الخروج كان في عهد مرنتاح، و في عام 1225 ق. م (4)، و لعل من الأفضل أن نناقش أدلة المعارضين و المؤيدين كل على حدة.

(1) أدلة المعارضين و مناقشتها:-

ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور أحمد فخري طيب الله ثراه، من أن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين و احتساب الزمن، ثم ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية في فلسطين، جعل خروج بني إسرائيل في عهد

ص: 309

1- تكوين 13/15، أعمال الرسل 6/7.

2- عبد الحميد زائد: الشرق الخالد- القاهرة 1966 ص 378.

3- فيلب حتى: تاريخ سورية و لبنان و فلسطين- بيروت 1958، 1/193 (مترجم).

4- P, tic- po, regnU. F. M 332. و كذا. nodnoL, auhsaJ ot hpesoJ morF, yelwoR. H. H 550. p. 1950,

مرنبتاح أمرا غير مؤكد (1)، ويجب أن يكون في عهد الأسرة الثامنة عشرة، إلا أنه حتى الآن لم توجد أدلة أثرية تؤيد هذا الرأي (2)، ومنها (ثانيا) ما عرف بتقرير موظف الحدود، والذي يذكر صاحبه أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح لرعي ماشيتهم بالقرب من فيثوم، ومن البدهي أن هذا لا- يمكن أن يحدث لو كان الإسرائيليون لا يزالون بمصر، حتى كتابه التقرير في السنة الثامنة من عهد مرنبتاح (3)، ومنها (ثالثا) ما يراه البعض من أن هذه النظرية إنما تضعف بحقيقة أن جسد الفرعون قد وجد في طيبة الغربية، وبذلك فلا يمكن أن يكون قد غرق في البحر الأحمر، طبقا للتقاليد الإسرائيلية (4)، ومنها (رابعا) أن مرنبتاح قد اعتبرهم من نزلاء فلسطين، ولم يذكر أنهم كانوا من رعايا أرض الكنانة، وهذا يعني أن بني إسرائيل قد نزلوا فلسطين قبل عهد مرنبتاح، وبالتالي فقد خرجوا من مصر قبل عهده (5).

ويمكن الرد على ذلك في النقاط التالية، والتي منها (أولا) أن لوح إسرائيل الذي يرى البعض أنه اعتبرهم من نزلاء فلسطين، وبالتالي فقد خرجوا قبل عهد مرنبتاح، قد جاء فيه بعد المقدمة «الأمرء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتي هادئة، وكنعان قد استلبت في قسوة، وأخذت عقلا، وقبض على جازر، وصارت ينوعام كأن لم يكن لها وجود،

ص: 310

1- أحمد فخري: مصر الفرعونية- القاهرة 1971 ص 359.

2- محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة ص 197.

3- TENA, nosli W. A. J 259- 258. p, 1966, و كذا, . rammarG naitpygE, renidraG. H. A 77- 76. p, 1966. .
oN, III, ERA, detsaerB. H. J 638- 636 و كذا.

4- خروج 26/14- 31, 1/15- 21, و كذا, 1947. p, 223. O. E. O. W drofXO, tpygE fo ycegL ehT, yelretseO.

5- عبد العزيز صالح: مصر و العراق ص 236, 2, 1975. p, 234. traP, II, HAC, renkluaF. O. R

وإسرائيل قد خرجت وأزيلت بذرتها، وأصبحت خارو أرملة لمصر» (1)، فالنص إذن يتحدث عن جهود الفرعون في السنة الخامسة من الحكم عن جهود الفرعون الحربية ضد الأقواس التسعة، والتي يرى «جاردنر» أنها الشعوب المختلفة في وعلى حدود مصر (2)، و ضد التحنو و خاتي (الحيثيين) و كنعان، ثم ضد عقلاان و جازر و ينوعام و إسرائيل و خارو، و ليس في هذا من دليل على أن بني إسرائيل كانوا في فلسطين وقت ذلك، لأن النص إنما يتحدث عن حروب الفرعون في فلسطين، و حروبه ضد الحيثيين، أي خاتي، و هي دولة، و عن تحنو و إسرائيل، و هما أقوام، و عن عقلاان و جازر و بنوعام، و هي مدن، أي عن حروب مرنتاح في مصر، و خارج مصر، على الحدود الشرقية و الغربية، بل و قد تجاوز ذلك حتى بلاد الحيثيين (آسيا الصغرى).

هذا فضلا عن أن اسم «إسرائيل» في النص إنما كان مصحوبا بالمخصص الذي كان يشار به إلى «قوم» و ليس إلى «منطقة» مثل ليبيا و عقلاان و جازر و بنوعام، و من هنا يمكن أن نستنتج أن إسرائيل كانت ما تزال قبيلة أو مجموعة قبائل، و لم تكن بعد مثل الليبيين و الحيثيين تسكن منطقة مأهولة بالسكان منذ فترة طويلة (3)، و يفسر الدكتور عبد الحميد زائد (4)، ذلك بأن المخصص الذي كتب به الإسرائيليون، يختلف عن المخصصات التي كتبت بها بقية الجماعات التي هزمت أو الأقطار التي قضى عليها مرنتاح، فجميع تلك البلاد قد وضع لها المخصص الخاص بالبلاد الأجنبية، أما اسم

ص: 311

1- dna. R. L. ssoM ,T lacihpargopB yhpargilbi fo tneicnA naitpygE cihpylgoreiH .A renidraG ,tic -po ,P

273 .B retroP . و كذا. P, II, stxeT 159

2- , 1964 . p. 303 .A renidraG , tic -po , shoarahP ehT fo

3- . P, tic -po , sdoL . A 188- 187 .

4- عبد الحميد زائد: المرجع السابق ص 746.

«إسرائيل» فقد مثل برجل وامرأة و ثلاثة خطوط رأسية خاصة بالجمع، ولا سبيل في هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصري القديم و سهوه، كما ذهب إلى ذلك «جون ويلسون» (1)، و من ثم فهذا المخصص على هذه الصورة إنما يشير إلى أقوام أجنب أو قبائل أجنبية، و ليس إلى أرض أجنبية (2)، و في الواقع أننا لو نظرنا إلى ترتيب المناطق، كما جاء على اللوح، فإننا نجد أنها قد كتبت من الشمال إلى الجنوب، و من الجنوب إلى الشمال، في داخل كل قطاع، و لا شك في أن الكتاب المصري إنما كان موفقا و اعياء، فلقد وردت أسماء الشعوب و البلاد الأجنبية في ذلك النص تسع عشرة مرة، لم يغفل رسم الأرض الأجنبية في واحدة منها، مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به، بل كان من دقته أنه في ذكر اسم الشرطة المصرية و قد كان رجالها يتخذون من بجة النوبة، قد اقتصر مع رسم رمز الناس، على رمز يدل على الأجنبي، دون رسم الأرض، لأنهم في غير أرض لهم (3).

و انطلاقا من هذا كله، يمكننا القول أن إسرائيل إنما ذكرت على أنهم أقوام عاشوا على الحدود المصرية، و أنهم كانوا لا وطن لهم طوال تاريخهم، و من ثم فإن التوراة تسميهم «أبناء إسرائيل»، و أنهم ليسوا سكان هذه الأرض أو تلك، و من ذلك نعرف أن عناصر النقش نفسه إنما تعارض القول بأن الإسرائيليين كانوا يسكنون فلسطين، بل على العكس، فإنها تميل إلى أن الأرض التي كانت، في نظرهم، تفيض باليمن و السلوى لم تكن قد احتلت بعد، إذ كانت كنعان ما تزال بعد، الأرض الموعودة، و لم تصبح بعد

ص: 312

1- .P, TENA, nosliW. A. J 378، oN. 18 .

2- , 1975 , p. 544. O 544. p. 1975 , 2, traP, HAC, tdlefssiE.

3- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 145.

الأرض المملوكة، وإذا اعترفنا بذلك، فضلا عن أهمية الرموز المختلفة المخصصة التي استعملت للأقوام المختلفين وإذا قبلنا ترجمة «إدوارد نافيل» ورأيه في كلمة «بذرة»، فمن البدهي إذن القول بأن النقش يشير هنا إلى خروج بني إسرائيل من مصر، وفي الوقت نفسه، فإنه يعني أن جنسا أجنبيا من البدو ويدعى «إسرائيل» قد خرج من مصر، ومن ثم يصبح لا وجود لهم بالنسبة إلى مصر، والواقع أن ما جاء في متن هذا اللوح، على ما يظن، إنما يعدو سجلا معاصرا لخروج بني إسرائيل من مصر، كما يدل على أنه قد وقع في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، فيما يعتقد «نافيل» (1).

ومنها (ثانيا) أن تقرير موظف الحدود إنما يتحدث عن السماح لبدو أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح في العام الثامن من حكم مرنبتاح، ومن المعروف أن بدو آدم ليسوا من بني إسرائيل، وإن كانوا أبناء عمومة، فالإسرائيليون إنما هم أبناء يعقوب عليه السلام، والذي لقب «إسرائيل» (2)، وأما الأدوميون فهم أبناء شقيقه التوأم «عيسو» (العيص من المصادر العربية) والذي دعي «أدوم»، وبدهي أن الذين لجأوا إلى مصر من قحط كنعان إنما هم الإسرائيليون أبناء يعقوب، وليسوا الأدوميين أبناء عيسو، وهذا وقد كان الأدوميون وقت خروج بني إسرائيل من مصر، وتجوأهم في التيه، فيما تروي التوراة (3)، يسكنون في شرق الأردن، مكونين مملكة قوية ذات حضارة مزدهرة (4)، كما كان لهم موقف معارض من الإسرائيليين، حتى أنهم منعوهم من أن يمروا في طرقهم (5)، كما أن كلمة «بدو» تعادل الكلمة

ص: 313

1- سليم حسن: مصر القديمة 112 / 7، وكذا، AEJ. ellivaN. E 6- 3. p، 21.

2- أنظر عن لقب «إسرائيل» (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1 / 29-32، 199-205).

3- عدد 14 / 20 - 17.

4- محمد بيومي مهران: إسرائيل 2 / 547-552، وكذا. P, tic- po, nageniF. J 152.

5- عدد 22 / 20 - 29.

المصرية «شاسو»، و هم يمثلون القبائل الآسيوية المحيطة بمصر بصفة عامة، هذا فضلا عن أن لنا رأيا خاصا فيما يختص بتاريخ الخروج في عهد مرنبتاح، يتفق و ما جاء في القرآن الكريم عن غرق الفرعون في البحر، و هو ليس في السنة الخامسة على أية حال، كما سنشير إليه في مكانه من هذه الدراسة.

و منها (ثالثا) أن تحقيق تاريخ الخروج و احتساب الزمن، و نتائج الحفريات الأثرية في فلسطين، إنما تؤيد هذا الرأي و لا تعارضه، ذلك أننا لو افترضنا أن الخروج كان في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح، كما يقول الكثير من العلماء، أي في عام 1220 ق. م، ثم عدنا إلى الوراء مدة 430 سنة، و هي المدة التي حددتها التوراة (1) لإقامة بني إسرائيل في مصر، لوصلنا إلى عام 1650 ق. م، و هو تاريخ دخول بني إسرائيل مصر، و هو تاريخ يتفق تماما مع عصر الهكسوس، إلا إذا قبلنا وجهة نظر النص السبتاجوني، و الذي بكلمة واحدة تختزل هذه المرحلة إلى النصف، و أما التنقيبات الأثرية، فقد ناقشناها من قبل، و تبين لنا أنه لا يوجد حتى الآن دليل أثري واحد نستطيع أن نحدد به وقت دخول بني إسرائيل أرض كنعان، بل إن حفائر «فيشر» في بيسان (بيت شان القديمة) قد كشفت عن قلعة مصرية عثر بها على لوحات من عهد سيبي الأول و رعمسيس الثاني، بل و كذا تمثال لرعمسيس الثالث من الأسرة العشرين، و يقول «فيشر» إن هذه الآثار إنما تقدم برهاننا كافيا على أن بيسان ظلت في أيدي المصريين فعلا، من عام 1313 إلى عام 1167 ق. م، و قد أثبتت الحفائر المتوالية أن أيدي الرعامسة ظلت قوية باستمرار على الأرض الموعودة (2).

ص: 314

1- خروج 12/40-41.

2- AEJ, renidraG. A 88. p, 1924, 10, -2.

ومنها (رابعاً) أن اكتشاف جثة مرتبحة في طيبة الغربية، و تناقض ذلك مع التقاليد العبرية التي ترى أن الفرعون غرق في البحر الأحمر، إنما تلك وجهة نظر التوراة، كما جاءت في سفر الخروج (1)، ولكننا نحن المسلمين لدينا ما يناقض ذلك تماماً، فلقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن الفرعون قد أنجى ببدنه بعد غرقه، ليكون آية لمن خلفه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل بالتفصيل، وصدق الله العظيم، حيث يقول: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنُ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (2)، و من ثم فإن وجود جثة مرتبحة بين جثث الفراعين لا تحل المشكلة، كما أنها لا تعقدها كذلك، هذا فضلاً عن أن كل الفراعين الذين دارت حولهم روايات تاريخ الخروج، و أيهم فرعون موسى، من أمثال أحمس الأول و تحوتمس الثالث و أمنحتب الثاني و توت عنخ آمون و رعمسيس الثاني و مرتبحة و سبتي الثاني، قد اكتشفت جثتهم (3)، و في هذا إعجاز للقرآن ما بعده إعجاز.

ومنها (خامساً) أن نص التوراة (ملوك أول 1/6) و الذي يتحدث عن إقامة سليمان عليه السلام، لهيكله بعد خروج بني إسرائيل من مصر بمدة 480 سنة، و الذي اعتبره بعض العلماء المادة الأساسية في المشكلة (4)، فقد ناقشناه من قبل، و تبين لنا مدى الصعوبات التي تقف عائقاً في وجه قبولنا إياه، فضلاً عن أن هذا الرأي الذي يرجح الخروج في عهد مرتبحة، إنما يعتمد كذلك على نص توراتي آخر (خروج 1/11) و الذي يتحدث عن

ص: 315

-
- 1- خروج 14/26-31، 15/1-21.
 - 2- سورة يونس: آية 92، و انظر: تفسير الطبري 15/194-198، تفسير القرطبي ص 3218-3220، تفسير ابن كثير 4/326-329، تفسير المنار 11/387-390.
 - 3- أنظر: سليم حسن: مصر القديمة 4/217، 501، 692-693، 6/357-359، 8/673-698، أحمد فخري: مصر الفرعونية ص 390-392 ألن جاردنر: مصر الفراعنة ص 350-351، و كذا F. P, tic- po, truocelboN. D. C 215، 173 .
 - 4-، 1954، p. 141. U. F. M regnA, ygoloeahcrA, Tdno ehT dlo tmatseM, nagihciM.

تسخير بني إسرائيل في مدينتي فيثوم ورعمسيس، وهكذا استطاع العلماء أن يستخرجوا من التوراة تاريخين للخروج في وقتين مختلفين، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان.

(1) أدلة المؤيدين و مناقشتها:

وهكذا يبدو لنا مما سبق بوضوح أن أدلة المعارضين لهذا الرأي الذي يرجح أن مرنبتاح هو فرعون الخروج (فرعون موسى) لم تكن بكافية لإسقاطه، أو حتى صرف النظر عنه، بل إننا نستطيع أن نعضده بحجج أخرى، غير ما ذكرنا، منها (أولا) أن التوراة إنما تذكر أن مدينة «رعمسيس» (بر رعمسيس) كانت هي المدينة التي بدأت منها مسيرة الإسرائيليين نحو سيناء، حيث التيه أربعين سنة، و من المعروف أن مدينة «بر رعمسيس» إنما كانت من إنشاء رعمسيس الثاني وحده، وليس من عمل ملك آخر، بل إننا لنعرف أنه ابتداء من عصر هذا الفرعون قد انتقل مركز الثقل من الصعيد إلى شرق الدلتا، حيث المدينة التي حملت اسمه، وغدت عاصمة البلاد على أيام الرعامسة (2)، و منها (ثانيا) أنه من المعروف تاريخيا أن رعمسيس الثاني (1290-1224 ق. م) إنما قدّر له أن يجلس على عرش الكنانة 67 عاما و هي أطول فترة عرفها التاريخ المصري لحكم ملك من الملوك، إذا استثنينا ببي الثاني الذي حكم 94 عاما (2)، و من ثم فهو قد حكم الفترة التي تتطلبها التقاليد الإسرائيلية، كما جاءت في التوراة، بشأن هروب موسى إلى مدين ثم بقائه هناك أربعين عاما، حتى إذا ما علم بوفاة الفرعون عاد إلى مصر لإطلاق سراح بني إسرائيل (3)، و إن اختلفت وجهة النظر الإسلامية في

ص: 316

1- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر 442/1-443، 130/2.

2- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر و العالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص 46-62، مصر- الجزء الثاني ص 133-136.

3- خروج 23/2، 19/4، 7/7، أعمال الرسل 30/7، قاموس الكتاب المقدس 931/2، شاهين مكاربوس: المرجع السابق ص 40.

هذه المدة، فهي في القرآن الكريم، سنون ثمان، و الأرجح أنها كانت عشرا (1)، كما أشرنا من قبل.

ومنها (ثالثا) أن القائمة القديمة «للملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل ما ملك ملك لبني إسرائيل (2)، لا تذكر إلا ثمانية ملوك بين «بالع بن بعود»، والذي وَّحد ببلعام بن باعور، طبقا لتقاليد جاءت في التوراة (3) و بين هدار، فإذا سمحنا بفترة من 25 إلى 30 سنة، كحد وسط لكل عهد، فسوف نحصل على مجموع من السنوات ما بين مائتين وأربعين عاما، وهذه الفترة تتناسب مع الفترة منذ خروج بني إسرائيل من مصر، طبقا لهذه النظرية، و بين قيام ملكية شاول (طالوت في القرآن) قبل القرن العاشر قبل الميلاد، بعقد أو عقدين من الزمان (4)، و منها (رابعا) أن هذه النظرية التي تذهب إلى أن مرنبتاح هو فرعون موسى، إنما يمكن أن تعطينا تفسيراً لما حدث في فلسطين في الفترة من 1400 إلى 1300 ق. م (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) فيما يتصل بوجود أسماء «شمعون» و «أشير»، فربما كانا اسمين لمجموعتين عبريتين لم تهاجر إلى مصر، و هذا يخالف التقاليد العبرية (5) فضلا عما جاء في القرآن الكريم بشأن دعوة يوسف عليه السلام أهله أجمعين إلى مصر (6)، أو ربما كانا اسمين لأماكن أو مدن كنعانية، أطلقها الإسرائيليون عليها فيما بعد، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، و ربما كان نفس الشيء صحيحا بالنسبة

ص: 317

-
- 1- سورة القصص: آية 27-28.
 - 2- تكوين 31/36-39.
 - 3- عدد 14/22-41.
 - 4- أنظر عن قيام ملكية شاول (طالوت): محمد بيومي مهران: إسرائيل 668-674 (الإسكندرية 1978).
 - 5- تكوين 26/46-27.
 - 6- سورة يوسف: آية 92-100.

ومنها (خامسا) أن الفترة الأولى من عهد مرنبتاح قد تميزت بالاضطرابات والحروب، مما اضطره إلى الخروج إلى غربي آسيا، لإخماد ثورة شبت هناك في السنة الثالثة من حكمه، أو لأن شعوب البحر كانت قد وصلت إلى حدوده الشرقية في تلك السنة، و من ثم فقد زحف إلى فلسطين و سورية، ثم وجه إلى العصاة ضربة قاسية انتهت بإذلالهم (2)، ورغم أن البعض يرى أن مرنبتاح، الذي كان مهتدا في دولته بالليبيين، لا يمكن أن يقوم بفتوحات في فلسطين و سورية في السنتين الأولى و الثانية من حكمه، فإن العلماء يكادون يجمعون على قيامه بهذا النشاط الحربي في فلسطين (3)، و لعل مما يؤكد ذلك نعت «قاهر جازر» الذي نلتقي به في نقش معبد عمدا، هذا فضلا عن أنه من العسير أن نوافق على أن نص «لوح إسرائيل» مختلف تماما، إذ يصعب عندئذ أن نجد تفسيراً مقبولا في قائمة الأقاليم المذكورة، بل إن مجرد ذكر إسرائيل يخلع على النص شبهة من الحق لا يمكن إنكارها، لأنه لم يرد في أي نص مصري من قبل (4)، و أيا ما كان الأمر، ففي السنة الخامسة من عهد مرنبتاح تتعرض حدود مصر الغربية للخطر، ذلك أن شعوب البحر، فضلا عن قبائل «ريبو»، أخذوا يتدفقون نحو غرب الدلتا، فخرج إليهم الفرعون بقواته، حيث دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة ساحقة للغزاة (5)، و إن اختلف

ص: 318

1- .P, tic- po, sdoL. A 188 .

2- محمد بيومي مهران: مصر 183/2-184، دريوتون وفاندييه: مصر ص 480، و كذا، p. 166- 165. J 166- 165. p. tic- po, detsaerB. و كذا، 2، 1901، p. 279- 269. G 279- 269. p. EASA, niargeL. و كذا. P, TENA 378- 376.

3- .P, tpygE tneicnA fo erutluc ehT, nosliW. J 255 . و كذا، 12، 1915، p. 196. AEJ, ellivaN. E

4- .P, tic- po, renidraG. A 273 .

5- P, tic- po, nosliW. J، 255- 254، L, LSJA 76- 75. p. 1935، 1، dravraH، و كذا. fo retpecS ehT, seyaH. C. W-5 .II, tpygE 353. p. 1959

المؤرخون في مكانها، ولعل أرجحها ما ذهب إليه «بتري» (1) من أنها كانت في مكان بين الضهيرية (11 كيلاً- من كوم حمادة) وبين النجيلة (15 كيلاً من كوم حمادة) بمحافظة البحيرة، وعلى أي حال، فأكبر الظن، أنه في هذه الأوقات العصيبة بدأ تفكير الإسرائيليين في الهروب من مصر، دون إذن من الفرعون الذي رفض السماح لهم بالخروج مرارا، بل إن «جان يويوت» يرى أن الهروب إنما تم أثناء الزحف الليبي نفسه (2)، ولعل هذا يفسر قول التوراة على لسان فرعون «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا و يصعدون من الأرض» (3)، على أن ما جاء في القرآن الكريم إنما يفيد أن الخروج لم يكن بتدبير من بني إسرائيل، وإنما كان بأمر من الله لموسى، وكان ليلا، وذلك حين أحس موسى عليه السلام أن القوم لن يؤمنوا له، ولن يستجيبوا لدعوته، ولن يسالموه أو يعتزلوه فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون، وأجابه ربه الكريم فأمر بعبادي ليلاً إنكم متبعون، والسري لا يكون إلا ليلاً، فالنص عليه يعيد تصوير مشهد السري بعباد الله، وهم بنو إسرائيل، ثم للإيحاء بجو الخفية، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون و من وراء علمه (4)، فإذا كانت هناك علاقة بين سري بني إسرائيل ليلاً بين الحرب الليبية، فلا بد أن تكون في أعقابها بفترة ما، وليس أثناءها، لأن الفرعون سرعان ما لحق بالقوم قبل أن يعبروا البحر، فأتبعهم بجنوده، حيث غرقوا جميعاً، ونجا موسى و من معه، هذا فضلا عن هذه الحرب كانت في السنة الخامسة، و من المعروف أن فرعون غرق في البحر أثناء مطاردته لبني إسرائيل، و من ثم فإن الخروج يجب أن يكون في السنة

ص: 319

1- , 1927. p. 109. F. M. W. eirteP. A, tygsI fo yrotsiH A, III, .nodnoL.

2- جان يويوت: مصر الفرعونية- القاهرة 1966 ص 140 (مترجم).

3- خروج 10/1.

4- سورة الدخان: آية 22- 23، و انظر: سورة طه: آية 77، الشعراء: آية 52، في ظلال القرآن 3213/5.

الأخيرة من حكمه، الثامنة أو العاشرة على خلاف في الرأي، وليس في السنة الخامسة.

ومنها (سادسا) أن الحفريات والأبحاث أثبتت أن ممالك أدوم و مؤاب وعمون (1)، لم تكن قد تكون حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مع أن سفر يشوع يذكر هذه الممالك بالاسم، بل ويذهب إلى أنها كانت نامية و مزدهرة إبان فتوحات يشوع و حملاته الحربية (2)، و منها (سابعاً) استمرار السلطة المصرية في فلسطين على أيام أممحتب الثالث (1405-1367 ق.

م) بدليل اكتشاف جعلول صيد الأسود، التي وجدت في «لخيش» (تل الدوير على مبعده خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين) تخليدا لمهارة الفرعون في صيد 102 أسدا، خلال السنوات العشر الأولى من حكمه (3)، و في الواقع فإن مصر على أيام أممحتب الثالث إنما كانت مركز الدنيا و قلبها النابض، و كان ملوك مصر حكام العالم دون منازع، على الأقل في النصف الأول من حكم هذا الفرعون، و من ثم فقد سعت الدنيا إلى بلاط هذا الإمبراطور العظيم تحمل جزيتها، و تثبت لنا الاحتجاجات المتذلة التي نقرؤها في رسائل العمارة التي كان نرسلها أصحابها من حكام الشرق و أمرائه، يؤكدون فيها ولاءهم و خضوعهم، و تسلط مصر على العالم (4)، و قد استمرت السيادة المصرية على هذا المنوال حتى القرن الثالث عشر، إلا على أيام أزمة العمارة، بدليل وجود جعارين من عهد رعمسيس الثاني، و كما تدلنا كذلك حروبه و حروب أبيه من قبل على السيادة المصرية في فلسطين و سورية (5)،

ص: 320

1- أنظر عن هذه الممالك (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 547-558).

2- جون إدر: الأحجار تتكلم- علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس ص 54 (مترجم)، و كذا، U, yranoitciD elbiB s'regnU, ogacihC, .regnU. F. M 334. p, 1970

3- .P, II, ERA, detsaerB. H. J 347- 346 . و كذا. G. H. A 206, tic- po, renidra

4- .P, tic- po, nosliW. A. J 204 .

5- .P, tic- po, nageniF. J 162 .

و منها (ثامنا) وجود إناء مكسور عليه كتابة مصرية لأحد جباة الضرائب في «لخيش» وقد سجل فيها تسلمه لشحنة من القمح، في السنة الرابعة من عهد فرعون معين، تشير الدلائل جميعها على أنه «مرنتاح»، و من ثم فالسنة الرابعة هنا إنما تعني عام 1220 قبل الميلاد (1)، مما يؤكد أن السيادة المصرية على فلسطين ظلت قائمة حتى السنة الرابعة من عهد مرنتاح، و أن الإسرائيليين لم يكونوا قد استولوا على المدينة حتى هذا الوقت أي عام 1220 ق. م.

و منها (تاسعا) أن سلسلة الأنساب الكهنوتية، و كذا تقارير التوراة في سفر القضاة إنما تتفق مع هذا التاريخ المتأخر (2) (أي الخروج في عهد مرنتاح)، و منها (عاشرًا) أن إسرائيل لم تظهر في حملات رعمسيس الثالث (1182-1151 ق. م) ثاني ملوك الأسرة العشرين، سواء قبل هزيمته لشعوب البحر في عام حكمه الثامن (3) (1174 ق. م) أو بعده، و إنما ظل الفرعون محتفظًا بامبراطوريته الواسعة في فلسطين و جنوب سورية، و قد عثر له على تمثال في بيسان، و آخر في مجدو، فضلًا عن بنائه معبدًا لآمون في فلسطين و كان خط الحدود المصرية عند «زاهي» في مكان ما عند الشاطئ في فينيقيا الجنوبية، و من هنا فإن حملة الفرعون الثانية على أمور، إنما كان الهدف منها هو الحفاظ على أملاك مصر في فلسطين بصفة خاصة، و في سورية بصفة عامة، و بدهي أن هذا كله إنما يدل على عدم وجود إسرائيل، ككيان مستقر في فلسطين حتى أيام رعمسيس الثالث (1182-1151 ق. م).

(م).

ص: 321

-
- 1- جون الدر: المرجع السابق ص 70 و كذا، P. tic- po، 68، 1937، F 23. p، 74، OSAB, thgirblA. F. W 1939،
 - 2-، 1925، P. F. M. W 38. p، 3 (tpygE, eirteP. F. M. W 38. p، 1925، P. 46. p، 132، 22-20، nageniF. J 162. و كذا
 - 3-، 1943، 4، 40. p، 55-40، SENJ, ubaH tenideM ta serutciP elttaB lavoN ehT, nosleN. H 55-40. p، 1943، 4، 40.

ومنها (حادي عشر) أن حالة الاضطرابات التي كتب على الكنانة أن تعيشها في الفترة فيما بين وفاة مرنبتاح عام 1214 ق. م، وبداية عهد رعمسيس الثالث في عام 1182 ق. م، كانت أكثر الفترات ملاءمة لأن يعيش بنو إسرائيل في التيه، وهم في مأمن من أن تهاجمهم القوات المصرية فتقضي عليهم أو تعيدهم إلى مصر ثانية، ذلك أعقب موت مرنبتاح فترة من الاضطرابات حدثت فيها مؤامرات شتى حول العرش المصري، فتعاقب عليه عدد من الملوك لم يحكموا سوى فترات قصيرة، كما كانوا ملوكا ضعافا، مما أدى في نهاية الأمر إلى اضطراب الأمور وتعقدها، وزادت الحال سوءا بالتدريج، حتى آلت آخر الأمر إلى فوضى شاملة، وصفتها «بردية هاريس» بأن أرض مصر قد اضطربت، و أصبح كل رجل يضع شريعته الخاصة، ولم يكن هناك قائد مدى بضع سنين سابقة، حتى كانت مصر في أوقات أخرى تضم أمراء و حكام قري، ثم جاء وقت بعد سنين فارغة... و سوري معهم أصبح أميراً، و جعل البلاد كلها تدفع الضرائب» (1)، و من هذا النص استنتج المؤرخون أن «إرسو» السوري حكم البلاد في نهاية الأسرة التاسعة عشرة وربما كان «إرسو» هذا، هو «باي» رئيس الديوان الذي أرغم الملكة «تاوسرت» على أن تجلس «سبتاح» على العرش تحت وصايتها، و إن انفردت بالعرش بعد وفاته، ثم بقي الحال هكذا حتى نجح «ست نخت» في أن ينقذ البلاد من وهدتها، و أن يجلس على العرش المصري قرابة عامين (1184-1182 ق. م) ليخلفه ولده رعمسيس الثالث (2).

ومنها (ثاني عشر) أن اضطراب الأمور في سورية و فلسطين بسبب

ص: 322

1- , 1966, p. 160. TENA, nosliW. J

2- محمد بيومي مهران: مصر 141/2 - 143، ألكسندر شارف: تاريخ مصر ص 159 و كذا، J V. ynreC. و كذا. P, tic- po, renidraG. A 281- 279. و كذا، 29. p. 243- 258. AEJ, htarekceB 74- 71. p. 1963، 49. , AEJ

وربما لتغير ميزان الاقتصاد العالمي، بظهور معدن الحديد، قد اضطر مصر إلى التخلي عن سلطانها في آسيا الغربية، وربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هي السبب، وأيا ما كان الأمر، فليس هناك من دليل واضح على أن مصر، بعد وفاة رعمسيس الثالث، قد احتفظت بإمبراطوريتها في فلسطين وسورية، وإن ظل لها نفوذ في كثير من المناطق، بدليل العثور على جعارين لرعمسيس الرابع في تل الصافي و تل زكريا و تل جازر، و لرعمسيس السادس في تل أسانة في سورية، و تمثال من البرونز لنفس الفرعون في مجدو، على أن مثل هذه الأشياء الصغيرة لا تدل على معان قوية لها من القيمة ما لها من ناحية سلطان مصر في غربي آسيا، و من هنا كانت فرصة بني إسرائيل في الاستيلاء على جزء من فلسطين، كما تمكن البلست (الفلسطينيين) من احتلال بعض مدن كنعان الساحلية، و كذا الكثير الذين احتلوا مدينة «دور» جنوبي الكرمل (1).

و منها (خامس عشر) ما جاء في القرآن الكريم من أن فرعون قد طلب من هامان أن يوقد له على الطين فيبني له صرحا، قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (2)، و قد ناقشنا من قبل قصة الآجر المحروق، و كيف أن المفسرين، و منهم الإمام الطبري و القرطبي و النسفي و البيضاوي و السيوطي و غيرهم، روى عن علماء السلف، كابن عباس و قتادة و سعيد بن جبير و ابن جريح و عبد بن حميد و غيرهم، أنهم قالوا: إن فرعون موسى كان أول من اتخذ الآجر ليبنى به

ص: 324

.ytsanyD tsriF -ytnewT ehT fo dnE ehT ot ,III ,sessmaR fo htaeD eht fo tpygE ,yenreC .J 13- 11. p، 1965، -1

2- سورة القصص: آية 38، و انظر: غافر: آية 36.

الصرح (1)، مما يشير إلى أنهم كانوا يستندون إلى طائفة من الخبر الصحيح، هذا وقد أعترتنا حفائر «بتري» في «نيشة» و «دفنة» غير بعيد من مدينة «بي رعسيس» عاصمة ملوك الأسرة التاسعة عشرة، على غير مألوف الفراعين بالبناء بالآجر المحروق، حيث بنيت به قبور، و أقيمت به بعض من أسس المنشآت التي ترجع إلى عصر الفراعين: رعسيس الثاني و مرنتاح و سיתי الثاني، وقد قال «بتري» إن حرق اللبن ظل نادرا في مصر إلى عصر الرومان، و هو قول لا يكاد يخالف المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى، و هو كذلك من قرائن القرآن الكريم التي تتخذها مطمئنين في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر على أيام الأسرة التاسعة عشرة التي بدأت، كما ألمح القرآن الكريم و أثبتت الحفائر، تصطنع في بنائها الآجر المحروق (2)، و الذي نرجح من جانبنا أنه عصر مرنتاح.

و منها (سادس عشر) ذلك الحديث النبوي الشريف (3)، حيث يروي أنس بن مالك عن سيدنا و مولانا وجدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، و آسية امرأة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد رسول الله»، و إذا تذكرنا أن «است نفرت»

ص: 325

1- تفسير النسفي 237/3، تفسير القرطبي ص 5004 تفسير البيضاوي 128/4، تفسير الدر المنثور للسيوطي 129/5، تاريخ الطبري 1/405.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 138، و كذا. P. henfeD dna hehsebeN, eirteP. F. M. W 47، 19- 18.

3- أنظر عن الحديث الشريف و رواياته المختلفة: تفسير ابن كثير 2/32-34، البداية و النهاية 1/59-62، تفسير الطبري 6/393-398، صحيح البخاري 4/193، 339، صحيح مسلم 2/243، سنن الترمذي 4/365-336، مسند الإمام أحمد 3/136، تحفة الأحوزي 10/389، المستدرک الحاکم 3/184.

(أيسة نفرة) كانت الزوجة الثانية لرعمسيس الثاني بعد «نفر تاري»، بل إن الأثرية «مس مري» (1) إنما ترى أنها الزوجة الرئيسية، كما أن بعض الباحثين إنما يعتبرها «أم الأمراء» الذين لهم حق وراثة العرش (2)، وهناك في متحف بروكسل جزء من تمثال صغيرة لهذه الملكة، ما زالت عليه بعض نعوت لها تكاد تكون فريدة في بابها، فعلى الجهة اليمنى نقرأ «وعند ما تدخل في المقر المزدوج، فإن قاعة الاستقبال في القصر تصوع بشذي عبيرها، وإنها لحلوة الرائحة، بجانب والدها الذي يبتهج لرؤيتها، الزوجة الملكية...»، وعلى الجهة اليسرى نقرأ «التي تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهي المنقطعة النظير بعطورها، إذ تعادل بلاد بونت (3) (حيث كان القوم يحصلون على أخشاب البخور والمر وغيرها من الأشجار ذات الرائحة الزكية) بشذي أعضائها، الزوجة الملكية»، وفي الواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير، وما يצוע منها من شذي العطور، لم توصف بها ملكة من قبل (4).

ولعل هذا إنما يدل على شدة حب الفرعون لها، ودالتها عليه، وإذا ما وضعنا هذا في اعتبارنا، وتذكرنا قصة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، وكيف ألقته أمه في اليم فالتقطه آل فرعون لينشأ في قصر فرعون نفسه، وذلك عند ما قالتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا (5)، إذا تذكرنا ذلك كله، وقارنا بين اسم امرأة فرعون، كما ورد في الحديث النبوي الشريف، وفي الآثار

ص: 326

1- , 1925 p. 100-104 tneicnA, yrruM ssiM .

2- أنظر: محمد بيومي مهران: مصر 139/2-140.

3- أنظر عن: بلاد بونت والآراء التي دارت حولها (محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة- الرياض 1976- ص 307-310).

4- سليم حسن: مصر القديمة 634-637، وكذا، 33، 1934، p. 74-79 euqinorhC d tpygE.

5- سورة القصص: آية 9.

المصرية، لما وجدنا صعوبة كبيرة في تقريب «إيسة» (أو إيسي أو حتى است) إلى آسية (أو آسيا)، مع مراعاة اختلاف قراءة أسماء الأعلام في اللغتين العربية والمصرية القديمة، وهكذا نستطيع القول إن الفرعون الذي التقطت امرأته موسى عليه السلام، هو رعمسيس الثاني، و هو فرعون التسخير، وأن الفرعون الذي جابهه موسى هو «مرنتاح»، و لعل مرنتاح نفسه هو الذي ذكر موسى بتربيتهم له، و تشتتهم إياه على فراشهم، ثم قتله واحدا من رعاياهم و هروبه إلى مدين، ثم إذا به يعود آخر الأمر فيدعوهم إلى إطلاق سراح بني إسرائيل، و إلى هذا يشير القرآن الكريم، في قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا، وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (1).

و هكذا يبدو لي، بعد كل الحجج التي قدمناها، أن الرأي الذي يجعل خروج بني إسرائيل في عهد مرنتاح، و بالتالي فهو فرعون موسى، إنما هو أقرب الآراء إلى الصواب، و هو الرأي الذي نميل إليه و نرجحه، على أن يكون الخروج في العام الأخير من حكم مرنتاح، و ليس في العام الخامس كما هو المفترض، سواء أ كان هذا العام الأخير، هو العام العاشر (عام 1214 ق. م) كما ترى جمهرة المؤرخين، أم كان ذلك العام هو العام الثامن (عام 1216 ق. م) فيما يرى البعض، و أما سبب تحديدها للعام الأخير من حكم مرنتاح للخروج، فهو أن التوراة (2) و القرآن العظيم (3) يرويان أن الفرعون

ص: 327

1- سورة الشعراء: آية 18-22.

2- خروج 14/26-31، 15/1-5، الرسالة إلى العبرانيين 5/29.

3- أنظر: سورة البقرة: آية 50، الأعراف: آية 136، يونس: آية 90-92، طه: آية 78، الشعراء: آية 63-66 و غيرها.

قد غرق في البحر عند محاولته اللحاق بموسى وبنى إسرائيل، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة الفرعون قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه، قال تعالى:

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِيَتَّكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً (1)، ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال، و المئات الكثيرة من السنين، وهي إنما صارت كذلك بما مكّن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم و أسرار التحنيط (2).

وهكذا نستطيع، عن طريق تحديدنا للخروج بالعام الأخير من حكم مرنبتاح، أن نوفق إلى حد كبير، بين أحداث التاريخ القديم، و بين ما جاء عن هذه الأحداث في التوراة و القرآن العظيم، فضلاً عن إيجاد تفسير مقبول لتسجيل انتصار مرنبتاح على لوحة ليست له، و إنما لسلفه البعيد «أمنحتب الثالث»، و ذلك بسبب موته المفاجئ، و أما أن اللوحة قد حددت حادث الخروج بالعام الخامس من حكم مرنبتاح، فذلك يتناقض تماماً مع ما جاء في التوراة و القرآن العظيم عنه، إذ أن ذلك يعني أن الفرعون قد بقي على قيد الحياة بعد خروج بني إسرائيل من مصر (3). هذا فضلاً عن أن حملته على سورية، و التي ذكرت في اللوح، إنما كانت في العام الثالث، و أما تحديد العام الخامس بالذات تاريخاً للنص، فربما كان يهدف من كتبه (بعد غرق الفرعون) تخليد ذكرى انتصاره على الليبيين و حلفائهم من القهق

ص: 328

1- سورة يونس: آية 92.

2- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 123.

3- ذهب الدكتور سليم حسن إلى أن الفرعون لم يموت، إذ أنه لا يتصور أن يغرق و عربته و من معه في ضحاضاح لا يزيد عمقه عن قدمين أو ثلاث، و يرى أن خيل الفرعون و عرباته قد ساخت في الأوحال فسقط مغشياً عليه، و أن ما جاء في القرآن عن الحادث لا يشعر بأن الفرعون قد غرق و مات (مصر القديمة 135/7)، و هذا الإتجاه، فوق مخالفته لكل آراء المفسرين، فهو تعسف في تفسير النصوص المقدسة، و خطأ في الاستنتاج.

والمشوش، إلى جانب خمسة من شعوب البحر، وإنقاذ أرض الكنانة من أن تقع في أيديهم.

[6] آراء أخرى:-

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الآراء الخمسة، الآنف الذكر، ليست هي كل ما ذهب إليه أبحاث الباحثين بالنسبة إلى تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وبالتالي فرعون موسى، وإنما هناك آراء أخرى لعل أهمها ثلاثة:

أولهما: ما ذهب إليه الزميل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف من أن فرعون الخروج إنما هو «سيتي الثاني» (سيتي مرنبتاح)، وليس مرنبتاح نفسه، اعتماداً على تقرير موظف الحدود، الآنف الذكر، والذي رأى فيه دليلاً على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية، وعلى ما كان لسلطات الأمن في عهد مرنبتاح من سيطرة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع، وعلى أن مومياء مرنبتاح تدل على أنه كان قد طعن في السن وتقدمت به الأيام، مما يقعد به عن الخروج في حملات الحرب والقتال، ومن ثم فإن فرعون الخروج، على ما يرجح، إنما كان شاباً أوروباً مكتمل الصحة موفور النشاط، وهو ما يتبين من جثة سيتي الثاني بمتحف القاهرة، حيث الموت المفاجئ بغرق أدنى إلى العقل والاعتناع (1).

و أما الرأي الثاني، فيذهب أصحابه إلى أن الخروج تم بعد نهاية الأسرة التاسعة عشرة (2)، وأما ثالث الآراء، فيذهب إلى أن الخروج إنما كان بعد عهد رع ميسس الثالث (3)، بل إن صاحب هذا يرى أن هناك

ص: 329

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 139-147، وكذا، 1912، p. 69، htimS toille 69. p. 1912، seimmuM layoR، oriaC.

2- 1947، p. 223، .E. O. W 223. p. 1947، yelretseO، tpygE dna tpygE، learsI dna tpygE، yelretseO، tpygE fo y cageL eht ni، drofxO.

3- 1963، p. 408، .H 408. p. 1963، tsaE raeN eht fo yrotsiH tneicnA ehT، llaH. R. H 408. p. 1963، .nodnoL.

خروجين، الواحد: عند نهاية حكم تحوتمس الثالث، و الآخر بعد أيام رعمسيس الثالث، وإن كان من البدهي أن ذلك أمر غير مقبول، على أننا في نفس الوقت، لا نستطيع القول أن هناك ما يمنع طوائف من بني إسرائيل من الخروج من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل في أوقات الضعف و الاضطرابات التي رأت مصر بعضا منها في تلك القرون الأربعة التي عاشها بنو إسرائيل في مصر، فيما بين عهدي يوسف و موسى عليهما السلام، خاصة و أن بني إسرائيل إنما كانوا يكوّنون في مصر مجموعة من الرحل يقومون برعي أغنامهم في وادي طميلات بشرق الدلتا أو يستقرون على أطراف الإقليم الزراعي هناك في أغلب الأحيان.

[7] صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل:-

من الغريب أن الآثار المصرية تصمت تماما عن موضوع بني إسرائيل في مصر، اللهم إلا تلك الجملة القصيرة التي جاءت في لوح إسرائيل من عهد مرنبتاح «و خربت إسرائيل وزالت بذرتها»، و من ثم فقد نظر بعض العلماء إلى القصة كلها بعين الحذر، و يذهب «جاردنر» إلى أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر يجب أن تبقى تفاصيلها- حتى تظهر في الأفق براهين جديدة تختلف في شكلها عن التي في متناول أيدينا الآن- و كأنها أسطورة، مثلها في ذلك مثل قصة الخلق المذكورة في سفر التكوين من التوراة (1)، و علينا أن نسعى في تفسير هذه القصص على فرض أنها أساطير، و إن رأى بعد ذلك أنه بعيد عن القول أن كل قصة الخروج خرافية، إذا أنها تعكس في مجموعها حادثة تاريخية معينة هي طرد الهكسوس من مصر (2).

ص: 330

1- أنظر: تكوين 1/ 1- 31، 25- 1/ 2، محمد بيومي مهران: إسرائيل- الجزء الثالث- الإسكندرية 1979 ص 336-340.
2- , 10، 1924، G. H. A 88. p، renidraG ehT، yhpargoeE fo sudoxE ni AEJ.

ويعلل «سمث» سكوت المصادر المصرية عن قصة الخروج بأن ذلك لا يدعو إلى الدهشة، لأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل ولم تسجل خطواته، ذلك لأن فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لا يمثل حدثاً يثير الاهتمام الفكري لدى المصريين، خاصة وأن بني إسرائيل قد عاصروا بمصر عهداً حافلة بجلال الأعمال استنفذت، فيما يبدو، نشاط المثاليين ومدوني التاريخ (1).

و الرأي عندي أن العلامة «جاردنر» قد أخطأ كثيراً في تصويره عن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، ذلك، لأن القصة وإن لم تذكر في المصادر المصرية القديمة لأسباب سنذكرها حالا، فقد ذكرت بالتفصيل في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، كما رأينا من قبل، وبدهي أنه ليس من العلم، فضلاً عن الإيمان بكتب السماء، وأن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب، كما أنه ليس ببعيد أن تكشف أعمال التنقيب، فيما تكشف، عن بعض الآثار التي تروي هذه القصة أو حتى تعين على مزيد من الإيضاح.

و أما تعليل «سمث» للحدث الخطير فبعيد عن الصواب كذلك، لأن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث خروج بني إسرائيل، من مصر لأسباب أخرى، غير ما ذكر «سمث»، منها (أولاً) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل في النصوص الإنسانية ضعيف، ذلك لأن حقيقة الصراع بين دعوات الأنبياء، وسلطات الملوك المؤلهين أو شبه المؤلهين يدعو إلى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادئ هذه الدعوات والصراع بينها وبينهم، و تلك ظاهرة يلمسها المؤرخ بوضوح في تاريخ الشرق الأدنى القديم، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك العراق، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر، على سبيل المثال، و منها (ثانياً) أن المصادر المصرية

ص: 331

القديمة، والتي تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الأدنى القديم، بوضوحها وكثرة آثارها، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن قصة بني إسرائيل في مصر، منذ عهد يوسف وحتى عهد موسى، عليهما السلام، غير أن هذه المصادر، كما هو معروف، إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، أو على الأقل برضى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة، كما أثبتت النصوص و ألمع القرآن الكريم (1)، يزعم أنه إله أكثر منه بشرا، و من ثم فقد كان من الطبيعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فإن النصر كان أن يكون حليفه، وقد تكون الحقيقة غير ذلك (2).

و من المعروف أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، بقيادة موسى عليه السلام، كما جاءت في التوراة والإنجيل و القرآن العظيم، إنما انتهت بغرق الفرعون و جنوده في البحر، و نجاة موسى و من آمن معه بالله الواحد القهار، و من ثم فليس من المقبول، طبقا للعقيدة المصرية القديمة، أن تسجل نصوص الفراعين، غرق الإله الفرعون، و نجاة عبيده العبرانيين، و من هنا كان من الصعب العثور على آثار تتحدث عن موسى و قومه، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية، و إن كان هذا لا يقطع الأمل في العثور على تلك الآثار، التي ربما سجلت بطريقة أو بأخرى عن طريق المعارضين لفرعون، المؤمنين برب موسى و هارون، و الله وحده يعلم الغيب من الأمر.

ص: 332

1- أنظر: سورة الشعراء: آية 29، سورة القصص: آية 38، سورة النازعات: آية 22-24.

2- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص 3.

الباب الثالث موسى و بني إسرائيل منذ انقلاق البحر و حتى موت موسى عليه السّلام

اشارة

ص: 333

[1] محاولة الردة الأولى و عبادة الأصنام: -

انتهت قصة بني إسرائيل مع مصر، و فرعون مصر، بعد انغلاق البحر و غرق فرعون و جنده، و نجاة موسى و قومه، فضلا عن الذين آمنوا معه من غيرهم، بالله الواحد القهار، و هنا تبدأ حلقة جديدة من حياة موسى مع بني إسرائيل، بما فيها من كفر و غدر، و لو كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع و الطاعة و الإخلاص، و إن كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر أكثر من مرة لإنقاذهم، لكان له عليهم حق السمع و الطاعة و الإخلاص، و امثال أمره، و اتباع هداه، ولكنه فوق ذلك رسول و نبي من الله تعالى، مؤيد بالمعجزات الباهرة، و مع ذلك فإن كليم الله عليه السلام لم يجد منهم إلا العناء و التمرد، فضلا عن الكفر و الفسوق و العصيان.

و في الواقع، فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك على أن اليهود الذين رافقوا موسى عليه السلام، إلى سيناء لم يكونوا أكفاء لحمل عبء التوحيد و فلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، و لم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا

على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها ويعيدونها منسوخة ممسوخة في الصحراوات (1).

كانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروز و النحاس، كانت مستودعا غنيا بالنحاس و من كريم الحجر و بالفيروزج بنوع خاص، و من ثم فقد كانت ميدانا لنشاط اقتصادي خصيب، حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته و حمايته، و هكذا كان من الواجبات الملقاة على عاتق الملوك منذ قيام الملكية المصرية، حوالي عام 3200 قبل الميلاد، أن يكفلوا حماية القوافل و بعثات المناجم و المحاجر التي تجوس خلال الصحراوات في سيناء، كما تشير إلى ذلك الأدلة التاريخية من عهد الملك «جر» و «دن» (وديمو) من الأسرة الأولى (2)، مما يدل على أن مصر إنما كانت جد حريصة على حماية سيناء منذ عصورها المبكرة، الأمر لم تتخل عنه مصر أبدا.

و على أي حال، فلقد كانت مناجم الفيروزج تكثر في وادي مغارة و سرابة الخادم، حيث أقيم معبد للإلهة «حاتحور» ربه الفيروزج منذ أيام الدولة الوسطى التي عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام كبير، و ما زالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها آلافا من نقوش المصريين، ممن كانوا في تلك البقاع عاملين، و في الوقت نفسه للإلهة «حاتور» متعبدين (3)، و قد حدث في سيناء منذ أقدم العصور التاريخ الفرعوني اتصال بين الإلهة المصرية «حاتور» (و التي كانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة في مصر) و بين الإلهة السامية القمرية التي كانت تعبد في الكهف

ص: 336

-
- 1- عباس العقاد: مطلع النور- أو طوالع البعثة المحمدية- القاهرة 1968 ص 107.
 - 2- F. P, VXXX, SAZ 7 و كذا، 1964. p. 415- 414. G. H. A renidra، shoarahP eht fo tpygE، drofxO
 - 3- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 125، 175.

يكادوا يمضون مع موسى عليه السلام، بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوما يعبدون أصناما لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله لموسى ونجاتهم معه وقالوا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْدَانِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (1)، و «الفاء» في قوله تعالى:

فَأَتَوْا تَقِيدَ، كما هو معروف، الترتيب و التعقيب، و معنى ذلك أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر و نجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها، و ألفوا الذل معها، و هذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، و لم يتمكن من ضمائرهم و مشاعرهم، و لم يثمر فيهم الثمرة الطيبة لكل شجرة طيبة، و إنما كان إيمانهم بموسى إيمانا بإمامته و زعامته، لا إيمانا بالله الذي خلقه و سواه (2).

و ليس هناك من ريب في أن بني إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى، كما سنرى، و بمطالبتهم موسى أن يتخذ لهم إلهًا، كما لهؤلاء القوم المتعبدون لحاتور آلهة، إنما كانوا في الحالتين، لما اعتادوا في مصر من الآلهة الوثنية مرتدين، و أنهم ربما اتخذوا العجل من حليهم من الذهب فتنة ب «حاتور الذهبية»، و ما كان لها من منزلة في النفوس وقت ذلك، هذا فضلا تأثروا به من حب المصريين للذهب و صنع تماثيلهم الثمين منه، و ما ندري لعل لله تعالى حكمة فيما كان من أمره بني إسرائيل أن يذبخوا بقرة، و أنها «بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»، و لقد كان البقر في مصر من أنواع

ص: 338

-
- 1- سورة الأعراف: آية 138-139، و انظر: تفسير الطبري 13/80-84، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/215-216، تفسير القرطبي ص 2709-2710، تفسير ابن كثير 3/464-465، تفسير المنار 9/91-99، تفسير النسفي 2/73-74.
 - 2- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 193-194.

وألوان حيث كان فيه الأسود، ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والاسود، ويشبه ما هو معروف في أوربا اليوم، ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ و مراوغة في ذبح البقرة، و ما كان من تنطعهم في التساؤل عنها وعن لونها من أثر ما كان قد وقر في نفوسهم من تقديس «حاتور» (1)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (2).

وهكذا يبدو واضحاً مدى تأثير الديانة المصرية القديمة في بني إسرائيل، تلك الديانة التي تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة في مصر، و التي جاوزت قروناً أربعة، لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى، إما خوفاً من فرعون، وإما خوفاً من شيوخ بني إسرائيل، كما أشرنا من قبل، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يُقْتِلَهُمْ (3).

ص: 339

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 127-128.

2- سورة البقرة: آية 67-71، و انظر عن القصة: تفسير الطبري 2/182-222، تفسير المنار 1/286-290، تفسير ابن كثير 1/154-160، البداية و النهاية 1/293-295، تفسير النسفي 1/53-55، تفسير القرطبي ص 378-387.

3- سورة يونس: آية 83، و انظر، تفسير المنار 11/383-384، معاني القرآن للفراء 1/476-477، تفسير الطبري 15/163-167، تفسير ابن كثير 4/222-223، تفسير القرطبي ص 3208-3209.

باعتبار أن الضمير في «ملئهم» راجع إلى قوم موسى، بل إن القوم برموا بموسى وضجروا به، وقالوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا (1).

هذا ويذهب المفسرون والمؤرخون المسلمون إلى أن الأصنام التي وجدها بنو إسرائيل بعد انغلاق البحر، إنما هي تماثيل بقر، وذلك فيما يرى البيضاوي، أول عبادة العجل، ويقول الطبري في تفسيره أن القوم كانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلما كان عجل السامري شبه إليهم أنه من تلك البقر، ومن ثم فقد أثار ذلك شبهة لهم في عبادة العجل بعد ذلك، وأما صاحب البحر المحيط، فقد أورد روايتين، الواحدة تذهب إلى أن البقر كان بقرا حقيقيا، وتذهب الثانية إلى أنه كان تماثيل بقر من حجارة و عيدان ونحوه، وكان ذلك أول فتنة العجل، على أن الإمام السيوطي إنما يذهب إلى أنها تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك، ويقول ابن عطية: الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: «اجعل لنا إلها نقرده بالعبادة (2)»، فإذا كان ذلك كذلك، فإن القوم ما عرفوا بعد دعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام، ومن ثم فما آمنوا بعد برب موسى، أو على الأقل أكثرهم، حتى بعد انغلاق البحر، وما سبقه من معجزات، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (3). و تقول التوراة «فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد

ص: 340

1- سورة الأعراف: آية 129.

2- تفسير البيضاوي 25/3، تفسير الطبري 80/3-84، تفسير المحيط 377/4-378، تفسير الدر المنثور للسيوطي 114/3، مختصر تفسير ابن كثير 47/2، صفوة التفاسير للصابوني 468/1، تفسير النسفي 74/2.

3- سورة الشعراء: آية 65-67.

المصريين، ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب و آمنوا بالرب وبعده موسى» (1).

هذا فضلا عن أن ذلك يتعارض مع قول الله تعالى، على لسان موسى:

قالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا، وما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد و ابن أبي حاتم و ابن جرير عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبي الله: اجعل لنا هذه ذات أنواط، و كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: الله أكبر هذه كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم»، و ما رواه الإمام النسفي في تفسيره من أن يهوديا قال للإمام على بن أبي طالب، كرم الله وجهه في الجنة:

اختلفتم بعد نبيكم قبل أن تجف دماؤه، فقال الإمام: قلت اجعل لنا إلها و لم تجف أقدامكم»، و على أي حال، فإن موسى عليه السلام وصف قومه في قول الله تعالى: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله تعالى، و ما يجب أن ينزه عنه من الشريك و النظير، قال الإمام الزمخشري:

تعجب من قولهم، على إثر ما رأوا من الآية العظمى و المعجزة الكبرى (انغلاق البحر) فوصفهم بالجهل المطلق و أكده، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم و لا أشنع، و كما يقول أبو حيان: أتى بلفظ «تجهلون» و لم يقل «جهلتم» إشعارا بأن ذلك منهم كالطبع و الغريزة، لا ينفصلون عنه في ماض و لا مستقبل (2).

و هكذا لم يطل العهد ببني إسرائيل، كما يقول صاحب الظلال، منذ

ص: 341

1- خروج 30/14 - 31.

2- تفسير الكشاف 150/2، تفسير البحر المحيط 378/4، تفسير النسفي 74/2، مختصر تفسير ابن كثير 47/2.

أن كانوا يسامون الخسف في ظل الوثنية الفرعونية عند فرعون و ملئه، و منذ أن أنقذهم نبيهم زعيمهم موسى عليه السلام باسم الله الواحد رب العالمين الذي أهلك عدوهم، و شق لهم البحر، و أنجاهم من العذاب الوحشي الذي كانوا يسامون، إنهم خارجون للتو و اللحظة من مصر و وثنتها، و لكن ها هم أولاء ما أن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم (للمعبودة حاتور في هيئة بقرة أو غيرها من الأشكال) مستغرقين في طقوسهم الوثنية، و إذا هم يطلبون إلى موسى، النبي الرسول، الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام و التوحيد، أن يتخذ لهم وثنا يعبدونه من جديد، و من ثم فإن موسى يغضب لربه أن يشرك به قومه قال **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**، ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى على ربه و الغضب له، و التعجب لنسيان قومه لنعمة الله تعالى عليهم، و هي حاضرة ظاهرة، قال **أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**.

و التفضيل على العالمين يجب أن يكون واضحاً أنه كان في زمانهم فحسب، كما يجمع المفسرون، ذلك لأن لكل زمان عالماً، و يجب الحمل على ذلك، لأن أمة محمد صلى الله عليه و سلم أفضل منهم لقوله تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**، و قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها و أكرمها على الله» (رواه أصحاب السنن)، و على أي حال، فإن تفضيل بني إسرائيل في زمانهم إنما تتجلى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين، و ليس وراء ذلك فضل و لا منة، فهذا ما لا يعدله فضل و لا منة، فكيف بعد هذا يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلها غير الله، و هم في نعمته و فضله يتقبلون (1).

ص: 342

1- في ظلال القرآن 3/ 1365-1367، مختصر تفسير ابن كثير 1/ 62، تفسير النسفي 2/ 74.

ما أن تمضي أيام ثلاثة على انغلاق البحر آية الله الكبرى لموسى وقومه عند «يم سوف» حتى تدمر بنو إسرائيل لأنهم «لم يقدرُوا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر، لذلك دعي اسمها مارة، فتدمر الشعب على موسى قائلين ما ذا نشرب، فصرخ إلى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبا» (1)، و ما أن يمضي شهر ونصف الشهر حتى يعود بنو إسرائيل إلى التذمر مرة أخرى، و من الغريب أن مصدر التذمر الآن، كما كان في المرة الأولى، شهوة رخيصة، و سعي وراء لذة دنوية، فإذا كانت الأولى بسبب الماء العذب، فقد كانت الثانية بسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد و فضلات المصريين، كانوا يجدون في سيناء «المن» أو العسل البري يشتارونه في غير مشقة و لا جهد، و كانوا يجدون «السلوى» (2)، و لعله

ص: 343

1- خروج 15/23-25.

2- المن و السلوى: أما المن فقد اختلف المفسرون فيه، قال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على اشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا، و قال السدي كان يسقط على شجرة الزنجبيل، و قال قتادة كان ينزل عليهم في محلتهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منه ما يكفيه يومه، و لا يدخر إلا يوم الجمعة فادخاره مباح ليوم السبت، و قال عبد الرحمن بن أسلم: إنه العسل، و قال الربيع بن أنس كان المن ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، و قيل هو الترنجبين أو ما يسقط على شجرة الترنجبين أو الزنجبيل، و هو يشبه الصمغ حلومع شيء من الحموضة، و قيل المن خبز الرقاق، و قيل كان شرابا حلوا يطبخونه فيشربونه، و قيل هو جميع ما منّ الله به عليهم في التيه جاءهم عفوا بلا تعب، و أما السلوى: فهو طائر السماني أو طائر يشبه السماني، و كانت تأتيهم من السماء بكرة و عشيا أو متى أحبوا، أو أن ريح الجنوب كانت تسوقها إليهم فيذبح الرجل منها ما يكفيه، و قيل كانت تنزل عليهم مطبوخة أو مشوية، و كان ينزل عليهم، كالمن، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ما عدا يوم السبت، فكان الواحد منهم يأخذ حاجته ليومه، ما عدا يوم الجمعة فيأخذ ليومين، فخالفوا و ادخروا، فدوّد و فسد، فقطع الله عنهم ذلك، و يروي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «لو لا - بنو إسرائيل لم يخبث الطعام و لم يخنز اللحم»، و روى السدي أن السلوى هو العسل بلغة كنعان. (تفسير الطبري 1/293-298، تفسير النسفي 1/49، تفسير الخازن 3/63، تفسير روح المعاني 1/263-264، الدر المنثور 1/70-71، ابن الأثير 1/110-111، صفوة التفاسير 1/60، مختصر تفسير ابن كثير 1/66-67).

السماني، وفيما يسيرا صيده، وكانت سيناء، وما زالت، قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل في الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر، فما أن تجد الأرض حتى تحط، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم، ومع ذلك فلم يرضى اليهود بما أنزل عليهم من رزق الله (1).

وليس هناك من ريب في أن ذلك إن دل على شيء، فإنما يدل على أن اليهود إنما كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والاستعباد، بجوار قدور اللحم، على حياة الحرية والكرامة، تقول التوراة «فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى و هارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للخبز، فإنكما أخرجتانا إلى هذا القفر، لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع» (2)، ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون في مصر من الخير و ألوان الطعام، تقول التوراة «فعد بنو إسرائيل أيضا و بكوا وقالوا: من يطعمنا لحما، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا، و القثاء و البطيخ و الكرات و البصل و الثوم، و الآن قد يبست أنفسنا ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن» (3)، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا

ص: 344

1- أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 128-129 و كذا.، 468-469 negariztrenieM s'llociN, tpygE sdriB P, 41.

2- خروج 16/2-3.

3- عدد 11/4-6.

و فُومها (1) وَعَدَسِيَّهَا وَبَصَّ لِيهَا، قَالَ أَتَسَّ تَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (2).

ثم ما يمضي حين حتى تقوم ثورة أخرى، فهناك في «رفيديم» «خاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب، و تدمر الشعب على موسى وقالوا:

لما إذا أصدقتنا من مصر لتميتنا وأولادنا و مواشينا بالعطش»، و يأمر الرب نبيّه «أن اضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل، و دعا اسم الموضوع مسه و مريبه، من أجل مخاصمة بني إسرائيل و من أجل تجربتهم للرب قائلين: أ في وسطنا الرب أم لا» (3)، و يفسر «يوسف اليهودي» ذلك بأنهم وصلوا إلى رفيديم في حالة يرثى لها بسبب العطش، و لا شك في أن الصخرة في «حوريب» حيث يوجد ماء مغطى، و يرى رواد الصحراء الذين درسوا تربتها و جاسوا خلالها، أمثال «جارفس» و «وولي» أنه يمكن الحصول أحيانا على الماء في هذه النواحي تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيري على عمق قدمين و يظل مخزوننا طوال العام (4).

ص: 345

-
- 1- الفوم: قيل الثوم و قيل الحنطة، و هو البر الذي يصنع من الخبز، و قال الفخر الرازي: الثوم أوفق للعدس و البصل من الحنطة، و لقراءة ابن مسعود «و ثومها»، و أما القثاء فهو الخيار (تفسير النسفي 51 / 1، تفسير القرطبي 425 / 1، صفوة التفاسير 64 / 1).
 - 2- سورة البقرة: آية 61، و انظر تفسير الطبري 142 - 130 / 2، تفسير الطبرسي 278 - 269 / 1، تفسير النسفي 55 - 56، تفسير روح المعاني 278 - 273 / 1، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 74 - 73 / 1، تفسير أبي السعود 182 - 183، في ظلال القرآن 1 / 75، تفسير ابن كثير 145 - 102، تفسير القرطبي ص 359 - 370، تفسير المنار 276 - 273 / 1، تفسير القاسمي 137 - 140، تفسير الفخر الرازي 98 - 102، التفسير الكاشف 114 - 116، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 74 - 77.
 - 3- خروج 17 / 1 - 7.
 - 4- نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 304.

و الرأي عندي أن الأمر ليس كما فسره هؤلاء الباحثون، وإنما هو، فيما أو من به واعتقده، معجزة من معجزات موسى عليه السلام، إذ أمره الله تعالى بأن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، بقدر عدد أسباط إسرائيل، لكل سبط عين قد عرفوها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (1)، وقال ابن عباس: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عندهم يشربون منها، وقال قتادة: كان حجرا طوريا، أي من الطور، يحملونه معهم إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، وقال النسفي: اللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روى أنه حجر طوري حمله معه، وكان مربعا له أربعة أوجه، كانت تتبع من كل وجهه ثلاث أعين، لكل سبط عين، وقيل هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل (2)، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون اللام).

ص: 346

1- سورة البقرة: آية 60، وانظر: تفسير النسفي 50/1-51، مختصر تفسير ابن كثير 68/1-69.

2- أخرج البخاري عند تفسير آية الأحزاب (69) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن موسى كان رجلا حيا ستيرا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة (انتفاخ الخصية) وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى مر على ملا من بني إسرائيل فأراه أحسن ما خلق الله عريانا، وأراه مما يقولون... قال:، فذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً (صحيح البخاري 312/6).

للجنس، لا- للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه، وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر، ثم يضربه فييبس، وعلى أي حال، فإن انفجار الماء، إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء، وهنا تكون المعجزة أوضح، و البرهان أسطع (1).

[3] بنو إسرائيل و العماليق:-

تشير التوراة إلى أن بني إسرائيل قد التقوا بالعماليق في «رفيديم» حيث جرت بينهم المعركة الرئيسية على امتلاك الشريط الخصيب الوحيد في شبه جزيرة سيناء، وهو «وادي فيران» الحالي (2)، و طبقا لرواية التوراة فلقد «أتى عماليق و حارب إسرائيل في رفيديم فقال موسى ليشوع: انتخب لنا رجلا و أخرج حارب عماليق، و غدا أفق أنا على رأس التلة و عصا الله في يدي، ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق، و أما موسى و هارون و حور فصعدوا على رأس التلة، و كان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب، و إذا أخفض يده أن عماليق يغلب، فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذ حجرا، و وضعاه تحته فجلس عليه، و دعم هارون و حور يديه، الواحد من هنا و الآخر من هناك، فكانت يده ثابتتين إلى غروب الشمس، فهزم يشوع عماليق و قومه بحد السيف» (3).

و على أي حال، فما تنتهي المعركة، حتى يلتقي موسى عليه السلام

ص: 347

1- تفسير الطبري 1/306-309، تفسير الكشاف 1/107، تفسير النسفي 1/50، تفسير أبي السعد السعود 1/180، مختصر تفسير ابن كثير 1/69، صفوة التفاسير 1/62-64.

2- , 1925 P. F. W 4. earsI dnatpygE, eirte.

3- خروج 17/8-13.

بحميه يثرون، الذي جاء و معه صفورة، امرأة موسى و ولداه جرشوم و إيعازر (1)، هذا مع أن التوراة قد ذكرت من قبل، و في نفس سفر الخروج أن موسى قد هبط مصر و معه زوجته و ولداه (2)، و لكن هذا لا يزعجنا كثيرا، فهو نوع من تناقض نصوص التوراة، و نظائره كثيرة، و على أي حال، فإن التوراة (3) تحدثنا أن يثرون، و هو شعيب بني مدين العربي فيما يرجع الكثيرون، كما أشرنا من قبل، كان يقدم القرابين إلى الله، و يتبعه موسى و هارون و شيوخ بني إسرائيل، و أنه قد أسدى إلى موسى النصح باختيار رؤساء للشعب لينظروا في القضايا الثانوية، و يبقى هو المرجع الأعلى، فاتبع نصيحة شعيب، و معنى هذا أن شعيبا، كما يقول الأستاذ العقاد، تقدم موسى في عقيدته الإلهية، و علمه تبليغ الشريعة، و تنظيم القضاء في قومه، و أن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي، و لم يكونوا معلمين (4).

[4] الردة و عبادة العجل في سيناء :-

تحدث التوراة في الإصحاحات من التاسع عشر إلى الحادي و الثلاثين من سفر الخروج عن الشريعة الموسوية، و في الإصحاح الثاني و الثلاثين من نفس السفر تحدث عن ردة بني إسرائيل عن التوحيد، و حبر وصايا الرب لم يجف كما يقولون، ذلك أن موسى عليه السلام، فيما يروي المفسرون، قد وعد بني إسرائيل و هو بمصر، إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون و يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوما، و هو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلق فمه (تغير رائحة فمه) فتسوّك، فقالت الملائكة: كنا نشم

ص: 348

1- خروج 1/18-7.

2- خروج 4/20.

3- خروج 18/12-27.

4- عباس العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان و العبريين القاهرة 1960 ص 80.

من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، أو أن الله أوحى إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة، روي عن ابن عباس وغيره: فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكلم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**، وكان موسى لما أتم الصيام ثلاثين يوماً وعزم على الذهاب إلى الطور، استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون وصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء، وهناك كما أشرنا، أنكر ريح فمه فاستاك بعود خرنوب أو بلحاء شجرة، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام أخرى، وفي تلك الليالي العشر، افتتن بنو إسرائيل، لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى (1)، وإلى هنا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **وَإِعْدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**، وقال موسى لأخيه هارون **اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** (2)، وقال تعالى: **وَإِذْ إِعْدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** (3).

وهكذا لم يمضي وقت طويل على انغلاق البحر لموسى وقومه، حتى كانت الردة وعبادة العجل، كما جاء في التوراة والقرآن العظيم،

ص: 349

-
- 1- تفسير الكشاف 151/2، تفسير النسفي 48/1، 74/2، تفسير أبي السعود 174/1، الدر المنثور 115/3، تفسير روح المعاني 1/257-258، تفسير البحر المحيط 379/4، مختصر تفسير ابن كثير 48/2، تاريخ الطبري 421/1-422، ابن الأثير 107/1.
 - 2- سورة الأعراف: آية 142.
 - 3- سورة البقرة: آية 51، 54، 92-93 سورة طه: آية 83-98.

و يقول تعالى: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْتَدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ، وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَدُّوا قَالُوا لَنْ لِمَ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَنْ كُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَ كَادُوا يَفْتِنُونِي فَلَا- تُشَدِّ مَثِي بِئِ الْأَعْدَاءِ وَ لَا- تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلِ سَيْنًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (1).

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بني إسرائيل، حتى بعد انغلاق البحر لهم، و حتى بعد أن جاوزوه على ييس، و حتى بعد أن من الله عليهم بالمن و السلوى، و حتى بعد أن استسقوا موسى فضرب الحجر بعصاه فأنجبت منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط من الأسباط الاثني عشر مشربهم، و حتى بعد أن نزلت عليهم شريعة تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله، حتى بعد هذا كله، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم، و كفروا بالله الواحد الأحد، «و صنعوا لهم عجلا مسبوكا و سجدوا له و ذبحوا و قالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (2)، و هو نفس ما سيفعلونه في دويلة

ص: 350

-
- 1- سورة الأعراف: آية 148-152، و انظر: تفسير الطبري 13/117-136، تفسير الطبرسي 9/26-32، تفسير القاسمي 7/2859، تفسير روح المعاني 9/67-70، تفسير ابن كثير 3/473-475، تفسير المنار 9/172-183، تفسير القرطبي ص 2720-2728، تفسير الفخر الرازي 15/108-111، تفسير الكشاف 2/118-120، تفسير أبي السعود 2/406-409، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/219-221، تفسير الجلالين ص 155، تفسير و جدي ص 214-215.
 - 2- خروج 32/7-8.

إسرائيل على أيام «يربعام الأول» (922-901 ق. م) وبعد موت سليمان عليه السلام مباشرة ذلك أن يربعام، خوفاً من أن تعود قلوب القوم تتعلق بأورشليم، قد هداه تفكيره المريض إلى أن يعيد المكانين المقدسين عند القوم، وكان الواحد منهما في «بيت إيل»، والآخر في «دان»، وأن يزود كل منهما «بالعجل الذهبي»، بل إن عاصمتهم السامرة فيما بعد، قد زودت كذلك «بعجل ذهبي» (1).

وليس هناك من ريب في أن هذا، إنما كان، مرة أخرى، من تأثير الوثنية المصرية على بني إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل في مصر جد عميقة الجذور، إذ ترجع إلى ما قبل عصر موسى بكثير، إلى أيام الأسرة الأولى حوالي عام 3200 ق. م، ثم استمرت حتى ظهور المسيحية و غلبتها عليها، ويذهب «والتر إمري» إلى أن العجل كان في نظر القوم، رمزا للقوة في الحروب، كما أنه رمز للإخصاب، في نفس الوقت، و أن عبادته بدأت منذ أيام الأسرة الأولى، اعتماداً على تصوير ملوك هذه الأسرة على هيئة ثيران (2)، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور وعبي» (منفيس وأيس في تصحيف اليونان) حيث عبد الأول في «أون» (عين شمس) رمزا لإله الشمس رع، و عبد الثاني في منف مدينة بتاح، رمزا للإله بتاح، وقد احتفظ المصريون في معبد بتاح بالعجل المقدس «أيس»، دون أن تكون هناك علاقة ما بين الإلهين، على الأقل في العصور القديمة (3)، كما أن «بتاح» لم يصور أبداً على هيئة ثور، ولم يعتقد أحد أنه تجسد في ثور (4)، ولم يعتبر أيس كروح للإله بتاح، إلا على أيام الدولة الحديثة، وإن كان هناك اعتقاد

ص: 351

1- ملوك أول 12/25-32، هوشع 8/5-6 وكذا. P, tic-po, htoN. M 232.

2- , 1963, p. 124. W remE. B. yremE. B. W 124. p. 1963.

3- أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة- القاهرة 1952 ص 31 (مترجم).

4- , 1942, p. 10. F. G trofknar, K. pihsngni dna eht G sdogacih.

يجعل من «أبيس»، وكذا «منقيس» عجل أون، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل إلى إلههما، وهو اعتقاد يرجع كذلك إلى عهد الدولة الحديثة (1575-1087 ق. م) (1).

هذا وقد قام جدال طويل حول حقيقة «العجل» الذي عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى عليه السلام، فمن قائل أنه كان تمثالا أجوف من ذهب صاغه السامري من الحلبي، وصنع بحيث إذا استدبر الريح دخلت جوفه وخرجت من فمه بصوت جهير يشبه خوار البقر، ومن قائل إن هذا الرجل المحتال خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلبي، ثم رأى عجلا على هيئة العجول التي رآها تعبد في مصر، فاشتره وقدمه لهم، على أنه إله، فقال «هذا إلهكم وإله موسى»، ومن قائل غير هذين الرأيين، ولكن المتفق عليه من الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) أنهم عبدوا عجلا، أيا كان هذا العجل (2).

ويختلف المؤرخون المحدثون حول عبادة العجل الذي عبده بنو إسرائيل، ففريق ينسبها إلى عبادة الإلهة «حاتحور» وفريق ينسبها إلى عبادة العجل «أبيس»، ذلك أن «سير ليوناردو وولي» (3) إنما يذهب إلى أن بني إسرائيل عند ما دخلوا منطقة جنوب سيناء، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبدا لحاتور، ارتدوا عن الوحداية إلى العقائد التي اكتسبوها في

ص: 352

1- أدولف إرمان: المرجع السابق ص 31.

2- عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 201، وانظر: تفسير الطبري 1/279-285، تفسير النسفي 1/48، 2/77-78، مختصر تفسير ابن كثير 2/51-52، تفسير البيضاوي 3/27-28، تفسير الخازن 1/59-62، تاريخ الطبري 1/422-425، ابن الأثير 1/107-108.

3- Y. N, noitaziliviC fo sgninnigeB ehT, yelloW dranoE riS 515- 513. p. 1965 , -3.

مصر، و صاغوا العجل الذهبي، تمجيذا للإلهة البقرة، و التي اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد.

هذا و يفترض «أوسترلي» (1)، طبقا لما جاء في التوراة (2)، أن هذا العجل الذهبي إنما كان معبودا مصرياً، وأنه هو الإلهة حاتور، وأن هناك تمثالا في المتحف المصري بالقاهرة لهذه الإلهة البقرة يرجع إلى أيام أممحتب الثاني (1436-1413 ق. م)، و قد غطى الرأس و العنق و القران في الأصل بالذهب، و يشير إلى «العجل الذهبي»، و قد وصف في مكان آخر، و كأنه الإلهة ذات القلائد المضيفة «مثل السماء بنجومها»، و هي تدعى «الواحدة الذهبية» أو «ذهب الآلهة»، و لعل في هذا إشارة كذلك إلى السبب الذي من أجله سمي العجل ب «الذهبي»، و قد وجدت صور هذه الإلهة في بيت شان (بيسان) و جازر و أريحا، و إن الإلهة «عشتار» كانت تمثل أحيانا بلباس الرأس الخاص بحاتور، و لهذا كله، فإننا نستطيع أن نوحّد العجل الذهبي بالإلهة المصرية «حاتور»، هذا فضلا عن أن من صفات حاتور، أنها كانت تدعى إلهة الحب، و الإلهة المرحلة الطروب، و من ثم فقد كانوا يسمونها «بالذهبية»، و قد دعاها اليونان «أفروديت»، و من ثم فقد كانت النسوة يخدمنها و يحتفلن بها، و ذلك بإقامة حفلات الرقص و الغناء و اللعب على الصاجات و الشخشخة بقلاندهن، و بالعزف على الدفوف (3).

و لعل من الجدير بالإشارة أن قارئ التوراة يجد في سفر الخروج صدى لهذه الاحتفالات النسوية بحاتور، من إقامة حفلات الرقص و الغناء

ص: 353

1- W. O. E. O. 1947, yltretseO, learsI dna tpygE, ehT ni , drofXO .

2- خروج 2/32-4، ملوك أول 28/12.

3- أدولف إرمان: المرجع السابق ص 36-37، سليم حسن: المرجع السابق 1/208، جيمس بيكي: المرجع السابق 2/189.

و اللعب، ذلك أن بني إسرائيل، بعد أن صاغوا عجلهم الذهبي، وقدموا له القرابين، «جلس الشعب للأكل و الشرب ثم قاموا للعب» (1)، و أن موسى عليه السلام عند ما اقترب من المحلة أبصر العجل و الرقص (2)، و طبقا لترجمة اليسوعيين، فلقد «رأى موسى الشعب أنهم عراة، لأن هارون (3) كان قد عراهم أمام أعدائهم، لأجل ما هو عار نجاسة» (4)، و هكذا تصور لنا التوراة جماعة إسرائيل، و هي ترقص عارية، و يذهب بها المرح من حول «العجل الذهبي» كل مذهب، مما يتفق و مظاهر الاحتفال بحاتور (5).

على أن هناك فريقا آخر يعارض هذا الاتجاه، و يرى أن بني إسرائيل عبدوا عجلا، و ليس بقرة، فالأستاذ «دياكونوف» (ffonokaiD. M. I) يرى أن العجل الذهبي إنما كان في صورة حيوان ذكر، و ليس أنثى، و من هنا فإنه يشك كثير في أن الإسرائيليين قد صاغوا هذا العجل الذهبي تمجيذا للإلهة «حاتور» (6)، و يذهب الدكتور ثروت الأسيوطي إلى أن بني إسرائيل قد قدسوا النجوم، و تقربوا إلى القمر ربيب الرعاة في الليالي الرطبة، بعد الشمس المحرقة، و من ثم فقد عبدوا العجل باعتباره رمزا للقمر (7)، بل إن جوستاف لوبون إنما يذهب إلى أن العجل من أصل كلداني، و كان بنو

ص: 354

1- خروج 2/32-8.

2- خروج 19/32.

3- لاحظ هنا أن التوراة تجعل هارون، و حاشاه أن يفعل ذلك، هو الذي صنع العجل و أغوى بني إسرائيل، و ليس السامري، و هذا ما سنناقشه حالا.

4- نص ترجمة دار الكتاب المقدس بالقاهرة (ط 1982) كالتالي: و لما رأى موسى الشعب أنه معري لأن هارون كان قد عراه للهزة بين مقاوميه (خروج 19/32).

5- أنظر عن: الردة و عبادة العجل في سيناء (محمد بيومي مهران: إسرائيل 462/1-479- الاسكندرية 1978).

6- .P, tic- po, yellooW. L 514 .

7- ثروت الأسيوطي: نظام الأسرة بين الاقتصاد و الدين، بنو إسرائيل ص 149.

إسرائيل يعبدون العجول المعدنية بعد خروجهم من مصر بطويل زمن، لارتوائهم من مبادئ بلاد ما بين النهرين الدينية، و كان هذا هو الوجه المفضل الذي يرمزون به إلى ربهم «يهوه» (1).

و هناك ما يشير إلى أن إله العبريين «يهوه» إنما هو في الأصل إله قمري، فقد كان يرسم في العصور القديمة في صورة «ثور» فضلا عن أننا نجد قرنين في مذبحه (2)، هذا إلى جانب ما يفهم من التوراة (العهد القديم) أن الديانة العبرية كانت توصف قبل السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، بأنها ديانة قمر و شمس و كواكب (3)، مما يدل بوضوح على أن بني إسرائيل، على أيام الملكية، قد تبني ملوكهم ديانات الشرك، بجانب ديانة يهوه، و أقاموا عجولا من ذهب وضعوها في مبان كالمعابد، كما فعل يربعام أول ملوك دويلة إسرائيل بعد الانقسام في أعقاب موت سليمان عليه السلام، في مدينتي دان و بيت إيل (4)، كما أشرنا من قبل، و كما فعل خليفته البعيد «أخاب» (869-850 ق. م) في عاصمته السامرة (5).

و انطلاقا من هذا كله، فالرأي عندي، أن عجل الذهب الذي عبده بنو إسرائيل في أوائل مرحلة الخروج من سيناء، و موسى عليه السلام ما يزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحي من ربه في طور سيناء، إنما كان تقليد العبادة العجل المقدس في مصر، و ليس تقليدا لعبادة الإلهة البقرة حاتور، و ربما كان من أسباب ذلك (أولا) أن حاتور إنما كانت معبودة في مصر العليا (الصعيد) أكثر منها في مصر السفلى (الدلتا) حيث كان بنو إسرائيل يعيشون على أطراف

ص: 355

1- جوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص 61.

2- ملوك أول 28/12، ملوك ثان 11/23، خروج 4/32، هوشع 5/8-6.

3- ملوك ثان 16/17، 3/21، 5، 4/23-5، إرميا 2/8.

4- ملوك أول 26/12-36.

5- ملوك أول 16/31-33.

الدلتا الشرقية، و من ثم فقد عبت حاتور في مناطق كثيرة من الصعيد، في كوم أمبو و الجبلين و الأقصر و هو بنجع حمادي و القوصية و أطيح و منف، كما عبت في بلاد النوبة و بونت و جبيل، و إن كان أهم مراكز عبادتها في «دندرة» (5 كيلا شمالي قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير، و الذي يضارع معبد أدفو في روعته و اكتماله، و قد بناه بطليموس الثاني (284-246 ق. م) على أنقاض معبد حاتور القديم، و إن لم يتم البناء إلا حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد، و ما يزال حتى الآن يعدّ من أحسن المعابد المصرية، و أكثرها تأثيرا (1)، و هذا يعني أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في منطقة بعيدة عن نفوذ عبادة حاتور، و العكس صحيح بالنسبة إلى عبادة العجول كمنفيس و أيس.

و منها (ثانيا) أن القرآن الكريم قد انفرد، من دون التوراة، بذكر نوعين من الردة، الأولى محاولة عبادة حتحور، بينما الثانية و قد ذكرتها التوراة كذلك، عبادة العجل الذهبي، ذلك أن آية الأعراف (139) إنما تتحدث عن تطلع بني إسرائيل، بمجرد عبورهم البحر، إلى عبادة إله آخر، غير إله موسى، يقول تعالى: وَ جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (2)، و قد أشرنا من قبل، إلى أن مناجم الفيروزج تكثُر في وادي مغارة و سراية الخادم، حيث أقيم معبد للإلهة حاتور، ربة الفيروزج، منذ أيام الدولة الوسطى، التي عملت على استغلال تلك المنطقة باهتمام

ص: 356

1- محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية- الاسكندرية 1984 ص 160، 337-341، و كذا. P, I, seuqihpargoG smoN sed .
oriac eL ,knraK a reL sirtsoseS ed llepahc enU ,rairvehC, و كذا .eriannoitciD, reihtuaG. H 105., IV, p 56. A
..H dna uacaL .P 224. p, 1956. P, tic- po, renidraG. H 130- 129, 45
2- سورة الأعراف: آية 139.

كبير، و من ثم فإن بني إسرائيل عند ما دخلوا منطقة جنوب سيناء، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعددين معبدا لحاتور، ارتدوا عن الوجدانية إلى العقائد الوثنية التي اكتسبها بمصر، و طالبوا موسى عليه السلام بأن يجعل لهم إلهًا، ربما على هيئة حاتور، غير أن كليم الله عليه السلام، استطاع بقوة إيمانه، و رسوخ عقيدته، و قوة شخصيته أن يمنع قطيعه من الردة الأولى هذه، و بالتالي لم يتمكن القطيع من عبادة حاتور أو غيرها من الآلهة الوثنية، لكنهم سرعان ما اهتبلوا فرصة ذهاب موسى لميقات ربه لمدة ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين ليلة، كفر القطيع بموسى، و إله موسى، و عادوا إلى ما ألفوه من عبادة العجول في مصر، و انطلقا من كل هذا، يمكننا القول أن الردة الأولى إنما كانت لعبادة حاتور، الإلهة البقرة، و لكن موسى عليه السلام نجح في وأد المحاولة في بدايتها، و أما الردة الثانية فكانت لعبادة العجل الذهبي، تقليدا لعبادة العجل منفيس أو أبيس، لا ندري على وجه اليقين.

و من ثم فإننا نوافق الرأي الذي ذهب إلى أن معبود إسرائيل الذهبي في سيناء إنما كان عجلا، و لم يكن بقرة، صحيح أن بعض العلماء نادى المعبود إنما كان بقرة، و لكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله عز و جل، كما جاء في الذكر الحكيم (1)، فضلا عن التوراة (2)، و ليس ما درج الباحثون أن يقدموا، وإنما هو اجتهاد، و فوق كل ذي علم عليم، و صدق الله العظيم حيث يقول:

وَلَقَدْ جَاءكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (3)، و يقول: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا

ص: 357

1- أنظر: سورة البقرة: آية 51-54، 92-93، النساء: آية 153، الأعراف: آية 148-152، طه: آية 83-98.

2- خروج 32/3-6.

3- سورة البقرة: آية 92، و انظر: تفسير الطبري 1/354-358، تفسير النسفي 1/71-72، تفسير الطبرسي 1/363-367، تفسير

الكشاف 1/165، تفسير روح المعاني 1/325-327، تفسير المنار 1/308، تفسير ابن كثير 1/180-181.

لَهُ خُوَارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (1) و يقول: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى (2).

و يحاول هارون عليه السلام أن يعيد القوم الضالين إلى عقيدة التوحيد، وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (3)، و لكنهم وقد أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم أجابوه، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (4)، و أخبر الله تعالى نبيه موسى برده قومه، و إخلال السامري لهم، فيعود موسى إلى قومه غضبان أسفا، و يشتد في اللوم على هارون أخيه، ظنا منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول تعالى: وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَوْا هَفْوًا و كَادُوا يَقتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (5)، و يقول:

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (6).

و هنا تتجه التوراة إلى منزلق خطر، حيث يذهب كتبها في الضلال

ص: 358

1- سورة الأعراف: آية 148.

2- سورة طه: آية 88.

3- سورة طه: آية 90.

4- سورة طه: آية 91.

5- سورة الأعراف: آية 150.

6- سورة طه: آية 92-94.

بعيدا، فيرون في سفر الخروج أن الذي صنع العجل وأغوى بني إسرائيل، إنما هارون، وليس السامري، حين اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار في غيبة موسى (1)، ولست أدري كيف نسي كتبة التوراة أن هارون أخو موسى، ونبي ورسول من الله مع موسى، و نائب و خليفة لموسى في غيابه، ولكنهم بنو إسرائيل دائما مع الفاسد المفسد، ولو كان السامري، قال تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (2)، وقال تعالى:

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ وَ نَصَرْنَا هُم فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسَدِّينَ، وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (3).

و على أية حال، فإن موسى سرعان ما يقرر، فيما تروي التوراة، أن هذا الشر، و أن هذه الردة، ليس لها من توبة، إلا شفا الأسنة يسلونها ليضرب بها اللاويون، سبط موسى، رقاب الآخرين، و طبقا لرواية سفر الخروج فلقد «وقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل» (4)، هذا و قد اختلف المفسرون فيمن عبد العجل من بني إسرائيل، فمن قائل عبده ثمانية آلاف، و من قائل عبده جميعهم، إلا هارون، فضلا عن اثني عشر ألفا منهم، و من قائل عبده كل بني إسرائيل إلا هارون، و قال عبد الرحمن بن زيد: كانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه (5)، على

ص: 359

1- خروج 1/32-24.

2- سورة مريم: آية 51-53، و انظر: طه: آية 29-36، الشعراء: آية 12-17، القصص: آية 34-35.

3- سورة الصافات: آية 114-122.

4- خروج 32/26-29.

5- تفسير الخازن 1/62، مختصر تفسير ابن كثير 1/65.

أن «سبينوزا» يذهب إلى أن الإسرائيليين جميعاً، قد عبدوا العجل، باستثناء اللاويين (1)، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان اللاويون، كما يقول فرويد، هم بطانة موسى من السحرة المصريين الذين وصفهم القرآن بأنهم أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ (2)، ومن ثم فهم، بجانب المؤمنين من بني إسرائيل، هم وحدهم الذين لم يعبدوا العجل، أو قل هم الذين عبدوا رب موسى و هارون عن عقيدة، لم تضعف حتى أمام وعيد فرعون و تهديده، و لعمرى إن الذين هددهم فرعون، كما يقول الذكر الحكيم: فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا ضَمَّ لَبَنِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (3)، فكان ردهم: قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (4)، و في آية أخرى: قَالُوا لَا صَدِّيرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ (5)، هم أنفسهم الذين بقوا على إيمانهم بالله الواحد القهار، لأن الذين آمنوا من أبناء مصر إنما كان إيمانهم أرسخ من الهرم، و كان استخفافهم بوعيد فرعون و تهديده بقطع أيديهم و أرجلهم و تصليبهم في جذوع النخل، إن هؤلاء ليسوا هم الذين ينكثون عهدهم، و يرتدون عن دينهم، بمجرد أن يتخلف نبيهم في ميقات ربه أياما عشرة، فوق الثلاثين المحددة.

و أما عقاب جريمة كفر بني إسرائيل، فقد كان أشد و بالاً و نکالاً من

ص: 360

1- باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص 415.

2- سورة الشعراء: آية 51.

3- سورة طه: آية 71.

4- سورة طه: آية 72-73.

5- سورة الشعراء: آية 50-51.

المحن الأخرى التي تعرضوا لها، لقد كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، وها هم الآن يقتلون أنفسهم بأنفسهم، وهكذا نرى أن ما حل ببني إسرائيل في ظل فرعون، كان من جنس ما حلّ بهم في ظل موسى، فقد كان ذلك بلاء من الله، و كان هذا بأمر من الله، وكلاهما محنة تنزل بالعصاة (1)، فلقد كانت توبتهم عن عبادة العجل أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم، قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (2)، يقول المفسرون أنهم أمروا أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده، و كان الرجل منهم يرى قريبه فلا يقدر أن يمضي لأمر الله تعالى، فأرسل الله تعالى ضبابه و سحابة سوداء لا يتباصرون بهما، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى، حتى دعا موسى و هارون عليهما السلام، فكشفت السحابة و نزلت التوبة، و كان القتلى سبعين ألفاً، و قال السدى في قوله تعالى: فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ: اجتلد الذين عبدوه و الذين لم يعبدوه (أي العجل) بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيدا، حتى كثر القتلى، حتى كادوا أن يهلكوا، و حتى قتل منهم سبعين ألفاً، و حتى دعا موسى و هارون ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية الباقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح و تاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا، و من بقي مكفرا عنه، فذلك قوله تعالى: فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

و روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: أمر موسى قومه، عن أمر ربه عز و جل، أن يقتلوا أنفسهم، قال: و أخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، و قام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، و أصابتهم ظلمة

ص: 361

1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 204.

2- سورة البقرة: آية 54.

شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلمة عنهم، وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، و كل من بقي كانت له توبة، على أن هناك من يرى أن التوبة لم تكن بالقتل، وإنما بالنجس أو بقطع الشهوات (1).

[5] طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة:

و هذا نوع آخر من ردة بني إسرائيل، فرغم تتابع الحجج عليهم والآيات، ورغم سبوغ النعم من الله تعالى عليهم، فإن موسى عليه السلام لم يجد منهم إلا العناء، فما أن جاوزوا البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنامهم، حتى قالوا لموسى اجعل لنا إلهًا، كما لهم آلهة، و كأن الله تعالى، الذي فرق لهم البحر ليس هو إلههم الواحد الأحد، و ما أن تمضي بضعة أيام حتى يتذمر القوم من حياتهم الجديدة، بسبب عدم وجود الماء العذب مرة، و بسبب حرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من فتات الموائد و فضلات المصريين مرة أخرى، و ما أن يمضي حين من الدهر حتى يعودوا إلى ما ألفوه من عبادة العجول في مصر، و هكذا أتعب بنو إسرائيل أنفسهم، و اتعبوا نبي الله معهم، لا يطيعون أمره، و لا ينتهون عما نهى عنه، و كأن شعارهم «سمعنا و عصينا»، حتى إذا ما دعاهم إلى قتال عدوهم، أجابوه:

اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، و إذا أمرهم أن ادخلوا الباب سجدا، و قولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، قالوا مستهزئين: حنطة في شعيرة، و يدخلون الباب من قبل أستاهم (2)، إلى غير ذلك من أفعالهم

ص: 362

1- أنظر: تفسير الطبري 1/ 285-288، تاريخ الطبري 1/ 424، ابن كثير: مختصر التفسير 1/ 64-65، البداية و النهاية 1/ 288، تفسير الخازن 1/ 62، تفسير النسفي 1/ 48-49، تفسير أبي السعود 1/ 175-176، تفسير البغوي 1/ 62، تاريخ ابن الأثير 1/ 108، ثم قارن: خروج 32/ 22-29.

2- قال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، و إن استبعده الرازي، و قال السدي عن ابن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعي رءوسهم، أي رافعي رءوسهم، خلاف ما أمروا، و روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه و سلم: قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا و قولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاهم، فبدلوا و قالوا حبة في شعرة» (مختصر تفسير ابن كثير 1/ 68).

القبيحة التي آذوا بها نبيهم، والتي تكاد لا تحصى.

وفي هذه المرة يطلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام، حتى يؤمنوا، أن يروا الله جهرة، وكانهم بعد كل هذه المعجزات لم يؤمنوا بموسى وإله موسى، فيطلبون منه، في مقابل إيمانهم، رؤية الله جهرة، قال تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (1)، هذا وقد اختلف العلماء في طلب الرؤية، وهل كانت قبل التوبة من عبادة العجل أم بعدها، فمن قائل إنها كانت قبل التوبة، ومن قائل إنها بعدها، وهذا ما نميل إليه، روى الطبري عن السدي: أن بني إسرائيل لما تابوا من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً، أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً، فاختر موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا إلى ذلك المكان ودنا موسى من الجبل ووقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، فقالوا له: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَإِنَّكَ قَدْ كَلَّمْتَهُ فَأَرْنَاهُ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ فَمَاتُوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ما ذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلك خيارهم، رب لو شئت أهلكتهم وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فأوحى الله إليه: إن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل، ثم إن الله تعالى

ص: 363

أحياءهم، فقاموا وعاشوا، رجلا-رجلا، ينظر بعضهم إلى بعض، كيف يحيون، وذلك قول الله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

ويقول ابن كثير: إن أهل الكتاب غلطوا في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون (1)، وهو يشير في ذلك إلى قوله تعالى: وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْمَهُ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ، و من هنا كما يقول النسفي في التفسير، تعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية، لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت، قلنا (أي النسفي) إنما عوقبوا بكفرهم، لأن قولهم: إنك رأيت الله، فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة كفر منهم، ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته، و الإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، و لا يجوز اقتراح الآيات عليهم، و لأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنت و عناد.

ثم يقول الإمام النسفي في تفسير آية الأعراف (143) قَالَ رَبِّ أَرِنِي).

ص: 364

1- تقول التوراة إن الله أمر موسى أن يصعد إليه هو و هارون و ناداب و أبيهو و سبعون من شيوخ إسرائيل، و أن يسجدوا للرب من بعيد، و لا يقترب إلا موسى، ثم صعدوا «و رأوا إله إسرائيل و تحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف و كذات السماء في النقاوة، و لكنه لم يمد يده إلى أشرف بني إسرائيل، فرأوا الله و أكلوا و شربوا» (خروج 1/24 - 11) و من عجب أن التوراة نفسها، و في نفس سفر الخروج تقول إن موسى طلب أن يرى الله، فقال له: «لا- تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني و يعيش»، ثم أمره أن يقف على صخرة، و أن الرب حين يجتاز الصخرة سيضع موسى في نقرة من الصخرة و يستتره بيده حتى يجتاز «ثم أرفع يدي فتتظر ورائي، و أما وجهي فلا يرى» (خروج 20/33 - 23)، و انظر عن هذا التناقض في روايات التوراة و غيره (محمد بيومي مهران: إسرائيل 224/3 - 252).

أَنْظُرُ إِلَيْكَ يعني مكّني من رؤيتك بأن تتجلى لي حين أراك، وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى عليه السلام اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر، قال لَنْ تَرَانِي بالعين الفانية، بل بالعطاء والنوال بعي باقية، وهو دليل لنا أيضا، لأنه لم يقل «لن أرى» ليكون نفيا للجواز، ولو لم يكن مرثيا لأخبر بأنه ليس بمرئي، إذا الحالة حالة الحاجة إلى البيان، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني»، وهو دليل لنا أيضا، لأنه على الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن، وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه، كالتعليق بالمتنع يدل على امتناعه، والدليل على أنه ممكن قوله: جَعَلَهُ دَكًّا، ولم يقل اندك، وما أوجده تعالى كان جائز أن لا يوجد، لو لم يوجد، لأنه مختار من فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالا لعاتبه، كما عاتب نوحا عليه السلام بقوله: «إني أعظك أن تكون من الجاهلين»، حين سأله إنجاء ابنه من الغرق (1).

ص: 365

1- تفسير النسفي 49/1، 75/2، تفسير الطبري 289/1-293، تاريخ الطبري 428/1، ابن كثير: مختصر التفسير 65/1-66، 48/2-49، البداية والنهاية 283/1-286، 289، الكامل لابن الأثير 108/1-109، صفوة التفاسير 59/1-60، 469.

[1] ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل: -

بدأ بنو إسرائيل يفكرون في وطن يستقرون فيه، و كان هذا الوطن هو أرض كنعان، رغم أنها لم تكن لهم من قبل دار قرار، إذ أنهم لم يقيموا فيها إلا لفترة وجيزة، لا تتجاوز أيام إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم هاجروا منها بسبب قحط عم و طال، فكانت أرض النيل الطيبة هي الملجأ أو المأوى، فقدموا إليها بدعوة من يوسف الصديق عليه السلام، و الذي كان قد أصبح وقت ذلك عزيز مصر (1)، و في تلك الآونة التي أقاموا فيها هناك في الجنوب الفلسطيني لم يمتلكوا، كما تقول توراتهم، حتى مكان خيامهم أو موضع قبورهم (2)، و ها هم الآن بعد أن خرجوا من مصر، أو على الأصح، بعد أن هربوا منها، يهيمنون في صحراوات سيناء المقفرة، و هنا، و هنا فقط، بدأت فكرة الوطن عندهم، ذلك لأن ربهم «يهوه» كان، فيما تروي توراتهم (3)، قد وعدهم بأرض كنعان، ففكرة الوطن عند اليهود جاءت بعد ظهور بني إسرائيل، و عادة تتطور الشعوب في ظل أوطانها، و لكن بني

ص: 367

1- سورة يوسف: آية 58-100، تكوين 41/56-46/34.

2- تكوين 1/23-20، 1/37، 9/47.

3- خروج 8/3، 13/32، 1/33-2.

إسرائيل ظهوروا إلى الوجود أولاً، ثم ادعوا ملكية أرض كانت لغيرهم، و لا حق لهم فيها (1).

ولعل سائلا يتساءل: لم وقع اختيار بني إسرائيل على فلسطين لتكون وطناً لهم؟ ولعل الإجابة إنما تكمن في الأسباب التالية، والتي منها (أولاً) أن العبرانيين قد اعتادوا العيش في أرض مصر الغنية، و من ثم فهم لا يستطيعون البقاء في الصحراء، و لا بدلهم من الاندفاع تجاه وطن أفضل من هذه الصحراوات القاحلة في شبه جزيرة سيناء، و ما داموا لن يستطيعوا العودة إلى أرض مصر الغنية، فليس أمامهم سوى كنعان، و من المعروف أن العبرانيين، مهما قيل عن أسلافهم و أصلهم التاريخي، فقد كانوا قبائل رحلا، و لما كانوا رحلا في الشرق الأدنى، فقد عاشوا، لا في السهول الخضراء التي لا تنتهي، و إنما في رقعة بين البادية و بين الزرع، بين أخصب البقاع و بين نفي الحياة العام، ذلك لأنه في هذه البقعة العجيبة من العالم، إنما يتجاور الخصب و البوار، و من ثم فلا بد أنهم قد اختبروا رفاه الحياة و عنتها في كلا الحالين، و قد تاق العبرانيون إلى الاستقرار في السهول الممرعة، و لكنهم كانوا يحملون بأرض تفيض غللاً، كالتي تخيلها المصريون لآخرتهم (2).

و منها (ثانياً) ذلك السبب التقليدي، إذ كانت هذه القبائل الرحل، و لعدة أجيال متتالية، ترنوا بناظرها إلى «أرض الميعاد» (3)، حيث كان الأجداد يعيشون قبل رحيلهم إلى مصر (4)، و منها (ثالثاً) أن بني إسرائيل حين

ص: 368

1- عبد الحميد زائد: الشرق الخالد، القاهرة 1966 ص 379.

2- , 1949 , p. 246. F. H trofknar dna srehto , B. erofehP solihy.

3- أنظر: محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة و الأسطورة- مجلة الأسطول- العدد 66، 67، الاسكندرية 1970.

4- . P, tic- po, llaH. R. H 409 .

خرجوا من مصر فرارا من آل فرعون، أصبح عددهم يكفي لأن يقوم عليه مجتمع، له كيان و نظام و مكان، و قد جاءت التوراة بالنظام فأين يجدون المكان؟ إن أقرب مكان تطمح إليه أنظارهم، بعد مصر، إنما هو فلسطين (1)، أو كنعان كما كانوا يسمونها، فهي، كما حدثتهم توراتهم في أسفار موسى الخمسة، تفيض لبنا و عسلا (2)، و منها (رابعا) أن موسى عليه السلام أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، سواء أ كانت هذه الأرض هي فلسطين بعامة أو القدس أو أريحا فيما يرجح البعض، تنفيذًا لأمر الله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (3).

[2] الخوف من دخول كنعان:-

و هكذا بدأ موسى يسير بقومه نحو كنعان، و لكن كنعان كانت عامرة بالسكان، و من ثم فإن محاولة دخولها إنما تعني الحرب بين بني إسرائيل و بين سكان فلسطين الأصليين، و هنا، و في برية فاران، أمر الرب موسى أن يرسل بعضا من رجاله يمثلون الأسباب جميعا لكي يتجسسوا أرض كنعان، و يقوم الجواسيس بمهمتهم ثم يعودون إلى موسى بتفاصيل عما وجدوه في الأرض من تحصينات، و ما فيها من نقاط ضعف و قوة (4)، غير أن الرسل إنما ينقسمون إلى فريقين، الواحد و يضم عشرة رجال، يرى أن اليهود أضعف من أن يقوموا، «لأن الأرض التي مررنا فيها لتجسسها هي أرض تأكل سكانها، و جميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة، و قد رأينا هناك الجبابرة

ص: 369

1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 210.

2- خروج 8/3، 13/32، 3/33، عدد 8/14، تثنية 15/26.

3- سورة المائدة: آية 21، و انظر: تفسير الطبري 1/299-303، تفسير النسفي 2/278، تفسير روح المعاني 1/264، تفسير الخازن 1/

64، تفسير البيضاوي 1/148.

4- عدد 1/13-29.

فكنا في أعيننا كالجراد، و هكذا كنا في أعينهم» (1)، و أما الفريق الآخر، و يضم رجلين، كالب بن يقنة و يشوع بن نون، فقد عارض هذا الإتجاه الجبان، بل إن كالب ليقول: «إننا نصعد و نمتلكها لأننا قادرون» (2).

و هنا يثور بنو إسرائيل على موسى و هارون، و مع ذلك فإن موسى إنما يبدأ يحرضهم على القتال، و لكنهم مع كثرتهم، تحسبهم جميعاً و قلوبهم شتى (3)، كانوا يخافون الحرب و يهابون القتال، إذ تمكنت منهم المذلة و الصغار، فصاحوا بموسى و هارون قائلين: «ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر، و لما ذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا و أطفالنا غنيمة» (4)، بل و قد ذهب بهم التمرد، طبقاً لرواية التوراة، إلى حد الثورة على موسى شخصياً، و المناداة بخلع رئاسته، و قيام سلطة جديدة تعود بهم إلى مصر، «أليس خير لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً و نرجع إلى مصر» (5).

و يصور القرآن الكريم هذا الحادث تصويراً صادقاً، الصدق كل الصدق، مبيناً أن صفة الجبن عند الإسرائيليين، ليست صفة عرضية تزول بزوال أسبابها، و إنما هي جوهر مكوّن للشخصية الإسرائيلية، يتناسق مع بقية الصفات الجوهرية الأخرى، لأن القرآن الكريم إنما يصفهم بالجبن، و بين ظهرانيتهم نبيهم الكريم يحرضهم على القتال للدخول إلى أرض كنعان، و الناس حين يكون بينهم نبيهم يكونون أكثر تشوقاً للاستشهاد تحت

ص: 370

1- عدد 31 / 13 - 33.

2- عدد 30 / 13.

3- سورة الحشر: آية 14.

4- عدد 1 / 14 - 4.

5- عدد 3 / 14 - 4، و انظر: صفوة التفاسير 1 / 336، التسهيل 1 / 173.

قيادته و في ظل لوائه، و لكن الإسرائيليين شعب لم يؤمن بنبيّه (1)، شعب ليس في كيانه إلا عواطف ذليلة خانعة، و كيف يستطيع شعب ذليل لا يعرف سوى رائحة الشواء عند قدور اللحم في مصر، و إن استعبد من أجل ذلك و ذل، و كيف يستطيع شعب كهذا أن يخوض المعارك، حتى و إن كان قائده كليم الله موسى عليه السلام.

و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِدُّوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَقْبَلِوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَ اذْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (2).

و يقول ابن كثير في التفسير: و هذا نكول منهم عن الجهاد و مخالفة لرسولهم، و تخلف عن مقاتلة الأعداء، و يقال إنهم لما نكلوا على الجهاد و عزموا على الانصراف و الرجوع إلى مصر، سجد موسى و هارون عليهما السلام قدام ملاء من بني إسرائيل، إعظاما لما هموا به، و شق يوشع بن نون و كالب بن ينفنة ثيابهما، و لا- ما قومهما على ذلك، فيقال إنهم رجموهما، و جرى أمر عظيم و خطر جليل (3)، و قال الصابوني في صفوة التفاسير: و هذا

ص: 371

1- عبد الراجحي: الشخصية الإسرائيلية- الاسكندرية 1968 ص 90.

2- سورة المائدة: آية 21-24، و انظر: تفسير روح المعاني 4/106-108، تفسير الطبرسي 6/65-68، تفسير الطبري 10/171-187، تفسير المنار 6/265-276، تفسير الكشاف 1/619-621، تفسير القرطبي ص 2120-2125، تفسير النسفي 1/278-279، في ظلال القرآن 6/124-126.

3- تفسير ابن كثير 3/68-73.

إفراط في العصيان و ما سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر و الاستهانة بالله و رسوله (1)، على أن الإمام النسفي إنما يعلق على رأي بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ من حملة على الظاهر، و قال إنه كفر منهم، و ليس كذلك، إذ قالوا ذلك اعتقاداً و كفروا به لحاربهم موسى، و لم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء، و لكن الوجه فيه أن يقال: فاذهب أنت و ربك يعينك على قتالك، أو و ربك أي سيدك و هو أخوك الأكبر هارون، أو لم يرد به حقيقة الذهاب، و لكن كما تقول: كلمته فذهب يجيبي، تريد معنى الإرادة كأنهم قالوا: أريد اقتالهم «فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ما كثون لا نقاتلهم لنصرة دينكم (2).

و أيا ما كان المعنى، فمن الواضح تماماً، أنه لم يستجب لموسى عليه السلام، إلا أخوه هارون، فيشكو لربه هؤلاء القوم الفاسقين الخانعين، «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (3)، فموسى عليه السلام يقول ذلك معتذراً إلى الله، متبرئاً من مقالة السفهاء، فهو لا يملك إلا نفسه و نفس أخيه و هارون، و كأن موسى لا يثق حتى بالرجلين المذكورين (يشوع و كالب) كل الوثوق، فلم يذكر إلا النبي المعصوم، أخاه هارون، ثم يطلب من الله تعالى: فافصل بيننا و بينهم بأن تحكم لنا بما وعدتنا، و تحكم عليهم بما وعدتهم، و هو في معنى الدعاء عليهم، خاصة و قد وصفهم بالقوم الفاسقين (4).

و لعل هذا الموقف الجبان من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه

ص: 372

-
- 1- صفوة التفاسير 336/1.
 - 2- تفسير النسفي 278/1-279.
 - 3- سورة المائدة: آية 25، و انظر تفسير ابن كثير 73/3، تفسير المنار 276/6-277، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 154/3، تفسير الطبرسي 68/6-69.
 - 4- تفسير النسفي 279/1، صفوة التفاسير 336/1.

السلام، بعد ما رأوا من الآيات كفلق البحر و إغراق عدوهم و إنزال المن و السلوى و تظليل الغمام و نحو ذلك من الأمور العظام، يذكرنا- مع الفارق الكبير، بموقف المسلمين، من مهاجرين و أنصار، من سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم قبيل بداية القتال في غزوة بدر الكبرى، و كانت القوة الإسلامية تكاد لا تبلغ ثلث القوة القرشية الكافرة، عددا و عدة، عند ما وقف «المقداد بن عمرو الكندي» يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، و الله لا نقول لك، كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون».

و من هذا المنطق كذلك، يقف «سعد بن معاذ» ليرد على رسول الله صلى الله عليه و سلم حين أراد أن يعرف رأي الأنصار، «لقد آمننا بك و صدقناك، و شهدنا أن ما جئت به هو الحق، و أعطيناك على ذلك عهدنا و موثيقنا على السمع و الطاعة، فامضي لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، و ما تخلف منا رجل واحد، و ما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله» (1).

و هكذا بهذه الروح العالية، و بهدى من الله، و بإرشاد من رسول الله، و باتباع لكتاب الله و سنة رسوله، استطاع المسلمون أن يجعلوا راية الإسلام ترفرف عالية على ربوع الشرق، بعد أن طردوا الساسانيين و الرومان من شرقنا (1) صحيح البخاري 93/5، 64/6-65، مسند الإمام أحمد 389/1-390، ابن هشام:

سيرة النبي 614/1-615، ابن سعد: الطبقات الكبرى 8/2، ابن كثير: السيرة النبوية 392/2-393، تفسير الطبري 185/10-186، تفسير ابن كثير 71/3-72، الواقدي: كتاب المغازي 48/1-

[3] التيه:-

و هكذا كان حكم الله العادل على هؤلاء القوم الفاسقين من بني إسرائيل بالفناء والتشرد، تقول التوراة: «إن جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية، و جربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي، لن يروا الأرض التي حلفت لأبائهم، و جميع الذين أهانوني لا يرونها» (1)، ثم يقول لموسى: «حي أنا يقول الرب، لأفعلن بكم تكلمتم في أذني، في هذا القفر تسقط جثثكم، جميع المعدودين منكم حسب عددكم، من ابن عشرين سنة فصاعدا، الذين تدمروا على، لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها، ما عدا كالب بن يفنة و يشوع بن نون، و أما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة، فإني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها، فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر، و بنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، و يحملون فجوركم حتى تقني جثثكم في القفر، كعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض أربعين يوما للسنة، يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي أنا الرب، قد تكلمت لأفعلن هكذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ، في هذا القفر يفنون و فيه يموتون» (2).

و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (3).

ص: 374

1- عدد 22/14 - 23.

2- عدد 28/14 - 35.

3- سورة المائدة: آية 26، و انظر: تفسير الكشاف 1/ 621، تفسير الطبري 10/ 190 - 200، في ظلال القرآن 6/ 129 - 130 تفسير الطبرسي 6/ 69 - 71، تفسير النسفي 2/ 279 - 280، تفسير المنار 6/ 277 - 279، تفسير القرطبي ص 2126 - 2130.

و يقرر بعض العلماء أن «التيه» هو الذي حدد بأربعين سنة، وليس «التحريم»، فالتحريم مطلق أبدي (1)، و من أجل هذا يوقف في القراءة بعد قوله تعالى: مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَبْتَدَأُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ ذَلِكَ لِأَنَّ الرِّجَالَ الصَّالِحِينَ لِلْحَرْبِ، الَّذِينَ عَصَوْا مُوسَى، مَاتُوا فِي الْبَرِيَّةِ أَثْنَاءَ السَّنِينَ الْأَرْبَعِينَ، وَ لَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى أَرْضِ الْمَوْعَدِ، فَكَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِمْ بِاطِّلاقِ (2)، وَ يَتَّفِقُ هَذَا التَّفْسِيرُ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الْكَرِيمِ تَمَامًا مَعَ نَصِّ التَّوْرَةِ الْآتِفِ الذِّكْرِ، وَ مِنْ ثَمَّ تَرَى جَمَهْرَةَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ جَمِيعَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، سَوْفَ يَمُوتُونَ فِي الْبَرِيَّةِ، وَ لَنْ يَرَوْا أَرْضَ الْمِيعَادِ أَبَدًا، مَا عَدَا يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ وَ كَالِبَ بْنَ يَفْنَةَ (3).

و جاء في تفسير ابن كثير عن سعيد بن جبيرة قال: سألت ابن عباس عن قوله: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض قال: فتأهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه و أنزل عليهم المن و السلوى، و هذه قطعة من حديث الفتون، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام (4) ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة).

ص: 375

- 1- يرى بعض المفسرين أن التحريم هنا تحريم منع، لا تحريم تعبد، كقوله تعالى: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ، و لذا قيل إن الحرمة مؤبدة حتى يموتوا و يدخلها أبناءهم (تفسير النسفي 1/ 279-280، تفسير الخازن 2/ 33).
- 2- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 228، تفسير الكشاف 1/ 622، تفسير الطبرسي 6/ 70، تفسير القرطبي ص 2126-2127، في ظلال القرآن 6/ 129، تفسير النسفي 1/ 279-280، تفسير روح المعاني 6/ 109، تفسير المنار 6/ 277، تاريخ الطبري 1/ 436.
- 3- تفسير ابن كثير 3/ 74، تاريخ الطبري 1/ 436، عدد 14/ 26-30.
- 4- روى الطبري في تفسيره عن الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة في تفسير قوله تعالى: وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، كان هارون حسن الخلق محببا في بني إسرائيل، فلما مات دفنه موسى، قال فلما أتى بني إسرائيل قالوا له أين هارون، قال مات، قالوا قتلته، قال فاختر منهم سبعين رجلا قال فلما أتوا القبر قال موسى: أقتلت أو مت، قال مت، فأصعقوا، فقال موسى: رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت، يقولون أنت قتلتهم قال فأحيوا، و في رواية في تفسير الخازن: أن موسى لما اتهم بقتل هارون أمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل و تكلمت الملائكة بموته، فصدقت بنو إسرائيل أنه مات و برأ الله موسى مما قالوا، ثم إن الملائكة حملوه و دفنوه، و لم يطلع على قبره أحد، (تفسير الطبري 13/ 142-143، تفسير الخازن 2/ 34، ثم قارن عدد 20/ 22-2، حيث يرى أن هارون مات و دفن على رأس جبل هور).

موسى الكليم عليه السلام، وأقام الله فيهم يشوع بن نون نبيا خليفة عن موسى بن عمران، و مات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، و يقال إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع و كالب، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» قال: فتاهوا أربعين سنة، قال: فهلك موسى و هارون في التيه، و كل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، و هو الذي قام بالأمر بعد موسى، و هو الذي افتتحها (أي الأرض المقدسة) (1).

و أما سبب فكرة التيه أربعين سنة في البرية، فهو موضع خلاف بين العلماء، فهناك من يرى أنها كانت بسبب خوف الإسرائيليين من المصريين، و انتظارا للوقت المناسب الذي تضعف فيه السيادة المصرية على كنعان فيدخلونها آمنين (2)، و من ثم فقد مضت أربعون سنة قبل أن يدخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، حيث استطاع موسى أن يكون من هؤلاء العبيد المحررين حديثا، وحدة واحدة، و أمة منظمة، و أن يطبعهم بطابع الصفات الخلقية الروحية التي كان يتطلبها قدرهم (3).

و الرأي عند «ابن خلدون» أن التيه إنما كان لإفناء أبناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل و القهر و القوة، و إنشاء جيل آخر عزيز، لا يعرف

ص: 376

1- مختصر تفسير ابن كثير 1/ 504، و انظر تفسير النسفي 1/ 279-280.

2- حسين فوزي النجار: أرض الميعاد- القاهرة 1959 ص 156.

3- , 1970, p. 32. I, nietspE. msiaduJ.

الإحكام والقهر، ولا يسام الذل والهوان، والعلماء يقررون أن حضارة العلم خمس عشرة سنة، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة، وأما حضارة الأخلاق فمدتها أربعون سنة، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة، لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بنو إسرائيل في البرية أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد، وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية (1).

على أن هناك فريقاً من العلماء يرى أن فترة التيه هذه إنما تتصل اتصالاً وثيقاً بعبقيرة إسرائيل الجديدة، ذلك لأن فترة الأربعين سنة للتيه إنما كانت ملائمة لغرس العقيدة الجديدة في عقول وقلوب القوم الذين اعتادوا رونق الطقوس المصرية، كما أن تلك العقيدة، سوف تتعرض لأخطار أعظم فيما بعد في فلسطين (2)، مما يجعلها في أشد الحاجة إلى فترة كافية لتثبيت الإيمان بها.

وأيما ما كان الأمر، فإن ختام القصة هنا في سورة المائدة بقوله تعالى:

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ إِنَّمَا هُوَ تَسْلِيَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَي لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ فَإِنَّهُمْ مُسْتَحَقُونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّتْ تَقْرِيعَ الْيَهُودِ وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ، وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ فَضَعَفَتْ نَفُوسَهُمْ عَنْ مِصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمَجَالِدَتِهِمْ وَمَقَاتَلَتِهِمْ، مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِيمَهُ وَصَفِيَهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يَعْدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هَذَا مَعَ مَا شَهِدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدَهُمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّكَالِ وَالْغُرُقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِتَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ وَمَا بِالْعَهْدِ

ص: 377

1- عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص 227-228.

2- .P, tic- po, yellooW. L 497 .

من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر، لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعدوهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذليل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعدائه، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخزائير والقردة، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود (1).

[4] عودة التمرد ضد موسى:-

وما أن يمضي حين من الدهر قليل، بعد أن كتب الله على بني إسرائيل أن يتبهاوا في الأرض أربعين سنة، حتى تعود ثورات بني إسرائيل على موسى من جديد، غير أن الجديد هنا أن ثورة اليوم إنما يتزعمها أحد اللاويين، سبط موسى نفسه، ذلك أننا نقرأ في سفر العدد من التوراة أن مائتين وخمسين من شيوخ إسرائيل، بقيادة «قورح» «اللاوي» قد اتهموا موسى وهارون بأنهما يترفعان على جماعة الرب، رغم أن كل الجماعة بأسرها مقدسة، وفي وسطها الرب، ويحاول موسى أن يهدئ من ثائرة القوم، وأن يذكر قورح بأن الرب إنما قرب سبطه اللاويين إليه، دون بقية أسباط بني إسرائيل، غير أن الثورة لا تهدأ، ومن ثم يرسل موسى في طلب الزعيمين الآخرين «داثان وأبيرام»، لعله ينجح في تهدئة القوم عن طريقهما، إلا أن الرجلين يرفضان مجرد الاجتماع بموسى، قائلين «أقليل أنك أصعدتنا من أرض تقيض عسلا ولنا لتميتنا في البرية، حتى تترأس علينا، كذلك لم تأت بنا إلى أرض تقيض لنا وعسلا، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم، هل تقلع أعين هؤلاء القوم، لا نصعد» (2)، ولعل هذا هو السبب في الثورات المتكررة من بني إسرائيل

ص: 378

1- مختصر تفسير ابن كثير 505/1.

2- عدد 1/16 - 14.

على موسى وأخيه و هارون عليهما السلام، ذلك لأن هؤلاء الرحل الشاردين الحائرين الذين كانوا يسعون جاهدين وراء حياة أفضل من الارتحال، ويحلمون، بعد أن ذاقوا مرارة التنقل و اشتد حنينهم إلى أرض كأرض مصر، بأرض تفيض لبنا و عسلا، ما داموا لا يستطيعون العودة إلى مصر، و من ثم فلم يلبثوا أن انحنوا باللانمة على من أثارهم ضد أصحابها (1).

و على أي حال، فإن الثورة قد انتهت بإبادة زعمائها، إذ «فتحت الأرض فاهها و ابتلعتهم و بيوتهم»، ثم سرعان ما خرجت نار من عند الرب فأكلت المائتين و الخمسين رجلا، و أما بقية بني إسرائيل فقد سلط الله عليهم و بآء كاد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم، لو لا أن موسى قد أمر ابن هارون بأن يسرع بإيقاد البخور للتكفير عن جماعة الرب و مع ذلك فقد مات بهذا الوباء «أربعة عشر ألفا و سبع مائة، عدا الذين ماتوا بسبب قورح» (2).

و لم يكتف بنو إسرائيل بثورة «قورح» هذه، إذ سرعان ما تعاودهم آفتهم القديمة، فيعاودون التمرد على موسى، بل إن الثورة هذه المرة إنما تتجاوز كل الحدود، حتى تصل إلى ذات الله العلية، و ذلك حين «تكلم الشعب على الله و على موسى قائلين لما ذا أصعدت منا من مصر لنموت في البرية، لأنه لا خبز و لا ماء، و قد كرهت أنفسنا الطعام السخيف» (يعني المن و السلوى)، فسلط الله عليهم الحيات فمات قوم كثيرون من بني إسرائيل، و لم يرفع الله عنهم هذا البلاء، إلا بتضرع من موسى «فصلى موسى لأجل الشعب، فقال الرب لموسى: اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ و نظر إليها يحيا (3)، فصنع موسى حية من نحاس و وضعها على الراية

ص: 379

1- نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 222.

2- عدد 16/32-50.

3- من عجب أن يذهب المؤرخ الكبير «برستد» إلى أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة في صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس، و كان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة في مصر، و قد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزم من طويل و استمروا في إطلاق البخور له من مدة خمسة قرون بعد موسى، و لم يبعد عن البيت المقدس إلا في حكم «حزقيا» (715-687 ق. م) ملك يهوذا، و أما الدكتور هاني رزق فيرى الحدث رمزا لصلب المسيح، فكما رفع موسى الحية لكي يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصليب لكي يحيا كل من يؤمن به (عدد 9/21، ملوك ثان 4/18، هاني رزق: يسوع المسيح في ناسوته و ألوهيته ص 152-153 و كذا، Y. N, ecneicsnoC fo nwaD ehT, detsaerB. H. J 354. p. 1939.

فكان متى لدغت حية إنسانا و نظر إلى حية النحاس يحيا» (1).

[5] بنو إسرائيل على تخوم كنعان: -

ويبدأ موسى عليه السلام يستعد لدخول أرض كنعان، فيرسل رسلا من «قادش» (عند طرف برية صين غرب وادي العربة، ويرجح أنها عين قضيرات على مقربة من عين قديس جنوبي بئر سبع بحوالي 50 ميلا) إلى ملك أدوم (2)، قائلا: «دعنا نمر في أرضك، لا نمر في حقل ولا في كرم ولا نشرب

ص: 380

1- عدد 21/5-9.

2- أدوم: نسبة إلى عيسو (العيص) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، والشقيق التوأم ليعقوب، و من ثم فهم أقرب الناس إلى آل يعقوب، دما و لغة، و مع ذلك فكان بنو إسرائيل يعدون الآدوميين من ألد أعدائهم، حتى أن المنازعات السياسية بينهم قد استمرت حتى انتهى الأمر بفناء الآدوميين وامتزاجهم باليهود من ناحية، و بالأنباط من ناحية أخرى، و أما موطن الآدوميين فكان في أقصى جنوب بلاد شرق الأردن و جنوب وادي الحسا، و تطلق التوراة على هذا الإقليم اسم «سعير» و كانت عاصمتهم «سالع» و هي نفسها «البتراء» التي أصبحت عاصمة الأنباط فيما بعد، و تقع على مبعدة 50 ميلا جنوب البحر الميت، و من أهم مدنهم «بصرة» و هي بصيرة الحديثة على مبعدة 20 ميلا جنوب شرق البحر الميت، ثم «تيمان» على مقربة من البتراء، ثم «عصيون جابر» و هي تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من «إيلات»، و أما نظامهم السياسي فكانوا أولا يحكمون بأمرأ أشبه برؤساء العشائر، ثم كونوا مملكة ربما كان ملوكها منتخبين، و قد جلس على عرشها ثمانية ملوك قبل قيام الملكية الإسرائيلية و استيلاء داود على مملكة أدوم، و قد انتهت حياة الآدوميين ككيان سياسي مستقل حين استولى يوحنا المكابي على مدنهم ثم أجبرهم على الختان و اعتناق اليهودية في القرن الثاني قبل الميلاد، رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بينهم و بين اليهود (أنظر التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 547/2-552).

ماء بئر، لا نميل يمينا ولا يسارا، حتى نتجاوز تخومك»، ولكن الملك الآدومي لا يجيب سؤلهم، و من ثم يجد الإسرائيليون أنه لا مناص من الذهاب إلى جبل هور، حيث يموت هارون هناك (1)، وهذا يدل على أنه كانت هناك مملكة قوية في أدوم في ذلك الوقت، و أن الأرض إنما كانت تعبر من «طريق الملك العمومي»، كما يدل على أن هناك حضارة مزدهرة كانت في أدوم في تلك الفترة (2).

و على أية حال، فإن ملك «عراد» (3) الكنعاني عند ما يسمع بقدوم الإسرائيليين، سرعان ما يشن عليهم حربا، و يسبي الكثير منهم، و من ثم «فقد نذر إسرائيل نذرا للرب و قال إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدي أحرم مدنهم، فسمع الرب لقول إسرائيل و دفع الكنعانيين فحرموهم، و مدنهم، فدعي اسم المكان حرمة» (4)، و في الواقع أننا لم نسمع من قبل أن ينذر الناس لربهم إحراق أعدائهم، فضلا عن مدنهم، إن كتب الله لهم عليهم نصرا، و لكن ما حيلتنا و توراة اليهود لا تصور رب اليهود هذا، إلا قاسيا مدمرا، متعطشا للدماء، متعصبا لشعبه، لأنه إله اليهود فحسب، و ليس إله العالمين، و من ثم فقد دعوا «الله» رب الجنود، معتقدين بأن هذا معناه رب جنود إسرائيل، مما جعلهم يعتقدون كذلك بأن الله ملزم بأن يحامي عنهم،

ص: 381

1- عدد 22 / 20 - 29.

2- , 1969 , J 152. p. F. nageni, L. thgiL morf eht A tneicn, ... P. noitcenir.

3- عراد: اسم عبري بمعنى «حمار الوحش» و هي هنا بلد يقع على مبعدة 17 ميلا من حبرون (الخليل).

4- عدد 1 / 21 - 3.

لأن كرامة الله مرتبطة بكرامة الأمة، و من ثم فإن حمايتهم إنما هي حماية لكرامته، وإذا حدث أن سقطت الأمة، فمعنى هذا في نظرهم أن الله نفسه قد سقط (1)، و العياد بالله، و من هنا كان عليه أن يكرس كل قوته و سلطانه من جل شعبه إسرائيل، و هو لذلك يحارب إلى جانبهم أو يحارب بدلا عنهم أو يطرد من أمامهم أعداءهم، و ييسر لهم قتلهم، و يحل لهم نهبهم (2).

و أيا ما كان الأمر، فإن الملك الآدومي عند ما رفض أن يسمح للإسرائيليين بأن يمروا في مملكته، فإنهم اضطروا إلى أن يسلكوا طريقا شاقا في البرية، و نقرأ في التوراة أنهم قد ارتحلوا «من جبل هور في طريق بحر سوف (3)، ليدوروا بأرض أدوم (4)»، و هنا يضطر بنو إسرائيل إلى أن يتجولوا هنا و هناك من شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غرب هذا الأردن، محتكين بكل القبائل الساكنة هناك، و الراضة أبدا استقبال أي واحد من بني إسرائيل، و أخيرا وصل الإسرائيليون إلى «مؤاب» شمال أدوم، و ذلك حين «نزلوا في عين عباريم (5) في البرية التي قبالة مؤاب إلى شروق

ص: 382

1- القس عاموس عبد المسيح: دراسة في عاموس - ترجمة حارث قريصة- القاهرة 1966 ص 18.

2- عبده الراجحي: المرجع السابق ص 47، تثنية 3/9.

3- بحر سوف: لعل هذا النص (عدد 4/21) إنما يعني خليج العقبة، و ليس البحر الذي انقلق لموسى في مصر، و الذي ذكر على أنه يم سوف أو بحر سوف (خروج 17/13-18) خاصة و إن نص الملوك الأول (26/9) يقول: «و عمل الملك سليمان سفنا من عصيون جابر التي بجانب إيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم»، مما يؤكد أن بحر سوف في نصي (عدد 4/21، ملوك أول 26/9) هو خليج العقبة.

4- عدد 4/21.

5- عباريم: سلسلة جبال في شرق الأردن سميت عباريم لأنها في عبر النهر، و تمتد من وادي قفرين في الشمال إلى وادي الزرقاء و وادي الحسا في الجنوب، و لها عدة قمم منها «نبو» (حيث دفن موسى عليه السلام) و هوشع و عجلون.

الشمس، و من هناك ارتحلوا ونزلوا في وادي «زارد (1)»، و من هناك ارتحلوا ونزلوا في عبر «أرنون (2)» الذي في البرية خارجا عن تخم الآموريين (3)، لأن أرنون هم تخم مؤاب بين مؤاب والآموريين (4).

هذا و يتجه بنو إسرائيل بعد ذلك إلى أرض جلعاد- منطقة الآموريين- و كان «سيحون» ملك الآموريين قد أخذ أرضا من مؤاب، و اتخذ من حشبون (5) عاصمة له، ثم امتدت أملاكه من نهر أرنون إلى نهر ييوق (6)، و التي هي الآن وادي الزرقاء، و بينما كان الإسرائيليون مضطرين إلى الدوران حول أدوم و مؤاب (7)، فقد نجحوا في تحدي سيحون في).

ص: 383

1- زارد: اسم عبري معناه «ازدهار» و هو جدول ماء يخرج من جبل عباريم و يصب في البحر الميت (بحر لوط) في الجزء الجنوبي الشرقي منه، و كان يمثل الحد الطبيعي بين أدوم و مؤاب، و يعرف الآن بوادي الحصى (قاموس الكتاب المقدس 422-421 / 1).

2- أرنون: و هو نهر يدعى الآن وادي الموجب في المملكة الأردنية الهاشمية و يتكون من وادي «وله» الذي يأتي من الشمال الشرقي، و وادي «عنقيلة» الآتي من الشرق، و «سيل الصعدة» الآتي من الجنوب، و يجري نهر أرنون في غور عميق حتى يصل إلى البحر الميت في نقطة تقع إلى مسافة قصيرة من منتصف الشاطئ الشرقي (قاموس الكتاب المقدس 57 / 1).

3- أنظر عن الآموريين: محمد بيومي مهران: إسرائيل 510-514.

4- عدد 11 / 21-13.

5- حشبون: و تعرف الآن باسم «حسبان» و هي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون و ييوق، و تقع على مبعده سبة أميال و نصف شمال «مادبا».

6- ييوق: هو نهر الزرقاء الذي ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسير شرقا ثم شمالا، مارا بمدينة الزرقاء التي حملت اسمه، ثم يصب في نهر الأردن على مبعده 43 ميلا إلى الشمال من البحر الميت، و هناك في مخاضة في هذا النهر حدثت قصة المصارعة المشهورة مع يعقوب (تكوين 32 / 22-32، قاموس الكتاب المقدس 1051 / 2).

7- مؤاب: تنسب مؤاب إلى مؤاب بن لوط عليه السلام، و من ثم على صلة قرابة بالعرب و الإسرائيليين عن طريق لوط ابن أخي إبراهيم، عليهما السلام، هذا و قد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق، من البحر الميت حتى الصحراء، و اتسعت شمالا حتى وادي الموجب (نهر أرنون)، و كانت مؤاب، مثل أدوم، حصينة قوية ذات مواقع استراتيجية على الحدود و في الداخل، و من ثم فقد منعت بني إسرائيل من السير في البرية التي تقع قبالتها، و أما عاصمة مؤاب فهي «ديبون» (ذبيان الحالية على مبعده ثلاثة أميال شمال وادي الموجب)، هذا و قد كشفت آثار كثيرة في مؤاب، و خاصة في ربة مؤاب و كرك و ماديا و معين و أم رصاص، و في عام 1950 / 1951 كشفت بعثة أمريكية في ديبون عن عدد من المباني و الفخار الذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، و حتى العصر العربي المبكر، و إن لم تكشف شيئا عن عصر البرونز المتأخر، و أما لغة مؤاب فهي من اللهجات التي كتبت بها التوراة، و المعروف عادة بالعبرانية، و القرابة بين اللغة المؤابية و العبرية مؤكدة، و المؤابية على أية حال، لغة سامية قريبة من العبرية كذلك، كما يبدو واضحا من نقش «الحجر المؤابي» و الذي يرجع إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، و يقدم لنا أقدم نقش مكتوب على النمط السامي الشمالي القديم، و قد كشف عنه عام 1868 م في ديبون العاصمة، و نقل إلى متحف اللوفر بباريس (أنظر عن التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 552 / 2-556).

«ياهص» (1)، كما نجحوا في تحدي عوج ملك باشان في «أذرعى» (2) وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن في مقابل «أريحا» (3).

و هناك من يميل إلى تأريخ هذه الأحداث بنهاية عصر البرونز الأخير، وقرب بداية عصر الحديد، ذلك لأن التوراة إنما تحدثنا عن أن عوج ملك باشان كان له سرير من حديد (4)، وإن كان هناك من يذهب إلى أن هذه العبارة إنما تشير إلى «ناءوس» من البازلت الأسود، كان به 20% من الحديد (5).

و أيا ما كان الأمر، فمن رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل

ص: 384

1- ياهص: ويقع على مبعدة ميل جنوب زرقاء معين، 12 ميلا شرقي البحر الميت، وهي إما قرية أم المواليد أو خربة إسكندر (قاموس الكتاب المقدس 1049/2).

2- أذرعى: وتسمى الآن «درعة» وتقع في وادي زبدة، على مبعدة 29 ميلا شرقي الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بين الأردن و سورية (قاموس الكتاب المقدس 42/1).

3- عدد 21/21 - 21/35، 1/12، تننية 2/26 - 11/3.

4- تننية 11/3.

5- .P, tic- po, nageniF. J 154 .

«نبو» على مبعدة ثمانية أميال إلى الشرق من نهر الأردن، نظر موسى عليه السلام إلى أرض الميعاد، ومات ودفن في أرض مؤاب (1)، كما سنفصل ذلك في الفصل الثالث من الباب الرابع.

ص: 385

1- تثنية 27/3، 1/34 - 8، وأنظر: J. retsevelyS 1941, rellaS .J, ehT, lairomiM fo sesoM no tnuoM noV 2, slo.

لا ريب في أن شراح التوراة و مفسري القرآن الكريم إنما يجمعون، أو يكادون، على أن كليم الله موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وأنه «موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب، و هو إسرائيل عليه السلام، و إن أضافت المصادر الإسلامية اسم «يصهر» بين عمران و قاهت، و هو في التوراة «موسى بن عمر أم بن قهات بن لاوى»، و أما أمه فهي «يوكابد بنت لاوى، التي ولدت للاوى في مصر، و هي عمة زوجها عمرام، الذي ولدت له ولديه هارون و موسى و أختهما مريم (1)».

و لعل من الجدير بالإشارة إلى أن الإمام الطبري، و كذا ابن الأثير من بعده، إنما يذهبان إلى أن اسم موسى، إنما هو اسم مصري، و يتكون في اللغة المصرية القديمة من كلمتين «ماء و شجر» لأنه التقط من بين الماء و الشجر، و الماء في المصرية (القبطية كما يسمونها خطأ) «مو»، و الشجر «شا» أو «سا»، هذا و يذهب الألوسي إلى أن اسم موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعلمية و العجمة، و يقال إنه مركب من «مو» و هو الماء، و «شى»

ص: 389

1- تاريخ ابن خلدون 92/2، تاريخ يعقوبي 33/1، تاريخ الطبري 385/1، تفسير الطبري 279/1، الكامل لابن الأثير 95/1، مروج الذهب للمسعودي 61/1، التوراة: سفر الخروج 20/6، عدد 58/26-59.

و هو الشجر، وغيّر إلى «سى» كأن من سماه أراد ماء البحر و التابوت الذي قذف فيه، على أن الخازن إنما يراه اسماً عبرياً عربياً، و هو بالعبرانية الماء و الشجر، سمي به لأنه أخذ من بين الماء و الشجر ثم قلبت الشين المعجمة سيناء في العربية، هذا و قد نقل السيوطي عن السدى أنه سمي موسى لأنهم وجدوه بين ماء و شجر، و الماء بالنبطية «مو»، و الشجر «سى» (1)، و بدهي أن اسم موسى اسم مصري على وجه اليقين، كما سنرى.

و في عام 1938 م أصدر العالم النفساني اليهودي «سيجموند فرويد» كتابه موسى و التوحيد (2)، فأراد أن يثير شبهة حول أصل موسى، الذي رآه «مصرياً»، و ليس إسرائيلياً، معتمداً في ذلك على أن اسم موسى، و الذي ينطق بالعبرية «موشيه» طبقاً لرواية التوراة في سفر الخروج (10/2)، ذلك أن الأميرة المصرية، و هي نفس الوقت ابنة فرعون، قد انتشلت من النيل، و سمته إثر ذلك «موسى» معللة لهذه التسمية بعلّة لغوية اشتقاقية، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبري «مشه» بمعنى المنتشل أو المستنقذ.

و مع ذلك، فإن هذا التعليل ينطوي على خطأ واضح، إذ جاء في «المعجم اليهودي» أن تفسير التوراة لاسم موسى بأنه «المنتشل من الماء»، تفسير اشتقاقي شعبي، و هو لا يستقيم مع الصيغة و الوزن لكلمة «موشيه»، التي هي في العبرية اسم فاعل، لا اسم مفعول، و دلالتها الصحيحة «المنتشل» - بكسر الشين - لا «المنتشل» بفتحها، و من ثم فهو اسم فاعل،

ص: 390

1- تفسير الطبري 279/1، تاريخ الطبري 390/1، ابن الأثير 97/1، تفسير روح المعاني 258/1، تفسير الخازن 59/1، الدر المنثور 5/120، تفسير البغوي 58-59.

2- 1939، S.duerF nnumgiM dna sesoM ,msiehtonoM dna morf detalsnarT ,senoJ .Y .N.

بمعنى «المنتقد أو المحرر»، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط (1).

هذا وهناك نقطتان أخريان تؤكدان عدم اشتقاق هذه التسمية، أولهما:

أنه من غير المؤكد كون الأميرة المصرية على علم بالاشتقاق في اللغة العبرية- هذا إذا كانت هناك لغة عبرية قد ظهرت في هذا الوقت المبكر، على الأقل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد (2)؟- هذا فضلا عن أن ابنة فرعون، إنما هي أميرة مصرية، تتكلم المصرية و تفكر بها، و ما كان لها أن تتحدث العبرية في حياتها و بين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل - مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ- اسما عبريا (3).

و من ثم فقد رأى مؤرخ اليهود «يوسف بن متى» أن يرد اللفظ إلى أصل مصري و اشتقاق مصري، مع تقيّده بما ورد في التوراة، من حيث ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء، فقال: إن المصريين يسمون الماء «مو» و يقولون للذي يستنقذ من الماء «أوسيس»، غير أن حرص يوسف اليهودي على تفسير يكون مصدقا لما جاء في التوراة قد حمله- متعمدا- على إغفال معنى لفظ أوسيس، المصحوف عن لفظ «حسى» المصري، و هو أصلا- حتى زمان موسى في الأسرة التاسعة عشرة (1308-1184 ق. م)- بمعنى

ص: 391

1- . 4 . tic- po, dibT

2- كان أسلاف العبرانيين يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا في فلسطين، ثم بدءوا يتكلمون لغة الشعوب المضيفة لهم، ففي مصر كانوا يتكلمون المصرية، و في كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، و أما اللغة العبرية- و التي كانت خليطا من الآرامية و الكنعانية و كثير من اللغات السامية و غير السامية- فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام 1100 ق. م (أنظر محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة- القاهرة 1968- ص 208، نجيب ميخائيل: المرجع السابق 3/32، فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص 4).

3- أحمد عبد الحميد: المرجع السابق- القاهرة 1968- ص 90. و كذا. 4 . F. S . tic- po, duer

على أن الإسم «مس» (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة، ولا شك في أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصري قديم، مثل آمون وبتاح، ثم زال ذلك الاسم الإلهي تدريجيا بكثرة التداول، حتى صار الولد يسمى «موسى» (1).

و يعلق «فرويد» على قول «برستد» هذا، بالدهشة لتجاهل برستد بعضا من الأسماء المركبة من موسى أو «مس» مع أسماء الآلهة، ومنها أسماء «أحمس» (إيعح مس) و «تحتومس» (تحتوت مس) و «رعمسيس» (رع مس سو)، ثم يعرب عن دهشته كذلك من أن واحدا من العلماء الكثيرون العدد، الذين أقرروا مصرية اسم موسى أصلا و اشتقاقا، لم يفكر في أن يكون موسى نفسه- الشخص لا الإسم- مصريا أيضا (2)، حتى أولئك الذين يقررون مثل «برستد» أن موسى قد «تهذب بكل حكمة المصريين» (3).

و يرى «فرويد» أن ذلك، ربما كان مرجع ذلك إلى تقديس لمرويات التوراة التي لا يمكن التغلب عليها، وربما بدا لهم أن القول بأن موسى مصري غير عبري ادعاء عريض لا- يمكن تصوره، على أي حال، فإن الواقع هو أنه مع ترحيبهم عموما لمصرية اسم موسى، فإنهم لم يستخلصوا من ذلك شيئا ماسا بأصله هو نفسه (4).

و هنا يتساءل «فرويد» بأننا لو سلمنا بأن موسى كان مصريا- و لم يكن إسرائيليا- لوجدنا أنفسنا في الحالين مطالبين بحل لغز جديد و صعب؟ فمن المفروض أن نتوقع شخصا ما يتولى رئاسة الحركة أو ينتخبه إخوانه لهذه

ص: 393

1- .P, tic- po, detsaerB. H. J 350 .

2- .P, tic- po, duerF. S .5 .

3- أعمال الرسل 7: 22.

4- .P, tic- po, duerF. S 6- 5 .

المهمة، وعلى ذلك لا يمكننا أن نتصور أن مصريا من الأرسقراطيين- ربما كان أميرا أو كاهنا أو موظفا كبيرا- قد ساغ له أن يضع نفسه على رأس جمع من الأجانب الطارئين على البلاد، المتخلفين حضاريا، وكيف نفسر أنه غادر البلاد معهم؟ إننا نعرف احتقار المصريين للأمم الأخرى، الأمر الذي يجعل هذه الظاهرة من موسى غير معقولة، وهذا- فيما يرى فرويد- هو الذي منع المؤرخين الذين ردوا اسم موسى إلى أصل مصري، ونسبوا إلى موسى «كل حكمة المصريين» من القول بإمكان أن يكون موسى نفسه مصريا، هذه هي الصعوبة الأولى.

و أما الثانية، فيجب علينا ألا ننسى أن موسى لم يكن زعيما سياسيا لليهود المستقرين في مصر فحسب، ولكنه كان كذلك المشرع و المعلم، والرجل الذي اضطرهم إلى اعتناق ديانة جديدة، ما زالت تعرف حتى اليوم «بالموسوية» نسبة إليه.

وهنا يتساءل «فرويد»: هل في استطاعة شخص واحد إيجاد ديانة جديدة بمثل هذه السهولة؟ ثم أليس من الطبيعي عند ما يرغب شخص ما في أن يؤثر في ديانة الآخرين أن يحاول تحويلهم إلى ديانته هو؟.

إن اليهود في مصر لم يكونوا بالتأكيد مجردين من نوع ما من الديانة، وإذا كان موسى هو الذي أعطاهم ديانة جديدة. وكان هو نفسه مصريا، فليس من الممكن إذن أن نرفض الظن بأن هذه الديانة الجديدة هي الديانة المصرية (1).

وهنا يعقد «فرويد» مقارنة بين الآتونية واليهودية، وبين سنة الختان عند المصريين وعند اليهود، الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد، و يرجع

ص: 394

«فرويد» ذلك كله إلى مصرية موسى، ثم يشير إلى أن المؤرخ اليهودي المشهور «يوسف بن متى»، قد ذكر في كتابه «تاريخ اليهود القديم»، أن موسى كان قائدا للجيش المصري، وأنه كان قد تولى قيادة حملة مظفرة على الحبشة (1)، و يرى «فرويد» أن يوسف اليهودي، ربما كانت بين يديه نصوصا أخرى، غير تلك التي في التوراة، يؤيد بها وجهة نظره هذه (2).

و هناك سمة أخرى تعزى إلى موسى تستحق منا اهتماما خاصا، إذ قيل أنه كان عييا لا يكاد يبين حين يتكلم، أو أنه كان «بطيئا في الكلام»، تقول التوراة- على لسان موسى مخاطبا ربه-: «استمع أيها السيد، لست أنا صاحب كلام منذ أمس، و لا أول أمس، و لا من حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم و اللسان، فقال له الرب: من صنع للإنسان فمًا، أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى، أما هو أنا الرب، فالآن أذهب و أنا أكون

ص: 395

1- يروي المؤرخ يوسف اليهودي عن هذه الحملة- دونما سند من التاريخ أو تأييد من التوراة- أن موسى، عليه السلام، تولى قيادة الجيش، و لكنه زاد- في قصة لا يخفي زيفها- أنه إنما تولى القيادة، بعد رجاء من الملك و الأميرة التي تبنته، و أن ذلك إنما وقع في أعقاب غارة شهنا أهل النوبة العليا على مصر، فأنزلوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار، حيث تعقبهم النوبيون إلى منف ف ساحل البحر، و هناك استلهم المصريون الوحي فأوحى باستخدام موسى الذي قبل القيادة سعيذا منسرحا، فأما كهان مصر و الإسرائيليين فقد سعدوا كذلك، سعد الكهنة لأنهم ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى و من المهاجمين في وقت واحد، و أما الإسرائيليين فسعدوا لأنهم ظنوا أنهم يهربون من المصريون بقيادته، و مضى يوسف يروي أن موسى تمكن من صد العدو بشجاعته و حسن تدبيره، إذ تجنب النيل و صار إليهم برا عبر أرض غاصة بالثعابين الطائرة، فعبرها بفضل ما حمل معه من أعداد من طائر الإيبس و هو أعدى أعداء الثعابين، و عند ما وصل هاجم النوبيين، حيث رآته بنت الملك النوبي فأحبهته و عرضت عليه تسليم المدينة بشرط أن يتزوجها، ففعلت و فعل موسى، (أنظر: أحمد عبد

الحميد: المرجع السابق ص 93-94، و كذا.. 77 J. retgahC, II. kooB, suhpesoF. P, tic- po, notsihW. WIX.

-2 .. S 32, duerF. P, tic- po.

مع فمك وأعلمك ما تتكلم به، فقال (أي موسى): استمع أيها السيد، أرسل بيد من ترسل، فحمى غضب الرب على موسى، وقال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضا هو خارج لاستقبالك، فتكلمه و تضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه، وأعلمكما ما ذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فما» (1).

وهذا يعني أن الكلم، عليه السلام- فيما تروي التوراة- أنه كان يعاني من التلعثم، أو العجز عن النطق، ولذلك كان عليه أن يلتمس مساعدة هارون أخيه في مناقشته المفترضة مع فرعون، وربما مع بني إسرائيل الذين أشار إليهم النص باسم «الشعب».

وربما إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اسْرْخْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (2).

فإذا كان ذلك كذلك، فربما أمكن القول أن هذه حقيقة تاريخية، تخدمنا كإضافة مفيدة في توضيح صورة هذا الرجل العظيم- سيدنا موسى عليه السلام- ويمكن أن تكون لها دلالة أخرى أكثر أهمية، فإن القصة قد تدل- إذا أخذنا في اعتبارنا عامل التشويه والتحوير- على حقيقة أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، ولم يكن قادرا على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين بدون مساعدة مترجم على الأقل في بداية عهده بهم، وفي هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصرياً، أو لغته على الأقل.

ص: 396

1- خروج 4: 10-15.

2- سورة طه: آية 24-36، وأنظر: تفسير القرطبي ص 3231-4234.

غير أن هناك من يرى أن موسى عي لا يكاد يبين حين يتكلم، فقد أصيب بحبسة في لسانه، نتيجة لتأخر إرضاعه (1). هذا فضلا عن أن أحبار اليهود- إلى جانب المتأثرين بالإسرائيليات- إنما يرون في هذا المجال أسطورة مبناها أن فرعون إنما كان يداعب موسى- وهو ما يزال بعد في الثالثة- فحمله بين ذراعيه، ورفع مدلا إلى أعلى، فاختطف موسى التاج من على رأس فرعون ووضعه فوق رأسه، فانزعج فرعون بهذا الفأل، واهتم باستشارة حكمائه، إذ أحس أن الطفل إنما سوف يكون له شأن في تقويض عرشه، فأراد اختباره فأمر بإعداد طبقين، ووضع بأحدهما تمر أحمر، وبالأخر جمر، فأوحى الله- كما يدعون- إلى موسى أن يتناول الجمر، إبعادا لشبهة الإدراك الناضج عن الطفل، ووضع الجمر على لسانه، فأصبح عيبا لهذا السبب (2).

وإذا ما أردنا مناقشة آراء العالم اليهودي «فرويد»، فيما يختص بمصرية اسم موسى أصلا واشتقاقا، لرأينا أنها أمر قبول تماما، ذلك لأن فكرة الأصل المصري لاسم موسى، منذ أن نادى به «جيمس هنري برستد»، و«أدولف إرمان» و«سيجموند فرويد»، أصبحت الآن من الحقائق التي يكاد يتفق عليها العلماء- ومنهم أدولف لودز (3)، و جريفث (4)، و جاك فنجان (5)، و سيسل روث (6)، و وليم أولبرايت (7)، و ستانلي كوك (8)، وغيرهم.

ص: 397

-
- 1- عبد الرحيم فودة: في معاني القرآن ص 167.
 - 2- فؤاد محمد شبل: إخناتون: رائد الثورة الثقافية، القاهرة 1974 ص 87، تفسير أبي السعود 12/6، تاريخ الطبري 390/1، ابن الأثير 1/98.
 - 3- .P, tic- po, sdoL. A 169 .-3
 - 4- .SENJ ni, shtiffirG. G. J 231. p, 1953، 12، -4
 - 5- .P, tic- po, nagoniF. J 134 .-5
 - 6- .P, tic- po, htoR. C 8- 7 .-6
 - 7- .P, tic- po, thgirblA. F. W 14 .-7
 - 8- .P, tic- po, kooC. A. S 355 .-8

و يضيف أستاذنا الدكتور حسن ظاظا- إلى حجج «فرويد»- أنه لم يرد في أسماء الساميين جميعا- سواء أكانوا من العبريين أم من غيرهم كالآراميين و الكنعانيين و الأكاديين- اسم نطقه كاسم «موسى»، فهذا النبي هو أول شخص يحمل هذا الإسم (1)، و يقرر «الزوهار» مصرية موسى- و إن لم يستبعد يهوديته في نفس الوقت- اعتمادا على نص التوراة- على لسان بنات رعوثيل- بأنه رجل مصري (2).

و أما المصادر الإسلامية، فتكاد تجمع على أن موسى الكليم- عليه السلام- قد ولد لامرأة من بني إسرائيل، و أن هارون أخوه، فهما إذن من ذرية إبراهيم الخليل، شأنهما في ذلك، شأن إسحاق و يعقوب، عليهم السلام، إلا أن هناك في الكتاب الحكيم آيتين تقصان علينا ما وقع، إذ غضب موسى على أخيه هارون، ظنا منه أن قصر، حين انساق القوم إلى عبادة العجل، يقول سبحانه و تعالى في الآية الأولى: وَ أَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَصَدَّ عَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (3)، و يقول في الآية الثانية: قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (4). ا-

ص: 398

1- حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة 1971 ص 17.

2- خروج 2: 19.

3- سورة الأعراف: آية 150، و أنظر: تفسير الطبري 13/120-133، تفسير الطبرسي 9/27-21، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/220، تفسير أبي السعود 2/407-408، تفسير روح المعاني 9/68-69، تفسير الكشاف 2/119، تفسير الفخر الرازي 15/9-10، تفسير القاسمي 7/2860-2862، تفسير المنار 9/177-181، تفسير تفسير القرطبي ص 2651-2652، تفسير و جدي ص 116، تفسير ابن كثير 3/474.

4- سورة طه: آية 94، و يقول أبو حيان في البحر المحيط (4/396) ناداه يا ابن أم استضعافا و ترفقا، و كان شقيقه و هي عادة العرب تتحنن بذكر الأم، و أيضا كانت أمهما مؤمنة و أيضا لما-

وفي كلا الآيتين تركيز على كلمة «ابن أم»، وفي ذلك يقول المفسرون إن هارون إنما نادى موسى بنسبته لأمه، مع أنه كان شقيقه، لأن ذكرها أدهى إلى العطف (1)، ولكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله - عز وجل - وليس ما درج المفسرون أن يقدموا، وإنما هو اجتهاد، و فوق كل ذي علم عليم (2)، هذا فضلا عن أن «الزجاج» إنما يقول: قيل كان هارون أخا موسى لأمه، لا لأبيه (3)، فإذا تذكرنا أن اليهود إنما يعتبرون أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعينهم على أي دين كان أبوه، هو يهودي صميم، حتى وإن ظل أقلف غير مختن (4)، لكان رأى الزجاج أو الياقوت إنما يستحق كثيرا من التأمل والتفكير.

وأما قصة التمر الأحمر أو الياقوت والجمر، ودورها في هذا العيب الذي جعل موسى عينا لا يكاد يبين حين يتكلم، أو «بطيئا في الكلام»، فيمكن الرد عليها في نقاط عدة، منها (أولا) أنه يستحيل على طفل طبيعي أو غير طبيعي أن يلمس النار، دون أن تحرق أصابعه فورا، فما بالك وقد رفع موسى الجمر إلى فمه، ثم أودعه إياه، ولم يحس به إلا بعد أن لدغ لسانه، ثم ألا يكفي هذا الفعل لإقناع فرعون أن الطفل غير طبيعي، ومنها (ثانيا) أن موسى لو كان حقا قد أمسك بالجمر وأمكنه احتمال قسوة النار، ثم وضع الجمر على لسانه، لفقد النطق كلية، ومنها (ثالثا) هل عدم فرعون - وهو ملك أعظم وأرقى دولة متحضرة في تلك العصور - وسيلة يستكشف بها حقيقة - كان حقها أعظم لمعاناتها الشديدة في حملن وتربيته والشفقة عليه فذكره

ص: 399

-
- 1- تفسير الطبري 131/3، معاني القرآن للفراء 394/1، تفسير القرطبي ص 2726، تفسير ابن كثير 474/3، تفسير المنار 180/9، تفسير النسفي 63/3.
 - 2- حسين ذو الفقار صبري: توراة اليهود، المجلة، العدد 157. يناير 1970 ص 19-20.
 - 3- تفسير القرطبي ص 2726 (دار الشعب - القاهرة 1970)، تفسير البيضاوي 29/4.
 - 4- .. (1970) p. 168. rD ibbaR I. nietspE, msiaduJ, niugneP skooB.

وأيا ما كان الأمر، فيبدو لي أن القول بأن سيدنا موسى عليه السلام، كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، قول فيه من الخطورة ما فيه، فإن احتمالات الخطأ فيه لجسيمة رهيبة خطيرة، ومع ذلك، فهو كافتراض - من حيث هو ظن، نجد له صدى في اسمه المصري (أولاً)، وفي التوراة حيث وصف، على لسان بنات رعوثيل صهره، بأنه «رجل مصري» (ثانياً) وفي «الزوهار» حيث يقر مصريته (ثالثاً) وفي الآيتين الكريمتين حيث التركيز فيهما على كلمة «ابن أم» (رابعاً) وفي رواية «الزجاج» على أنه ليس بشقيق لهارون، وكذا في رواية البيضاوي وأبي السعود بأنه كان أخا هارون من الأم، وإن ذهب الجمهور إلى أنهما شقيقان (خامساً)، وأخيراً (سادساً) في الأثر من أنه «كان بطيئاً في الكلام»، وفي قول التوراة: «أنه ثقيل الفم واللسان»، وفي قول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة طه حيث يدعو ربه وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وفي الشعراء وَ يَصْنِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ، وفي القصص: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وفي الزخرف، على لسان فرعون وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، وفي إجماع التوراة والقرآن العظيم على استعانة موسى بأخيه هارون في توصيل رسالته إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وملئه (2).

و مع ذلك، فما زلت أشك كثيراً، في أن موسى عليه السلام لم يكن

ص: 400

-
- 1- محمد فؤاد شبل: المرجع السابق ص 87 ثم انظر: تفسير القرطبي ص 4232، تفسير الدر المنثور 5/119-120.
 - 2- سورة طه: آية 27، الشعراء: آية 13، القصص: آية 34، الزخرف: آية 52، تفسير القرطبي ص 2726، تفسير البيضاوي 4/29، تفسير النسفي: آية 3/63، تفسير أبي السعود 6/38، سفر الخروج 2/19، 4/10.

إسرائيليا، وإنما كان مصريا، ودهي أن شكى هذا لا يتصل بحال من الأحوال بقيمة موسى عليه السلام من الناحية الدينية أو التاريخية، ذلك لأن هذه القيمة لم تأت من كونه إسرائيليا، وإنما لأنه كليم الله ورسوله الكريم، ولأنه أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتلك أمور لا تتغير بتغير جنسه و من ثم فلا يؤثر في مكانة النبي الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، أن يكون مصريا أو إسرائيليا.

و من ثم فإن شكى في مصرية موسى إنما يرجع لأسباب أخرى، منها (أولا) أن الجمهور على أن موسى إنما كان أخا شقيقا لهارون عليهما السلام، حتى وإن ذهب البعض إلى أنه كان أخاه من الأم، و هارون كان إسرائيليا دونما ريب، وبالتالي كان شقيقه موسى كذلك، و منها (ثانيا) أن الرسل إنما تبعث في أقوامها، و موسى قد أرسل إلى بني إسرائيل، و من ثم فهو إسرائيلي، و منها (ثالثا) أن دعوة موسى عليه السلام كان موضوعها، بجانب دعوة فرعون إلى الإقرار بتوحيد الله و ربوبيته، إنما هو إطلاق سراح بني إسرائيل من فرعون و قومه المصريين، كما يبدو ذلك واضحا في عدة آيات من الذكر الحكيم (الأعراف: آية 104-105، طه: آية 47، الشعراء: آية 16-17)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى نصوص التوراة (سفر الخروج 7/3-22، 1/5-3، 10/6-13) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت في الإصحاحات من السادس إلى العاشر من سفر الخروج، و التي تتحدث عن إخراج بني إسرائيل من مصر، مما يشير بوضوح إلى أن دعوة موسى عليه السلام، كما تصورها التوراة، إنما هو إخراج بني إسرائيل من مصر، و أن يقبهم شر العذاب المهين الذي كانوا يتعرضون له في أرض الكنانة، و ليس من المنطق أن يكون موسى مصريا، ثم تكون دعوته إطلاق بني إسرائيل من مصر، من فرعون و ملئه، ثم الخروج بهم من مصر

إلى كنعان، إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، و كما يقول صاحب البحر المحيط: و ليس بنو إسرائيل من قوم فرعون المصريين، ألا ترى أن بقية المصريين (القبط كما يسميهم خطأ) و هم الأكثر، لم يرجع إليهم موسى.

و منها (رابعاً) أن اسم موسى المصري، لم يطلقه عليه أبوه، كما يزعم فرويد، و إنما أطلقته عليه امرأة فرعون، و بدهي أن الملكة المصرية، لحما و دما، لغة و ثقافة، إنما تطلق على موسى اسماً مصرياً، و ليس عبرياً، و كما أشرنا من قبل، فهي ملكة مصرية تتكلم اللغة المصرية و تفكر بها، و ما كان لها أن تتحدث العبرية في حياتها و بين مواطنيها، حتى تتخذ للطفل، مع كراهية شائعة للعبريين يومئذ، اسماً عبرياً، و منها (خامساً) أن وصف التوراة لموسى، على لسان بنات رعوثيل، بأنه رجل مصري، أمر طبيعي، ذلك لأن موسى عليه السلام، و قد تربى في قصر فرعون، و عاش في مصر عمره كله، و الذي ربما وصل وقت ذاك إلى أربعة عقود من الزمان، من البدهي أن يكون مصرياً في لسانه و هيئته، بل إن قومه الإسرائيليين أنفسهم، و قد عاشوا في مصر قرابة أربعة قرون، قد أصبحوا مصريين، أو على الأقل متمصرين، بل إن القرآن الكريم ليصفهم بأنهم «طائفة منهم»، هذا فضلاً عن أن ابنة رعوثيل ما كانت تعرف حتى ذلك الوقت جنساً يدعى «بنو إسرائيل»، ذلك لأن اليهود قبل موسى و نبوته، ما كان لهم وجود كأمة في مجتمعات الشرق القديم، صحيح أن القبائل الإسرائيلية التي كانت تعيش في مصر منذ عهد يوسف الصديق عليه السلام، على أيام الهكسوس، كانت تدرك، حتى قبل ظهور موسى، أنها تنتمي إلى أرومة واحدة، و لكنها مع ذلك لم تؤلف شعباً واحداً حتى حدث الاستعباد المصري لهم، و نجح موسى في أن يوحد بين هذه العشائر التي تراخت أو اصر القريبي بينها، و يجعلها أمة واحدة، و ذلك بفضل نبوته و معجزته الكبرى.

و منها (سادساً) الاعتماد على أن موسى عليه السلام «كان بطيئاً في

الكلام» أو كان عيِّمًا لا يكاد يبين حين يتكلم، وبالتالي فقد استعان في تبليغ رسالته إلى بني إسرائيل بأخيه هارون، دليل على أنه كان مصرياً، ولم يكن إسرائيلياً، استنتاج فيه من الخطأ أكثر ما فيه من الصواب، ذلك لأن بني إسرائيل ما كانوا يتحدثون العبرية في مصر، فمن المعروف تاريخياً أن أسلاف العبرانيين كانوا يتكلمون الآرامية قبل أن يستقروا في فلسطين، ثم بدءوا يتحدثون لغة الشعوب المضيفة لهم، ففي مصر كانوا يتكلمون اللغة المصرية، وفي كنعان كانوا يتكلمون الكنعانية، و أما اللغة العبرية، والتي كانت خليطاً من الآرامية و الكنعانية و كثير من اللغات السامية و غير السامية، فيرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبيل عام 1100 قبل الميلاد، و بعد خروج بني إسرائيل من مصر، كما أشرنا من قبل.

و منها (سابعاً) أن ما جاء في التوراة و القرآن العظيم من أن الكليم عليه السلام عيِّم لا يكاد يبيِّن، و من ثم فقد سأل ربه الكريم وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي (1)، وَ اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، فهو أفصح منه لساناً، إلى غير ذلك من الأدلة التي اعتمد عليها البعض، على أنها).

ص: 403

1- اختلف المفسرون في زوال العقدة بكاملها، فمن قال به تمسك بقوله تعالى: قَدْ أُوتِيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى و من لم يقل به احتج بقوله تعالى: هُوَ أَفْصَحُ مِنِّْي، وقوله تعالى: وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ، و أجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل حل عقدة تمنع الإفهام و لذلك نكرها، و قال: «عقدة من لسان» أي عقدة كائنة من عقد لساني، و جعل قوله تعالى: يَفْقَهُوا قَوْلِي جواب الأمر، و غرضاً من الدعاء، فبحلها في الجملة يتحقق إيتاء سؤاله، و الحق، كما يقول أبو السعود، أن ما ذكر لا يدل على بقائها في الجملة، و لكن الحسن البصري قال: حل عقدة واحدة، و لو سأل أكثر من ذلك أعطى، و أما قوله تعالى: هُوَ أَفْصَحُ مِنِّْي لا تستدعي عدم البقاء لأن الأفصحية توجب بثبوت أصل الفصاحة في المفصول أيضاً، و ذلك مناف للعقدة أصلاً، و أما قوله تعالى: وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ فمن باب غلو فرعون في العتو و الطغيان، و إلا لدل على عدم زوالها أصلاً، و تنكيرها يفيد قلتها (تفسير أبي السعود 6/12).

دليل على مصرية موسى، وربما كانوا يعنون عدم إجادته اللغة المصرية، فالرأي عندي أنها لا تدل على شيء من ذلك، فربما كان سببها أن موسى عليه السلام قد أصيب بحبسة في لسانه نتيجة لتأخر في رضاعة أو لسبب آخر، أضعفه من الناحية العلمية قصة التمر الأحمر أو الياقوت و الجمر (1)، وعلى أية حال، فالإمام الفخر الرازي تفسير لاستعانة موسى بأخيه هارون يذهب فيه، كما أشرنا من قبل، إلى أن فرعون ربما كذب موسى، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعثر الكلام على من يكون في لسانه حبسة، لأنه عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب، وإذا انقبضا إلى الداخل و خلا- منهما الخارج، ازدادت الحبسة في اللسان، فالتأذي من الكذب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب للحبسة، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان، وأما هارون فهو أفصح منه، وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لانتقا (2).

ومنها (ثامنا) أن الذين اعتمدوا على أن هناك حبسة في لسان موسى لا تمكنه من أداء رسالته نحو بني إسرائيل، ثم توصلوا من وراء ذلك إلى أن موسى كان يتكلم لغة أخرى، ولم يكن قادرا على التفاهم مع شعبه الجديد من الساميين (أي بنو إسرائيل) بدون مساعدة مترجم، على الأقل في بداية عهده بهم، وفي هذا دليل على صحة نظرية أن موسى كان مصرياً، أو لغته على الأقل، نسوا، أو تناسوا، أنهم اعتمدوا في ذلك على نصوص التوراة (سفر الخروج 4/10-16، 27-31)، وأن هذه النصوص التوراتية

ص: 404

-
- 1- أنظر عن القصة: تفسير الطبري 159/16، تاريخ الطبري 390/1، تفسير القرطبي ص 423، تفسير النسفي 52/3، تفسير أبي السعود 12/6، تفسير صفوة التفاسير 233/2، ابن الأثير 98/1.
 - 2- تفسير الفخر الرازي 122/24.

المتداولة اليوم، ليست هي توراة موسى عليه السلام، وإنما قد داخلها كثير من التحريف والتصحيح، وأن القرآن الكريم قد جاء لتصحيح هذا التحريف، وذلك التصحيح، ومن هنا فإن شكوى موسى من حبسة لسانه في القرآن الكريم إنما كانت في مواجهة فرعون، وليس في مواجهة بني إسرائيل، وهذا ما تدل عليه الآيات بوضوح في سورة طه (24-32) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، وفي سورة الشعراء (10-13) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لَا يَتَّقُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَىٰ هَارُونَ، وفي سورة القصص (30-35) وفي سورة الزخرف (51-52) وَ نَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ، وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ.

ومنها (تاسعا) أن موسى عليه السلام كان على صلة بقومه الإسرائيليين قبل خروجه إلى مدين، بدليل قتله المصري عند ما استغاث به الإسرائيلي على المصري الذي سماه القرآن «عدوه» (أي عدو موسى)، ولا يمكن أن يستغيث الإسرائيلي بموسى إلا إذا كان على معرفة أنه من بني إسرائيل، بل إن قوله تعالى: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ إنما يستشف منه أن موسى كان يستخدم نفوذه في مناصرة بني إسرائيل، وكيف أبدى المصريين عنهم، بل إن موسى كاد أن يتورط في محنة جديدة بسبب ذلك الإسرائيلي الذي استصرخه بالأمس و استصرخه اليوم، حتى ليكاد أن يفعل ما ندم عليه بالأمس، فيهم بأن يبطش بالذي هو عدو لهما (أي المصري)، وبدهي أن كل هذا إنما يدل على أن موسى إسرائيلي، وأنه كان يعرف تماما تلك

و منها (عاشرا) أن قصة موسى، كما جاءت في سورة القصص (3-21) و الشعراء (18-22) لا تدع مجالا للشك في أن كلیم الله عليه السلام، إنما كان من بني إسرائيل، فلقد ولد في تلك الفترة العصيبة التي سلب الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، فأخفته أمه حيناً من الدهر، و لما خشيت أن يفتضح أمرها فرزت إلى الله مما تخشى على وليدها، فكان، كما فصلنا من قبل، أن أوحى الله إليها أن أرضي عبه فإذا خفت عليه فألقه في اليم و لا تخافي و لا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا و حزنا، و هكذا أراد الله أن ينشئ موسى في قصر فرعون، و بدهي أن موسى عليه السلام لو كان مصرياً، و لم يكن إسرائيلياً، ما تعرض لكل هذه المحن و البلايا، و لما ألقته أمه في اليم، و لما نشأ في قصر فرعون، ذلك لأن فرعون ما كان يقتل أبناء المصريين و يستحي نساءهم، و إنما كان يفعل ذلك مع بني إسرائيل، دون غيرهم من رعيتة، سواء أ كانوا من المواطنين المصريين أو من أبناء الامبراطورية المصرية في إفريقيا أو آسيا، و الحق أن قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، و خاصة ما جاء منها في سورتي الشعراء (18-22) و القصص (3-21) لا يدع مجالا للشك في أن النبي الكريم سيدنا موسى عليه السلام، إنما كان من بني إسرائيل، من ذرية أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي جعل في ذريته النبوة و الكتاب.

من الغريب المؤلم أن شك شراح التوراة وعلماء اليهود لم يقتصر على جنسية كلیم الله عليه السلام، وإنما تجاوزوه إلى الوجود التاريخي لموسى عليه السلام نفسه، ولعل السبب في ذلك إنما هي التقاليد العجيبة التي اكتنفت شخصية موسى، كما تبرز في نصوص التوراة، فكأننا أمام تضارب تقييم، شخصية صكت بني إسرائيل بعقد عميقة الجذور، فهم عنها وإيها بين شد و جذب عنيفين.

فالتفسيرات جميعا تكاد تتفق، في سعي خبيث، إلى التهوين من قدر موسى عليه السلام، فأنبياء بني إسرائيل المتأخرون (1)، دون غيرهم، أصحاب الفضل في إرساء أركان الديانة- المتسامية بأخلاقياتها زعموا- ولا بأس من التسليم لموسى، بأن كان علما على منعرج حاسم في تاريخ بني إسرائيل، كفاه أن هيا لهم بعقيدة اصطفاء، أسبابا من تماسك و تلاحم، تفسيرات تكاد تكون انعكاسا صادقا لما طرأ عبر العصور على كتابات اليهود، فلا ذكر لموسى عليه السلام، أو يكاد، في الأصول التوراتية القديمة، ولا تقع على اسمه إلا خطفا، حتى في كتابات أنبياء القرن الثامن

ص: 407

1- أنظر عن هؤلاء الأنبياء (محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل - الاسكندرية 1978 ص 50-60).

قبل الميلاد، عاموس (760-746 ق.م) وهو شع (740-730 ق.م) وإشعيا الأول (740-700 ق.م) و ميخا (735-700 ق.م) (1)، فالنبي إشعيا في المرة الوحيدة التي ذكر فيها موسى في نهايات سفره يقول: «ثم ذكر الأيام القديمة موسى وشعبه، أين الذين أصعدهم من البحر مع راعي غنمه، أين الذين جعل في وسطهم روح قدسه، الذي سير ليمين موسى ذراع مجده الذي شق المياه قدامهم، ليصنع لنفسه اسما أبديا» (2).

وهكذا أصبح موسى عليه السلام، في كتابات اليهود، نسيا منسيا أولا، ثم وجها أسطوريا فولكوريا فقط، منذ أيام سليمان، عليه السلام (960-922 ق.م) إلى قرب نهاية دولة اليهود في فلسطين، يشهد بذلك أيضا الموضوع الوحيد الذي تحدث فيه النبي إرميا (626-580 ق.م) عن موسى (3) بهذه العبارة: «وقال له الرب: لو أن موسى و صموئيل وقفا أمامي لما توجهت نفسي إلى هذا الشعب، فأطرحهم عن وجهي وليخرجوا (4)».

فإذا ما تكاثفت الأخطار حول مملكة يهوذا، يتهددها سوء مصير، أن يحيق بها ما حاق بمملكة إسرائيل في الشمال، تهيأت الفرصة- فإن الإيمان لهو ملاد الشعب في الملمات- لنفر من «لاويين»، ربما هم أحفاد بطانة موسى من كهنوت مصري، فتنبعث ذكرى كليم الله، و تلك الوصايا التي عهد بها إليه الرب في سيناء، بعد أن ظلت مطوية مطمورة في أعماق الوجدان زهاء قرون ستة أو يزيد (5).

ص: 408

-
- 1- حسين ذو الفقار صبري: إله موسى في توراة اليهود- المجلة- العدد 163- يوليو 1970 ص 5-6.
 - 2- إشعيا 63/11-12.
 - 3- حسن ظاظا: الصهيونية العالمية وإسرائيل ص 21.
 - 4- أرميا 15: 1، قارن الترجمة العربية للتوراة.
 - 5- حسين ذو الفقار صبري: المرجع السابق ص 6.

ولكن مؤلفي التوراة حرصوا مع ذلك على الاستنقاص من مكانته- إعلاء لشأن داود وبيت داود- في أمور أشد ما تكون التصاقا بالعقيدة التوحيدية، كما عند الأنبياء المتأخرين، غمزا و لمزا في سفر الخروج (1)، فكأن موسى لم يختن شأن أي أقلق، وأن قد ظل كذلك، مخالفا تعاليم الرب كما أنزلت على إبراهيم، من حيث السمة الدالة على العهد الأبدي الموثق (2)، بل متحديا ما دفع به الرب مباشرة (3)، فكأن نبي الله، حامل رسالته إلى شعب بني إسرائيل، إنما ناكث لعهد الرب (4).

ثم صراحة و دون موارد، إذ تعزى إليه شوائب من وثنية، فهو صاحب «حية النحاس» (5) «نحشان» صنعها بيديه و رفعها أمام القوم على سارية (6)، هي من أسباب غواية بني إسرائيل، يقدمون لها القرابين متعبدين، فيسحقها).

ص: 409

- 1- خروج 4: 24-26.
- 2- تكوين 17: 10-14.
- 3- خروج 12: 48.
- 4- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 6.
- 5- يرى «برستد» أن موسى كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية، فقد كان يحمل عصا سحرية عظيمة، في صورة «ثعبان» تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفي به الناس، و كان هذا الثعبان أحد الثعابين المقدسة العديدة في مصر، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل، و استمروا في إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد «موسى» و لم يبعد من البيت المقدس إلا في حكم ملك يهوذا حزقيا، و ليس من شك في أن برستد يخطئ في كثير مما ذكره (أنظر: ملوك ثان 18: 4)، .P, ecneicsnoC fo nwaD ehT, detsaerB. H. J 354.
- 6- يرى الدكتور هاني رزق: معبرا عن وجهة النظر المسيحية أن هذا الحدث إنما كان رمزا لصلب المسيح، فكما رفع موسى الحية لكي يحيا كل من ينظر إليها، هكذا رفع يسوع المسيح على الصليب لكي يحيا كل من يؤمن به (هاني رزق: يسوع المسيح في ناسوته و ألوهيته، القاهرة 1971 ص 152-153).

حزقيا ملك يهوذا (715-687 ق. م)، ضمن ما كان قد حطم من نصب و أصنام (1).

هذا إلى أن التوراة جد حريصة على اثبات أنساب عديدة من شخصيات، و لكنها تمر على موسى مر الكرام، فتقول في سفر الخروج: إن أباه و أمه من بيت لاوى (2) و لا تزيد، لا تسميهما حتى، و إن كانت النسخ العربية للتوراة (3) تقرر: أن أمه هي بنت لاوى، و لكن دقة الترجمة تقتضيها أن تقول «من بيت لاوى»، أما ذلك النص الآخر (4) تقع عليه ضمن أنساب مفصلة لكافة بني إسرائيل، فإنما هو مدموس على الأصل القديم، نقل نقلا عما أثبتته الأحبار في سفر العدد (5)، بعد أن كان النص الأول قد سجل بأحقاب (6).

و لعل هذا كله هو الذي دفع المؤرخ اليهودي «سيسل روث» إلى القول: بأن موسى ينتمي إلى قبيلة أفرايم- مع نوع من الانتساب المصري- أكثر من انتمائه إلى قبيلة لاوى، التي انتسب إليها عن طريق التقاليد (7)- كما أشرنا من قبل- فإذا أضفنا إلى ذلك كله، انعدام أية وثيقة تاريخية معاصرة تحدثنا عن الكليم، عليه السلام، و عن وقائعه في مصر- غير ما ورد في الكتب

ص: 410

1- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 6، عدد 21: 9، ملوك ثان 18: 4.

2- خروج 2: 1- 2.

3- خروج 1/2 جاء بحية «و ذهب رجل من بيت لاوى، و أخذ بنت لاوى»، تعني أن عمرا م تزوج عمته يوكابد بنت لاوى التي ولدت للاوى في مصر (خروج 6/ 20، عدد 26/ 59).

4- خروج 6: 20.

5- عدد 26: 59.

6- حسين ذي الفقار: توراة اليهود، المجلة يناير 1970، ص 12 و كذا، Y, N, sweJ ehT fo yrotsiH A, rahcaS. L. A 1954

7- .P, tic. po, htoR, C 8- 6 .

المقدسة، ونزلت اليهود- فضلا عن أن اليهود أصبحوا لا يعرفون، حتى أين دفن الكليم (1)؟ لتبين لنا كيف أضاع اليهود الرجل العظيم و جحدوا مكانته، مما أدى في نهاية الأمر، إلى أن يبدي بعض علماء التاريخ والآثار المصرية و الدراسات اليهودية، شكوكهم حول تاريخية الرجل العظيم، بل إن «جوستاف لوبون» ليقول بصراحة: إن موسى شخص أسطوري، أكثر من كونه شخصا تاريخيا، أي أن ذاتيته رتبت، كما رتبت ذاتية «بوذا» بعد حين (2).

و من هنا، فإن جمرة مفكري اليهود العلمانيين في العصر الحديث، تذهلهم تلك الشخصية، كما تتراءى عملاقة جبارة، بينما يؤرقهم في الوقت نفسه افتقارهم إلى الدليل المادي، مهما كان ضئيلا تافها، الذي يقنعهم بأنه كان له وجود، فيقولون بسفسطة رأى بأن: موسى كان، رغم أنه ما كان، أعظم شخصية في تاريخ اليهود، فلا معدي عن ابتداعها بخيال، فيصبح التاريخ اليهودي مغزى و قصدا (3).

و مع ذلك، ورغم كل ما أشرنا إليه آنفا، فإني لأومن- الإيمان كل الإيمان- بالوجود التاريخي لنبي الله الكريم، سيدنا موسى عليه السلام، لأسباب كثيرة. منها (أولا) أن الكتب السماوية الثلاثة- التوراة و الإنجيل و القرآن العظيم- تجمع على ذلك، و ليس من العلم، فضلا عن الإيمان بما جاء في كتب السماء، أن نشك في أمر أجمعت عليه.

و منها (ثانيا) أن الشك الذي يحوم حول موسى عليه السلام، إنما له مثيل بالنسبة إلى أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليه السلام (4)، و في كلا

ص: 411

1- تثنية 34: 1-6.

2- جوستاف لوبون: المرجع السابق ص 75.

3- حسين ذو الفقار: المرجع السابق ص 12، و كذا. P, tic- po, rahcaS. L. A 18- 16.

4- .P, tic- po, yellooW. L 514 .

الحالين فإن الذين يشكون- في الكليم و الخليل- إنما يعتمدون في شكهم هذا، على كثرة الأعاجيب و الخوارق في السيرتين الطاهرتين، كما رواها الأقدمون، و لست أعتقد- بحال من الأحوال- أن هذا سببا مقنعا، فنحن الدارسين للتاريخ المصري القديم- على سبيل المثال- نسمع عن الكثير من الأسرار التي حيكّت حول «الهرم الأكبر»، مما لا يعتمد على سند، أو دليل تاريخي، و مع ذلك فالهرم الأكبر موجود. و لا يستطيع أحد أن يمترى في وجوده.

و منها (ثالثا) أن ما يراه بعض النقاد من عدم وجود أي أثر يشير إلى تاريخية موسى، عليه السلام، فإذا كان الأمر كذلك، و إذا كانت تلك «الشقف» أكثر أهمية، بل و ربما يعتمد عليها أكثر من ذاكرة الناس، أو السجلات المكتوبة، فإن الأثر الذي تركه المشرع العظيم على العقل الإسرائيلي، و الذي يمكن تتبعه منذ عصر قديم جدا، عميق لدرجة لا يمكن أن تفشل في حالة الاعتماد عليها، لتحقيق شخصية تركت أثرا لا يمحي على المعاصرين (1).

و منها (رابعا) أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء و الرسل في النصوص الإنسانية ضعيف نسبيا، لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية و الإنسانية، ربما يكون قد دفع تلك المجتمعات الإنسانية إلى إغفال ذكرها.

و هذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ و حضارة الشرق الأدنى القديم بوجه عام، بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف بالمعارضين (2).

و منها (خامسا) أن المصادر المصرية القديمة- و التي تمتاز عن غيرها

ص: 412

1- , 1969 , p. 6. C htoR. A trohsI yrotsiH eht JsiweP elpoeL, nodno.

2- رشيد الناصوري: جنوب غربي آسيا و شمال إفريقيا- الكتاب الثالث- المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني- بيروت 1969 ص

من مصادر الشرق الأدنى القديم بوضوحها وكثرة آثارها- كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن «موسى»، هذه المصادر- في غالبيتها- إنما كتبت بأمر من الملوك، أو بوحى منهم، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة إلها، أكثر منه بشرا، كان من الطبيعي ألا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها، ولهذا فالنصر كاد أن يكون حليفه فيها، وقد تكون الحقيقة غير ذلك (1).

و من المعروف أن قصة موسى في مصر- كما جاءت في الكتب المقدسة- إنما انتهت بغرق الفرعون و جنوده في البحر، و نجاة موسى و من آمن معه بالواحد القهار، و ليس من المقبول- طبقا للعقيدة الملكية الإلهية المصرية القديمة- أن تسجل النصوص المصرية غرق الإله الفرعون، و نجاة عبيده العبرانيين، و من هنا كان من الصعب العثور على اسم موسى في النصوص المصرية القديمة حتى الآن، رغم ضخامة التركة الأثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية.

و انطلاقا من هذا كله، و رغم أن الوجود التاريخي لموسى، عليه السلام، إنما يفتقر إلى الدليل المادي التاريخي، خارج الكتب المقدسة، و تراث اليهود، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين يعتقدون أن موسى عليه السلام له وجود تاريخي، و أنه عاش في مصر حينما من الدهر، و أن خروج الإسرائيليين من أرض الكنانة تم تحت قيادته، و أن ذلك كله- فيما أرى-، إنما هو من حقائق التاريخ التي لا يرقى إليها الشك- بحال من الأحوال- إيماننا منا بما جاء في الكتب السماوية، من ناحية، و لأن تاريخ إسرائيل الفعلي- و الذي يبدأ حقيقة بحادث الخروج من مصر- لا يمكن أن يفهم إلا إذا اعترفنا بوجود كليم الله، موسى عليه السلام).

ص: 413

1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، الإسكندرية 1966 ص 3 (رسالة ماجستير).

نجح موسى عليه السلام، كما رأينا من قبل، في الخروج ببني إسرائيل من مصر، وهناك في صحراوات سيناء المقفرة لقي النبي الكريم من قومه الأمرين، وينتهي الأمر بأن يكتب على الخارجين من مصر أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة ينجح بنو إسرائيل في أخرياتها في الوصول إلى تخوم كنعان، وإن لم يكتب لهؤلاء أن يدخلوا الأرض المقدسة أبداً.

هذا وقد اختلفت المصادر الإسلامية في دخول موسى عليه السلام أرض كنعان، فذهب فريق من علماء السلف على رأسهم ابن إسحاق، إلى أن موسى قد عاش حتى خرج من التيه، وشهد دخول قومه أرض فلسطين، وأنه كان معهم يوم فتح مدينة الجبارين (أريحا أو بيت المقدس)، وكان على مقدمته يوشع بن نون، كما كان معه كالب بن يفتنة، صهره على أخته مريم بنت عمران، ويذهب ابن كثير إلى أن هذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، و مما يدل على ذلك قول موسى عليه السلام، لما اختار الموت، كما سيأتي، «رب أدني إلى الأرض المقدسة رمية حجر»، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه في التيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية حجر، ولهذا قال سيد البشر، ورسول

اللّٰه! أهل الوبر و المدر سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم «فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر».

على أن هناك فريقا آخر، على رأسهم ابن عباس، و كذا قتادة و السدى و عكرمة، إنما يذهب إلى أن موسى و هارون، عليهما السلام، توفيا في التيه، و كذا توفي كل من أبي المسير إلى كنعان مع موسى، حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين، و هكذا تذهب المصادر الإسلامية، و كذا التوراة (1)، إلى أن جميع بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر قد ماتوا في البرية، و لم يروا أرض الميعاد، ما عدا يوشع بن نون و كالب بن يفنه، و من لم يتجاوز العشرين من أعمارهم، و أن موسى عليه السلام قد عهد إلى يوشع بن نون بأن يدخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة من بعده، أو أن يوشع قد بعث نبيا من بعد موسى، و أنه هزم الجبارين و دخل مدينتهم (2).

هذا و قد روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال:

أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز و جل فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعره سنة، قال: أي رب ثم ما ذا، قال ثم الموت، قال فالآن قال: فسأل الله عز و جل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر، قال أبو هريرة، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»، و في رواية في

ص: 416

1- عدد 14/22-38، 33/38-39.

2- تفسير الطبري 10/190-200، تاريخ الطبري 1/435-442، تفسير روح المعاني 6/109، تفسير الطبرسي 6/70-71، تفسير الكشاف 1/622-623، تفسير النسفي 1/279-280، تفسير الخازن 2/34-36، ابن كثير: التفسير 2/74-75، البداية و النهاية 1/316-325، تفسير البغوي 2/36-7، تاريخ ابن خلدون 2/98-99، تاريخ يعقوبي 1/45-46، مروج الذهب للمسعودي 1/62-63، الكامل لابن الأثير 1/111-115.

تفسير البغوي: «و الله لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»، و روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما أسرى به، مررت بموسى و هو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر»، و في رواية قال صلى الله عليه وسلم: «مررت على موسى ليلة أسرى بي عن الكثيب الأحمر، و هو قائم يصلي في قبره» (رواه مسلم و النسائي و أحمد).

و روى الإمام أحمد و ابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا حتى أتى موسى فلطمه ففقا عينه، قال فرجع فقال: يا رب إن عبدك موسى فقأ عيني، و لو لا كرامته عليك لشققت عليه، فقال: أت عبدي موسى فقل له: فليضع يده على متن ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة، و خيره بين ذلك و بين أن يموت الآن، قال فأتاه فخيره، فقال له موسى: فما بعد ذلك؟ قال الموت، قال: فالآن إذا، قال: فشمه شمه قبض روحه، قال: فجاء بعد ذلك إلى الناس خفية» (1).

هذا و تقول التوراة في التثنية (27/3-29) و قال الرب لموسى:

«اصعد إلى رأس الفسجة و ارفع عينيك إلى الغرب و الشمال و الجنوب و الشرق و انظر بعينيك لكي لا تعبر هذا الأردن، و أما يشوع فأوصه و شدده و شجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب و هو يقسم لهم الأرض التي تراها، فمكثنا في الجواء مقابل بيت فغور»، ثم تقول في آخر سفر التثنية نفسه (8-1/34) «و صعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي في قبالة أريحا، فأراه الله الأرض من جلعاد إلى دان، و جميع نفتالي و أرض أفرايم و منسى و جميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي و الجنوب و الدائرة بقعة أريحا أرض النخل إلى صوغر، و قال له الرب: هذه هي الأرض التي

ص: 417

1- تاريخ الطبري 434/1، ابن كثير: البداية و النهاية 319/1.

يقديسانه في وسط بني إسرائيل، و من هنا فقد حرم الله الأرض المقدسة على موسى أبدا.

و يعلم الله- و تشهد ملائكته- أن موسى و هارون لم يكونا كما صورتهم يهود في التوراة، وإنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد- كل الجهد- في تبليغ دعوة ربهما، وأفيا عمرهما من أجلها، حتى لقا الله مطمئنين إلى رضاه، و هكذا نرى القرآن الكريم يكرمهما أمجد تكريم، حيث يقول سبحانه و تعالى: **وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا، وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَ نادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَ وهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (1)**، و يقول: **وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَ قَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ وَ نَصَرْنَا لَهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (2)**، و يقول عن موسى: **وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي (3)**، و يقول: **وَ اصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي (4)**، و يقول: **يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي، فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (5)**.

ص: 419

-
- 1- سورة مريم: آية 51-53 و انظر: تفسير البيضاوي 36/2، تفسير الألوسي 16/193-194، تفسير الفخر الرازي 21/221، تفسير الطبري 16/94-، تفسير الطبرسي 16/44-46 تفسير القاسمي 11/4149، تفسير القرطبي ص 4152-4153.
 - 2- سورة الصفات: آية 114-122، و انظر: تفسير البيضاوي 3/298-299، تفسير الفخر الرازي 26/159-160، تفسير الطبري 23/90-92 تفسير روح المعاني 23/138-139، تفسير ابن كثير 7/31-33، تفسير القرطبي 15/114-115.
 - 3- سورة طه: آية 39.
 - 4- سورة طه: آية 41.
 - 5- سورة الأعراف: آية 144، و انظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم 4/7-2، تفسير الطبري 13/106-107، تفسير الطبرسي 19/18-20، تفسير القاسمي 7/2854، تفسير المنار 9/104-112، تفسير القرطبي ص 2716، تفسير و جدي ص 214، تفسير ابن كثير 3/471.

وهكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها، ثم يطلب إلى المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى عليه السلام (1)، فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (2).

انتقل موسى، عليه السلام، راضيا مرضيا عنه، وقد أكمل الرسالة، وبلغ الدعوة، ونقرأ في التوراة (3): «وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات» (4)، وليست هناك أية دلائل في التوراة تشير إلى أن موسى لقي ميتة عنيفة، غير طبيعية غير أننا نرى في عام 1922 م «أرنست سيللين» يزعم أنه قد وجد في بعض فقرات من سفر «هوشع» (5) بقايا تقاليد مختلفة، ترى أن موسى قد مات شهيدا، فقد ذبحه الكهنة الذين أطاحوا تماما بالدين الذي أسسه (6).

وفي عام 1938 م، أصدر «سيجموند فرويد» كتابه الشهير «موسى والتوحيد»، زعم فيه أن هذه التقاليد- الآنف الذكر، لم تكن مقصورة على

ص: 420

-
- 1- عبد الرحيم فودة: المرجع السابق ص 214.
 - 2- سورة الأحزاب: آية 69، وانظر: تفسير الفخر الرازي 233/25، تفسير القرطبي 250/14-252 (القاهرة 1967)، تفسير وجدي ص 561، تفسير الطبري 50/22-53.
 - 3- تثنية 34: 7.
 - 4- ترى التقاليد اليهودية والنصرانية أن موسى أقام في مدين أربعين عاما، وأنه حين خرج من مصر لاجئا إلى مدين كان في الأربعين من عمره، ثم بعث نبيا وهو في الثمانين، وأنه مات وهو ابن مائة وعشرون سنة (أعمال الرسل 7: 7، 23، 30، قاموس الكتاب المقدس 2/931، شاهين مكاربوس: المرجع السابق ص 40، عدد 14: 33، تثنية 34: 7).
 - 5- هوشع 4: 4-9، 5: 1-4، 8: 3-7، 9: 7-11.
 - 6- 1922، Etscheidt S. n. d. e. B. g. n. u. t. e. d. e. B. e. n. i. e. S. d. n. u. e. s. o. M. n. i. l. l. e. S. t. s. n. r. e. 1922، gizpieL.eth.cihcsegsnoigileR ohcsiduJ hcsitilearsI eid ruf gnutuedeB enieS dnu esoM nilleS tsnrE

هوشع، وإنما هي تتكرر في كتابات معظم الأنبياء اللاحقين، بل إنها- فيما يرى سيللين- أساس التوقعات القادمة بمقدم المسيا (المسيح). وقرب نهاية الأسر البابلي (586-539 ق. م) انبثق الأمل بين الشعب اليهودي في أن الرجل الذي اغتالوه بكل قسوة، سوف يعود من مملكة الموتى، ليقود شعبه النادم- وربما غير شعبه أيضا- إلى أرض النعيم الخالد.

ثم يعترض «فرويد» على ما ذهب إليه «سيللين» من أن الحادث العنيف قد وقع عند «شيتم mittihs» بشرق الأردن، وإنما يفترض أن ذلك الحادث إنما وقع قبل اتحاد القبائل الخارجة من مصر، مع ذوي قرباها، في الأرض الواقعة بين مصر وكنعان- وفي قادش، فيما يرى ماير وجرسمان وآخرون- ثم استبدل بعد ذلك موسى المصري في التقاليد، بموسى آخر، هو الذي أسس فيما بعد ديانة «يهوه»، وهو زوج ابنة «يثرون» كاهن مدين، و الذي أطلقوا عليه اسم «موسى» كذلك (1).

ونحن لا نعرف، على أي حال، شخصية موسى الآخر، الذي يحجبه تماما موسى الأول أو المصري، فيما عدا بعض مفاتيح شخصيته التي تقدمها التناقضات التي يمكن العثور عليها في تصوير التوراة لشخصية موسى، ففي الوقت الذي يوصف فيه بأنه قوي حاد المزاج، بل عنيف أحيانا، يقال عنه في مواضع أخرى، إنه كان أكثر الرجال صبورا وتواضعا، و من الواضح أن مثل هذه الصفات الأخيرة، لا يمكن أن تكون ذات فائدة لموسى المصري الذي قام بمثل هذه المشروعات الشاقة العظيمة، و لربما تعزي هذه الصفات إلى موسى الآخر، موسى مدين.

ولعل لنا الحق بعد ذلك، فيما يرى فرويد- أن نفرصل بين الشخصيتين احدهما عن الأخرى، و نفترض أن موسى المصري لم يذهب مطلقا إلى

ص: 421

«قادش»، كما أن موسى مدين لم يضع قدمه في مصر، ولم يعرف شيئاً عن «آتون» ولكن من أجل أن يصبح الاثنان واحدا جعلت التقاليد- أو الأساطير- موسى المصري يذهب إلى مدين، وهكذا نرى أن أكثر من تفسير يمكن أن يقدم (1).

و الرأي عندي أن ذلك أمر غير مقبول، وأنه تحمّل للنصوص أكثر مما تحتمل، صحيح أن التوراة تروي أن هناك ثورات عنيفة قامت أثناء فترة التيه في صحراوات سيناء ضد موسى (2)، وأن واحدة من هذه الثورات كانت من اللاويين، رهط موسى الأدين (3)، بل إن أخرى إنما كانت من بيت موسى نفسه، من أخويه هارون و مريم (4)، و صحيح أن واحدة من هذه الثورات إنما قد طالبت علانية بخلع موسى و العودة إلى مصر (5)، و صحيح أن رواية التوراة عن موت موسى و هارون إنما هي جد غامضة، و أنها تجعل خيانتهم للرب- و العياذ بالله- سببا في هذا الموت (6).

كل تلك أمور حدثتنا عنها التوراة، بل و صحيح كذلك أن قتل النبيين عند اليهود أمر مألوف، و صدق عز من قال: أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ (7)، و قد قتلت يهود

ص: 422

1- . p, tic- po, dseL. A 308 . و كذا، . p, tic- po, duerF. S 49- 46.

2- خروج 15: 23- 25، 16: 2- 3، 17: 1- 7.

3- عدد 16: 1- 41.

4- عدد 12: 1- 15.

5- عدد 14: 2- 4.

6- تثنية 32: 48- 53.

7- سورة البقرة: آية 87، وانظر: سورة البقرة: آية 61، 91، سورة آل عمران: آية 112، سورة المائدة 70، و كذا: تفسير الطبري 139/2- 142، 323- 324، 324- 323، 350- 354، 116/7- 118، 477/10 (دار المعارف)، تفسير ابن كثير 1/ 45- 147، 175 179، 148/3، 77- 86، تفسير المنار 1/ 273- 276، 311- 312، 317- 318، 574- 58، 397- 398.

يحيى عليه السلام (1)، كما حاولت نفس الأمر مع المسيح عيسى بن مريم، ولكن الله جلت قدرته نجاه من كيد الفاسقين، وصدق الله العظيم حيث يقول: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (2).

كل ذلك وغيره صحيح، ولكنه صحيح كذلك، أن التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، وهي دون شك مصدرنا الأساسي عن الأنبياء عليهم السلام، لم تقل أن موسى عليه السلام، مات مقتولا، أو حتى لقي ميتة عنيفة، ولم يقدم لنا «سيلين» أو «فرويد» نصا واحدا صريحا من نصوص التوراة، التي زعما أنها تشير إلى ذلك، كما أن الدليل التاريخي على هذا الحدث المؤلم مفقود تماما، و من هنا فالأمر، فيما أو من به واعتقد، مجرد ظن، وإن بعض الظن إثم.

و من ثم فلنا أن نعتبر ما ذهب إليه «سيلين وفرويد» من شطحات

ص: 423

-
- 1- متى 14: 2-11، مرقس 6: 17-28، تاريخ يوسفوس ص 214، فيلب حتى: المرجع السابق ص 420، 422 ثم قارن ابن الأثير 1/ 301-302، تاريخ الطبري 1/ 585-593، تاريخ ابن خلدون 2/ 144، ابن كثير: قصص الأنبياء 2/ 362-366، الثعلبي: قصص الأنبياء ص 340-341، عبد الرازق نوفل: يوحنا المعمدان ص 59-86، كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم» ص 516-518 (الرياض 1977- أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم 1 من المكتبة التاريخية).
 - 2- سورة النساء: آية 157-158، وانظر: تفسير الطبرسي 6/ 279-284، تفسير الطبري 8/ 376-379، في ظلال القرآن 6/ 19-21، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 3/ 108-109، تفسير النسفي 1/ 376-377، تفسير الكشاف 1/ 584-589، تفسير روح المعاني 4/ 10-12، تفسير أبي السعود 1/ 808-810، تفسير الفخر الرازي 10/ 99-102، تفسير ابن كثير 2/ 399-419، تفسير المنار 6/ 10-20، تفسير القرطبي ص 2005-2006.

الباحثين، أو حتى أساطيرهم، التي لا تعتمد على نص سماوي صريح، أو حتى دليل مادي من التاريخ، و ما أكثرها، بل إننا ما كان لنا لنهتم بها، لولا أنها تتعلق بواحد من المصطفين الأخيار، أنبياء الله الكرام البررة، سيدنا موسى عليه السلام، فنظائرهما في كتب التاريخ كثيرة، خاصة في كتب هذا النوع من الباحثين الذين عرفوا بالجرأة على إصدار أحكام، باسم العلم، و العلم منها برى ء، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، كما يقولون، و لكن ما حيلتنا، و هناك الكثير من الشباب الذي لم يدرس تاريخ الأنبياء في مصادرها الأصلية إنما يصدقون ما يقوله هؤلاء الباحثون من المستشرقين و المستغربين، هداانا الله و إياهم إلى سواء السبيل.

[1] مكانة موسى عند المسلمين: -

لا-ريب في أن سيدنا موسى عليه السلام، إنما يحتل مكانة ممتازة عند المسلمين، ذلك لأن كلم الله في القرآن الكريم إنما هو من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتين من آي الذكر الحكيم، هما قوله تعالى: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (1)**، وقوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (2)**.

ولموسى منزلة كبرى عند الله تعالى: ولتقرأ هذه الآية من سورة طه:

ص: 425

1- سورة الأحزاب: آية 7، وانظر: تفسير القرطبي ص 5208-5209، تفسير النسفي 3/295، زاد المسير لابن الجوزي 6/354، وانظر: تفسير البيضاوي (1/114) حيث يقول: خصهم الله بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له و تكريماً لشأنه، وقال ابن كثير (مختصر التفسير 3/83) بدأ بالخاتم لشرفه صلى الله عليه وسلم، و بياناً لعظم مكانته، ثم رتبهم حسب وجودهم في الزمان.

2- سورة الشورى: آية 13، وانظر: تفسير ابن كثير 7/182-183، تفسير النسفي 4/102، تفسير القرطبي ص 5829-5830، صفوة التفاسير 3/

وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي، وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي، وَ مَا كَانَ فِي مَقْدَرَةِ لِسَانِ بَشَرٍ أَنْ يَصِفَ خَلْقًا يَصْنَعُ عَلَيَّ عَيْنَ اللَّهِ، إِنَّهَا لَمَنْزِلَةٌ، وَ إِنَّهَا لِكِرَامَةٌ أَنْ يَنَالَ إِنْسَانٌ لِحِظَةً مِنَ الْعَنَاءِ الْإِلَهِيَّةِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَصْنَعُ صِنْعًا عَلَيَّ عَيْنَ اللَّهِ، إِنَّهُ بِسَبَبٍ مِنْ هَذَا أَطَاقَ مُوسَى أَنْ يَتَلَقَى ذَلِكَ الْعَنْصَرَ الْعُلُويَّ الَّذِي تَلَقَاهُ، ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهِ وَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أَيَّ خَالِصًا مُسْتَخْلِصًا يَمَحِّضُنِي لِرِسَالَتِي وَ دَعْوَتِي، لَيْسَ بِكَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَ لَا لِهَذِهِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنْتَ لِلْمَهْمَةِ الَّتِي صَنَعْتَكَ عَلَيَّ عَيْنِي لَهَا، وَ اصْطَنَعْتُكَ لِتُؤَدِّيَهَا، فَمَا لَكَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ، وَ مَا لِأَهْلِكَ مِنْكَ شَيْءٌ، وَ مَا لِأَحَدٍ فَيْكَ شَيْءٌ، فَا مَضُ لِمَا صَنَعْتَكَ لَه (1)، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ: التَّقَى آدَمُ وَ مُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي أَشَقَيْتَ النَّاسَ وَ أَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ آدَمُ: وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ، وَ اصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَةَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، قَالَ: نَعَمْ، فَحَجَّجَ آدَمُ مُوسَى (2).

ثُمَّ إِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَ مِنْ ثَمَّ فَقَدْ اشْتَهَرَ بِأَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، يَعْنِي مُوسَى وَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَ سَلَّمَ (3) هَذَا وَ كَانَ مِنْ وَجَاهَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ شَفَعَ فِي أَخِيهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ سَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ وَزِيرًا، وَ ذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، وَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ فَقَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا

ص: 426

1- في ظلال القرآن 4/ 2335-2336.

2- ابن كثير: مختصر التفسير 2/ 482.

3- نفس المرجع السابق 1/ 226.

شفع أحد شفاعة في الدنيا، أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيا، قال الله تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا، وقال ابن عباس:

نبي هارون ساعته، وحين نبي هارون، عليهما السلام، روى عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراف فسمعت رجلا يقول:

أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قالوا لا ندري، قال أنا والله أدري، قالت فقلت في نفسي في حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله (أخرجه ابن أبي حاتم) (1).

وقد نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكانة موسى عليه السلام في قوله الشريف، الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه وقال: يا محمد إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال ادعوه، فدعوه، قال لم لطمت وجهه، قال يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعتة يقول:

والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد، قال فقلت: وعلى محمد، وأخذتني غضبة فلطمته، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور).

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمد على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على

ص: 427

1- سورة مريم: آية 53، طه: آية 29-32، القصص: آية 34، وانظر: تفسير النسفي 3/ 51-52، 179، 236، صفوة التفاسير 2/ 233، 375-376، 433-234، مختصر تفسير ابن كثير 2/ 455، 474.

العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل».

ويقول ابن كثير: والكلام في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله صلى الله عليه وسلم: لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى»، قيل من باب التواضع، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض، كما أختصه الله تعالى بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون، كما ظهر شرفه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم».

والذي يؤمن المسلمون بأنه أفضل الرسل إطلاقاً، بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس أدل على هذه الأفضلية من أن المسلمين يصلون على إبراهيم وماله وبياركونهم، كما يصلون على نبيهم محمد وآله وبياركونهم، ثم يأتي بعد ذلك، كما يقول ابن كثير في التفسير، موسى بن عمران كليم الرحمن (1).

[2] مكانة موسى في التاريخ اليهودي:-

وأما مكانة موسى، عليه السلام، في التاريخ اليهودي، فهي مكانة لا يسمو إليها واحد من معاصريه، أو من اللاحقين به من بني قومه، ولهذا فهو

ص: 428

1- ابن كثير: مختصر التفسير 1/226-227، 2/48-50، البداية والنهاية 1/283-285، 312-315، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/52-53، صحيح البخاري، صحيح مسلم.

يعدّ حقاً شيخاً للأمة الإسرائيلية، بل هو الذي كان سبباً في وجود اليهود كأمة، صحيح أن القبائل الإسرائيلية كانت تدرك- قبل ظهور موسى- أنها تنتمي إلى أرومة واحدة، ولكنها مع ذلك لم تؤلف شعباً واحداً، حتى حدث الاستعباد المصري، ونجح موسى في أن يوحد بين هذه العشائر التي تراخت أواصر القرى بينها، ويجعلها أمة واحدة، وذلك بفضل نبوته ومعجزته الكبرى، فقد كان موسى يؤمن- الإيمان كل الإيمان- أن معه إلهها أكبر من كل آلهة مصر، معه «يهوه» الذي لا يريد تحرير القبائل العبرية فحسب، بل يريد كذلك أن يكونوا أمة واحدة، وأن شعب موسى لا بد أن يعتقد أن معه قوة فرعون وكل جنده، وقد نجح موسى بفضل عميق إيمانه بدينه الجديد في إقناع اليهود بذلك، رغم كل المتاعب التي وقفت عقبة كئود في طريقه، والتي لم تخفها أسفار التوراة (1).

وهكذا استطاع موسى أن ينشئ من الأسباط الاثني عشر، اتحاداً فيدرالياً منذ أول خطوة من رحلة الخروج، محدداً لكل سبط مهمته و مسؤوليته في المجموعة، وكان لعشيرة موسى- أي سبط اللاويين- الزعامة الدينية والاجتماعية على سائر الأسباط، وكان لهذا المجتمع مجلس تشريعي، يقابل ما يسمى أحياناً «مجلس الشيوخ»، ويتكون من السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى- والذين يرى فيهم فرويد السحرة المصريين الذي آمنوا به- وكان هو نفسه رئيس المجلس، وهذا التنظيم ما يزال يحاكي في المجتمعات اليهودية، ويوكل إليه- كما كان قديماً- أمر تطبيق الشريعة الموسوية وتنفيذها وتفسيرها والإفتاء بمقتضاها في الحالات المشككة (2).

ومع هذا فإن هذا العمل السياسي الضخم الذي بدأه موسى، عليه

ص: 429

1- تيودور روينسون: المرجع السابق ص 105.

2- حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم- الاسكندرية 1971- ص 76-77 وكذا.. A 310، 175، tic-po، sdoL.

السلام، لا يكاد يذكر، إلى جانب دعوته الدينية، و التغيير الاجتماعي الذي سببته هذه الدعوة بين العبرانيين، ذلك لأن موسى لم يؤسس أمة فحسب، وإنما أرسى كذلك قواعد دين، وكان الكلیم كحامل لوعي ديني- على مثال مولانا و سيدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه و سلم، بعد ذلك بحوالي ألفي سنة- استطاع أن ينهض بتحويل بعيد المدى في عادات البدو الساميين للقبيلة، التي لو لا ذلك لظلت باقية على ما هي عليه، و قد ثبت عبادة «يهوه» لتكون عبادة شعب، و بهذا أتى إلى حيز الوجود بأمة جديدة، و منذ ذلك الحين، صار «يهوه» إله العبرانيين، الذي أطلق سراح آبائهم من العبودية، و قادهم خلال أخطار البرية، إلى أرض الموعد (1).

و من هنا نرى «جيمس هوسمر» يقرر أن مكانة موسى؛ إنما جاءت من كفاءته التي استطاع بها أن يقود بني إسرائيل و يخرجهم من مصر، ثم من مقدرته على إملاء التوراة، التي كانت قانون هذه الجماعة، بعد إن لم يكن لها قانون، كما كانت القاعدة التي قام عليها بناء الدولة من الناحية السياسية (2).

و هكذا تجمع الآراء على أنه لو لا موسى- عليه السلام- لما كان لبني إسرائيل، أو لعقيدتهم وجود، حتى إنه ليقال في الأساطير اليهودية نفسها، أنه لو لم يوجد موسى، لاضطروا إلى ابتداء شخصيته بخيال، فإن ذكره الحية هي التي تتأممهم إلى وجود (3)، و من ثم نستطيع تفسير وجود الشعب اليهودي، بأرائه و شريعته و فلسفته و دينه (4).

ص: 430

-
- 1- و. ج. دي بوج: تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوسن- الجزء الأول، القاهرة 1965 ص 66.
 - 2- أحمد شلبي: اليهودية، القاهرة 1967، ص 146، و كذا، P, sweJ ehT, remsoH smaJ 14.
 - 3- حسين ذو الفقار صبري: المجلة، العدد 151 «يولية 1969 ص 18، و كذا، Y, N sweJ ehT fo yrotsiH A, rahcaS. L. A 17- 16. p, 1945
 - 4- P, tic- po, htoR. C .7 . -4

من عجب أن موسى عليه السلام، رغم أنه أعظم أنبياء بني إسرائيل، وإليه تنسب توراتهم، أو بمعنى أدق، الأسفار الخمسة الأولى منها (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية)، وأنه يحتل مكانة في التاريخ اليهودي، لا يسمو إليها واحد من معاصريه أو اللاحقين به من قومه (1)، ولهذا فهو يعدّ شيخاً للأمة اليهودية، بل إنه هو الذي كان سبباً في وجود اليهودية كأمة، مع ذلك كله، فإنه لم ينج من كيد يهود و تطاولهم عليه، و من ثم فإننا نرى توراة يهود، و ليست توراة موسى عليه السلام، تتهمه، مع أخيه هارون، «بخيانة الرب و لم يقدرسانه و وسط بني إسرائيل»، و من ثم فقد كتب عليه ألا تطأ قدماه الأرض المقدسة أبداً (2)، و حين يتوسل إلى ربه الكريم، أن يجعل من نصيبه عبور الأردن، فإن رب إسرائيل إنما يغضب عليه، و يطلب منه ألا يحدثه في هذا الأمر، لأنه من نصيب فتاة يشوع، دون سواه (3).

و أما هارون عليه السلام، فهو، في توراة يهود، و مرة أخرى نقول

ص: 433

1- تثنية 10/34 - 12.

2- تثنية 32/48 - 52.

3- تثنية 3/25 - 29.

وليس توراة موسى، إنما هو الذي صنع العجل الذهبي، وأغوى به بني إسرائيل، وليس السامري، بعبادته، وذلك حين اتخذ لهم من حليهم عجلا- جسدا في أثناء غياب موسى إلى ميقات ربه ثلاثين ليلة، فلما أتمها له ربه أربعين ليلة، كفرت خراف بني إسرائيل الضالة بموسى وإله موسى، وعادت إلى ما ألفته من عبادة العجول في مصر (1)، والحق أنني لست أدري، كيف نسي من كتب كل ذلك في توراة يهود المتداولة اليوم، أن هارون أخو موسى، و نبي ورسول من الله مع موسى، و نائب لموسى و خليفته في غيابه، و لكنهم بنو إسرائيل دائما مع الفاسد المفسد، ولو كان السامري.

و أما في القرآن الكريم، فإن هارون عليه السلام، إنما هو نبي الله ورسوله، و أن الله تعالى قد أرسله، مع أخيه موسى، إلى فرعون و ملئه (2)، و ليس هو الذي صنع العجل الذهبي، و حاشاه أن يفعل ذلك، و أغوى بني إسرائيل بعبادته، و إنما ذلك هو السامري (3).

و يعلم الله، و تشهد ملائكته، أن موسى و هارون، عليهما السلام، لم يكونا، و لن يكونا، كما صورتها توراة يهود، و إنما كانا رسولين كريمين، بذلا الجهد في تبليغ دعوة ربهما، و أفنيا عمرهما من أجلها، حتى لقا الله تعالى مطمئنين إلى رضاه، و هكذا يرفع القرآن الكريم هذين النبيين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها من التكريم و الإجلال و المهابة، ثم يطلب من المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى، عليه السلام (4)، فيقول

ص: 434

1- خروج 2/32-6.

2- سورة مريم: آية 51-53، طه: آية 25-36، 42-47، الشعراء: آية 10-16، الصافات: آية 114-122.

3- الأعراف: آية 148-152، طه: 83-98.

4- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/197-203، عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص 214.

سبحانه و تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (1).

وعلى أية حال، فإن قصة موسى عليه السلام في القرآن إنما تختلف عن قصته في التوراة، طبقاً للهدف من كل منهما، فقصة القرآن، شأنها في ذلك شأن غيرها من قصص الأنبياء والمرسلين، إنما أنزلت للعظة والعبرة، ولبیان الأسوة الحسنة في الجهاد في سبيل الله، فهدفها، كهدف غيرها، ليس التاريخ لها، وإنما عبرة تفرض الإفادة بما حلّ بالسابقين، وأما قصة التوراة، فالغرض منها إنما هو تمجيد بني إسرائيل، و ترديد الحديث عن قصة أرض الميعاد (2)، فضلاً عن إباحتها لهم سرقة المصريين بالغش والخديعة (3)، بل إن مؤلفي التوراة لا يتورعون هنا أن يذكروا في نصوصها، المقدسة زعموا، أن مشروع سرقة المصريين إنما كان قد دبر بليل، وأنه قد نفذ إبان الخروج من مصر، دون أن يحس المصريون، بل وحتى دون أن ينتظر بنو إسرائيل أن يختم عجينهم، وهكذا لم يعترف كتبة التوراة بجريمة قومهم فحسب، وإنما زادوا على ذلك أن جعلوها تتم برضى من موسى عليه السلام وبأمر منه، وحاشا بنبي الله الكريم أن يرضى بذلك، فضلاً عن أن يأمر به، و لكنها توراة اليهود، والحق أن الإساءة إلى أنبياء الله الكرام من بني إسرائيل أمر معروف في التوراة، ونظائره كثيرة.

ص: 435

-
- 1- سورة الأحزاب: آية 69، وانظر: تفسير الطبري 22/50-53، تفسير القرطبي 14/250-252، تفسير الفخر الرازي 25/235، تفسير النسفي 3/315.
 - 2- تكوين 4/17-8، 2/26-4، 11/35-12، 26، خروج 3/6-8، 1/33-3، تثنية 1/7-2، 2/15، محمد بيومي مهران: قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة- مجلة الأسطول، العدد 66، 67 الاسكندرية 1971 م.
 - 3- خروج 12/34-36، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/355.

ولعل أهم الاختلافات بين قصة موسى عليه السلام في القرآن، و تلك التي جاءت في التوراة، (أولاً) أن المرأة التي التقطت موسى من اليم وأنقذته من فرعون إنما هي في القرآن امرأة فرعون، بينما هي في التوراة ابنته (1)، ومنها (ثانياً) أنه ليس في القرآن الكريم ما يشير إلى أن امرأة فرعون كانت تعرف أن موسى عليه السلام إنما كان من أبناء العبرانيين، بينما هي في التوراة قد عرفت تلك الحقيقة منذ اللحظة الأولى، بل وقد أعلنت ذلك للملا (2)، ومنها (ثالثاً) أن التوراة إنما تصور المصري الذي قتلته موسى على أنه كان يضرب رجلاً عبرانياً، وأن موسى عند ما رأى ذلك التفث هنا وهناك، وعند ما تأكد أن أحداً لا يراه قتل المصري وطمره في الرمل، وفي اليوم التالي رأى عبريين يتخاصمان، أحدهما صاحبه بالأمس فزجره، فقال له صاحبه العبري: أتفكر في قتلي كما قتلت المصري بالأمس، فلما علم فرعون بالأمر طلب أن يقتل موسى، ولكنه هرب إلى مدين، ولكن القصة في القرآن أن موسى (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَنْجَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)، ولم يكن المجرمون الذين عزم موسى على ألا يظاهرهم ويناصرهم، إلا هؤلاء من بني إسرائيل، وهكذا ندم موسى على أن ظاهر الإسرائيلي على المصري، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفساً حرم الله قتلها، ومن ثم فقد عزم، بعد أن تاب وأناب، ألا يكون ظهيراً للمجرمين، (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ

ص: 436

1- سورة القصص: آية 8-9، خروج 2/ 5-10.

2- سورة القصص: آية 7-9، خروج 6/ 2.

يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصَدِّمِينَ، وهكذا فإن القرآن إنما ينفرد من دون التوراة، بأن تدخل موسى إنما كان بناء على استغاثة هذا الذي من شيعته، وعلى أن موسى قتل مصرياً عن غير عمد، وعلى ندم موسى على قتل المصري، وعلى استغفاره لربه، وأن الله تعالى قد غفر له، وعلى عزمه ألا يكون ظهيراً للمجرمين، وعلى أن موسى قد مرّ بمن استصرخه بالأمس، فإذا به يستصرخه مرة أخرى ضد مصري آخر، وعلى أن موسى قد وصف ذلك الإسرائيلي بأنه غوي مبين بسبب ميله إلى المشاكسة والخصام، وعلى أن موسى حين همّ بنصرته على عدوهما المصري قال له: أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصَدِّمِينَ، بينما رواية التوراة تذهب إلى أن أحداً لم يستصرخ موسى، وإنما هو الذي التفت هنا وهناك، وحين تأكد أن أحداً لن يراه قتل المصري وطمره في الرمل، كما أن المخاصمة الثانية كانت، في رواية التوراة، بين رجلين عبرانيين، وليس بين مصري وعبراني وحين أراد موسى أن يفض النزاع الذي نشب بينهما، إذا بصاحبه الذي استصرخه بالأمس يرفض تدخله، ويعلن أنه هو الذي قتل المصري بالأمس، فلما طلبه فرعون للقصاص هرب إلى مدين، ولا تتعرض لشيء آخر، مما جاء في القصة القرآنية (1).

ومنها (رابعا) أن القرآن إنما يحدثنا عن ابنتين لشيخ مدين الذي صاهر موسى عليه السلام، بينما تتحدث التوراة عن سبع بنات، فضلا عن أنها تجعل الرجل كاهنا لمدين (2)، ومنها (خامسا) أن إقامة موسى عليه السلام في

ص: 437

1- سورة القصص: آية 15-19، خروج 11/2-15.

2- سورة القصص: آية 23-26، خروج 16/2.

مدين، إنما هي في القرآن الكريم سنون ثمان، و الأرجح أنها كانت عشرة، فلقد روى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، أنه قضى أكثر الأجلين و أطيهما»، وفي رواية: «قضى أوفاهما و تزوج صغراهما»، كما أشرنا بالتفصيل من قبل، و هي في التقاليد اليهودية و النصرانية أربعون عاما (1)، و منها (سادسا) أن موسى عليه السلام في القرآن تلقى الدعوة من ربه من جانب الطور الأيمن في الوادي المقدس طوى، بينما كان ذلك في التوراة على جبل الله حوريب (2)، و منها (سابعاً) أن التوراة تذهب إلى أن الفتاة التي تزوج منها موسى إنما كانت تدعى «صفورة» (3)، بينما أغفل القرآن الكريم ذكر اسمها، كما أغفل اسم أبيها، و كما أغفل أسماء النساء عامة، إلا مريم ابنة عمران، أم المسيح عليه السلام، فإنها انفردت بمعنى تذكر به و تشتهر، و تذكر به قدرة الله التي أوجدت عيسى من غير أب، و إلى ذلك يشير القرآن الكريم و جعلناها و ابنها آيةً للعالمين (4).

و منها (ثامناً) أن القرآن الكريم لم يذكر لنا اسم ذلك الشيخ الذي أصهر إليه موسى عليه السلام، بينما لم تستقر التوراة على رأي معين بشأنه، و كذا قبيلته، فهو في سفر الخروج «يثرون» كاهن مديان، و هو في سفر العدد «حوباب بن رعوثيل»، و هو مرة ثالثة في سفر الخروج كذلك «رعوثيل» نفسه، و هو كاهن مديان كذلك، بل إن التوراة لا تستقر على رأي واحد بشأن تلك القبيلة التي صاهرها موسى، فهي مرة قبيلة مديانية، كما رأينا كذلك، و هي مرة أخرى، كما في سفر القضاة، قبيلة قينية، ثم هي مرة ثالثة، في سفر

ص: 438

-
- 1- سورة القصص: آية 27-28، تفسير النسفي 234/3، مختصر تفسير ابن كثير 11/3، خروج 7/7، أعمال الرسل 30/7، قاموس الكتاب المقدس 931/2.
 - 2- سورة طه: آية 12، سورة القصص: آية 29-30، خروج 1/3-2.
 - 3- خروج 21/2.
 - 4- سورة الأنبياء: آية 91.

القضاة أيضا، فينية، على وجه اليقين، كما جاء في قصة «دبورة» قاضية إسرائيل و نبيتها (1)، و منها (تاسعا) أن دعوة موسى في القرآن إنما بدأت بعد أن قضى الأجل الذي بينه وبين صهره شيخ مدين، و بعد أن قرر العودة إلى مصر بأهله، و في الطريق إلى مصر، و عند طور سيناء، و في ليلة مباركة، اختاره الله تعالى رسولا نبيا، و عهد إليه برسالته إلى فرعون، بينما هي في التوراة بدأت، و موسى ما يزال عند صهره كاهن مدين يعمل عنده و يرمى غنمه (2).

و منها (عاشرا) أن من معجزات موسى و آيات نبوته أن يدخل يده في جيبه، فتخرج، كما في القرآن، من غير سوء، أي من غير برص و لا أذى، بينما هي في التوراة تخرج برصاء مثل الثلج (3)، و منها (حادي عشر) أن استعانة موسى بأخيه هارون عليهما السلام في أداء الرسالة و تبليغ الدعوة، إنما سببها في التوراة أن موسى احتج بأنه «ثقل الفم و اللسان»، و أنه لن يستطيع أداء مهمته عند فرعون، فحمى غضب الرب على موسى و قال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه يتكلم فتكلمه و تضع الكلمات في فمه، و أنا أكون مع فمك و فمه، و أعلمكما ما ذا تصنعان، و هو يكلم الشعب عنك، و هو يكون لك فما و تكون له إلها»، و مرة أخرى يقول موسى لربه: «هو ذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي، فكيف يسمعني فرعون، و أنا أغلق الشفتين»، و لكن الأمر في القرآن غير ذلك، فموسى عليه السلام هو الذي دعا ربه، بعد أن كلفه برسالته ربّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، فأجابه ربه: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى

ص: 439

1- خروج 16/2-18، 1/3، عدد 29/10، قضاة 16/1، 11/4.

2- سورة طه: آية 9-14، القصص: آية 29-30.

3- سورة طه: آية 22، القصص: آية 32، خروج 6/4-7.

، وفي سورة القصص يقول موسى: وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلُهُ مَعِيَ رِذَاءً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِيدُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (1)، وهكذا يبدو واضحاً أن الله تعالى في التوراة هو الذي يطلب من موسى أن يلجأ إلى أخيه هارون، بينما في القرآن موسى هو الذي يدعو ربه أن يعينه بأخيه هارون في أداء مهمته العظيمة و الخطيرة كذلك، بمعنى آخر أن موسى في القرآن هو الذي سأل النبوة لأخيه هارون، لأنه أفصح منه لساناً، كما أشرنا إلى ذلك من قبل بالتفصيل.

و منها (ثاني عشر) أن عصا موسى، إحدى معجزاته، إنما هي في التوراة، عصا هارون، و ليس موسى، و أن الذي ألقاها أمام فرعون و ملئه، إنما هو هارون، و ليس موسى، و لكن الأمر في القرآن جد مختلف، فالعصا معجزة موسى، و ليس هارون، و أن الذي ألقاها فإذا هي ثعبان مبین، إنما هو موسى و ليس هارون، و أن موسى فعل ذلك أول مرة أمام فرعون و ملئه، ثم مرة ثانية حين اجتمع السحرة لمناظرة موسى يوم الزينة (2)، و منها (ثالث عشر) أن معجزة انغلاق البحر لموسى إنما هي في التوراة بسبب ریح شرقية هبت فأزالت الماء، و ظهرت اليابسة، و حينئذ عبر بنو إسرائيل، و اندفع المصريون وراءهم، فرجع الماء، و أغرق جميع مركبات و فرسان جيش فرعون، و رأى بنو إسرائيل ما صنعه الرب بالمصريين فخافوا فأمنوا بالرب و بعبدته موسى، و أما في القرآن فالمعجزة واضحة، حيث أمر الله تعالى موسى: أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، 2:

ص: 440

-
- 1- سورة طه: آية 25-36، القصص: آية 32-35، خروج 10/4-16، 12/6.
 - 2- سورة الأعراف: آية 104-122، طه: آية 57-70، الشعراء: آية 30-48، خروج 8/7-12:

وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (1).

ومنها (رابع عشر) أن أم موسى في القرآن قد ألقته في اليم بوحى من الله، فضلا عن البشري بأن الله تعالى سيرده إليها، وأنه سيكون من المرسلين، قال تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِي بِعِيهِ فَاذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، بينما نراها في التوراة تخبئه ثلاثة أشهر، وحين خشيت أن يفتضح أمرها صنعت «سفطا من البردي وطلته بالحمرة والزفت ووضعت فيه بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ما ذا يفعل به» (2)، ومنها (خامس عشر) أن القرآن الكريم يقص علينا أن موسى عليه السلام عند ما قص قصته على شيخ مدين هدا من روعه وقال له: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، ثم عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، في مقابل أن يخدمه سنوات ثمان، فإن أتم عشرها فهذا من عنده، وارتضى موسى ذلك، لكنه لم يقطع على نفسه أطول الأجلين، فأعطى الأمل، وخص نفسه بالخيار، أو ترك لها الخيار، وإن كان قد قضى أطول الأجلين وأتمهما، بينما لم تشر التوراة إلى أكثر من أن موسى ارتضى أن يسكن مع الرجل، وتزوج ابنته صفورة (3).

ومنها (سادس عشر) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، إنما تم سرا، وبوحى من الله تعالى، قال تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ، وأما في التوراة، فالأمر جد مضطرب، فالخروج مرة إنما يتم دون أمر فرعون، و مرة أخرى بموافقتة، بل وفي مرة الثالثة نرى بني إسرائيل وقد أكرهوا على الخروج من

ص: 441

1- سورة الشعراء: آية 63-67، خروج 21/14-31.

2- سورة القصص: آية 7، خروج 2/2-4.

3- سورة القصص: آية 25-28، خروج 21/2.

مصر، و مرة رابعة نرى التوراة تظهر لنا الإسرائيليين، وقد انقسموا على أنفسهم ففريق يرضى بالخروج من مصر، بينما يرفضه آخرون، وإن كانت الغلبة في النهاية للأولين على الآخرين (1).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم، إنما قد انفرد، من دون التوراة، بعدة أمور في قصة موسى عليه السلام، منها (أولاً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بأن إرادة الله، ولا راد لإرادته، قد شاءت أن يقع موسى من قلب امرأة فرعون، موقع الحب والحدب والإشفاق، بل إنها لتقول لفرعون قُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَآدَاءً (2)، و تشاء إرادة الله، مرة أخرى، أن يقتنع فرعون بمقالة زوجته، فلا- يقتل الطفل النبي، و منها (ثانياً) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بالإشارة إلى أن موسى قد عاف المراضع جميعاً، من غير أمه، و هنا تتقدم أخته فتعرض على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة ترضعه و تكفله، و تكون له ناصحة مشفقة، و يقبل آل فرعون عرضها، و يبعثوا في طلب الطئر، و سرعان ما تجيء بأمها، دون أن تشعرهم بأن أمها أمه، و أنه أخوها، و يقبل موسى على ثدي أمه، و يعيش معها فترة حضائه، قال تعالى: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَّذْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (3).

و منها (ثالثاً) أن القرآن الكريم قد انفرد من دون التوراة، بأن القوم حين استقر رأيهم على القصص من موسى جاءه ناصح أمين، ربما كان من

ص: 442

1- سورة الشعراء آية 52، و انظر: طه: آية 77، خروج 1/6، 1/11-2، 29/12-39، 17/13-18، عدد 3/14-4.

2- سورة القصص: آية 9.

3- سورة القصص: آية 12-13.

المتصلين بفرعون، يخبره بالأمر، ويشير عليه بالخروج من مصر، قال تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (1)، ومنها (رابعا) أن القرآن قد انفرد، من دون التوراة، بالإشارة إلى ذلك الجدل الذي شق و استطال، ذكّر فيه فرعون موسى عليه السلام بتربيته في القصر الملكي، وكيف أنه عاش بينهم من عمره سنين عددا، وكيف فعل فعلته تلك، يعني قتل موسى لمصري ثم فراره إلى مدين قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا، وَلَكِثَّتْ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (2).

ومنها (خامسا) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة بالإشارات مرات، وفي وضع تام، إلى ألوهية الفرعون المزعومة، والتي كانت موضع جدل شديد بين النبي الكريم و الملك الفرعون، بل هي الصخرة التي تحطمت عليها كل الآمال في أن يؤمن فرعون بموسى و دعوته، و يتخلى عن مزاعمه الكذوب، و يؤمن باللّه رب العالمين، و لعل مما يزيد الأمر أهمية أننا نكاد لا نعرف دعوة من دعوات الأنبياء الكرام البررة، يتعرض صاحبها، كما تعرض موسى، لزعم كذوب ممن أرسل إليه، أنه إله للناس، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي الكريم نفسه: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، ثم يعلن للناس عامة في مصر ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، و عند ما يتقدم له موسى بآية كبرى على نبوته، فما كان منه إلا أن يرفض الدعوة كلها ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْرَعِي فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (3)، و من عجب أن التوراة تعكس الأمر، فتجعل موسى إلهًا لفرعون، و هارون نبيا لموسى: «فقال الرب لموسى أنظر: أنا جعلتك إلهًا لفرعون، و هارون

ص: 443

1- سورة القصص: آية 20.

2- سورة الشعراء: آية 18-19.

3- سورة الشعراء: آية 29، سورة القصص: آية 38، سورة النازعات: آية 22-24.

أخوك يكون نبيك، أنت تتكلم بكل ما أمرك، و هارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه» (1)، و لست أدري كيف قبل كتبة التوراة ذلك الكفر الصراح، فكيف يكون موسى، عبد الله ورسوله، إلها لفرعون، ثم كيف يكون هارون نبيا لموسى، و هل تعدّ التوراة بعد هذا كتاب توحيد كما يزعمون، فضلا عن أن تكون من لدن عليّ قدير.

و منها (سادسا) أن القرآن الكريم انفرد، من دون التوراة، بطلب فرعون من هامان أن يوقد له على الطين، فيجعل له صرحا، لعله يطلع إلى إله موسى، يقول سبحانه و تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (2)، و منها (سابعا) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة، بإيمان السحرة المصريين برب موسى و هارون، كما انفرد كذلك بالإشارة إلى أن فرعون قد فوجئ بإيمان السحرة، فكاد أن يتميز من الغيظ، و من ثم فقد اتهمهم بالتآمر مع موسى، ثم هددهم بأشد العقاب، قال أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ، وَأَلْصَلِّبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ، قالوا لا ضيرَ إنّا إلى ربّنا مُنْقَلِبُونَ، إِنّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (3).

و منها (ثامنا) أن القرآن الكريم انفرد من دون التوراة بالإشارة إلى أن الملائكة من قوم فرعون إنما كانوا يحرضونه على القيام بمذبحة جديدة بين بني إسرائيل، يكون موسى أول ضحاياها، بعد أن شاع و ذاع، و ملأ الأسماع،

ص: 444

1- خروج 1/7-2.

2- سورة القصص: آية 38، و انظر: غافر: آية 36-37.

3- سورة الشعراء: آية 49-51، و انظر: الأعراف: آية 123-126، طه: آية 71-75.

نبا المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة، غير أن قتل موسى إنما كان جد صعب المنال، فهناك معارضة قوية تقف في وجه فرعون و تحول بينه وبين قتل موسى، و لعلنا نستطيع أن نلمس هذه المعارضة فيما حكاه القرآن عن فرعون، حيث يقول: ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، فإن كلمة «ذروني» تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، بل إن هناك دليلا من القرآن يفيد ذلك، ذلك لأن فرعون عند ما ضاق ذرعا بموسى و دعوته، و عقد مع الملأ مؤتمرا للفتك به، فوجئ بواحد من هذا الملأ ينهض لمعارضة هذه الفكرة، و يقول: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ، يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا (1)، و هال فرعون ما اسمع فأخذته العزة بالإثم، و نفخ الشيطان في روحه، فقال: ما أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، و عاد الرجل يعقب على كلام فرعون، و يحذره من غضب الله، ثم يعلن أنه أبرأ ذمته فَسَدَ تَذَكُّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (2).

و منها (عاشرا) أن القرآن قد انفرد من دون التوراة، بإخبارنا أن الفرعون قد أنجى ببدنه، ليكون لمن خلفه آية، قال تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ، و لم تكن الآية لمن خلفه جيلا أو جيلين، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال و المئات الكثيرة من السنين، بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر

ص: 445

1- سورة الأعراف: آية 127-129.

2- سورة غافر: آية 23-44.

من سلطان العلم وأسرار التحنيط، و من ثم فإن الفراعين الذين دارت حولهم روايات خروج بني إسرائيل من مصر، قد اكتشفت جثثهم، و في هذا إعجاز للقرآن، و ما أكثر معجزاته (1).

ومنها (تاسعا) أن القرآن الكريم انفرد، من دون التوراة، بأن الفرعون عند ما أدركه الغرق قال آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ولكنه أخطأ الوقت و من ثم لم يقبل إيمانه، قال تعالى: الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، و قد ناقشنا ذلك بالتفصيل من قبل (2).

ومنها (حادي عشر) أن القرآن انفرد من دون التوراة بالإشارة إلى أن بني إسرائيل ما كادوا يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر و نجاتهم من آل فرعون، بل و غرق فرعون و جنده، حتى رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، (غير عبادة العجل التي جاءت في التوراة و الإنجيل و القرآن العظيم) فנסوا كل آيات موسى، و قالوا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى:

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، و «الفاء» في قوله تعالى: فَأَتَوْا تقييد الترتيب و التعقيب، بمعنى أنه لم يمضي وقت بعد خروجهم من البحر و نجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها في مصر، و ألفوا الذل معها، و يرى الإمام الطبري أن القوم كانوا يعبدون أصناما على صور البقر، و هذا صحيح، كما أشرنا من قبل بالتفصيل، فمن المعروف تاريخيا

ص: 446

-
- 1- سورة يونس: آية 92، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 435-436، أحمد عبد الحميد يوسف: المرجع السابق ص 123.
 - 2- سورة يونس: آية 90-91.

أن مناجم الفيروز كانت تكثر في سيناء، في وادي مغارة و سراية الخادم، حيث أقيم معبد للمعبود المصرية «حاتور»، ربة الفيروز عند القوم، حيث كان عمال المناجم يتعبدون للإلهة الوثنية «حاتور» التي كانت تصور غالبا كبقرة، وفي كثير من الأحيان كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين، كما أشرنا من قبل (1).

ص: 447

1- سورة الأعراف: آية 138-139، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/ 462-469.

الكتاب الأول دراسات تمهيدية الفصل الأول: النبوة والأنبياء 9

1- النبي و النبوة 9

2- الفرق بين النبي و الرسول 13

3- نبوة المرأة 18

4- وظائف الرسل 21

5- وحدة الهدف في دعوات الرسل 26

الكتاب الثاني سيرة يوسف عليه السلام الفصل الأول: يوسف فيما قبل الوزارة 39

1- يوسف و أخوته في كنعان 39

2- يوسف و امرأة العزيز 48

3- يوسف في السجن 56

الفصل الثاني: يوسف عزيز مصر 65

1- يوسف العزيز 65

ص: 449

2- يوسف وإخوته في مصر 74

3- استقرار بني إسرائيل في أرض جوشن 83

4- عصر يوسف عليه السلام 99

الفصل الثالث: قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة 109

1- تمهيد 109

2- قصة يوسف بين آيات القرآن وروايات التوراة 112

الكتاب الثالث سيرة موسى عليه السلام الباب الأول: موسى من المولد إلى المبعث 135

الفصل الأول: بنو إسرائيل في مصر 137

أ- فيما قبل الاضطهاد 137

ب- الاضطهاد- أسبابه و نتائج 140

الفصل الثاني: موسى من المولد إلى المبعث 163

1- موسى في قصر فرعون 163

2- موسى في مدين 174

الفصل الثالث: موسى الرسول النبي 181

1- المبعث 171

2- بني موسى وفرعون 186

3- ألوهية الفرعون المزعومة 213

الباب الثاني: خروج بني إسرائيل من مصر 223

الفصل الأول: الخروج- أسبابه و تاريخه و مكانه 225

1- أسباب الخروج 225

2- تاريخ الخروج 231

3- مكان الخروج و بدايته 237

الفصل الثاني: معجزة انفلاق البحر 241

1- مكان انفلاق البحر 245

2- تاريخ انفلاق البحر 250

3- معجزة انغلاق البحر 252

4- إيمان فرعون عند الغرق 259

الفصل الثالث: فرعون موسى 263

1- الرأي الأول: فرعون موسى هو أحمس الأول 264

2- الرأي الثاني: تحوتمس الثالث هو فرعون موسى 275

3- توت عنخ آمون: هو فرعون موسى 286

4- رع مسيس الثاني: هو فرعون موسى 302

5- مرنبتاح: هو فرعون موسى 308

6- آراء أخرى 329

7- صمت الآثار المصرية عن قصة بني إسرائيل 330

الباب الثالث: موسى و بني إسرائيل منذ انفلاق البحر و حتى موت 333

موسى عليه السلام.

الفصل الأول: بنو إسرائيل في سيناء 335

1- محاولة الردة الأولى و عبادة الأصنام 335

2- التمرد الإسرائيلي بسبب الماء و الطعام 343

3- بنو إسرائيل و العماليق 347

4- الردة و عبادة العجل في سيناء 348

5- طلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة 362

الفصل الثاني: بنو إسرائيل في التيه 367

ص: 451

1- ظهور فكرة الوطن عند بني إسرائيل 367

2- الخوف من دخول كنعان 369

4- عودة التمرد ضد موسى 378

5- بنو إسرائيل على تخوم كنعان 380

الباب الرابع: قضايا من سيرة موسى عليه السلام 387

الفصل الأول: موسى بين الأصل الإسرائيلي والمصري 389

الفصل الثاني: الوجود التاريخي لموسى عليه السلام 407

الفصل الثالث: موت موسى عليه السلام 415

الفصل الرابع: مكانة موسى في التاريخ اليهودي 425

1- مكانة موسى عند المسلمين 425

2- مكانة موسى في التاريخ اليهودي 428

الباب الخامس: قصة موسى بين آيات القرآن وروايات التوراة 431

ص: 452

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

